



عربي زيدان

تاريخ التمدد الاسلامي

الجزء الرابع





تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

عرجي زيدان

منشء الهلال



الجزء الرابع

يتناول سياسة الدولة وتنازع رجالها على السيادة من عهد الراشدين ، فالامويين فالعباسيين فالاندلسيين فالفاطميين ، وسياسة كل دولة منها في تأكيد سلطانها

طبعة جديدة راجعها وعلق عليها

الدكتور حسين مؤنس

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة

دار الهلال

134966

هذا الجزء

كان ينبغي أن يخصص لموضوع هذا الجزء ضعف حجمه الذي أراده له المؤلف ، فان مباحثه متعددة وفروعها كثيرة يتسع فيها مجال القول ، ثم انه يغطى نحو تسعة قرون من تاريخ الاسلام حافلة بالاحداث والتطورات ، مابين سياسية واجتماعية ، والعالم الاسلامى عالم فسيح ظل يمتد ويتسع خلال هذه القرون الطويلة حتى وصل الى قلب افريقية وشرقى آسيا ، فضلا عن امتداده غربا الى المحيط الاطلسى وجزء كبير من اوربا هو شبيه الجزيرة الايبيرية . ولم يتعرض أحد بعد المرحوم جرجى زيدان لهذا المطلب الا وجد نفسه مضطرا الى الانصراف عن بعض الميادين وتركيز الكلام فى بعض الدول دون بعضها الآخر ، كما نرى فى كتاب « تاريخ العرب » للاستاذ فيليب حتى ، فقد وقف به عند الحروب الصليبية تقريبا ، وكما نرى فى كتاب بروكلمان عن تاريخ الامم الاسلامية ، فقد أسقط الكثير واستطرد عن دول الاسلام فى آسيا ، وقفز من الحروب الصليبية الى العصر الحديث . وما نظن ان أحدا اقترب من الغاية غير الاب الاسبانى « باريجا » Pareja فى كتابه المسمى « علم الاسلام » Islamologia وهو عنوان غريب ، ولكنه أرخ لدول الاسلام وحركاته المذهبية والفكرية حتى أيامنا هذه . ولقد استغرق نحو ألف صفحة ، ومع ذلك فقد فاتته الكثير

وقد جهد المرحوم جرجى زيدان فى تقسيم هذه الفترة الى عصور ، ونهج منهاجا خاصا بسطه فى مقدمته . وربما اختلف معه بعض الباحثين فى هذا التقسيم ، ولكن نظرياته فيه مؤيدة بالبراهين ، وهى نظريات كانت ولا زالت موضع مناقشات وأخذ ورد ، والحقائق انما تتجلى من خلال تبادل الآراء . وقد تركت تقسيمه على حاله ، وان اجتهدت فى التنسيق بين الاقسام بعضها وبعض ، وتركت القسم الاخير الذى سماه « الدور الثانى » على حاله ، وكان الاولى به ان يوضع فى هيئة خاتمة ، اذ هو خارج عن موضوع الكتاب ، كما اشار هو الى ذلك فى المقدمة

ويلاحظ القارئ ان المؤلف أوجز الكلام ايجازا شديدا ابتداء من كلامه على بنى بويه ومن جاء بعدهم (ص ١٨٦ وما بعدها) فأوجز أربعة قرون من تاريخ الاسلام فى نحو أربعين صفحة ، فجاء الكلام عن هذه القرون وما قام فيها من الدول موجزا عابرا ، ولكنه مع ذلك حافل بالمعلومات القيمة ، خاصة

اذا علمنا ان احدا لم يكتب في هذه العصور الى الآن ، فيما خلا كتاب
آدم ميتر عن القرن الرابع الهجرى ، وهو مترجم الى العربية

وقد اجتهدت في سد هذا الفراغ بما امكننى من التعليق والاشارة الى
المراجع والاصول والابحاث التى نشرت بعد ايام المؤلف ، ولم اورد مع ذلك
منها الا ما سمح به الحيز ، وهو قليل

وبعد .. فسرى القارىء ان المرحوم جرجى زيدان قد جمع فاعى ،
وبحث وتقب ، وانتهى الى آراء هى غاية فى القيمة والعمق ، وقدم للباحثين
فى تاريخ العرب خدمة تجعله بحق رائد المدرسة الحديثة من مؤرخى العرب
والحمد لله اولا وآخرا ، وهو ولى التوفيق

حسين مؤنس

مقدمة الطبعة الأولى

أخذنا في تأليف هذا الكتاب ونحن نعلم أهمية موضوعه ونشعر بافتقار اللغة العربية الى مثله . ولكننا لم نكن نتوقع ملاقاه من حفاوة أهل اللغات الأخرى في العالم الاسلامى بأسره ، ولا أن يصل اعجاب كبار المستشرقين في أوربا بموضوعه الى مثل ما رأيناه منهم على أثر صدور الأجزاء الثلاثة الماضية . لأنهم فضلا عما كتبوه الينا من عبارات الاستحسان والتنشيط ، وما نشره من التقارير في المجلات والجرائد التي تصدر في بلادهم ، قد أخذوا يشتغلون بنقله الى ألسنتهم ونشره بين مواطنيهم ونحن لم نفرغ بعد من تأليفه . وبعض هذه الترجمات قد طبع ونشر ، ولا يزال البعض الآخر تحت الطبع ، والآخري تحت الترجمة . فقد صدر الجزء الأول من الترجمة الأوردية (الهندستانية) مطبوعا على الحجر في أمرتسار (الهند) بقلم الشيخ محمد غلام منشىء « جريدة وكيل » الهندية الشهيرة . وسيصدر الجزء الأول من الترجمة الفارسية قريبا بقلم ميرزا ذكاء الملك صاحب « جريدة تربيت » الفارسية . وكتب الينا المستشرق الكبير الاستاذ مرجليوث المشتغل بنقله الى الانجليزية في جامعة أكسفورد ، أنه سيفرغ من ترجمته ويبدأ في نشره في أواخر هذا الصيف . وبعث الينا الاستاذ دانييلوف المستشرق الروسى في موسكو أنه اتم نقل الجزء الأول الى اللغة الروسية يليه الجزء الثانى . وقد خابرتنا بعض المستشرقين بشأن نقله الى اللغة الفرنسية وغيرها فنشطنا ذلك في المثابرة على التنقيب والبحث لاستطلاع دخائل التمدن الاسلامى وكشف أسراره بما يبلغ اليه الامكان على أسلوب لم يطرقه كتاب العرب ، نتوخى فيه ارجاع الحوادث الى اسبابها وبيان ارتباطها بعضها ببعض مع تطبيق أحكام العقل ونواميس العمران عليها . فنطالع كتب التاريخ والأدب وغيرها ، على سداجة أسلوبها في سرد الحوادث وإيراد الوقائع ، ونتدبر ما نقرأه ثم نستخرج منه فلسفة ذلك التمدن العجيب ، كما يستخرج السكر من الخروب . لأن مؤرخى الاسلام ، مع ما بذلوه من الجهد في تحقيق الحوادث وتمحيص أسانيدها ومصادرها ، قلما نظروا في علاقاتها أو عللوا أسبابها وإنما نقلوها على علاتها ، وخصوصا ما يتعلق منها بسياسة الدولة ، وكيفية انتقال الملك من عائلة الى عائلة ، أو أمة الى أمة ، أو طائفة الى طائفة . لأن تعليل تلك الحوادث يبعث أحيانا على الطعن فى أقوال بعض الخلفاء ، أو تخطئة بعض المذاهب ، وهم يتحاشون ذلك احتراما للدين

ورجاله . ولذلك كان موضوع هذا الجزء أوعر مسلكا من موضوعات سائر الأجزاء الماضية ، وادعى الى اعمال الفكرة ، واستنباط الاقيسة ، وتطبيق النتائج على المقدمات ، لأنه عبارة عن فلسفة تاريخ الاسلام في ذلك التمدن

موضوع هذا الجزء

بسطنا الكلام في الجزء الاول من هذا الكتاب عن نشوء الدولة الاسلامية وسعة مملكتها ، وتاريخ نظمها الادارية والسياسية والمالية والعسكرية والقضائية وغيرها . وخصصنا الجزء الثاني لبيان ثروة الدولة الاسلامية ورجالها ، وأسباب تكون تلك الثروة وأسباب تدهورها . وجعلنا الجزء الثالث خاصا بالعلم والادب ، فبحثنا فيما كان منهما عند العرب في الجاهلية ، وما أحدثه الاسلام من التغيير في القرائح والعقول ، وما نقل عن اللغات الاجنبية من العلوم ، وما كان من تأثير التمدن الاسلامي في كل ذلك

فبعد أن نظرنا في التمدن المذكور ، من حيث نظام الدولة وثروتها وعلومها ، عمدنا الى البحث في سياستها ، فخصصنا لها هذا الجزء برمته ، ولعله أهم أجزاء الكتاب وأوعرها مسلكا ، لما يحول بيننا وبين أسباب الوقائع السياسية من العقبات والشكوك ، ولاسيما انتقال الخلافة من دولة الى دولة ، وما يعترض ذلك من تنازع أهل الدولة على الاستئثار بالسلطة ، وتأثير الاختلاف الجنسي أو المذهبي في ذلك ، مما لا ييسر العثور عليه في كتب القوم لما قدمناه من تحاشي المؤرخين الخوض في مثله . على اننا لم نعدم بصيصا من خلال تلك الظلمة ؛ تلمسنا به سبيلنا في البحث عن الاسباب والعلل ، فوفقنا الى كشف أسباب أكثر الحوادث ، فبسطناها بما يقتضيه ذلك من النظر الفلسفي والحكم العقلي والقياس التمثيلي ، وتحرينا الحقيقة جهد طاقتنا

ولما عمدنا الى تقسيم الموضوع وتبويبه اعترضتنا عقبة اخرى لا تقل وعورة عن تلك ، لاختلاط الحوادث وتعارض أسبابها واشتراك نتائجها وتلون مظاهرها ، وتعدد أوجهها من حيث الدين أو الجنس أو المكان أو الزمان ، فراينا بعد امعان النظر أن نقسم الموضوع باعتبار العناصر التي سادت في الاسلام ، وما كان من تنازعها على تلك السيادة ، مع ملاحظة أطوار التمدن الاسلامي باختلاف تلك العناصر . فقسمنا تاريخ الاسلام الى دورين كبيرين :

الدور الاول : دور التمدن الذي نحن بصدده ، يتبدى بظهور الاسلام وينتهي بذهاب الدولة العباسية من العراق ، وتدهور المملكة الاسلامية وتسلط المغول عليها

الدور الثاني : هو النهضة السياسية التي حدثت بعد ذلك التدهور ، بتغلب الدولة العثمانية واحياء الخلافة الاسلامية ، بجمع شتات المسلمين السنيين في ظلها ، وظهور الدولة الصفوية الفارسية ، وجمع شتات الشيعة تحت رايتها

وقسمنا الدور الاول الى خمسة عصور ، باعتبار تغلب احد العناصر الاسلامية على سائرهما . ولا يتيسر وضع حد فاصل بين هذه العصور لاسباب لا تخفى على المطلع ، فيغلب ان تختلط أواخر كل عصر بأوائل العصر الذي يليه . واليك هذه العصور :

١ - العصر العربي الأول : من ظهور الاسلام الى انقضاء الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ

٢ - العصر الفارسي الأول : من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٣ هـ

٣ - العصر التركي الأول : من خلافة المتوكل الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ هـ

٤ - العصر العربي الثاني : من قيام الدولة الفاطمية الى انقضائها

٥ - العصر المغولي : من ظهور جنكيزخان الى وفاة تيمورلنك

أما العصر التركي الثاني فهو عصر الدولة العثمانية ، والعصر الفارسي الثاني عصر الدولة الصفوية ومن خلفها على بلاد فارس ، ويتألف منهما الدور الاسلامي الثاني وهو خارج عن دائرة بحثنا في هذا الكتاب

وقسمنا كلا من العصور الخمسة التي درسناها في هذا الجزء الى فصول وأبواب على ما يقتضيه المقام . فقدمنا الكلام بتمهيد في العرب قبل الاسلام من حيث نظام الاجتماع ، فوصفنا البدو والحضر وأنساب العرب وقبائلهم وبطونهم ، واستفحال عصبية النسب عندهم ومنها الامومة والخؤولة ، ثم ذكرنا توابع تلك العصبية كالحلف والاستلحاق والخلع ، ثم العبيد والموالي في الجاهلية وانواعهم واحكامهم ، والنازليين من الاجانب في جزيرة العرب قبل الاسلام وخصوصا الابناء الفرس . وختمنا التمهيد بفصل في سياسة دول العرب قبل الاسلام ومناقب العرب

ثم تقدمنا الى العصر العربي الاول ، فقسمناه الى أيام الراشدين وأيام بني أمية ، فبيننا اولاً ان الاسلام قام بالجامعة الاسلامية التي جمعت كلمة العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم تحت راية الاسلام . فتساووا في الفضل من حيث انسابهم ، وتفاضلوا من حيث سبقهم الى الدين أو جهادهم

في سبيله ، فتولدت طبقات اسلامية جديدة ، كالمهاجرين والانصار واهل بدر واهل القادسية ، مما لم يكن من قبل

ثم وصفنا سياسة الخلفاء الراشدين وانها مبنية على التقوى والحق والعدل ، وذكرنا مزايا كل خليفة منهم ، وان سياسة عمر بن الخطاب كانت في اول خلافته تدعو الى حصر المسلمين في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ، وانه اضطر بطبيعة العمران الى ان يأذن لقواده وامرائه في الانسياح في الارض ، فانتشر العرب بالفتح او المهاجرة وتكاثروا بالتناسل الكثير

وختمنا العصر الاول بفصل في العبيد والموالي واحكامهم في الاسلام

ثم انتقلنا الى القسم الثاني من العصر الاول، وهو ايام الامويين ، فذكرنا اولا الاسباب التي ساعدت على انتقال الخلافة اليهم ، وما كان بين بنى هاشم وبنى أمية من المنافسة قبل الاسلام ، وكيف شق على الامويين ان يعظم أمر بنى هاشم بالنبوة وهم اقل منهم عددا وقوة . فما زالوا حتى غلبوهم على الدولة ، فأخذها معاوية بن ابي سفيان من على بن ابي طالب بالدهاء والاطماع . وفصلنا سياسة الامويين في تأييد سلطتهم ، وبيننا ان محور هذه السياسة طلب التغلب بأية وسيلة كانت . والامويون يعلمون ان الهاشميين احق منهم بالخلافة ، فعمدوا الى التغلب بالعصية كما كانت في الجاهلية ، وكان العرب المسلمون قد زالت عنهم دهشة النبوة ، فعادوا الى عصية النسب اولا بين قريش وسائر العرب ، ثم بين اليمانية والمضرية . وبالغ الامويون في التعصب على غير العرب ، فاحتقروا الموالي الفرس وغيرهم وضيقوا عليهم . وتحضر العرب في عصر الامويين والفوا السكنى في المدن ، فحدثت العصية الوطنية ، اى تعصب البلاد بعضها على بعض كالبصرة والكوفة والشام وغيرها . واضطر الامويون في سبيل التغلب على بنى هاشم الى اصطناع القبائل والرجال ببذل المال ، فحملهم ذلك على الاستكثار من الاموال . وجرهم الاستكثار منها الى ابتزازها بحق او بغير حق ، فضيقوا على الرعية من المسلمين واهل الذمة ، حتى مل الناس ايامهم وخصوصا بعدما ظهر من استخفافهم بأحكام الشريعة ، وتهتكهم وفتكهم واحتقارهم الموالي وتضييقهم على اهل الذمة . ويلي ذلك فصل طويل في احكام اهل الذمة من زمن عمر بن الخطاب الى آخر ايام الامويين

ثم تقدمنا الى العصر الفارسي الاول ، فصدرناه بفصل في انتقال الخلافة الى العباسيين بنصرة الموالي النساقيين على بنى أمية . وكيف نصرنا بنى

العباس - وهم في الاصل من شيعة علي - وكانوا يظنون بيعتهم مشتركة بين العلويين والعباسيين ، لأن العباسيين كانوا قد بايعوا العلويين على ذلك فسكتوا ، فنقل ابو مسلم الخراساني المملكة الاسلامية من الامويين وسلمها الى العباسيين . فلما قبض العباسيون على زمام الدولة نكثوا البيعة ، وغدروا بمن كانوا يخشون سلطانهم من العلويين وغيرهم ، حتى فتكوا بجماعة من اكبر دعائهم وأنصارهم ، وفيهم ابو مسلم نفسه

وقسمنا سياسة العباسيين الى سياستين :

الاولى : سياستهم في تأييد سلطتهم ، وكانت مبنية على الغدر والفتك ، فخافهم الفرس الذين ساعدوهم على قيام دولتهم ، وكظموا غيظهم لثلا يصيبهم ما أصاب ابا مسلم وأصحابه ، فاستخدمهم العباسيون في مصالح دولتهم ، وسلموا اليهم مقاليد الحكومة ، وجعلوهم وزراءهم وأشهرهم البرامكة . فلما اشتد ساعد البرامكة ، ونالوا ما نالوه من القوة والسطوة والثروة ، أخذوا يبذلون الاموال لاكتساب قلوب الناس ، وقد اضمروا ارجاع البيعة الى العلويين أو تسليم الدولة للفرس ، فشعر الرشيد بذلك فنكبهم . وفصلنا مقدمات هذه النكبة وأسبابها ، وبيننا كيف تضاعفت نقمة الفرس على العباسيين . ولما مات الرشيد اختلف ابناه الامين والمأمون ، وكان الفرس اخوال المأمون ، فنصروه وحاربوا معه وقتلوا أخاه وأعادوا الخلافة اليه ، على أن يبايع بعده لعل الرضا ، أي ينقل الدولة من العباسيين الى العلويين ، فأطاعهم حتى ملك مراده منهم ثم غدر بهم

والثانية : سياستهم في معاملة الرعية ، وكانت مؤسسة على العدل والحق والمحاسنة ، ويتخلل ذلك فصول في أهل الذمة وأحكامهم وأسباب ما لحقهم من الاضطهاد الى عهد غير بعيد . وفصل في حرية الدين واطلاق الافكار ، وما كان من تنازع العناصر ، وكيف ذهبت العصبية العربية بذهاب دولة الامين ، وما رافق ذلك من اختلاط الانساب ، حتى ندر الدم العربي الخالص بعد ذهاب القرن الثاني للهجرة الا في البادية

ثم تقدمنا الى العصر التركي الاول ، وذكرنا الاسباب التي دعت الى تدخل الاتراك في الدولة من أيام المعتصم ، وكيف جمع الاتراك وجندهم وبنى لهم سامرا ، وكيف تدرجوا في مصالح الدولة حتى تغلبوا على الخلفاء ، وما ترتب على ذلك من احتجاج الخلفاء في دور النساء ، ومعاشرتهم الخدم ووثوقهم بهم ، حتى رفعوا الخدم والخصيان الى رتب القيادة وامارة الامراء وغيرهما ، وأطلقوا أيدي النساء في مصالح الدولة ، فال ذلك كله الى فساد الحكم واختلال الاعمال ، وذهبت هيبة الخلفاء . . فعمد أصحاب الاطراف الى الاستقلال بولاياتهم ، فتشعبت الدولة العباسية الى فروع :

فارسية ، وتركية ، وعربية ، وكردية ، وكلها تباع الخليفة العباسي .
فاستطرقنا بذلك الى البحث في معنى الخلافة ونسبتها الى السلطة من اول
الاسلام الى الآن

ثم انتقلنا الى العصر العربي الثاني ، فذكرنا نقمة العرب على العباسيين
منذ أهملوهم وأسقطوهم من الديوان ، وأضفنا اليها نقمة العلويين والامويين ،
وكيف ظهرت الدولة الاموية في الاندلس ، والفاطمية في مصر ، لمقاومة الدولة
العباسية ، وأوشك الفاطميون - وهم علويون - أن يتغلبوا على العباسيين ،
لو لم يقف السلاجقة في سبيلهم . على أن الفاطميين ما لبثوا أن تضعفوا
وغلبهم الاكراد على دولتهم ، وأولهم صلاح الدين ، فأعاد البيعة الى
العباسيين ، وانقضى هذا العصر وقد تضعفت المملكة الاسلامية وانقسمت
على نفسها ، وطمع فيها أعداؤها المحيطون بها ، فجاءها المغول وهي في تلك
الحال ، فاكسحوها وزادوها ضعفا واختلالا ، وهو العصر المغولي ، وبه
ينتهي هذا الجزء

وقد بذلنا الجهد في تمحيص الحقائق وتحقيق الحوادث ، بالاعتماد على
أوثق المصادر وأصح الروايات ، وتدبرنا ذلك واستخرجنا من علل الحوادث
وأسبابها ما نظنه الاقرب الى الصواب ، ملتزمين الصدق والاخلاص
والانصاف ، والله حسبنا ونعم الوكيل (١)

وسيكون موضوع الجزء الخامس حضارة المملكة وأبهة الدولة وآداب
الاجتماع ، وبه ينتهي الكتاب

(١) طبع هذا الجزء خمس طبعات قبل هذه ، منها الرابعة سنة ١٩٢٧ والخامسة سنة ١٩٤٧

العصر العربي الأول

العصر العربي الاول

من ظهور الاسلام حتى سنة ١٢٢ هـ - ٧٤٩ م

نريد بهذا العصر المدة التي كانت فيها الدولة الاسلامية في ايدي العرب ، وكانت سياستها عربية وقوادها عربا وعمالها عربا ، وكانت السيادة فيها للعنصر العربي . والعصر المذكور يبتدىء بالاسلام وينقضى بانقضاء الدولة الاموية . وهو ينقسم الى دولتين : دولة الراشدين ، ودولة الامويين ، ولكل منهما احكام خاصة بها في السياسة وشؤون الحكومة سيأتي بيانها . ولا بد لنا تمهيدا لذلك أن نأتي بفذلكة في حال العرب قبل الاسلام ، من حيث ما يهمننا بيانه في هذا الباب . .

تمهيد في العرب قبل الاسلام

البدو والحضر

البدو أهل البادية ، والحضر أهل المدن . والبداءة اقدم من الحضارة ، لأنها أقرب منها الى الفطرة الطبيعية . فالانسان كان في اول ادواره بدويا يحترف الزراعة والفلاحة ، او ينتحل القيام على تربية الحيوان من الغنم والبقر والماعز او النحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها ، مما لا تتسع له المدن من المزارع للغرس والمراعى للمرعى (*) . فالتجأوا الى السهول والبرارى ، وكان همهم بلوغ الضرورى من القوت والسكن والدفع بالمقدار الذى يحفظ الحياة ويمكن من مواصلة العيش . فلما تقدمت احوالهم وحصلوا على ما هو اكثر من ذلك من اسباب الفنى والرفاهية، عمدوا الى السكون والدعة وتأنقوا وتمدنوا وأترفوا

فالبداوة تقوم اما على الفلاحة والزرع ، او على تربية الحيوان . فالبدو أهل الفلاحة مضطرون للاستقرار فى مواطنهم ينتظرون القلة وهم سكان المداشر (***) والقرى والجبال ، وكانوا قليلين فى بادية العرب . وانما يكثروا

(*) يوسع المؤلف هنا معنى البداوة ، فيجعلها تشمل كل المجتمعات البدائية بما فيها الزراعية ، وهذا التوسيع مقبول من ناحية الاستعمال العربى ، فان العرب كانوا يطلقون لفظ البادية على ما نسميه الارياف (بالاضافة الى الصحارى) فاذا قال العربى « أهل البادية » فهم من ذلك أهل الصحراء وأهل الارياف المزروعة ، غير انه يغلب ان تطلق البادية على الصحراء وما يجاورها مباشرة من الارض المزروعة على المطر خاصة . اما من الناحية الاجتماعية فان البداوة هى حياة الصحارى ، سواء أكانت تزرع بالمطر او لا تزرع اصلا ، وأهل الزراعة المستقرون يسمون حضرا ، لان الزراعة فى ذاتها وايا كان مستواها تعد مرحلة من مراحل الحضارة (***) الصحيح لغة مجشر والجمع مجاشر ، جاء فى لسان العرب ٢٠٧/٥ : الجشر بقل الربيع ، وجشروا الخيل وجشروها (بتشديد الشين) ارسلوها فى الجشر ، والجشر ان يخرجوا بخيلهم فرعوها امام بيوتهم ، واصبحوا جشرا (بسكون الشين) وجشرا (بفتحها) اذا كانوا يبيتون فى

هذا الصنف من البدو في بلاد البربر بشمالى افريقيا ، وفيما يجاور المدن العامرة بمصر وفارس والشام وغيرها . وأما البدو الذين يحترفون تربية الحيوان فدأبهم الظعن والارتحال ، لارتياح المسارح والمياه لحيواناتهم . وهم صنفان : أهل سائمة ، وأهل ابل . فأهل السائمة هم القائمون على الشاء والبقر ، ولا يبعدون في القفر لثقله المرعى الطيبة ، ويقال لهم الشاوية نسبة الى الشاء . وهؤلاء مثل البربر في شمالى افريقيا ، والترك واخوانهم التركمان والصقالبة ، وغيرهم ممن يقطنون بوادى تركستان وخراسان ونحوهما



وأما أهل الأبل فأشهرهم بدو العرب ، وهم أكثر ظعنا وأبعد في القفار مجالا من أهل السائمة ، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغنى بها الأبل في قوام حياتها عن مراعى الشجر بالقفار ، وورود مياهه الملحة والتقلب في فصل الشتاء في نواحيه فرارا من أذى البرد الى دفء هوائه وطلباً لماخض النتاج في رماله ، لأن الأبل أصعب الحيوانات فصلا ومخاضا وأحوجها في ذلك الى الدفاء . فاضطروا الى ابعاد النجعة والايغال في القفار ، فهم ينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه ، والمفترس من الحيوان ، لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي ، وقيامهم بالدفاع عن أنفسهم . فهم دائما يحملون السلاح ، ويتلفتون في الطرق ، ويتجافون عن الهجوع ، الا غرارا في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب ، ويتفردون في القفار والبيداء واثقين بآسهم ، حتى صار البأس لهم خلقا ، ولذلك كان أكثر البدو توغلا في القفار أشدهم بأسا وأصبرهم على المشاق (*)

مكانهم لا يرجعون الى اهليهم ، والجشار (بتشديد الشين) صاحب الجشر ، وفي حديث عثمان رضى الله عنه انه قال : « لا يفرنكم جشركم عن صلاتكم » . فالجشر على ذلك هو المرعى الذى يقيم الرعاة فيه بعض الوقت . ويطلق الجشر في الغرب الاسلامى (المغرب والاندلس) على مواضع من البريف تعمر بالرعاة والزرايع في مواسم المطر ، وتقوم فيها أبنية مؤقتة يقيم فيها الناس ثم يرتحلون عنها ويتركونها خالية

أما دشر فهى تحريف من جشر ، يقول دوزى ان سببه ثقل الجيم قبل الشين ، فتقلب في النطق الى دال فيقال دش بدلا من جش ، ودشيش بدلا من جشيش ، ودشر بدلا من جشر ، والمدشر هو الجشر . ومن معانى لفظ جش طحن وكسر ، فيقال دشيش الفول ، ويراد به جشيش الفول ، أى الفول الذى تدور عليه الرحا ، ومن هنا لفظ دش بمعنى كسر ، ودشدرش بمعنى حطم او قتل

انظر : Dozy. Supplément aux dict. arabes, 1, 442-3

(*) المؤلف هنا ينقل عن ابن خلدون حرفيا تقريبا (انظر فصل « في ان جيل العرب في الخلقة طبيعى » ص ١٠٥ - ١٠٦ طبعة الاب لويس شيخو ، بيروت ١٨٨٦) . وقد استغنى المؤلف عن بعض العبارات بدافع الاختصار ، ولهذا يستحسن ان يراجع القارئ الفصل برمته هناك ، وهو صغير وسنكتفى هنا بتوضيح بعض عبارات مما أورده المؤلف . فالمراد بالمسارح في النص المرعى . وعبارة « وأما أهل الأبل » الى قوله الى الدفاء « اشارة الى اضطراب هؤلاء البدو الى التنقل بين سفوح الجبال والتلال العشوشية والوديان الواطئة ، فهم يقضون الشتاء في الاودية والصيف على سفوح التلال ، ولكل قبيلة منهم لهذا مشتى ومصيف محددان

فسكان جزيرة العرب معظمهم من البدو الرحل ، ولذلك كانت المدن قليلة في تلك الجزيرة ، ولا سيما في اواسطها . واشهر المدن العربية قبل الاسلام مكة والمدينة والطائف في الحجاز ، ومأرب وصنعاء في اليمن . وسكانها اخلاط من العرب والفرس والاحباش واليهود وغيرهم ، يرتزقون بالبيع والشراء على من يفد عليهم من أهل البادية

العصبية العربية قبل الاسلام

قلنا ان العرب جمهورهم من البدو ، والعصبية ضرورية لأهل البادية . لأن الناس مفظورون على المطامع ، ودابهم التخاصم والتنازع ، فأهل المدن يدفع عدوانهم الحكام وأهل الدولة من أن يظلم بعضهم بعضا ، وهى ايضا تدفع غارات الاعداء بما تقيمه من الاسوار وتعدده من الجند والسلاح . واما البدو فيحكم بينهم مشايخهم وكبرائهم ، بما وقر في نفوس أهل القبيلة او الحى من الوقار لهم . . واکرام السن من تقاليد البدو . واذا سطا عليهم عدو في منازلهم قام بالدفاع عنها فتيانهم وشجعانهم ، وهؤلاء لا يصدق دفاعهم الا اذا كانوا عصبية تشد بها شوكتهم ويخشى جانبهم

وأهل البلد الواحد ، أو المصلحة الواحدة ، لا بد لهم من جامعة تجمع بين أفرادهم . والجامعة تختلف في الأمم باختلاف احوالهم ، فبعض الأمم يجمعهم الوطن ، وآخرون يجمعهم الدين ، وغيرهم يجمعهم النسب أو اللغة . وقد رايت أن البدو لاوطن لهم ، وكانوا قبل الاسلام لادين لهم ، فلم يكن لهم ما يجمعهم غير العصبية واللغة ، وهما متلازمتان خصوصا في البداوة . لذلك عنى العرب بحفظ أنسابهم وضبطها ، وتفاخروا بها ، وبالغوا في استقصائها ، حتى ردوها الى الآباء الاولين

فأقرب اسباب العصبية عندهم الاخوة والابوة والعمومة ، ومنها تتألف العائلة أو الأسرة ، ومن العائلات تتألف الفصيلة ، كآل أبى طالب وآل العباس مثلا ، فان كلا منهما فصيلة مؤلفة من عائلات ، وكلاهما من بنى هاشم . ومن الفصائل تتألف الافخاذ ، مثل بنى هاشم وبنى أمية ، وكلاهما من بنى عبد مناف . ومن الافخاذ تتألف البطون ، مثل بنى عبد مناف وبنى مخزوم ، وكلاهما من قريش . ومن البطون تتألف العماثر (جمع عمارة) مثل بنى قريش وبنى كنانة ، وكلاهما من مضر . ومن العماثر تتألف القبائل ، مثل ربيعة ومضر ، وكلاهما من عدنان . ومن القبائل يتألف الشعب ، وهو

معروفان ، وهم يسمون في علم الاجتماع الترانسهيومانز Transhumans ، ولا يزال منهم الكثيرون في جزيرة العرب وشمال افريقية وصحارى تركستان وغيرها . والمراد بقوله : « طلبا لما خص النتاج في رماله » ان هؤلاء البدو يلتمسون في رمال الصحراء الظروف الملائمة لولادة الابل وما يعقبها من مخاضها

النسب الابعد ، مثل عدنان وقحطان

أنساب العرب

والذى عليه النسابون أن سكان جزيرة العرب قبل الاسلام يرجعون فى أصولهم الى قسمين : العرب البائدة ، والعرب الباقية . فالقبائل البائدة هى التى بادت وضاعت أخبارها قبل ظهور الاسلام ، مثل عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وجرهم وجاسم . وقد بحثنا بحثا تحليليا فى نسب هذه القبائل وأماكنها فى مقالة نشرت فى الهلال العشرين من السنة الخامسة لا محل لها هنا . وأما العرب الباقية فهى القبائل التى ظهر الاسلام وهى موجودة ، فقامت به ونشرتة وأنشأت الدولة الاسلامية . والقبائل الباقية فرقتان ، ترجع كل منهما الى أب واحد يضمها وطن تنسب اليه : الفرقة الاولى القحطانية ، وترجع فى أنسابها الى قحطان وهو يقطان الذى ينتهى نسبه الى أرفكشاد (أبو أرفكشاد) من آباء التوراة ، ومقر القبائل القحطانية فى اليمن ، ولذلك عرفت أيضا بالقبائل اليمنية أو عرب اليمن . والفرقة الثانية العدنانية ، نسبة الى عدنان من بعض أعقاب اسماعيل بن ابراهيم الخليل وتعرف أيضا بالاسماعيلية ، ولما كان مقر أكثرها فى الحجاز ونجد عرفت بالقبائل الحجازية ، أو بعرب الحجاز ونجد أو عرب الشمال

ولكل من القحطانية والعدنانية فروع من القبائل والعمائر والبطون والافخاذ والفصائل لا يحصيها عد ولا محل لذكرها ، ولكننا نأتى بما يهمنا منها فى هذا المقام - فالعرب القحطانية أقدم من العدنانية ، أو تمدنت قبلها على الأقل ، ومنها بنو حمير الذين أنشأوا تمدنا فى اليمن ، ومنهم الملوك التابعة وآثارهم فى حضرموت وخرائب اليمن ، لا يزال أكثرها مدفونا فى الرمال وعليه نقوش بالقلم المسند . وقد تفقد آثار ذلك التمدن غير واحد من المستشرقين ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاطلاع على شىء كثير لصعوبة السلوك فى تلك القفار . على أن بعضهم ألف الكتب فى هذا الموضوع ، وذهب الى أن التمدن اليمنى أقدم من التمدن المصرى ، وان الفراعنة أخذوا أصول تمدنهم عن أولئك العرب القحطانية (*) . والمظنون أن ملكة سبأ التى زارت سليمان

(*) لا يمكن القطع فى هذا الموضوع برأى حاسم لانعدام الأدلة التاريخية التى تؤيد ما يقوله المؤلف أو تنفيه ، ولو اننا نستطيع القول بأن أبحاث التاريخ المصرى القديم لم تدل على أن أهل مصر أخذوا عن أهل اليمن شيئا بصورة مباشرة . وكل ما يمكننا قوله هو أن هناك نفرا من العلماء يذهبون الى أن جماعات من أهل اليمن هاجرت الى ما يعرف الآن بالصومال ، وهناك تكاثرت ثم هاجرت مصعدة مع النيل فاستقرت فى حوضه واختلطت بمن وجدته هناك من البشر ، ومن هذا الخليط تكون الجنس المصرى القديم الذى انشأ دول مصر الاولى وغزا الوجه البحرى ووجد البلاد فكان ذلك ميلادا لمصر القديمة وحضارتها ، وليس معنى ذلك أن المصريين أخذوا عن اليمن أصول حضارتهم ، بل معناه أن الحضارتين المصرية واليمنية انشأهما شعبان يرجعان الى أصل واحد

الحكيم نحو القرن العاشر قبل الميلاد انما هي من ملوك هذه الدولة

وما زال اليمنية في بلاد اليمن وحضرموت ، حتى كان سبيل العرم أو انبثاق السد المعروف بسد مأرب . وهو عبارة عن حائط كان موصلا بين جبلين ، يحجز الماء الذي كان يسيل بينهما ، فيرتفع ويروى السفحين الى اعلاهما . بناه بعض ملوك تلك الدولة بناء متينا ، فصبر على صدمات الماء وتأثير الهواء عدة قرون . فلما دنا القرن الثاني للميلاد (تقريبا) وكانت الدولة قد شاخت ، أحسوا بقرب سقوط السد ، فخافوا الطوفان والقحط ، فنزحوا من ذلك المكان وتفرقوا في البلاد ، بحسب قبائلهم وبطونهم ، ومنهم بنو غسان في الشام ، وبنو لخم في العراق ، وبنو الأوس والخزرج في المدينة ، والأزد في منى ، وخزاعة بجوار مكة . ثم انفجر السد فهاجر من بقى هناك من القبائل اليمنية . وفي نحو القرن الخامس للميلاد استولى الأحباش على بلاد اليمن ، ثم جاء الفرس فأخرجوا الأحباش وضموا اليمن الى مملكتهم . وجاء الاسلام واليمن من أعمال مملكة الفرس

فلما ظهر الاسلام ، كانت دولة العرب القحطانية قد دالت ، وهم الحضرة وسكان المدن (*) . وأما البدو القحطانية فكانوا لا يزالون كثيرين ، غير من بقى من القحطانية الحضرة في يشرب وغيرها من مدن الحجاز واليمن . واليك أشهر القبائل القحطانية عند ظهور الاسلام وهي : سبأ وحمير وكهلان والأزد ومازن وغسان والأوس والخزرج وخزاعة وبجيلة وختعم وهمدان وطىء ولخم وكندة وقضاعة وكلب وتنوخ ومراد والأشعر وغيرها

وأما القبائل العدنانية ، أو عرب الحجاز ونجد أو عرب الشمال ، فلم يظهروا قبل الاسلام الا قليلا ، ولم ينشئوا دولة الا بعد الاسلام . وهم قبائل عديدة ، مواطنهم غالبا في نجد والحجاز والعراق وتهامة ، وكلها بادية رحالة الا قريشا فقد كانوا حضرا يقيمون في مكة ، وبعض اهل الطائف . وأعظم القبائل العدنانية قبيلة « معد » ومنها تسلسلت قبائل عدنان كلها ، ويقال انه كان معاصرا لأرميا النبي (١) . وتفرع من معد اياد ونزار ، وسكنت اياد العراق وتشعبت الى بطون وافخاذ . واما نزار ففيها العظمة والقوة ، ولها الفضل الاعظم على العرب ، لأن منها جاءهم النبي (صلعم) . وانقسمت نزار الى قبيلتي ربيعة ومضر ، فسكنت ربيعة في

(*) مع استثناء اهل مدن الحجاز كمكة ويشرب والطائف وما اليها

(١) ابن خلدون ٣٠٠ ج ١

جزيرة العراق ، ومن بطونها ضبيعة وأسد وعنزة وجديلة والنمر وتغلب وبكر بن وائل وغيرهم . وأما مضر بن نزار فهم أهل الكثرة والغلب بالحجاز ، أكثر من سائر بنى عدنان ، وكانت لهم الرياسة بمكة . ومن مضر تشعبت عدة عمائر من جملتها قريش ، وتشعبت قريش الى ٢٥ بطنا من جملتها بنو عبد مناف ، ومنهم بنو هاشم رهط النبي (صلعم) ، وبه شرفت مضر بعد الاسلام على سائر العرب قحطانيها وعدنانيها

وأشهر القبائل العدنانية ، غير ما تقدم ، خزيمة وكنانة والنضر وشيبان وقيس وهوازن وسليم وغطفان وذبيان وثقيف وكلاب وعقيل وتميم وهلال وباهلة ومخزوم وأمية وعبدالقيس وغيرها ، وبعضها فروع للبعض الآخر . ولكل قبيلة أو عمارة شؤون خاصة وحكومة خاصة وشارة خاصة . ولكل منها سمة خاصة تمتاز بها عن سائر القبائل ، تعرف بها رايته وتسم بها أبلها ، اى تنقش عليها علامة خاصة بها كيا بالنار يقال لها الميسم (١) وكانت القبيلة تمتاز بشيء تعرف به ويداع بين القبائل خبره ، وتفاخر به سواها . فكانت مصر مثلا تفتخر بفصاحتها ، وربيعة تفتخر بفروسيتها ونجدتها (٢) واشتهر بعض القبائل بالعز والمنعة دون سواها ، كقبيلة بهدلة من العدنانية ، فقد ذكروا أن العز والقوة تسلسلا اليها من معد الى نزار فمضر فخنذف فتميم فسعد فكعب فعوف فبهدلة (*)

عصية النسب

وبين القبائل ، أو أفخاذها أو بطونها أو عمائرها ، عصية النسب تجمعها بعضها على بعض - الاقرب فالاقرب الى الابد فالابد . فتجتمع الفصيلتان من الفخذ الواحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعا من بطن واحدة ، وتجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ولو كانوا جميعا من قبيلة واحدة ، على حد قول المثل : « أنا وأخى على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب » فالقحطاني يتعصب على العدناني وهذه أوسع العصبيات ، ثم ان القبائل يتعصب بعضها على بعض . والعمائر من قبيلة واحدة تتعصب بعضها على بعض ، ويقال نحو ذلك فى البطون من عمارة واحدة ، أو الافخاذ من بطن واحدة ، حتى تصل الى الفصائل والعائلات . فبنو العباس وبنو أبى طالب مثلا تخاصما ، وكلاهما من بنى هاشم ، وبنو هاشم وبنو أمية تخاصما ، وكلاهما من بنى عبد مناف ، وقس على ذلك

وكل من القبائل أو البطون أو الافخاذ يفاخر سواه بحسنات قومه ويذكر

(١) الاغانى ٤ ج ١٩ (٢) المسعودى ٢١١ ج ١

(*) راجع عنهم جمهرة انساب العرب لابن حزم (القاهرة ١٩٤٨) ص ٢٠٨

مثالب الآخرين . ولهم في ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها . على ان اشهر حوادث المنافسة بين العرب انما هو بين القبائل القحطانية (او اليمنية) والقبائل العدنانية ، وقد يرد ذكر ذلك في التاريخ ولا ينتبه له القارىء لانهم قلما يذكرون انتساب القبائل الى احدى هاتين العصبيتين فيقولون مثلا : « انتشبت الحرب بين قيس و كلب » ولا يذكرون ان قيسا من العدنانية و كلبا من القحطانية ، لاعتقادهم ان القارىء يعرف ذلك . وقس عليه قولهم تفاخرت قحطان ونزار ، او معد واليمن ، او مضر وحمير ، او هوازن وكهلان ، او قيس وهمدان ، او نحو ذلك

العرب والعجم قبل الاسلام

على ان العرب القحطانية والعدنانية يجتمعون على غير العرب من الفرس او الترك ويسمونهم «العجم» ، ويفاخرونهم بالانساب واللغة ويحتقرونهم ، وقد شقوا من اسمهم لفظ الأعجم للدلالة على الخرس ، او ان العجم مشتق من العجمة ، فالعجمى عندهم غير العربى ، والأعجم الأخرس (١) والأخزر عندهم الذى فى عينه ضيق ، وهذا وصف العجم وهو عند العرب من النقائص ، فاذا قيل للعربى يا أخزر عد ذلك القول اهانة لأنه أخرجه من العرب . على ان العجمى فى الاصل الفارسى ، والعجم الفرس ، لأن الفرس اقدم من خالط العرب من الأمم الغريبة عن لسانهم ، ثم أطلقوا لفظ العجم على كل اجنبى غير عربى

والمنافسة بين العرب والعجم قديمة ، فان الفرس فى أيام دولتهم كثيرا ما كانوا يخرجون العرب من بلادهم بالسيف ، والعرب كانوا يسطون على مدن الفرس حتى فى أيام سابور قبل الاسلام ببضعة قرون ، وكان هذا قد تعمد اذى العرب واخراجهم من بلاده ، وخصوصا قبيلة اياد ، وفيه يقول الشاعر :

على رغم سابور بن سابور أصبحت قباب اياد حولها الخيل والنعم

ولكنه تمكن منهم بالقوة والجند ، فقتل منهم خلقا كثيرا ، ومن افلت لحق بأرض الروم . وفعل نحو ذلك بنى تميم فى البحرين . وما زالت الضغائن بين العرب والفرس ، حتى اضطر عرب اليمن الى استنجد كسرى على الاحباش فى القرن الخامس للميلاد ، فأرسل جندا أخرجوا الاحباش واحتلوا مكانهم وحكموا العرب ، الى ان جاء الاسلام وتحول السلطان الى العرب فتسلطوا على العجم ، فكبر ذلك عليهم وخصوصا فى أيام بنى أمية ،

(١) العقد الفريد ٢٢٩ ج ٣

لتعصبهم على غير العرب . ونشأت فرقة الشعوبية للطعن في العرب ،
وسياتى بيان ذلك

الأمومة والخؤولة

الأصل في العصبية عند العرب الأبوة أو الانتساب الى الأب ، مثل سائر
الامم الراقية ، على أن الامومة كان لها شأن كبير عندهم ، وكثيرا ما كانت
المزاوجة أو المصاهرة سببا كبيرا للعصبية ، ليس ذلك لعلو منزلة المرأة على
الاجمال ، وانما الفضل فيه للأمومة ، فان المرأة كانت لاتزال محتقرة حتى
تصير أما . . فتعلو منزلتها وتشتد عرى الاتحاد بها . فالرجل منهم يفضل
أمه على امرأته ، لأن الأم في اعتقاده أبقى له من امرأته . ومن أمثلة ذلك
أن صخر بن عمرو بن الشريد - أبا الخنساء - لما حضر محاربة بنى أسد،
طعنه ربيعة بن ثور الاسدى فأدخل بعض حلقات الدرع في جنبه ، وبقي صخر
مدة في أشد ما يكون من المرض ، وأمه وزوجته سليمة تمرضانه ،
فضجرت زوجته منه ، فمرت بها امرأة فسألته عنه فقالت : « لا هو حى
فيرجى ولا ميت فينسى » فسمعها صخر فأنشد قصيدة قال منها :

ارى أم صخر لا تمل عيادتى وملت سليمة مضجعى ومكانى
وأى امرىء ساوى بأى حليلة فلا عاش الا فى شقا وهوان (١)

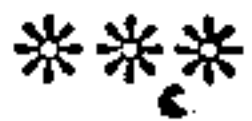
وكانت العرب من أجل ذلك لا يعزون فى المرأة الا أن تكون أما (٢) ولم يكن
ذلك خاصا بحال المرأة عند العرب ، فقد كان هذا شأنها أيضا عند اليونان،
لأنهم كانوا يعدون المرأة أمة يحجبونها قبل الزواج وبعده ، وتشتغل بأشغال
البيت من الحياكة والغزل وتمريض المرضى . وكذلك كان يفعل الفرس
بنسائهم ، فاذا صارت المرأة أما علت منزلتها وصار اليها الأمر والنهى فى
بيتها ، ولا يزال هذا دأب أهل البادية الى اليوم . ونشأت من ذلك عصبية
الخؤولة عند العرب ، وهى نصرمة عشيرة الأم لأولادها ، وبعبارة أخرى
لعشيرة زوجها ، ولو كان الأب من قبيلة يمنية والأم من قبيلة عدنانية ،
أو بالعكس

وكان للخؤولة شأن عظيم عند العرب قبل الاسلام ، وأقرب الشواهد عليها
نصرمة أهل المدينة للنبي (صلعم) فى هجرته اليهم ، فان الخؤولة كانت من أهم
أسباب نصرتهم ، لأن أم النبي من بنى النجار من الخزرج وهى قبيلة
قحطانية ، وأبوه من قريش وهى قبيلة مضرية . فلما توفى والده ذهبت

(١) ابن خلكان ١٣٢ ج ١ (٢) العقد الفريد ٢٦٤ ج ٢

به امه الى المدينة ، لكي تلتجىء الى أخواله بنى النجار وهم كثيرون ، وكانوا من أقرب أهلها الى التدين ، وقد ترهب أحدهم فى الجاهلية ، ولبس المسوح وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة ، وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ، واتخذ بيته مسجدا . فأقامت عندهم على الرحب والسعة ، ثم ذهبت به الى أعمامه فى مكة وماتت على الطريق . فلما قام بدعوته وقاسى ما قاساه من اضطهاد أعمامه ، هاجر الى أخواله فى المدينة ، وأهلها يعرفون ذلك فيه ، لأن خوولة بنى النجار جعلت الخزرج كلهم أخواله ، فلما نزل المدينة رحب به أهلها ، وكان أول من تابعه منهم أخواله أو من يمت اليهم بقرابة . وكانوا أشد أهل المدينة غيرة عليه ودفاعا عنه (١) ثم تهافت أهل المدينة الى مبايعته . وكان فى أثناء غزواته اذا اشتد القتال جلس تحت راية الانصار (٢) وهم يستهلكون فى سبيل نصرته ، ولا سيما آل النجار . وكان أعداء الانصار اذا هجروهم خصوا بنى النجار منهم بالذكر ، لتصدرهم فى ذلك أكثر من سائر أهل المدينة . فمن قصيدة قالها عمرو ابن العاص يوم أحد وهو لم يسلم بعد :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا مع الصبح فى رضوى الحبيك المنطق
تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا لدى جنب سلع والامانى تصدق
فما راعهم بالشر الا فجاءة كراديس خيل فى الازقة تمرق (٣)



وظلت الخوولة مرعية عند العرب بعد الاسلام ، وكان لها تأثير كبير فى العصبية وسياسة الدولة . فلما طلب معاوية الخلافة ، بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفان ، نصره بنو كلب وهم يمنية ، لأن نائلة امرأة عثمان منهم وقد تلطخت أصابعها بالدم . وكان لنصرتهم دخل كبير فى قيامه ، وتزوج هو واحدة منهن ولدت له ابنه يزيد . ولما أفضت الخلافة الى يزيد ، كان الكلبية من حزبه لأنهم أخواله ، وأمثال هذه الشواهد كثيرة فى تاريخ الاسلام ، منها ان المأمون نصره الفرس لأن امه منهم ، وكان أخوه الامين ضده وحزبه عربى لأن أمه عربية ، فلجأ المأمون الى خراسان واقام بمرور عند أخواله ، فأخرجوا الخلافة من يد الامين وسلموها اليه . والمعتصم كانت امه تركية وكان ميله الى الاتراك كثيرا ، وقد جندهم فنصروه على الفرس . وقس على ذلك تأثير الام فى الدولة ، مما سيأتى تفصيله . وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقوون أحزابهم بالتزوج من القبائل

(١) ابن هشام ١٨٩ ج ١ (٢) ابن هشام ٨١ ج ٢ (٣) ابن هشام ١١٠ ج ٢

المختلفة ، فيكتسبون عصبية قبائل نسائهم (*) توابع العصبية العربية

الحلف :

فعمدة العرب في العصبية جامعة النسب من الاب ، ثم الام . على أنهم كانوا يجتمعون بأسباب أخرى ، كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات أو المعاهدات الدولية في هذه الأيام . وأشهر أحلاف الجاهلية حلف المطيبين ، وحلف الفضول . فالحلف يجمع بين القبائل ولوتباعدت أنسابها من القحطانية والعدنانية . وقد يكون التحالف بين العرب وغير العرب ممن ينزلون بينهم ، وهو من قبيل الولاء ، كاليهود الذين نزلوا المدينة من بنى النضير وبنى قينقاع وغيرهم ، ومنهم حلفاء الأوس والخزرج ، وكان أهل وادي القرى حلفاء بنى هاشم ، وسيأتي ذكرهم في الموالي

وللتحالف أو الحلف عندهم شروط وأسباب ، منها أن يكون الحليف أسيرا لا يستطيع فداء نفسه ، فيسمونه بسمة تلك القبيلة فيعد حليفا لها (١) والحليف يرث من القبيلة كما يرث الصريح من أبنائها (٢) أما إذا قتل فديته نصف دية الصريح (٣) (**)

(*) دور الامومة دور طبيعي في تطور الجنس البشري ، وهو يعرف عند علماء الاجتماع بالمترياركات Matriarchat وهو سابق على دور الابوة (باترياركات) Patriarchat ويراد بدور الامومة ذلك الدور الذي كانت الام فيه رأس الاسرة وصاحبة الامر فيها ، ويكون ذلك عادة في الاجيال الاولى قبل ان تستقر قواعد الزواج ، لان الاب لم يكن دائم المقام في الاسرة ، وانما هو يخرج للصيد او الحرب ، وقد يخرج ولا يعود ، فتقوم الام بشئون الاولاد ، وينتقل دور الاب الى احد اخوتها ، اى الى خال الاولاد ، ولهذا كان الخال في ذلك الدور هو الاب الفعلى للاولاد ، ومن هنا جاءت أهمية الخؤولة . وعندما تقدمت المجتمعات وتقررت قواعد الزواج واستقر الاب في أسرته اصبح هو رأس الاسرة ، ودخلت الجماعة في دور الابوة وقد طبق روبرتسون سميث هذه القواعد في دراسته عن الزواج والقرابة عند العرب القدماء Robertson, Smith, Kinship and Marriage in Ancient Arabia وقرر ان العرب مروا بدور الخؤولة بدليل وجود قبائل كثيرة منسوبة الى الامهات (باهلة ، كندة ، جذيمة . الخ) وقد عارضه في ذلك الراى نفر من علماء العرب ومنهم المرحوم جرجى زيدان نفسه

(١) الاغانى ١١٠ ج ٧ (٢) تاريخ الوزراء ٢٥١ (٣) الاغانى ١٦٧ ج ٢

(**) الحلف او التحالف تقليد عربى قديم هدفه ربط قبيلة بقبيلة او مجموعة من القبائل برابطة اخرى غير رابطة النسب ، وقد ذهب بعضهم الى أن لفظ الحلف مشتق من حلف ، لان المتحالفين يقسمون يمينا ، ولكن يبدو ان ذلك غير صحيح ، لان القسم جاء فيما بعد ، غير الثابت على أى حال ان المتحالفين كانوا يقسمون على شىء كشرط من شروط عقد الحلف . وقد يتحالف فرد مع قبيلة على ان يكون حليفها ، وفي هذه الحالة يختلط معنى الحلف بمعنى الجوار . وأشهر الاحلاف كما ذكر المؤلف حلف المطيبين وقد تولى عقده بنو عبد مناف فيما بينهم (بنو المطلب وبنو هاشم وبنو نوفل وبنو عبد شمس وبنو الحارث) ليواجهوا بنى عبد الدار ومن انضم اليهم ، وكان هؤلاء لا يريدون التنازل عن امتيازاتهم ، وعقدوا مع بنى مخزوم وبنى جمح حلفا سمي بحلف الاحلاف . وقد تطور حلف المطيبين واعيد تكوينه باسم حلف الفضول (وتكون هذه المرة من بنى عبد شمس ونوفل وأسد وعامر) ولفظ الفضول غير واضح المعنى ،

الاستلحاق

ومن توابع العصبية العربية قبل الاسلام الاستلحاق ، وهو ان يدعى الرجل رجلا يلحقه بنسبه ، وقد يكون عبداً أو أسيراً أو مولى ، فيسميه مولاه وينسبه اليه . ومن أشهر حوادث الاستلحاق في الجاهلية ، أن أمية جد بنى أمية كان له عبد اسمه ذكوان ، استلحقه بنسبه وكناه أبا عمرو ، فصار اسمه عندهم أبا عمرو بن أمية ، ومن نسله جاء الوليد بن عقبة أخو عثمان بن عفان لأمه ، وكان من جلة الصحابة

وأشهر حوادث الاستلحاق في الاسلام استلحاق زياد بن أبيه بأبي سفيان والد معاوية داهية العرب ، وقصة استلحاقه مشهورة في كتب التاريخ . وكان زياد هذا ابن امرأة اسمها سمية ، وكانت جارية ، فولدت زيادا من غلام رومي من موالى ثقيف اسمه عبيد ، ولم يكن ذلك مشهورا عند العرب ، فكانوا يعتبرون زيادا مجهول الأب فسموه « زياد بن أبيه » ، فلما طلب معاوية الخلافة واحتاج الى من ينصره ، قرب اليه جماعة من دهاة العرب ومنهم زياد المذكور ، واختص زيادا بالاستلحاق ، فاستشهد خمارا من أهل الطائف اسمه أبو مريم السلولى ، فشهد أن أبا سفيان جاءه والتمس منه بغيا فأتاه بسمية فحملت منه بزياد ، وثقات المؤرخين ينكرون ذلك ويعتقدون أن معاوية اختلق هذه القصة ليكتسب نصرة زياد ، وقد تم له ما أراد . فسمى زياد من حينئذ « زياد بن أبي سفيان » بعد أن كان يعرف بزياد بن أبيه أو ابن سمية (١) وما زال آل زياد معدودين من قريش ، حتى ردهم المهدي سنة ١٦٠ هـ الى نسب عبيد المذكور ، وصاروا من موالى ثقيف (٢) ومثل هؤلاء آل أبي بكر ، فقد كانوا من موالى النبي (صلعم) وألحقوا بثقيف ، فردهم المهدي الى أصلهم

وان كان بعض المؤرخين يذهب الى ان معناه حلف الافاضل او أهل الفضل . وهناك احلاف أخرى مثل حلف الرباب (بكر الرء ، انظر عنه الطبرى ، طبعة أوربا ، ٢٢٢١/١ ، والاشتقاق لابن دريد ، طبعة فستنفلد ، ص ١١١) وحلف لعقة الدم (انظر عنه ابن هشام ١٢٥/١ والإغانى ، ٢٦/٧)

انظر : علاوة على ما ذكر في النص :

كتاب المعارف لابن قتيبة ، طبعة فستنفلد ، ص ٢٩٨

تفسير الطبرى ، ٣٥/٥

Caetani, Annali dell'Islam, I, Introd. 85-87.

Caussin de Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, I, 254-255.

Th. W. Juynbull, Handbuch des islamischen Gesetzes, p. 258.

W. Robertson Smith, Kinship and Marriage etc. p. 53 ff.

Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, p. 480.

I. Goldziher. Islamstudien, I, 63-69.

احمد الصالح العلى : محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ، الفهرس

(١) ابن الاثير ٢٢٥ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٠ ج ٦

وكانوا يسمون المستلحق « دعيا » ، وقد يكون الرجل دعى أدياء فيكون هو دعيا في رهطه ورهطه دعى في قبيلة مثل ابن هرمة ، فقد كان دعيا في الخلع والخلج أدياء في قريش ، وكثيرا ما كانوا يستلحقون الرهط أو العشيرة دفعة واحدة ، لنزولهم فيهم أو لنصرتهم اياهم ، كما أصاب بنى العم من أهل البصرة ، فانهم نزلوا بنى تميم في أيام عمر بن الخطاب ، فأسلموا وغزوا مع المسلمين فقالوا لهم : « أنتم وان لم تكونوا من العرب اخواننا وأهلنا ، وأنتم الانصار وبنو العم » فلقبوا بذلك وصاروا من جملة العرب (١)

وكانوا يعدون الدعى من أنفسهم ، ويورثونه كما يورثون الابن الصريح (٢) ويورثونه ، وكثيرا ما كان العرب يرغبون في استلحاق مواليتهم ، رغبة منهم في أن يرثوهم ، وقد يأبى المولى أن يلحقوه اذا عرف غرضهم ، كما أصاب نصيبا المغنى المشهور ، اذ أراد مواليه أن يلحقوه بنسبهم فأبى وقال لهم : « والله لأن أكون مولى لائقا أحب الى من أن أكون دعيا لاحقا ، وقد علمت انكم تريدون مالى » (٣)

ومن أسباب العصبية عندهم مما يشبه الحلف « المؤاخاة » ، وقد تكون بين القبائل أو بين الافراد ، ولا تزال هذه العادة شائعة بين البدو الى الآن ، فاذا آخيت العربى أخذ بناصرك وحماك ودافع عنك كأنك أخوه

الخلع

و ضد الاستلحاق عندهم « الخلع » ، فكان الرجل اذا ساءه أمر من ابنه ، سواء كان صريحا أو دعيا خلعه ، أى نفاه عن نفسه فيتخلص من تبعه ما قد يرتكبه الولد من المكروه ، وقد تفعل ذلك القبيلة أو العشيرة ، فيذهب جماعة منها الى سوق عكاظ ومعهم المراد خلعه ، ويشهدون على أنفسهم أنهم خلعوه ، ويبعثون مناديا بذلك فلا تحتلم القبيلة جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرها احد عليه . كما فعلت خزاعة بقيس بن الحدادية الشاعر الجاهلى (٤) وقد يكتبون بالخلع كتابا

ومن أشهر حوادث الخلع قبل الاسلام خلع عمرو بن العاص من عشيرته ، وكان قد ذهب الى الحبشة بتجارة فى الجاهلية مع عمارة بن الوليد المخزومى واختصما فى الطريق ، فأساء عمارة الى عمرو فأضمر له الشر ، وعمرو من بنى سهم فكتب الى أبيه أن يخلعه ويتبرأ من جريرته اذا أذى عمارة ففعل ، فخلعت كل من العشيرتين صاحبها وأرسلوا بذلك مناديا الى مكة (٥)

(٣) الاغانى ١٢٤ ج ١

(٢) الاغانى ٩٤ ج ١٧

(١) الاغانى ٧٦ ج ٣

(٥) الاغانى ٥٢ ج ٨

(٤) الاغانى ٢ ج ١٣

وكان الخلعاء في البادية كثيرين ، يجتمعون ويؤلفون عصابات من الصعاليك يقطعون السبل ويتمردون على القبيلة . فلما جاء الاسلام أصبح تمردهم على الحكومة . فقد كان يعلى الأحول من شعراء الدولة الأموية خليعا ، يجمع صعاليك الأزدي وخلعائها فيغير بهم على أحياء العرب ويقطع الطريق على السابلة . وكان بين تجار الرقيق من يبتاع الخلعاء ويذهب بهم الى بلاد الروم

العبيد في الجاهلية (*)

الاسترقاق

الاسترقاق قديم مثل قدم الانسان ، لأن الانسان مفطور على الاستبداد، والقوى يستعبد الضعيف . وكان الانسان في اول عهد العمران اذا غلب عدوه وقبض عليه لا يستعبده بل يقتله ، الا النساء فقد كانوا يستبقونهن للاستمتاع بهن . ثم صاروا يستعبدون الاسرى ويستخدمونهم في حرث الارض ورعاية الماشية ، أو نحو ذلك من الصناعات ، أو يبيعونهم بيع المتاع . ذلك كان شأنهم في عهد التمدن القديم في مصر وأشور وبابل . وكان للاسترقاق سوق رائجة في الدولة الرومانية ، فكانوا يأتون بالاسرى بالمئات والالوف، ويبيعونهم بيع الاغنام ويعاملونهم معاملة الحيوانات . ولما انتظم حال تلك الدولة ، صاروا يتزوجون بالجوارى ، وبعد أن كان الروماني يتصرف بعبيده كما يشاء من قتل أو جلد ، أصبح قصاصه منوطا برأى القضاة ، واذا بالغ السيد في ظلم عبده حكم القضاة عليه

على أن العبيد ما زالوا كثيرين في المملكة الرومانية ، لا يخلو منهم بيت ، وأكثرهم من الاسرى أو ابنائهم ، يستخدمونهم في المنازل ويعلمونهم الصناعات على اختلاف ضروبها ، ويبيعونهم في أسواق خاصة بالرقيق . ويختلف ثمن العبد عندهم من عشرين ريالاً رومانيا الى أربعة آلاف ريال ، ويقال نحو ذلك في سائر الممالك القديمة . فالفرس مثلا كانوا يستعبدون الاتراك في الحرب ويتهادونهم ، وقد يتهادون أبناء الامراء منهم . ومما ذكره التاريخ من ذلك أن أبرويز ملك الفرس اهدى الى موريقس Mauricius ملك الروم مائة غلام من أبناء اراكنة الترك في غاية الحسن والجمال ، في آذانهم أقراط من الذهب فيها الدر واللؤلؤ ، في جملة هدايا اخرى . فأهداه ملك الروم هدية فاخرة ، في جملتها عشرون جارية من بنات ملوك برجان Burgundians والجلالقة Gallicians والصقالبة Sclavs والوشكنس Gascons من الاجناس المجاورة لبلاده على رؤوسهن اكاليل الجواهر (١)

(*) يريد بالعبيد هنا الرق ، وكنا نستصوب استبدال كلمة العبيد هنا وفي الفقرة التالية بلفظ « الرق »

(١) المسعودي ١١٩ ج ١

والعرب أيضا كانوا يستخدمون العبيد من أسرى الحرب ، أو ممن يتباعونهم من الأمم المجاورة لجزيرتهم ، كالحبشة وما حولها من الأمم المتوحشة . فكان النخاسون يحملون العبيد والاماء من تلك البلاد وغيرها الى جزيرة العرب ، يبيعونهم في أسواقها في المواسم ، وكانت قريش تتجر بالرقيق مثل اتجارها بسائر السلع . ومن أشهر النخاسين في الجاهلية عبد الله بن جدعان التيمي رئيس قريش في حرب الفجار (١) فاذا اشترى احدهم عبدا وضع في عنقه حبلا وقاده الى منزله (٢) كما تقاد الدابة . واذا كان العبد أسير حرب جزوا ناصيته وجعلوها في كنانتهم حتى يفتدى نفسه . وكانوا يتباعون الأرقاء ويتهادونهم ويتوارثونهم مثل سائر الأمتعة ، الا اذا دبر المولى عبده أى قال له : « أنت حر بعد موتى » فانه يكون حرا . وقد يخرجون العبيد في جملة صدقات العرائس ، وممن أخرج في الصدقات بشار بن برد الشاعر الاسلامى الشهير ، فانه كان هو وأمه لرجل من الازد تزوج امرأة من بنى عقيل فساق اليها بشارا وأمه في صداقها (٣)

وذلك يدل على كثرتهم ، ولا سيما عند الأمراء والملوك حتى ليزيدون على المئات والالوف . فقد وفد ذو الكلاع ملك حمير على أبى بكر ومعه ألف عبد غير من كان معه من عشيرته (٤) . ولم يكن شريف من أشراف العرب يخلو منزله من عبيد يستخدمهم في قضاء حاجات منزله ، فعبدالله بن أبى ربيعة كان له عبيد من الحبشة يقومون بجميع المهن ، وكان عددهم كثيرا وفيهم من يخرج للحرب . وقلما كانوا يثقون بأمانتهم (٥) على أنهم كانوا يستعينون بهم في القتال ، وكان لذلك شأن بعد الاسلام . وكانوا يجعلون الحد على العبد نصف ما على الحر (٦) واذا شهد حربا لا يضرب لهم بسهم (٧) بل يكون سهمه لسيده

وكان من أصناف العبيد عندهم « القن » ، وهو العبد الذى يعمل فى الارض ويباع معها ويشبه ما يعرف باسم Cerf فى المملكة الرومانية . ومن العبيد من يدخل الرق بالمقامرة ، كما اتفق لأبى لهب مع العاصى بن هشام ، فانهما تقامرا على أن من قمر كان عبدا لصاحبه ، فقمره أبو لهب فاسترقه واسترعاه ابله (٨) وكانوا يسترقون المدينين أيضا

وكانت العرب تتزوج الاماء ، فاذا ولد لهم منهن اولاد استعبدوهم ، فاذا

- | | |
|----------------------|----------------------------|
| (١) المسعودى ٢٨٢ ج ١ | (٢) المعارف لابن قتيبة ١١٢ |
| (٣) الاغانى ٢٠ ج ٢ | (٤) المسعودى ٢٨٧ ج ١ |
| (٦) الاغانى ١٢٤ ج ١٤ | (٥) الاغانى ٢٢ ج ١ |
| (٨) الاغانى ١٠٠ ج ٢ | (٧) المعارف لابن قتيبة ١١٠ |

أنجب أحدهم الحقوه بأنسابهم واعترفوا به والا بقى عبدا . وأشهر حوادث الاستلحاق على هذه الصورة الحاق عنتره العيسى بأبيه شداد ، وهو ابن جاريته زبيبة . وكان شداد نفاه فلما أنجب ألقه بنسبه (١) وقصته مشهورة . وكان العرب قبل الاسلام لايعتقون عبيدهم الا لسبب هام . واذا أحب العبد العتق ، استباع اى طلب البيع ، فاذا رضى صاحبه باعه لسواه . أما بعد الاسلام فقد كثر الاعتاق لحكمة سياسية دينية سيأتى ذكرها (*)

الموالى فى الجاهلية

المولى عند العرب وسط بين العبد والحر ، والغالب فيه أن يكون عبدا معتقا ، فكل عبد أعتق صار مولى ، وهو يشبه ما كان فى الدولة الرومانية من العبيد المحررين ويسمونهم Libertines وكل عبد أو أسير أعتقه صاحبه فهو مولى له ، وينسب اليه أو الى قبيلته أو رهطه . فمولى العباس مثلا هو مولى بنى هاشم ، وهو أيضا مولى قريش ومولى مضر . وقد ينسب المولى الى بلد معتقه ، فيقال فلان مولى أهل المدينة ، أو مولى أهل مكة . والمولى عندهم كالقريب ، ولكنهم يسمون قرابة الأهل صريحة وقرابة المولى غير صريحة . ويطلق المولى على الصاحب والقريب وابن العم والجار والحليف والابن والعم والنزيل والمحب والتابع والصهر وغير ذلك ، وأكثرها يطلق على المولى بسبيل المجاز . وأما عند التحقيق فالموالى ثلاثة أنواع : مولى عتاقة ، ومولى عقد ، ومولى رحم .

(١) الاغانى ١٤٨ ج ٧

(*) يقول العرب «عبد» والجمع عبيد وعباد ، ويقولون للاناك من الرقيق اماء والمفردة «أمة» ، ويستعملون لفظ الجنس «رقيق» ، ولم يرد هذا اللفظ فى القرآن الكريم ، وإنما تستعمل مكانه كلمة «الرفاب» والمفرد رقبية أو ما ملكت اليمين . ويقال أيضا عبد مملوك ، لتأييد معنى الملك ، ومملوك فقط ، وغير ذلك . وقد عرفت كل هذه المصطلحات تطورات شتى على طول تاريخ الاسلام ، فالمملوك والغلام والجارية والفتى مثلا فى القرن الرابع الهجرى لا تحمل نفس المعانى التى كانت لها فى القرن الاول . وقد كان الرق معروفا فى الجاهلية ، وكان الرقيق من المتاجر التى تدر على القرشيين ربعا عظيما ، ومن اشتهر بالتجارة فيه عبد الله بن جدعان ، وكان معظم الرقيق الذى كانوا يتاجرون فيه من الاحباش ، وكان فيهم القليلون من الروم وربما من العرب أيضا ، وان كان الغالب ان يكون الرقيق العربى ابنا لجارية فلزمه رق أمه ، وكان المفروض الا يعترف به أبوه ابنا شرعيا له الا اذا شاء ذلك ، وقصة عنتره بن شداد التى بين ايدينا انما هى لذلك قصة ذات موضوع ، فهى تصور جهاد ابن جارية للخروج من رقه بارغام أبيه على الاعتراف به ابنا شرعيا ، وفى سبيل ذلك أتى عنتره بما أتى به من ضروب البسالة

انظر :

G. Jacob, Altarabische Bedwinenleben, Berlin 1897, p. 137-139, 213

Bischr Fares, L'honneur chez les Arabes avant l'Islam. Paris 1932, p. 71.

Lammens, Le berceau de l'Islam. Rome, 1914, p. 299.

دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة ، مادة «عبد» بقلم و. برونشفيج

فمولى العتاقة هو الذى كان أسيرا أو عبدا وأعتق ، وكانوا يعتقون الأسير مكافأة على احسان ، فيشترط الرجل على عبده مثلا اذا فعل كذا وكذا فهو حر ، ويكون مولى لمعتقه ، وكان لذلك تأثير كبير فى صدر الاسلام ، لان المسلمين كثيرا ما كانوا يستعينون بالعبيد على أسيادهم بطريق الاعتاق . ومن أمثلة ذلك أن المسلمين لما حاصروا الطائف فى السنة الثامنة للهجرة وكادت تمتنع عليهم ، أمر النبى (صلعم) مناديا فنادى : « أيما عبد نزل فهو حر وولأؤه لله ورسوله » فنزل جماعة كبيرة (١) وقد يكون الاعتاق لسبب آخر

وإذا كان العبد من أسرى الحرب وأرادوا اعتاقه جزوا ناصيته وخلوا سبيله ، فيصير مولى لمالك تلك الناصية . ومن قول حسان بن ثابت شاعر النبى (صلعم) بعد واقعة أحد جوابا على قول هبيرة بن أبى وهب :

ألا اعتبرتم بخيل الله اذ قتلت أهل القليب ومن ألفينه فيها
كم من أسير فكناه بلا ثمن وجز ناصية كنا مواليها (٢)

المكاتبة

وقد يقع العتاق باتفاق بين العبد وصاحبه بالبيع ، وهو ما يعبرون عنه بالمكاتبة ، وذلك أن يكتب العبد على نفسه صكا بثمن اذا سعى وأداه عتق ، وقد يجعل الدفع أنجما « تقسيطا » ، فأبو سعيد المقرئ أحد كبار التابعين كان عبدا لرجل من جندع ، وكاتبه على أربعين ألفا وشاة لكل أضحى فأداها (٣)

قلنا أن من أعتق عبدا كان ولأؤه له ، ومعنى ذلك انه يكون هو صاحب ولاءه ، فينسب اليه ، واذا مات كان هو وارثه . على أنهم كانوا يشترطون أحيانا ألا يكون ولأؤه لمعتقه ، بل يكون لمن يؤدي ثمن المكاتبة . وقد تكون العتاقة « سائبة » ، وهى أن يعتق العبد ولا ولاء له . فكان الرجل اذا قال لعبده : « أنت سائبة » يعتق ولا يكون ولأؤه لمعتقه ، ويضع ماله حيث شاء . ومن أشهر المعتقين سائبة سالم مولى أبى حذيفة بن عتبة ، وأصله من اصطخر وكان مملوكا لبثينة امرأة أبى حذيفة ، فأعتقته سائبة (٤) على ان الاسلام نهى عن أن يكون الولاء لغير المعتق ، فبريرة بنت سعود الثقفية دخلت على عائشة أم المؤمنين تستعينها فى كتابتها وعليها خمس اواق نجمت عليها فى خمس سنين ، فقالت لها عائشة : « رأيت ان عددت

(١) العقد الفريد ٢ ج ٢

(٢) ابن هشام ١٠٥ ج ٢

(٣) المعارف لابن قتيبة ١٥٤

(٤) المعارف ٩٢

لهم عدة واحدة أبيعك أهلك فأعتقك فيكون ولاؤك لي ؟ » فذهبت بريرة الى أهلها فعرضت ذلك عليهم ، فقالوا : « لا ، الا ان يكون لنا الولاء » . قالت عائشة : « فدخلت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فذكرت ذلك له فقال : اشترها فاعتقها فانما الولاء لمن أعتق » (١) الا ان يشتري أحد ذلك الولاء من صاحبه فيصير الولاء الى المشتري ، كما أصاب ابا معشر أحد اصحاب الحديث ، فقد كان مكاتبا لامرأة من بنى مخزوم فأدى وعتق ثم اشترت ام موسى بنت منصور الحميرية ولاءه (٢)

ومن أسباب العتاقة عندهم التدبير ، وذلك ان يقول الرجل لعبده أنت حر بعد موتى فلا يرثه أهله (*)

مولى العقد

ويقال له أيضا مولى حلف أو اصطناع ، وذلك ان ينتمى الرجل الى رجل بالخدمة على اختلاف ظروفها ، أو بالمخالفة أو المخالطة أو الملازمة على ان يتعاقب ذلك أجيالا . ومن أمثلة الموالى بالمخالفة أو المخالطة اليهود في يثرب (المدينة) فقد جاء الاسلام وهم يعدون من موالى الاوس والخزرج ، فولأؤهم من قبيل الحلف . ولولاء اليهود في يثرب تاريخ يطول شرحه ، خلاصته ان اليهود نزلوا قبل الميلاد ببضعة قرون وتوطنوها قبل ان ينتقل اليها الاوس والخزرج من عرب اليمن ، فلما جاءوا اليها رأوا اليهود مستأثرين بالارض والماشية فأقاموا في ضيق ، حتى اتفق أن أميراً منهم اسمه مالك بن عجلان استشار ملك غسان بالشام في شأنهم ، وكأنه استعانهم عليهم فاتفقا على الكيد لهم . فجاء المدينة وفعل ذلك فذل اليهود وخافوا ، واصبحوا اذا داهمهم أحد من الاوس أو الخزرج بشيء يكرهونه ، لايمشون بعضهم الى بعض كما كانوا يفعلون من قبل ، بل يذهب كل منهم الى جيرانه الذين هو بين أظهرهم فيستجير بهم ، فلجأ كل قوم من اليهود الى بطن من الاوس أو الخزرج يتعززون بهم (٣) ويحسالفونهم على انهم موالىهم ، وفيهم من ينسب ولاءه الى رهط خاص كموالى بنى النجار أخوال النبي (صلى الله عليه وسلم) أو موالى غيرهم من عرب المدينة

ومن هذا القبيل أكثر موالى العرب بعد الاسلام ، فقد كان العرب أهل

(١) البخارى ٦٠ ج ٢ (٢) المعارف ١٧٢

(*) التدبير هو ان يقرر الرجل ان عبده معتق بعد موته ، واصله قول الرجل لعبده : « أنت حر عن دبر منى » اي بعد موتى . والمذاهب الاسلامية كلها تجيزه على اختلاف في الأحكام، وكلها تقرر استحالة الرجوع عن قرار العتق تدبيراً ، فاذا أراد الرجل الرجوع فيه اباح له الشافعيون والحنابلة بيع العبد الى رجل آخر ، فيسقط حق العبد في الحرية بعد موت مالكه الاول ، أما الحنفيون فلا يجيزون ذلك الا اذا كان الوعد بالتحريم مقيداً بشرط . وكان للمالك ان يضجع عبده المدبرة ، ويجرى على اولادها في هذه الحالة ما يجرى عليها

(٣) الاغانى ٩٧ ج ١٩

السيادة والشوكة ، وأهل البلاد يلزمونهم بالخدمة أو المخالطة أو المعاشرة ، فينسبون اليهم ويسمون ذلك ولاء الموالاتة ، وهي أن يقول شخص لآخر : « أنت مولاي ترثني اذا مت ، وتعقل عنى اذا حييت » فيقول الآخر : « قبلت » . ولكل طبقة من العرب طبقة من الموالى ، فقد كان البرامكة مثلا من موالى الرشيد ، ومن هم دونهم من العجم موالى الامراء ، وهكذا

وكان المولى فى الجاهلية ربما كان نصرانيا أو يهوديا أو مجوسيا ، لا فرق فى ذلك عندهم ، فموالى النبى (صلعم) كان أحدهم حبشى الاصل والآخر يونانى الاصل والآخر قبضى الاصل والآخر فارسى الاصل (١) (*) وعدهس مولى عتبة بن أبى ربيعة كان من أهالى نينوى وقتل يوم بدر على النصرانية (٢) أما بعد ظهور الاسلام فأصبح الولاء خاصا بالمسلمين ، لأن القرآن نهى عن تولى اليهود والنصارى والآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » الخ . وصاروا يعدون بعد الاسلام من أهل الذمة

مولى الرحم

وأما مولى الرحم فيكتسب الولاء بالزواج من موالى بعض القبائل ، فينسب الى القبيلة التى تزوج من موالىها . ومن أمثلة ذلك سيدى الشاعر ، فقد كان مولى خزاعة ، ثم ادعى ولاء بنى هاشم لأنه تزوج مولاة لال أبى لهب (من بنى هاشم) (٣)

وللموالى عند العرب أحكام عامة وأحكام خاصة ، فأحكامهم العامة ان المولى أحط منزلة من الحر وأرفع من العبد ، فهو حر لا يباع كالعبد لكنه لا يعامل معاملة الحر فى الزواج والميراث . فالمولى لا يتزوج حرة ، ودية المولى نصف دية الحر (٤) كأنه عبد . ويعامل نحو ذلك فيما يقع عليه من القصاص ، فيجلد نصف حد الحر

وأما أحكامهم الخاصة فتختلف باختلاف نوع الولاء ، وأهمها الارث ، فمولى العتاقة يورث ولا يرث ، ومولى العقد لا يرث ولا يورث ، ومولى الرحم يرث ويورث (٥) فمن أعتق عبدا كان الولاء له وهو يرثه ، ولذلك يسمونه مولى النعمة . وكان الرومانيون يرثون ثلث ما يملكه موالىهم أو يكتسبونه بالعمل

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٢

(*) الآراء مختلفة فى عدة موالى الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف صاروا الى ولانته . وقد عقد لهم فصولا معظم من كتبوا السيرة ، غير ان ادق احصاء اورده ابن الاثير (انظر طبعة المطبعة النورية الاولى ، ج ٢ ص ١٢٩ - ١٣٠) ، وتحدث عنهم المقرئى فى « امتاع الاسماع » حديثا مطولا ، والمولى الحبشى المشار اليه فى المتن هو بلال ، واليونانى هو يسار ، والفارسى سلمان ، والقبضى هو مايور الذى أهده اياه المقوقس مع مارية القبطية واختها سيرين ، وكان خصيا

(٢) المسعودى ٣١ ج ١ (٣) الاغانى ١٦٢ ج ١٤ (٤) الاغانى ١٧٦ ج ٢

(٥) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢

أو غيره ، وإذا لم يكن لهم من يرثهم من نسلهم ورثوا كل أموالهم (١)
 وكان للموالى شأن في عصبية العرب قبل الاسلام ، وقد عظم شأنهم في
 الاسلام ، حتى كانوا سببا في قلب الممالك ونقل السلطة من دولة الى دولة (٢)

النزلة الاجانب في الجاهلية

كان معظم سكان جزيرة العرب من القبائل العدنانية والقحطانية ومن
 يتبعهم من العبيد والموالى والخلفاء ونحوهم ، وفيها أيضا جماعة من النزلة
 نزحوا اليها من الحبشة والشام والعراق ومصر وفارس والهند ، وفيهم
 الاحباش واليهود والروم والكلدان والعجم والهنود وغيرهم . وكان بعضهم
 يتوالدون فيها ويتزوجون بأهلها ، فيختلطون بهم وتضيع انسابهم فيهم ،
 كالكلدان والسريان وغيرهم . وفيهم من يحالفونهم وينتمون اليهم كاليهود
 والنصارى ، ومنهم من يدخلون في جملة عبيدهم ومواليهم كالاحباش والفرس
 والهنود ، فتضيع أصولهم . ولذلك كان سكان جزيرة العرب عند ظهور
 الاسلام عربا صرفا ، الا بعض اليهود كبنى قينقاع والنضير وغيرهم ،
 وشرذمات من نصارى الروم ، وطائفة من الفرس الاحرار يعرفون بالابناء

الابناء

هم طائفة من الفرس كانوا يقيمون في بلاد اليمن ، ويعرفون بأبناء الفرس
 الاحرار أو « الابناء » تميزا لهم عن الفرس الموالى . وابتداء الفرس الاحرار
 هم ابناء الجند الفارسي الذي جاء بلاد اليمن لنصرة سيف بن ذى يزن الحميري
 على الاحباش ، وكان الاحباش قد فتحوا اليمن واستولوا عليها ، ففزع سيف
 المذكور الى كسرى ملك الفرس واستنجده في حديث طويل ، فسير كسرى
 معه بضعة آلاف من جند الفرس ومعهم قائد اسمه وهرز . فلما وصل
 الجيش الى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الاحباش ، فاستظهر الفرس عليهم
 وأخرجوهم من البلاد ، وملك سيف بن ذى يزن ووهرز أربع سنين . وكان
 سيف قد اتخذ من الاحباش خدما ، فخلوا به يوما وهو في الصيد وقتلوه
 وهربوا في رؤوس الجبال ، وطلبهم اصحابه فقتلوه جميعا ، وتضعض امر

(١) Gibbon's Roman Empire, II.

(٢) المادة عن المولى والموالى والولاء غزيرة جدا في كتب الفقه الاسلامي خاصة بحيث يتعذر
 ايرادها هنا ، وقد افاض ابن منظور في اللسان والمرضى الزبيدي في تاج العروس في الكلام على
 أنواع الولاء والموالى (مادة ولى) ولهذا نكتفى بأن نورد بعض الابحاث الاوربية الحديثة في الموضوع:

Von Kremer, Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen II, 154.

Ignaz Goldziher, Muhammedanische Studien, I, 104 sqq.

Schacht, Origins of Muhammedan jurisprudence, 265, 279.

R. Levy, Introduction to the Sociology of Islam, I, 117-127.

والمراجع التي أوردها برونشفيج في مقال «عبد» في الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الاسلامية ،

اليمن ولم يولوا عليهم أحدا من العرب ، فظلت سيادة الفرس عليها حتى ظهر الاسلام ، وفيها عاملان من قواد الفرس أحدهما اسمه فيروز الديلمي والآخر راذويه فأسلما

فالجيش الفارسي لما استوطن اليمن تزوج رجاله فيها وتناسلوا ، وورثوا الأولاد والأحفاد وعرفوا بالأبناء . واشتهر منهم في صدر الاسلام طاوس بن كيسان أحد أعلام التابعين ، ووهب بن منبه صاحب الاخبار والقصص ، ووضاح اليمن الشاعر وغيرهم

وكان مثل هؤلاء الفرس أيضا في الشام والعراق والجزيرة ، واختلفت أسماءهم باختلاف أماكنهم بعد الاسلام ، فهم يسمون في اليمن الإبناء كما رأيت ، وفي صنعاء خاصة يسمون بنى الاحرار ، وفي الكوفة الاحامرة ، وبالبحر الاساور ، وبالجزيرة الحضارمة ، وبالشام الجراجمة (١) . وكان للأبناء شأن عند ظهور الاسلام ، فتجنّدوا للمسلمين ونصروهم ، وظلوا مميزين عن سائر المسلمين غير العرب بأنهم غير الموالي (*)

سياسة الدولة في الجاهلية

لم يكن للعرب دولة في جاهليتهم ، إلا ما كان في اليمن من دول التبابعة مما لا يدخل في بحثنا . وإنما نريد بسياسة الدولة عندهم القواعد التي كانت تدور عليها احكامهم ومعاملاتهم لحفظ علاقاتهم السياسية وآدابهم الاجتماعية ، مما يقوم مقام القوانين الادارية والسياسية الدولية في الامم المتمدنة

فالرياسة عندهم أو الامارة إنما ينالها أهل العصبية والجاه ، وإذا تساوت العصبية في جماعة قدموا أكبرهم سنا ، ولذلك كان لفظ « الشيخ » عندهم يدل على الشيخوخة والرياسة معا ، وإذا أشكل عليهم الانتخاب لأي سبب عمدوا إلى الاقتراع . وكذلك إذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب ، واحتاجوا إلى من يرأسهم جميعا فانهم يقترعون بين أهل الرياسة ، فمن

(١) الاغانى ٧٦ ج ١٦

(*) يطلق لفظ « الإبناء » أيضا على اولاد سعد بن زيد بن عبد مناة بن تميم ، غدا اثنين منهم هما كعب وعمرو ، وكانوا يسكنون بالدهناء
أما لقب الإبناء فيطلق عادة على أبناء الفرس خاصة من كان في اليمن ، وكان اول دخول الفرس اليمن على أيام خسرو الاول الملقب بأنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) استجابة لاستنجاد سيف بن ذى يزن الحميري بسبب توالي غارات الاحباش على اليمن ، فأرسل حملة قوية طردت الاحباش ، ثم عاد هؤلاء الآخرون مرة اخرى فأرسل الفرس قوة اخرى طردت الاحباش من اليمن بصورة نهائية واستقرت الحامية الفارسية في اليمن حتى جاء الاسلام فأسلم قائدها باذان ورجاله وابنائهم الذين عرفوا بالابناء

واطلق لفظ « الإبناء » أيضا على اولاد أنصار الدولة العباسية الاول . والسسمية اختصار لعبارة « أبناء الدولة »
انظر :

Wüstenfeld, Register zu den genealogischen Tabellen der arabischen Staemme
Noeldeke, Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden (Leyden, 1879)
De Goeje, Glossar zu Tabari

وقعت عليه القرعة اسندوا اليه الرياسة . . ذلك هو شأن بدو العرب وهم معظمهم . وأما حضرهم في مكة فالرياسة فيهم لسادن الكعبة ، وقد تقدم ذكر مصالح الحكومة عندهم في الجزء الاول من هذا الكتاب

وكان في كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرياسة والشرف ، فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرياسة فيها ، كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش ، وبيت آل حذيفة بن بدر الفزارى من قيس ، وبيت آل زرارة بن عدى من تميم ، وبيت آل ذى الجدين بن عبد الله بن همام من شيبان ، وبيت بنى الريان من بنى الحرث بن كعب من اليمن . وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف ، لتوالى ثلاثة آباء منها في الرياسة على الاقل . ولاهمل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة (*) : وكان اهل السياسة من رجال المسلمين يلاحظون ذلك في تولية الحكام . ومن هذا القبيل وصية ابن عباس للحسن ابن على : - « ول اهل البيوتات تستصلح بهم عشائرهم »

والامير البدوى مع سلطته المطلقة قلما يستبد في احكامه ، ويغلب ان يستشير اهل بطانته وخاصته ، على انه لم يكن يحتجب عن أحد ولا يمتنن أحدا . يجالس جميع الناس ويخالطهم ، رفيعهم ووضيعهم . وهم لا يعرفون ألقاب التفخيم ولا نعوت التملق ، فاذا خاطب البدوى أميره ناداه باسمه وطالبه بحقه ، بعبارات تشف عن عزة النفس وابهاء الضيم ، أو هى انفة البداوة ، على أنهم كانوا يتكلمون على الاسنان (***) ، والامير يخاطب رعاياه بألقاب الوقار ، كالأب والعم والخال والابن أو ابن الأخ ، على ما تقتضيه الاسنان والانساب . وظل ذلك شأنهم في صدر الاسلام ، ينادون الخليفة باسمه ويحاجونه في شؤونه ، حتى اذا تحضروا احتجبوا وتكبروا ، فاتسع الفاصل بين المحكوم والحاكم

مناقب العرب في الجاهلية

الوفاء

على أن العرب قلما كانوا يحتاجون الى حاكم يفصل في الخصومة بينهم ، لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التى تقوم فيهم مقام الحاكم الصارم ، وتنزههم عن ارتكاب الدنيا مما يغنيهم عن القضاء . وسيد هذه المناقب « الوفاء » ، لأنه اذا تأصل في أمة أغناها عن القضاء - والحكومة انما تقضى بين الذين لا يعرفون الوفاء . وكان الوفاء متمكنا في خلق العربى ، ويزيد

(*) راجع الفصل القيم الذى كتبه السيد محمود شكرى الالوسى في كتابه « بلوغ الارب في معرفة احوال العرب » وعنوانه « بيوتات العرب » الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٢٤ ج ٢ ص ١٨٩ - ١٩١

(**) أى يتكلمون في المجلس بحسب السن ، يتكلم الاكبر فعن يليه وهكذا

تمكنا فيه كلما بعد عن المدن وأوغل في الصحراء ، لأن الفدر والنكث لا يعيشان الا في القصور السماء في ظل الحدائق الغناء

وترى الوفاء مطبوعا في أقوال أهل البادية وأشعارهم وامثالهم ، ويتجلى في عاداتهم وأخلاقهم وفي سائر أعمالهم ، وهو فيهم سجية وفي سواهم صناعة وتكلف . وحكاية حنظلة الطائي والنعمان بن المنذر تمثل هذه الخلقة أحسن تمثيل ، فان حنظلة وعد النعمان بالرجوع بعد عام لاستقبال الموت ، فطلب النعمان من يضمنه فضمنه شريك بن عدى ، ولم يقدم شريك على ذلك الا وهو يعتقد صدق البدو لاشتهارهم به . وقد وفي حنظلة فجاء في الوقت المعين ، لا جند يقوده ولا حراس تخفروه ، مما حمل النعمان على العفو عنه وقصته مشهورة (١)

وأغرب من ذلك وفاء السموال (صموئيل) بن عادياء ، وكان امرؤ القيس الكندي قد أستودعه سلاحا وأمتعة تساوى مالا كثيرا ، وسافر الى بلاد الروم ومات قبل رجوعه ، فبعث ملك كندة يطلب الاسلحة والامتعة المودعة عند السموال ، فلم يسلمها . ولما ألح عليه أجابه : « لا أغدر بدمتى ولا اخون أمانتى ولا أترك الوفاء الواجب على » . فجرد الملك عليه جيشا وحاصره في حصنه ، فوقع ابن السموال أسيرا عند الملك ، فهدد السموال بقتل ابنه ان لم يسلم الوديعة ، فأبى التسليم وقال : « ما كنت لأخفر ذمامى وأبطل وفائى فافعل ما شئت » . فذبح ولده والسموال ينظر . فلما امتنع الحصن على ملك كندة عاد خائبا ، وأما السموال فصبر على ما تحمله من الثكل محافظة على الوفاء ، ولم يسلم الوديعة الا الى ورثة امرىء القيس فمن كانت هذه مناقبهم قلت حاجتهم الى القوائين ، واستغنوا عن الجند والحرس وخصوصا اذا أضفنا اليها علو الهمة وطيب النفس وقلة احتمال الذل والسماحة والكرم والنزاهة عن الدنيا . . فهذه كلها مناقب العرب أهل البادية

الجوار

ومن قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الذمام ايضا « الجوار » ، فان البدوى يحافظ على جاره محافظته على نفسه . والمقصود بالجوار فى الاصل أن يحافظ الرجل على جاره القريب ، وهو من قبيل التعاون الطبيعى حتى قيل : « جارك القريب ولا أخوك البعيد » . ولكن العرب توسعوا فى ذلك حتى شقوا منه الاجارة والاستجارة والجوار ، وكلها بمعنى الحماية والحفظ ، مع ان أصل المادة « جار » يفيد عكس ذلك . واستعاروا الجوار للحماية على

(١) المستطرف ١٦١ ج ١

الإطلاق ، فاذا خاف أحدهم سوءا جاء الى رجل يحميه ، ويكفى ان يقول له : « أجرنى » فيجيره بقدر طاقته ، وقد يفرط في أهله ولا يفرط في جاره ومن امثلة ذلك ان الاعشى امتدح الاسود العنسى فأعطاه جائزة من الخلل والعنبر . فرجع وطريقه على بنى عامر فخافهم على ما معه من المال ، فأتى علقمة بن علاثة فقال له : « أجرنى .. » ، فقال : « قد أجرتك .. » ، قال : « من الجن والانس .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « ومن الموت .. » ، قال : « لا .. » ، فتركه وأتى عامر بن الطفيل فقال له : « أجرنى .. » ، قال : « قد أجرتك .. » ، قال : « من الانس والجن .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « ومن الموت .. » ، قال : « اذا مت وأنت جارى بعثت الى أهلك الدية » ، فقال : « الآن علمت انك تجيرنى » (١)

وقد يجيء بعضهم ليستجير برجل فلا يجده في بيته ، فيكفى ان يعقد طرف ثوبه الى جانب طنب البيت ، فاذا فعل ذلك صار جارا ووجب على المعقود بطنب بيته للمستجير به ان يجيره وأن يطلب له بظلامته (٢)

ومن قبيل تعظيم الجوار والمحافظة عليه ان عامر بن الطفيل لما مات نصبت بنو عامر انصابا ميلا في ميل على قبره ، لا ينشر فيه ماشية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش ، اشارة الى ما كان عليه من المحافظة على الجوار في حياته (٣)

وما زال الجوار مرعيا عند العرب بعد الاسلام ، الا من خالط الامم الاخرى في البلاد المفتوحة . على ان تأييد الدولة اقتضى ضعف الجوار ، لأن أهل الوجاهة أصبحوا من أهل الدولة ، والرجل يومئذ انما يستجير من حاكم يطلبه ، فاذا استجار به مظلوم قالوا : « انما يجير الرجل على عشيرته ، واما على سلطانه فلا » خوفا على مناصبهم ، كما اصاب ابن مفرغ لما هجا بنى زياد واستجار بالأحنف بن قيس على عبيد الله بن زياد ، وهو يومئذ أمير البصرة فأبى الأحنف خوف العزل ، وقال له : « اذا شئت ان أجيرك من بنى سعد فعلت » ، فذهب الى غيره من وجهاء العرب فأبوا اجارته لنفس هذا السبب (٤)

الأريحية

ومن المناقب التي تفنى العرب عن الوازع القهرى أو القوة الحاكمة « الأريحية » ، وهى من مقتضيات العصور الجاهلية البدوية ، او ما يجرى

(١) الاغانى ٨٣ ج ٨ (٢) الاغانى ١٨٤ ج ٢

(٣) الاغانى ١٣٩ ج ١٥ (٤) الاغانى ٥٦ ج ١٧

مجراها من احوال الفروسية التي يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ، ومرجع ذلك الى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الاحدوتة . وكان للأريحية شأن عظيم عند العرب ، لدقة شعورهم وسرعة تأثرهم ، لأنهم أهل خيال وذوو نفوس حساسة ، يقيمهم البيت من الشعر ويقعدهم ، وقد يسمعون الكلمة فتطير لها نفوسهم ، وربما بذل العربي حياته في سبيل كلمة يقولها ، أو فرارا من كلمة يسمعا ، ولذلك كثرت عندهم ضروب المفاخرة والمباهاة في المواسم والاندية ، مما يرغب في الفضائل ويغنى عن زجر الحكام ومناقب العرب كثيرة ، كالكرم والضيافة وعلو الهمة ، مما لا دخل له في موضوعنا

سياسة العرب

في عصر الراشدين

من سنة ۱۱ - ۴۱ هـ

الجامعة الإسلامية

قد رأيت أن العرب انما كانوا يتفاضلون بالعصبية ويتفاخرون بالانساب ، فلما جاء الاسلام كان في جملة ما بدله من أحوالهم أنه جمع كلمتهم وصاروا يدا واحدة على اختلاف انسابهم ومواطنهم . وبعد أن كان اليمنى يفاخر الحجازي ، والمضري يفاخر الحميري ، ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والافخاذ ، جاء الاسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو «الاسلام» ، فقال النبي : «المسلمون اخوة» ، وقال في خطبة القاها يوم فتح مكة : «يامعشر قريش ، ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب» (۱) (*) وقال من خطبة في حجة الوداع : «أيها الناس ، ان ربكم واحد وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى» (۲) (**)

واقترى بالنبي خلفاؤه الاولون ، لاسيما عمر بن الخطاب ، فان جبلة بن الإيهم ملك غسان بعد ان أسلم ، اتفق وهو يطوف بالكعبة أن فزاريا وطىء زاره فانحل ، فرفع جبلة يده وهشم الفزارى ، فشكاه الى عمر فأراد ان يهشم أنف جبلة ، فقال : «وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ؟» فأجابه عمر : «ان الاسلام جمعك واياه ، فلست تفضله بشيء الا بالتقى والعافية» ، فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد الى الفرار (۳)

(۱) ابن هشام ۲۱۹ ج ۲

(*) بقية حديث ابن هشام تكمل ما يريد المؤلف قوله هنا . قال ابن هشام بعد ذلك : « ثم تلا هذه الآية (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكروا نثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم) الآية كلها ، ثم قال : يامعشر قريش ، ماترون انى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، اخ كريم وابن اخ كريم . قال : اذهبوا فانتم الطلقاء » - ابن هشام : السيرة ج ۴ ص ۵۴ - ۵۵

(۲) البيان والتبيين للجاحظ ۱۶۴ ج ۱

(**) رجعت الى نص خطبة حجة الوداع عند ابن هشام فلم أجد فيها هذا الحديث الشريف ، ثم رجعت الى نص الخطبة كما نقلها الدكتور حسين هيكل في كتابه عن محمد صلى الله عليه وسلم فلم أجدها ايضا . وانما الذى فيها مما يتفق مع المعنى الذى يريد المؤلف هنا : « ايها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن ان كل مسلم اخ للمسلم ، وان المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس ، فلا تظلمن انفسكم ، اللهم هل بلغت .. »

أنظر : سيرة ابن هشام ، طبعة السقا والابيارى وشلبى ، القاهرة ۱۹۲۶ ج ۴ ص ۲۵۱ - ۲۵۲ حياة محمد للدكتور هيكل ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ۱۳۵۸ ، ص ۴۷۲ - ۴۷۴

(۳) الاغانى ۴ ج ۱۴

فيؤخذ من ذلك أن الجامعة الكبرى إنما هي الإسلام ، ولكنهم كانوا يجعلون للعرب مزية على سواهم من الأمم لانهم قوام الإسلام ، وأوصى عمر بن الخطاب بأهل البادية خيرا ، لانهم أصل العرب ومادة الإسلام (١) وقال : « اياكم وأخلاق العجم » ، والإسلام نهضة عربية جمعت العرب على العجم . وعمر أول خليفة فضل العرب وجعل لهم مزية على سواهم ومنع من سبيهم ، ومن أقواله : « قبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضا وقد وسع الله عز وجل وفتح الإعاجم » ، وفدى سبايا العرب من الجاهلية والإسلام إلى أيامه (٢) عملا بالحديث « لا سباً في الإسلام »

وكان عمر لا يدع أحدا من العجم يدخل المدينة (٣) وهو الذي قسم خيبر بين المسلمين وأخرج اليهود منها ، وقسم وادي القرى وأجلى يهود نجران إلى الكوفة (٤) لتخلو جزيرة العرب من غير العرب . وكان كثير العناية بالجامعة العربية يوصى العرب بحفظ أنسابهم لئلا تضع عصبيتهم ، ومن وصاياه : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدكم عن أصله قال : من قرية كذا . . » (٥)

الجامعة العربية :

ثم إن عمر ، مع حرصه على الجامعة العربية واختصاص جزيرة العرب بها ، قد حرص العرب المسلمين على سكنى العراق والشام فقال : « ليست الحجاز لكم بدار إلا على النجعة . . سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها » (٦) لعلمه أن في العراق والشام عربا يتحدون معهم وينصرونهم . وكان عرب العراق ناقلين على الفرس من أيام دولتهم ، لما كانوا يسومونهم إياه من الاضطهاد . وكانت ديانة بعض عرب العراق والشام النصرانية ، ولكنهم فرحوا بالمسلمين وكانوا ينصرونهم للعصبية العربية وليس للدين . وخصوصا عرب العراق فانهم حاربوا مع المسلمين ودلوهم على عورات الفرس - فأبو زبيد الطائي حارب مع المسلمين في واقعة الجسر حتى قتل وهو نصراني ، وانما حارب حمية للعرب . وجاء المسلمين يوم واقعة البويب أنس بن هلال النمري في جمع عظيم من النمر - وهم نصارى - وقالوا : « نقاتل مع قومنا » (٧) وكذلك فعل جماعة من تغلب وغيرهم حمية للجامعة العربية ، بقطع النظر عن الدين

وكثيرا ما كان عرب الشام والعراق عوناً للمسلمين في حروبهم ، يرشدونهم

(٢) ابن الأثير ١٨٦ ج ٢

(١) ابن الأثير ٢٥ ج ٢

(٤) ابن الأثير ٢٨٠ ج ٢

(٣) المسعودي ٢٩ ج ١

(٧) ابن الأثير ٢١٥ ج ٢

(٦) ابن خلدون ١٢٢ ج ١

(٥) ابن خلدون ١٠٩ ج ١

وينصحونهم ويحملون اليهم اخبار أعدائهم . فلما خرج الوليد بن عقبة غازيا للروم لقيه الروم فقاتلوه ، فجاءه رجل من العرب نصراني وقال له : «انى لست من دينكم ولكننى انصحكم للنسب ، فالقوم مقاتلوكم الى نصف النهار ، فان رأوكم ضعفاء أفنوكم وان صبرتم هربوا وتركوكم» (١) وقد نفعته هذه النصيحة ولم يكن عمر يجهل تلك الرابطة، فحرض المسلمين على فتح الشام والعراق . ولما رأى ما كان من نصرة عرب العراق لهم عرف فضلهم ، فلما هم المسلمون بوضع الجزية على أهل الذمة وفي جملتهم عرب تغلب وايباد والنمر - وهم نصارى - أبى هؤلاء الجزية ، وبلغ عمر ذلك فاستشار أصحابه فقال له بعضهم: «أنهم عرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك عليك» فوافق ذلك ما في نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين ، ولكنه شرط عليهم أن لا ينصروا أولادهم (٢)

كل ذلك محافظة على الجامعة العربية ، وكان يعد ذلك حقا واجبا . فلما سار الوليد بن عقبة لفتح العراق والجزيرة ، انضمت اليه عربها النصارى ، الا قبيلة ايباد ، فانهم تحمّلوا الى بلاد الروم ، فكتب الوليد الى عمر بذلك ، فكتب عمر الى ملك الروم : «بلغنى أن حيا من احياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ، فوالله لتخرجنه الينا أو لنخرجن النصارى اليك» فأخرجهم ملك الروم (٣)

الانسياح فى الارض :

فعمر حرض العرب على فتح الشام والعراق توسيعا للجامعة العربية ، والاستعانة بها على الروم والفرس ، ولكنه لم يأذن لهم بفتح ما وراءهما الا فى السنة السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، وهو ما يعبرون عنه بالانسياح فى الارض . فكانوا يتطلبون الفتح وقد طابت لهم الغنائم واستلذوا النصر ، فاذا استأذنوه فى فتح بلد مما وراء ذلك لم يأذن لهم ، كما وقع لعمر بن العاص لما أراد فتح مصر ، وكان قد عرفها من أيام الجاهلية ، فلما فتحت الشام والعراق جاء الى الخليفة عمر ورغبه فى فتحها وقال له : «انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى اكثر الأرض اموالا وأعجز عن القتال والحرب» فلم يجبه عمر ، ولما ألح عليه اطاعه وهو يتردد وقال له : «سر . . انى مستخبر الله فى سيرك ، وسيأتيك كتابى ان شاء الله تعالى ، فاذا أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف ، والا ان دخلتها قبل ان يأتى كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره» . فسار عمرو بجنده مسرعا خوفا من أن يأتىه كتاب الخليفة بالرجوع . فوصله كتابه فى بلد قرب العريش خارج حدود مصر ، فلم يفتح الكتاب حتى نزل العريش وهى من مصر ،

(١) ابن الاثير ٢٦٢ ج ٢

(٢) المعارف ١٩٢

(٣) الاغانى ١٨٧ ج ٤

ففض الكتاب واذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته ، أما بعد فان أدركك كتابي هذا وأنت لم تدخل مصر فارجع عنها ، وأما اذا أدركك وقد دخلتها أو شيئاً في أرضها فامض واعلم أنى ممدك » ، فمضى حتى فتح مصر

ولما فتح المسلمون الاهواز قال عمر : « ليت بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون اليها ولا نصل اليهم » . ومن هذا القبيل نهيه المسلمين عن اجتياز البحر . وكان اذا هم المسلمون بالنزول في بلد أو انشاء معسكر في البلاد المفتوحة اوصاهم أن لا يقيموا في مكان يفصل بينه وبين المدينة (مركز الخلافة) ماء ، حتى اذا أراد أن يأتيهم أتاهم على راحلته ، مما يدل على رغبته في العصبية العربية على أن يكون مركزها في بلاد العرب . ومع ذلك فلما لم ير بدا من الانسياح في الارض أذن لقواده بالفتح ، ولكنه ظل على رأيه في القرشيين على الخصوص ، فحصرهم في المدينة ومنعهم من الخروج وقال : « أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد » ، فاذا جاء الرجل منهم يستأذنه في الغزو أجابه : « قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك ، وخير لك من غزوك اليوم أن لا ترى الدنيا ولا تراك » . كان يفعل ذلك بالمهاجرين من قريش فقط ، فلما ولي عثمان خلى عنهم ، فلحق معظمهم بمعاوية في الشام وانتشروا في البلاد (١)

فسياسة عمر بن الخطاب في أوائل دولته كانت تقضي ببقاء العرب محصورين في جزيرة العرب وما يليها من الشام والعراق ، وأن يختص قريشا بالإقامة في المدينة لأنها مركز الاسلام وهم أساسه ومنشأه ، على أنه لم يستطع وقف تيار الفتح فلم ير بدا من الاذن في الانسياح (*)

(١) ابن الاثير ٩٠ ج ٢

(*) لم تتقدم الدراسات حول عمر بن الخطاب في العصر الحديث خطوة واحدة عما كانت عليه في القرن الرابع الهجري ، وكل من كتبوا عنه من مؤرخي المسلمين المحدثين يدورون حول معان كهذه التي اوردتها الطبري في كتابه : « الرياض النضرة في مناقب العشرة » ، القاهرة ١٣٢٧ . اما المستشرقون فلم يخرجوا عما قاله الاب هنرى لامانس في مقاله المعروف « ثالوث ابي بكر وعمر وابي عبيدة بن الجراح » :

Henri Lamans, Le Triumvirat Abu Bakr-Umar-Abu Ubaida ibn al Jarrah dans l'Inde sur le siècle des Umayyades

وما كتبه ليسوني كاييتاني في المجلد الخامس ، من تاريخه الطويل Annali dell'Islam وهو اوسع دراسة حديثة لعمر واعماله . ولكن كاييتاني اساء الظن وذهب مذجبا ماديا صرفا في الدرس والتحليل ، وغابت عنه نواحي الجمال في الشخصية العمرية . واغرب ما ذهب اليه تسميته عمر بالقديس بولس ، مع ان الفرق بين الاثنين عظيم ، فالقديس بولس دايمة ومخاطب دعاة وواضع طقوس ، وهو الذي أخرج من حياة المسيح وافعاله طقوسا وعبادات ، اما عمر فكان رجلا دولة ومنظما من الطراز الاول ، وكان الى جانب ذلك على خلق متين وايمان لا يتزعزع . وبهنا هنا - في مجال التعليق على كلام المؤلف - موقفه من العرب وايمانه بالعروبة ، فقد كان عربيا صريحا يعرف مواضع قوة العرب ومواضع ضعفهم ، فاجتهد في الافادة من مواطن القوة على احسن صورة ممكنة ، وحرس على ان يجنب العرب التعرض لمواطن الضعف ، ومن هنا كان حرصه على الا يختلطوا بالناس ويستقروا في الارضين فيستقيموا الى الدعة ، وهم عدد قليل وسط-

فالعصبية التي قام بها الاسلام هي الجامعة العربية ، ولذلك كان اللفظان مترادفين في ذلك الحين ، وخصوصا عند الامم التي خضعت لسلطان المسلمين ، فكانوا اذا قالوا «العرب» ارادوا «المسلمين» ، وبالعكس. ولفظ «طيوتا» عند السريان يدل على العرب والمسلمين على السواء ، والفرق بين هذه الجامعة قبل الاسلام وبعده ان العرب كانوا في الجاهلية عصبية واحدة تجمعها كلمة العرب ، وتركوا ذكر الانساب ، فأصبحوا بالاسلام عصبية واحدة تجمعها كلمة العرب ، وتركوا ذكر الآباء والاجداد عملا بما يقتضيه روح الاسلام . وكانوا في جاهليتهم يتفاضلون بالانساب ، فأصبحوا في الاسلام يتفاضلون بالتقوى والجهاد في سبيل الدين ، فنشأت فيهم جامعات اسلامية فرعية لم يكن لها ذكر من قبل (*)

طبقات عربية اسلامية

لما قام النبي (صلعم) بالدعوة الاسلامية، احتاج الى من يسمع دعوته وينصره، فاجتمع حوله جماعة من قبيلته صدقوه ونصروه ، وهاجر بعضهم الى الحبشة وهاجر الآخرون الى المدينة معه فعرفوا بالمهاجرين ، وهم أقدم الطبقات الاسلامية . ولما جاء المدينة وأقام فيها نصره أهلها وآمنوا بدعوته فسماهم «الانصار» وهم طبقة أخرى ، والطبقتان معا تسميان «الصحابة» أي الذين صحبوا النبي أو عرفوه . وتفرع من الصحابة جماعات تعرف كل منها بجامعة خاصة لاحوال خاصة كان لها تأثير في نصره الاسلام او نشره . فواقعة بدر كان

محيط واسع من البشر فتذهب ربحهم . وربما كان موقفه من الصحابة أعظم دليل على مهارته السياسية ؛ فقد عرف ان تفرقهم في النواحي يتيح الفرصة لالتفاف الناس حولهم ، وربما اغرى ذلك بعضهم بطلب السلطان ، فالزمهم بالمقام في المدينة او مكة تحت بصره ، وقد خدمهم بذلك خدمة كبرى لم يعرفوا قدرها الا بعد مقتله ، فقد تعرضوا للسياسة واخذتهم التيارات ووقع الشقاق بينهم مما ادى الى وقوع الفتنة

ومن النواحي الخاصة التي امتاز بها عمر اعتماده على الشباب دون الشيوخ ، وكان شباب بني امية اقرب الى قلبه من غيرهم لادراكهم شؤون الادارة وتقديرهم للمسئولية ونمو الشعور بالنظام في قلوبهم ، ولهذا فقد ولى الكثيرين منهم الولايات العظيمة ، وهو في الحقيقة الذي مهد لهم الطريق للسلطان ، وقد عبر المقرئ عن ذلك في كتابه « النزاع والتخاصم بين بني امية وبنى هاشم » بقوله انه هو الذي « حدد انبياهم » ، وتاريخ الدولة الاموية لهذا يبدأ من خلافة عمر ، بل من اواخر ايام الرسول صلى الله عليه وسلم

ويذهب المستشرقون الى ان عمر نقل الدولة الاسلامية من اسلامية الى عربية ، وجعل الصدارة فيها للعرب ، واعتز بخصال العروبة واجتهد في المحافظة على الكيان العربي سليما ، وهذا كله صحيح . ولكن عمر لم يغمط قدر غير العرب كما يقول فلهاوزن وكايتاني ، فالواقع ان عمر ، رغم ايمانه بالعرب واعتزازه بهم ، هو الذي ابتكر فكرة ربط الشعوب المفتوحة الى العرب برابطة الولاء ، فرفع اهل هذه البلاد الى مرتبة المواطنة الكاملة في الدولة تحت اسم «الموالي» ولم يكن الموالي اقل في شيء من العرب ، سواء في الحقوق او الواجبات ، وهو الذي حال بين العرب الفاتحين وتملك الاراضي المفتوحة ، فحال بذلك بين الموالي وبين ان يصيروا رقيقا ، ومن هذه الناحية يعتبر عمر من اعظم المتكبرين في ميدان التشريع العام لا الاسلامي فقط . وموضوع عمر في حاجة الى دراسات طويلة جديدة لا تدور حول « مناقب العشرة » بقدر ما تدور حول عبقرته السياسية وقدرته التنظيمية ، وتمكنه رغم ضعف الاداة التي كانت بين يديه من السيطرة على جيوش قوية منتصرة كان من الممكن ان يستبد قوادها بما فتحوا . وتنضح قيمة ذلك كله اذا نظرنا الى ما وقع بعد وفاته بسنوات قلائل ، أي في خلافة عثمان

(*) يستعمل المؤلف هنا لفظ جامعة بمعنى الرابطة، فالجامعة الاسلامية هي الرابطة الاسلامية وكذلك الجامعة العربية هي رابطة العروبة

لها شأن عظيم في تأييد الاسلام ، فامتاز الصحابة الذين شهدوها عن سائر المسلمين ونسبوا اليها فسموا «البدرين» أو «أهل بدر» ، وكذلك واقعة القادسية التي كانت عنوان فتح العراق وفارس ، فان الذين شهدوها عرفوا بأهل القادسية . وقد جعل المسلمون لكل من هذه الطبقات أو الجماعات امتيازات خاصة ، وفضلوا أهل بدر وأهل القادسية بالعطاء على سائر المسلمين ويقال نحو ذلك في من شهد فتح مكة أو سواها من الوقائع الاخرى التي كان لها شأن في الاحزاب الاسلامية ، كواقعة الجمل وواقعة صفين ، فان شيعة علي يفضلون من رجالهم الذين شهدوا واقعة الجمل لانهم انتصروا فيها ويسمونهم «أصحاب الجمل» ، وشيعة بنى أمية يفضلون «أصحاب صفين» لمثل هذا السبب ، وقد زاد معاوية عطاء هؤلاء عن سائر أصحابه

على ان الصحابة يتفاضلون أيضا في السبق الى الهجرة أو الى البيعة، ومنهم اصحاب بيعة العقبة وأصحاب الغار * . والذين لهم صحبة قبل بيعة الرضوان يفرقون عن صاحب بعدها ، ونحو ذلك مما يطول شرحه . ناهيك بالمناصب التي اقتضتها الاحوال الدينية أو الادارية ، كالحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم والعمال والقضاة والتابعين وتابعي التابعين وغيرهم (***)

على ان عصبية النسب لم تذهب بعد الاسلام ذهابا تاما ، ولكنها تحولت الى وجهة دينية ، فأصبح أشرف الانساب عندهم . أقربها الى قبيلة النبي «قريش» فالنسب القرشي أشرف الانساب ، وللقريشيين التقدم في المناصب والمراتب والعطاء وخصوصا بعد اشتهار الحديث : «الائمة من قریش» (١) فاعتقدوا الفضل للقريشيين على الناس كافة في كل شيء ، حتى في احوال الحياة والولادة فقالوا : «لا تحمل لستين الا قرشية ، ولا تحمل لخمسين الا عربية» (٢) (***)
وانه لا تكون بنت امرأة قرشية أمة (٣) وان القرشي لا يتزندق (٤) وانه لا ينبغي

(*) لا ادري ما المراد بأصحاب الغار هنا ، لان الغار ليس فيه الا صاحب واحد هو ابو بكر الصديق ، ولعل المراد هنا اصحاب الشعب وهم الذين حاصرتهم قریش مع الرسول صلى الله عليه وسلم في شعب خارج مكة وقاطعوهم وكتبوا وثيقة مقاطعتهم في «الصحيفة» المشهورة (***) لا يعد الحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم من اصحاب المناصب ، ولم يكونوا كذلك طبقات متميزة ، بل لم يكونوا جماعات ذات وحدة وامتياز معين ، وانما هم افراد امتاز بعضهم بميزانهم الشخصية ، وهم في هذا يخلفون عن اصحاب المناصب الحقيقية كالقضاة وامراء الجند وعمال النواحي ومن اليهم

(١) العقد الفريد ٤٠ ج ٢ (٢) الاغانى ٨٨ ج ١٥

(***) معنى ذلك ان القرشيات وحدهن هن اللاتي يحملن ويلدن حتى تصل سنن الى الحسين ، والعربيات وحدهن هن اللاتي يحملن ويلدن حتى سن الخمسين . وقد وجدت اصل الخبر في طبعة الساسي من الاغانى ج ١٥ س ٨٥ ونصه : اخبرني الحرمن بن ابي السلاء والطوسي قالا : حدثنا الزبير بن بكار ، واخبرني احمد بن محمد بن سعيد الهمداني ، قال : حدثنا يحيى بن الحسن العلوي ، قال : حدثني الزهير بن بكار ان هنداً حمت بموسى بن عبد الله ولها ستون سنة ، قال : ولا تحمل لستين الا قرشية ولا تحمل لخمسين الا عربية «

(٢) الاغانى ١١٠ ج ١٤ (٤) الاغانى ٦٠ ج ١٤

للقريش أن يستغرق في شيء من العلم غير الاخبار (١) وظلت الرياسة في قريش لا ينازعهم فيها منازع الى عهد غير بعيد

وكان لكل من طبقات الصحابة المهاجرين والانصار شأن خاص وحزب خاص، ولاسيما في ايام بنى أمية، اذ ذهبت دهشة النبوة وعاد الناس الى عصبية الجاهلية، فاخصم المهاجرون والانصار وتذكروا ما كان بين العدنانية والقحطانية من التفاخر - والمهاجرون من العدنانية (مضر) والانصار من القحطانية (الايوس والخزرج) - فعادوا الى المنافسة وغلب انحياز كل من الطائفتين الى أحد الاحزاب التي نشأت في ذلك العهد، فكان الانصار مع علي ومعظم المهاجرين مع معاوية، وعادوا الى المهاجرة والمفاخرة بالاشعار وغيرها وكان الانصار أهل المدينة من أشجع الناس وهم أهل الشورى، يعقدون الإمامة وحكمهم جائز على الأمة وهم شيعة علي وسائر أهل البيت. فلما قام معاوية يطلب الخلافة لنفسه كانوا من أقوى مقاوميه، فكان رجاله يكرهونهم ويسعون في اذلالهم، وكثيرا ما كانوا ينكرون عليهم هذا اللقب - يروى أن بعض الانصار استأذنوا للدخول على معاوية في ابان خلافته، فدخل الحاجب وقال: «هل تأذن للانصار؟» وكان عمرو بن العاص حاضرا فقال: «ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أردد الناس الى أنسابهم»

سياسة الخلفاء الراشدين

لم يكن للاسلام في عصر الراشدين دولة سياسية، بل هي خلافة دينية أساس أحكامها التقوى والرفق والعدل، مما لم يسمع بمثله في عصر من العصور. ورجل هذا العصر، بل رجل الاسلام على الاطلاق «عمر بن الخطاب»، كان مايروونه من أعماله وأحكامه يندر اجتماعه في البشر، ومناقبه مدونة في الكتب ومشهورة. وأما أبو بكر فلا يقل عظمة عنه، لولا قصر مدة حكمه، وبكفيه من الاثر في الاسلام قتاله أهل الردة، اذ رجع بعض الناس عن الاسلام بعد موت النبي، فخاف المسلمون ذهاب دولتهم وهي لاتزال في طفولتها، فشمروا أبو بكر عن ساعد الجد وقاتل المرتدين وايد الدين، وكذلك يقال عن علي وعثمان أبو بكر:

وعصر الراشدين هو في الحقيقة عصر الاسلام الذهبي، ومناقب الخلفاء الراشدين مشهورة بالزهد والتقوى والعدل. فقد أسلم أبو بكر وعنده من ماله أربعون ألفا، وهي ثروة طائلة يومئذ، انفقها كلها في سبيل الاسلام مع ما اكتسبه من التجارة. وكان له في خلافته بيت مال ينفق كل ما فيه على المسلمين، ولما مات لم يجدوا فيه غير دينار. وكان منزله في السنع بضواحي

(١) البيان والبيان للجاحظ ١٥١ ج ١

المدينة يفتدو اليه على رجليه ، ويندر أن يركب فرسه . فاذا جاء المدينة صلى في الناس ، فاذا جاء العشاء عاد الى السنح . وكان مع ذلك يفتدو كل يوم الى السوق يبيع ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج بنفسه فيها . وكان قبل الخلافة يحاب للحى أغنامهم ، فلما صار خليفة سمع جارية تقول : «الآن لا يحلب لنا منائح دارنا» فقال : «بلى لعمرى لا تحلبنها لكم ، وانى لارجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه» . وبعد خلافته بستة أشهر تحول الى المدينة وقال : « ما تصلح أمور المسلمين مع التجارة ، وما يصلح الا التفرغ لهم والنظر في شؤونهم» . فترك التجارة ، فصار ينفق من مال المسلمين ما فرضوه له : ٦٠٠٠ درهم في السنة . فلما حضرته الوفاة أوصى بقطعة أرض كنت له ان تباع ويصرف ثمنها عوض ما أخذه من مال المسلمين

عمر بن الخطاب :

أما عمر بن الخطاب ، ففي أيامه فتحت البلاد وكثرت الفنائم ، وأنصبت خزائن كسرى وقيصر بين يدي رجاله ، ومع ذلك فانه كان من الزهد والتقشف بما ليس بعده غاية ، حتى قيل انه كان يقف للخطابة وعليه ازار مرقع بجلد . واذا أنفق عطاءه واحتاج الى المال اتى صاحب بيت المال فاستقرضه على أن يؤديه من عطائه . وكان شديد الحرص على أموال المسلمين ، لا ينفقها الا في مصالحهم ، ويتولى أمورهم بنفسه دينا وسياسة ، فيسعى في نشر الاسلام ، ويعلم العرب قواعد الدين ، فيطوف الاسواق ويقرا القرآن ويعرض الناس على التقوى ، واذا حرضهم على شيء بدأ بنفسه . ووضع على من يشرب الخمر ثمانين ضربة ، وكان يبعث أناسا من القراء يعلمون أهل البادية القرآن ، ثم يبعث من يمتحنهم فمن لم يقرأ شيئا منه عاقبه بالضرب ، وربما فرط الضارب حتى يقتل المضروب (١) وكان شديدا على عماله وقواده ، يحاسبهم ويدقق في استطلاع أحوالهم ، فمن رأى فيه اعوجاجا قومته ، لا يبالي من هو حتى خالد بن الوليد القائد الاسلامى الشهير ، فان عمر نقم عليه لامر يخالف قواعد التقوى ، فاستقدمه اليه ووبخه وهدده كأنه غلام وخالد لا يجيبه (٢) وقد يضرب عامله بالدرة أو يوبخه ، وليس فيهم من يرد في وجهه أو يعترضه ، وكان شديد العقاب على من يشرب الخمر ، أو يطمع في أموال المسلمين . ومع ذلك فقد كان يعامل الناس معاملة الاب لبنيه ، فيطعمهم على موائد يجفن لهم فيها عشرة عشرة . واذا غاب قواده تفقد بيوتهم وتعهد أهلهم بما يحتاجون اليه (٣) وكان عادلا في الناس رفيقا بغير المسلمين . وكانت الدنيا في أيامه مجمعة على الطاعة ، والناس يدخلون في الاسلام أو يبقون تحت راية المسلمين عن رضى وراحة ، كأنه كان

(٢) ابن الاثير ١٧٤ ج ٢

(١) الاغانى ٥٨ ج ١٦

(٣) الجزء الثانى من هذا الكتاب

قابضا على شؤون الدولة واعنة الحكومة بيد من حديد . فلما قتل تزعزعت
أركانها ، ونقض كثير من أهل الامصار وخصوصا خراسان وسجستان (١)
وغيرهما من الاطراف البعيدة

عثمان بن عفان :

وكان عثمان مثل سائر الخلفاء الراشدين ، لولا ضعفه واستسلامه الى بعض
ذوى قرابته من بنى أمية ، حتى نقم عليه سائر المسلمين ، وخصوصا أهل المدينة
لاسباب تقدم بيانها وقتلوه ، فاتخذ بنو أمية قتله حجة لطلب الخلافة لانفسهم .
على أن عثمان أول خليفة اقتنى المال لنفسه ، فقد ذكروا انه كان عند خازنه
١٥٠٠٠ دينار و ١٠٠٠٠٠ درهم ، وله ضياع بوادي القرى وحسين
وغيرهما قيمتها ١٠٠٠٠٠ دينار ، فضلا عما خلفه من الخيل والابل ، وفي
أيامه اقتنى الصحابة الضياع وابتنوا الدور واختزنوا الاموال (٢) وتعودوا
الفنى والترف ، فلما جاءهم على بعده بما كان عليه عمر من الزهد والتقشف
كأبروه ، وساعدهم على التمتع قيام معاوية واطماعهم في الاموال ، وسيأتي
بيان ذلك

علي بن ابي طالب :

أما علي فحكاياته في الزهد والتقوى كثيرة، وكان شديد التمسك بالاسلام،
حر القول والفعل ، لا يعرف الدهاء ولا يركن الى الحيلة في شأن من الشؤون،
وانما همه الدين وعمدته في أعماله الصدق والحق . فمن أمثلة تقشفه وزهده
أنه تزوج فاطمة بنت النبي وليس له فراش الا جلد كبش كانا ينامان عليه
بالليل ويعلفان عليه ناضحهما بالنهار ، ولم يكن عنده خادم يخدمه . وجاءه
مال من أصبهان في أيام خلافته فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا
فقسمه على سبعة ، وكان يلبس قطيفة لا تقيه البرد . ورآه بعضهم يحمل
تمرا في ملحفته قد اشتراه بدرهم ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ألا نحمله
عنك ؟ » ، فقال : « أبو العيال أحق بحمله . . » . ومن أقواله في كيف يجب
أن يكون المسلمون قوله : « خمص البطون من الطوى ، يبس الشفاه من
الظما ، عمش العيون من البكاء » (٣) . ومن أمثلة عدله انه رأى درعا له عند
رجل فتقاضيا الى شريح القاضي ، فوقف على بجانب خصمه احتراماً للعدل .
وكان اذا بعث رجاله في حرب أوصاهم أن يرفقوا بالناس وأن يكفوا الأذى
عن النساء

وكان شديدا في محاسبة رجاله حرصا على العدل والحق ، كما كان يفصل

(١) ابن الاثير ٦٠ ج ٢ (٢) المسعودي ٢٠١ ج ١

(٣) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٣

عمر • ولو تولى أمور المسلمين في زمن عمر ، والناس في دهشة النبوة وصدق التدين ، لكان نصيبه من الحكم أطول ، ولما بدا في تدبيره ضعف ، ولكنسه تولاهما وقد فسدت النيات ، وطمع العمال في الاحكام ، وأطمعهم وأدهاهم معاوية بن أبي سفيان ، فانه جمع الرجال حوله بالدهاء والحيلة والبذل، وعلى يضيع الأحزاب بتدقيقه في محاسبة عماله وقواده ، والمبالغة في المحافظة على الدين وأسباب التقوى ، ففارقه جلة الصحابة حتى ابن عمه عبد الله بن عباس ، وكان عاملا له على البصرة ، نوشى به أبو الأسود الدؤلى الى على ، فكتب على الى ابن عباس بذلك ولم يذكر اسم الواشى ، فأجابه : « أما بعد فان الذى بلغك باطل ، وانى لما تحت يدي لضابط وله حافظ ، فلا تصدق الظنين والسلام » • فكتب اليه على : « أما بعد فأعلمنى ما أخذت من الجزية، ومن أين أخذت ، وفيما وضعت » • فكتب اليه ابن عباس : « أما بعد فقد فهمت تعظيمك مرزاة ما بلغك ، انى رزئته من أهل هذه البلاد ، فابعث الى عمك من أحببت فانى ظاعن عنه والسلام » ، واستدعى أخواله من بنى هلال ابن عامر ، فاجتمعت معه قيس كلها ، فحمل مالا وقال : « هذه أرزاقنا اجتمعت » فتبعه أهل البصرة الى مكة (١) ولم ينتفع على به ولا بأحزابه (**)

(١) ابن الاثير ١٩٦ ج ٢

(**) لم ينفرد على بن ابي طالب بالشك في تصرف عبد الله بن عباس في الاموال ، فقد رفض عمر بن الخطاب ان يوليه ولاية « مخافة ان يستحل الفء على التأويل » كما قال عمر . والواقع ان عبد الله بن عباس لم يكن موفقا في السياسة والادارة بقدر توفيقه في ميدان العلم ، وربما كان الافضل له لو ظل بعيدا عن السياسة ، فقد اضطرب في ميدانها اضطرابا شديدا وتحمل اذى كثيرا . ولاشك في أن تاريخ ابن عباس كما تقصه علينا المراجع في حاجة الى تصفية ، فقد دخل عليه تحريف كثير خلال العصر العباسى ، لان عبد الله كان جد العباسيين . وقد ولد عبد الله اثناء حصار بنى هاشم في الشعب ، وتوفى سنة ٦٨٦/٦٨ - ٦٨٧ في الطائف ، وحضر عصور الفتنة الاولى كلها وشارك فيها الى جانب على حيناً ومباعدة له حيناً ، وهو يعتبر من غير شك مؤسس العلوم الاسلامية من تفسير وحديث ، ولكننا لانعتقد انه جرى في التدريس على الاسلوب المنظم الذى تنسبه اليه الروايات ، وهو من اصحاب المذاهب الكبرى في التأويل والفتيا، وان كان بعض فتاواه موضع نقد الفقهاء كقوله بتحليل زواج المتعة الذى ينكره عامة أهل السنة وفي ميدان الادارة اخذ عليه تصرفه في مال البصرة ، الذى يتسبب اليه المؤلف هنا ، وقد ظل على يطالبه به ، وربما كان هذا هو السبب في انحرافه عنه . وقد ظل هذا المال معلقا حتى سوغه اياه معاوية بن ابي سفيان جزاء له على توسطه بينه وبين الحسن بن على مما ادى الى تنازل هذا الاخير . وقد أساء نفر من المستشرقين الحكم على عبد الله بن عباس ، وخاصة لامنس وكابيتانى

أنظر : طبقات ابن سعد (طبعة سخاو) ج ٢ كراسة ١١٩/٢ - ١٢٣ و ١٢٥

البلاذرى : انساب الاشراف ، مخطوطة باريس أوراق ٧١٤ و ٧٣١ وما يليها

الكشى : معرفة اخبار الرجال ، طبعة بومباي ، ص ٣٦ - ٤٢

ابن الاثير : اسد الغابة ، طبعة القاهرة سنة ١٢٨٠ - ١٢٨٦ ، ج ٣ ص ١٩٢ - ١٩٥

سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوطة باريس ، أوراق ١٨٧ وما يليها

ابن حجر : الاصابة ، طبعة كلكتا ، ٨٠٢/٢ - ٨١٣

نصر بن مزاحم النقرى : وقعة صفين ، طبعة عبد السلام هارون ، القاهرة ١٢٦٥ ، الفهرس

وانظر فهرس الطبرى وابن الاثير والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف)

Caetani, Chronographia Islamica

حوادث سنة ٦٨ هجرية

Caetani, Annali dell'Islam

ققرة ٢٤ - ٢٥

Lammens, Etudes sur le règne du Calife Umayyade Muawiya, Index

فعلى لم يفعل بأبن عمه غير ما كان عمر يفعله بعماله ، ولكن الاحوال كانت قد تغيرت ، وقام معاوية يبتاع الاحزاب بالعطاء ويجتذب القواد بالدهاء

وزد على ذلك أن رجال عمر كانوا مثله غيرة وحمية ، وكانت لا تزال فيهم الأريحية والأئفة وحرية البداوة والوفاء ، وجاء الاسلام فكمل الاسباب الباعثة الى الاتحاد والنهضة والقوة

على أن سياسة الراشدين على الاجمال ليست مما يلائم طبيعة العمران ، أو تقتضيه سياسة الملك ، وانما هي خلافة دينية وفقت الى رجال ينسدر اجتماعهم في عصر ، والى احوال يكفى منها الجامعة الاسلامية والحمية الدينية والأئفة البدوية والأريحية العربية . فهذه كلها اجتمعت في عصر واحد وتلاءمت فأنتت بالعجائب ، فانتشر الاسلام وفتح العالم في بضع عشرة سنة كما هو مشهور (١) فأهل العلم بطبائع العمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب ، وان انقلاب تلك الخلافة الدينية الى الملك السياسي لم يكن منه بد - سنة الله في خلقه

انتشار العرب في الارض

قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام في جمع كلمة العرب، وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم وتأكيد العلائق بين منازلهم ، فحرضهم على فتح العراق والشام ، لعلمه بما هنالك من قبائل العرب ، فاذا انضموا الى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوة . ولكنه منعهم مما وراء ذلك ، وأمرهم اذا بنوا بلدا في دار الفتح أن لا يبنوهم في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء ، خوفا على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزق ، ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة في المدينة دار الهجرة ، على أن يستبقى البلاد المفتوحة لاستمرار ما فيها من غلة أو مال لأهل الحجاز . ولهذا السبب أيضا نهى المسلمين عن الزرع وشدد في منعهم اعتمادا على الحديث القائل « السككة (المحراث) ما دخلت دار قوم الا دخله الذل » (٢) ولأن الاشغال بالزرع يشغلهم عن الحرب ، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة ، ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط الا حصونا أو معسكرات ، ينزل فيها جند العرب نزول الحامية

جولدسيهر : مذاهب المسلمين في تفسير القرآن ، ترجمة الدكتور عبد الحلیم النجار ،
الفهرس

وانظر بصفة خاصة مقال L. Veccia Vaglieri وعنوانه :

Il conflitto Ali-Muawiyah e la secessione Kharigita riesaminati alla luce di fonti ibadite

Annali dell'Istituto Univ. Orient. di Napoli Vol. IV في :

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب

(٢) ابن خلدون ١١٩ ج ١

أو جيش الاحتلال (١) ولهذا السبب أيضا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبي (صلعم) « أن لا يترك في جزيرة العرب دينان » (٢) ، وأن لا يأتي الحج احد من المشركين (٣) فأخرجهم وتخلص من خطرهم ، اذ لو بقوا هناك على غير دين الاسلام لأقلقوا الراحة ، وربما كانوا عوناً لغير المسلمين كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك ، كما سترى

فكانت السياسة في صدر الاسلام أن يبقى المسلمون في بلاد العرب وضواحيها ، (*) وكان القواد الذين فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم ، فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ما وراء ذلك كما تقدم ، فكان عمر وهو في المدينة قابضا على أطراف الدولة يشدها نحوه ، ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقا وغربا ، حتى اضطر أخيرا الى مجاراتهم وأذن بانسياحهم في الارض ، فتفرق العرب وفتحوا مصر وفارس وافريقية وغيرها . ولما تولى عثمان أطلق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة ، فخرجوا وتفرق العرب في الارض وانتشروا في مصر والشام والعراق وفارس وما وراءها ، وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠.٠٠٠ نفس (٤) وهم جند المسلمين وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها ، وسكانها يزيدون على مئة مليون ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد (***)

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب (٢) ابن هشام ١٩٥ ج ٢ (٣) ابن هشام ٥٠ ج ٢ (*) يعلب ان المراد ببلاد العرب وضواحيها المدن التي أنشأها العرب في الولايات المفتوحة وما يحيط بهذه المدن ، لأن بلاد العرب شبه جزيرة فسيحة لا ضواحي لها (٤) ابن خلدون ١٢٦ ج ١

(**) عبر ابن خلدون عن ذلك في تاريخه تعبيرا غاية في الدقة والاحكام ، قال : « وكان المتولون لتمهيد قواعد الامر وبناء أساسه من أول الاسلام والدين والخلافة من بعده والملك قبائل من العرب موفورة العدد غزيرة الاحياء ، فنصروا الايمان والملة ، ووطدوا أكناف الخلافة ، وفتحوا الامصار والاقاليم ، وغلبوا عليها الامم والدول اما من مضر فقريش وكنانة وخزاعة وبنو أسد وهذيل وتميم وغطفان وسليم وهوازن وبتونها من ثقيف وسعد بن بكر وعامر بن صعصعة ومن اليهم من الشموب والبطون والافخاذ والعشائر والحلفاء والموالي

واما من ربيعة فبنو ثعلب بن وائل وبنو بكر بن وائل وكافة شعوبهم من بنى شكر وبنى حنيفة وبنى عجل وبنى ذهل وبنى شيبان وتيم الله . ثم بنو النمر بن قاسط ، ثم عبد القيس ومن اليهم

واما من اليمانية ثم من كهلان بن سبأ منهم ، فأنصار الله الخزرج والاوز ابنا قبيلة من شعوب غسان وسائر قبائل الازد ، ثم همدان وخثعم وبجيلة ، ثم مذحج وكافة بطونها ، ولخم وبتونها ، وكندة وملوكها

واما من حمير بن سبأ فقضاة وجميع بطونها ، ومن الى هذه القبائل والافخاذ والعشائر والاحلاف

هؤلاء كلهم انفتحت الدولة الاسلامية العربية فتقاسمتهم الثغور القصية ، واكنهم الانظار المتباعدة ، واستلحمتهم الوقائع المذكورة ، فلم يبق منهم حي يطرف ولا حلة تنجح ولا عسير يعرف ، ولا قليل يذكر ، ولا عاقلة تحمل جناية ، ولا عصابة (تنجد) بصريخ . الا سمع من ذكر اسمائهم في انساب اعقاب متفرقين في الامصار التي أحموها بجملتهم ، فتقطعوا في البلاد ، ودخلوا بين الناس فامتهنوا واستهينوا ... »

العبر (طبعة بولاق) ح ٦ ص ٣ . وقد اصلحت الاخطاء المطبعية ، ويلاحظ ان طبعة بيروت الجديدة باشراف الاستاذ داغر تحمل كل اغلاط طبعة بولاق ، وتضيف اليها اغلاطا اخرى

الاستكثار بالتناسل

كانت العرب في الجاهلية قليلة العدد بالقياس على ما صارت اليه بعد الاسلام . ذكروا ان أكبر جيش اجتمع في الجاهلية لم يزد عدد رجاله على ثمانية آلاف رجل، وهو جيش يوم الصفقة (١) (*) والذين تجندوا للاسلام وقاموا بنصرته كانوا في صدر الاسلام قليلين كما رأيت ، ومملكتهم الواسعة تحتاج الى رجال ، فعمدوا الى الاستكثار بالتناسل ، وهو من قواعد العصبية العربية من أيام الجاهلية . فان عبد المطلب جد النبي ، لما ظهرت قريش عليه ، نذر لله اذا رزقه عشرة من الولدان يبلغون ان يمنعوه ويدودوا عنه ، ان ينحر أحدهم قربانا لله ، فجاءه عشرة اولاد فاشتد أزره بهم

فالمسلمون لما رأوا قلة عددهم ، وما وقع في أيديهم من السبايا الروميات والفارسيات والقبطيات ، استكثروا من أمهات الاولاد ، فضلا عن الزوجات ، وكثر نسلهم - والترف يزيد الدولة في أولها قوة بكثرة النسل - وتسابقوا الى احراز الجوارى ، حتى ان بعضهم أحصن ثمانين امرأة معا ، كالمغيرة بن شعبة فقد جمع في منزله أربع نسوة و٧٦ أمة (٢) فلاغرابة اذا ولد لاحدهم خمسون ولدا أو مئة ولد أو أكثر . ذكروا أنه وقع للارض من صلب المهلب ٣٠٠ ولد (٣) وخلف عبد الرحمن بن الحكم الاموي ١٥٠ ذكرا و ٥٠ أنثى (٤) (*) وخلف تميم بن المعز الفاطمي اكثر من مئة ذكر و ٦٠ أنثى (٥) وكان لعمر بن الوليد تسعون ولدا منهم ستون يركبون الخيل (٦) وولد لابن سيرين ٣٠ ولدا من امرأة و ١١ بنتا (٧) وقس على ذلك مما يطول شرحه ، وفي التاريخ أدلة كثيرة على قيام الدولة بعصبية الملك من الاولاد والاخوة والاعمام ، كالعباسيين والأيوبيين وغيرهم

انتشار العرب بالفتح

كان العرب في الجاهلية محصورين في جزيرة العرب وما يجاورها من جزيرة العراق وضواحي الشام . فلما ظهر الاسلام اجتمعت كلمة العرب على نصرته ، ونهضوا للفتح وأوغلوا في البلاد وفتحوا الامصار ، ولم يكن زجر عمر ليوقف تيارهم فانساحوا في الارض ، حتى نصبوا أعلامهم على ضفاف نهر الكنج شرقا وشواطئ المحيط الاطلسي غربا ، وضفاف نهر لوار شمالا وأواسط افريقيا جنوبا ، وملاؤوا الارض فتحا ونصرا ، واحتلوا مدائن كسرى وقيصر ، وأقاموا في المدن وركنوا الى الحضارة وتعودوا الترف ، واختلطت

(١) العقد الفريد ٧٨ ج ٢

(*) يوم الصفقة من أيام العرب ، وقد أتينا بخبره بالتفصيل في الطبعة الجديدة من « تاريخ العرب قبل الاسلام » للمؤلف

(٢) الاغانى ١٤٣ ج ١٤ والمعارف ١٠٠

(٣) ابن خلكان ١٤٧ ج ٢ (٤) نصح الطيب ١٦٤ ج ١

(٥) ابن خلكان ٩٩ ج ١ (٦) العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢ (٧) ابن خلكان ٤٥٢ ج ١

أنسابهم بتوالي الاجيال وضعفت عصبيتهم فضاعت سلطتهم (*) . والقبائل التي قامت بنصرة الاسلام ونشره قبائل مضر وأنصارها من العدنانية والقحطانية، واليك أسماء القبائل التي مهدت قواعد الدولة الاسلامية ونشرت الدين الاسلامي بالفتح من أول الاسلام :

من القحطانية		من العدنانية	
همير	كهلان	ربيعة	مضر
فضاعة وبطونها	الأوس والخزرج	تغلب بن وائل	قريش
كاب	غسان	بكر بن وائل	كنانة
سايح	الأزد	شكر	خزاعة
تنوخ	همدان	حنيفة	أسد
بهاء	خثعم	بجلى	هذيل
عذرة	بجيلة	ذهل	تميم
وغيرها	مذحج	شيبان	غطفان
	مراد	تيم الله	سليم
	زيد والنخع	النمر بن قاسط	هوازن
	الأشعريون	وغيرها	ثقف
	لحم وكندة		سعد بن بكر وعامر
			ابن صعصعة

على ان هذه القبائل لم تكن في أوائل الفتح تنزل القرى وتختلط بالناس ، بل كانت رابطة ثم اختلطوا وتفرقوا في الارض ، وأنفقتهم الدولة الاسلامية العربية ، فنيا منهم (***) الثغور القصية وأكلتهم الاقطار المتباعدة ،

(*) قال ابن خلدون في مستهل الجزء السادس من تاريخه (طبعة بولاق ص ١ - ٢) : « ... وافترقوا على الثغور البعيدة والاقطار البائنة عن ممالك الاسلام ، فنزلوا بها حامية ومرابطين ، عصبا وفرادى ، وتناقل الملك من عنصر الى عنصر ، ومن بيت الى بيت ، واستنسل ملكهم في بنى أمية وبنى العباس من بعدهم بالعراق ، ثم دولة بنى أمية الاخرى بالاندلس » وبلغوا من الترف والبذخ ما لم تبلغه دولة من دول العرب والمجم من قبائلهم ، فانفسوا في الدنيا ، ونبتت اجيالهم في ماء النعيم ، واستأثروا مهاد الدعة ، واستطابروا خفض العيش ، وطال نومهم في ظل الترف والسلم ، حتى ألفوا الحضارة ونسوا عهد البادية ، وانفلتت من ايديهم الملكة التي نالوا بها الملك وغلبوا الامم ، من خشونة الدين وبداعة الاخلاق ومضاء المضرب ، فاستوت الرعية والحامية ... »

(**) هذا النص من ابن خلدون ، وقد رويناه بجملة في تعليقه في ذيل صفحة ٤٩ واصلاحنا « فنيا منهم » الى « فتقاسمتهم » وهو اسوب

واستلحمتهم الوقائع وضاعت أسبابهم بتوالي الاجيال حتى خرجت الدولة
من أيديهم

انتشار العرب بالمهاجرة

على أن انتشار العرب في الارض لم يكن بالفتح فقط ، ولكنهم تفرقوا
أيضا بالمهاجرة بأهلهم وخيامهم وأنعامهم ، التماسا لسعة العيش في البلاد
العامرة من مملكتهم الجديدة . فقد جلت بطون من خزاعة الى مصر والشام
في صدر الاسلام ، لان أرضهم أجذبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى (١)
وكذلك كانت تفعل العرب كلما أصابها جذب ، حتى كانت لهم أعوام خاصة
يجلون فيها الى مصر والشام ، يسمونها أعوام الجلاء (٢) وكانوا يفعلون ذلك
قبل الاسلام : اذا أجذبت أرضهم يمشوا العراق وفارس ، فيعطيهم الفرس
التمر والشعير ، ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون الى بلادهم (٣)
خوفا من الذل في سلطان دولة أعجمية . أما بعد الاسلام فكان المقام يطيب
لهم في بلاد فتحها آباؤهم أو أعمامهم أو أخوالهم ، وغرسوا عليها أعلامهم
وجعلوها فينا لهم

على ان الغالب في نزوح العرب عن أحيائهم وانتجاعهم المدن أو أكنافها ،
أن يكون بايعاز بعض الخلفاء أو الأمراء ، وخصوصا بعد رجوع العرب الى
عصبية النسب بين قحطان وعدنان ، أو مضر وقيس في عهد الدولة الاموية .
فكان الامير أو الخليفة اذا تولى بلدا وخاف على سلطانه من أمير آخر ذي عصبية
أخرى ، استقدم جماعة من قبيلته ، أو من ينتمى اليها بالحلف ونحوه ،
يسكنهم في ضواحي بلده لاستنصارهم عند الحاجة ، فيطلق لهم المرعى
ويفرض لهم العطاء ، كما حدث في ولاية الوليد بن رفاعة على مصر في خلافة
هشام بن عبد الملك الأموي ، وكان هشام يقرب قبيلة قيس (العدنانية)
لانهم نصروه وأيدوا خلافته ، ولم يكن منهم في مصر الا بعض البطون ، وقيس
قبيلة كبيرة تحتها عدة قبائل وبطون وأفخاذ ، وأول من نبه هشام الى نقلهم
عبيد الله بن الحبحاب ، فانه وفد عليه فسأله أن ينقل الى مصر منهم أبياتا ،
فأذن له في الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر ، اي ان يقبضوا
رواتبهم من حكومة مصر ، على أن لا ينزلهم في الفسطاط ، فأنزلهم في الحوف
الشرقي (الشرقية والدقهلية) ولا سيما في بلييس وأمرهم بالزرع (٤) ثم
تقاطروا بعد ذلك وتكاثروا فيها

بنو سليم وبنو هلال

وقد يكون الباعث على استقدامهم واقرارهم رغبة الامير أو الخليفة في
التخلص من شرهم ، كما فعل العزيز بالله الفاطمي بينى سليم وبنى هلال ،

(١) الاغانى ٦ ج ١٢ (٢) الاغانى ٤٧ ج ١١
(٣) ابن الاثير ٢٢٨ ج ٢ (٤) المقرئى ٨٠ ج ١

وهما بطنان من مضر ، كان رجالهما الى زمن العزيز المذكور في القرن الرابع للهجرة لا يزالون أحياء ناجعة أهل بادية ، محلاتهم وراء الحجاز مما يلي نجد : بنو سليم من جهة المدينة ، وبنو هلال من جبل غزوان عند الطائف فكثروا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام ، فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة ، وربما أغار بنو سليم على الحجاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة . ثم ظهر القرامطة فتحيز بنو سليم لهم ، وعاثوا في البلاد ، وقد عجز الخلفاء العباسيون عن قمعهم . فلما أفضت خلافة مصر الى العزيز بالله الفاطمي ، كان القرامطة قد تغلبوا على الشام ، فانتزعتها العزيز منهم وردهم الى قراهم في البحرين ، ونقل أشياعهم من بنى هلال وسليم وانزلهم بالصعيد ، في العدو الشرقية من نهر النيل ، فأقاموا هناك . وكان لهم أضرار في البلاد ، والخلفاء يدارونهم ويبحثون عن وسيلة يتخلصون بها منهم . فاتفق بعد سنين أن المعز بن زيري عامل الفاطميين في أفريقية ، شق عصا الطاعة وباع للدولة العباسية ، وقطع اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة والطرز والرايات ، فعظم الأمر على الخليفة بالقاهرة ، وهو يومئذ المستنصر بالله ، فأشار عليه وزيره أبو محمد الحسن بن علي اليازوري ، أن يقرب اليه أحياء هلال وسليم المذكورين ، ويصطنع مشايخهم ويوليهم أعمال أفريقية ، ويرسلهم لاستلام أمورها ، فاذا فازوا كانت إحدى الحسينيين ، والا فإنه يتخلص من شرهم . فبعث الخليفة وزيره الى هذه الأحياء سنة ٤٤١ هـ وحرصهم على الذهاب الى المغرب وتملكه ، وفرحوا وأجازوا النيل وساروا برا الى برقة ففتحوها . ثم تبعهم غيرهم من بطون دياب وزغب طمعا في الكسب ، وأصبحت أفريقية مقر هذه القبائل من ذلك الحين ، فاقسموا البلاد فيما بينهم (١) (*)

(١) ابن خلدون ١٤ ج ٦

(*) كان دخول العرب الهلالية من الحوادث الفاصلة في تاريخ المغرب الاسلامي ، فقد قضا على دولة بنى زيري الصنهاجيين في تونس وعلى دولة أبناء عمومتهم بنى حماد أصحاب القلعة المعروفة باسمهم فيما يعرف الآن بالجزائر ، وانقطعت نتيجة لغارتهم الصلات السياسية بين المغرب وبين المشرق ، واتجه المغرب بعد ذلك وجهة خاصة منفصلا عن بقية المجموعة الاسلامية ، مما كان له أسوأ الأثر على مصر المغرب والاندلس في أواخر العصور الوسطى ويرجع السبب في الخلاف بين زيري والفاطميين الى سوء سياسة وزراء هؤلاء الاخيرين ، وخاصة أبو القاسم احمد بن علي الجرجرائي وابو محمد الحسن بن علي اليازوري المذكور ، وهذا الاخير هو المسئول عن اطلاق عرب بنى هلال وبنى سليم على المغرب ، فخرّبوا كل ما مروا به ، وكانوا - كما يقول ابن خلدون - كالجراد المنتشر

انظر ، ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ص ١٢ وما يليها

وقد درس الموضوع دراسة مستفيضة جورج مارسيه . انظر :

George Marçais, Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle.

Constantine -- Paris 1913

ثم عاد الى الموضوع مرة اخرى في كتابه

La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen Age. Paris, 1946.

وغارة بنى هلال هذه على المغرب هي المحور الذي دارت حوله سيرة الهلالية ، وهي مجموعة من القصص الشعبي ورد لنا في صور شتى أهمها السيرة الشامية والسيرة الحجازية . وتعرف رحلة الهلالية في القصص باسم تغريبة بنى هلال ، وهي معروفة في مصر باسم قصة الزناتي خليفة ، وقد درسها الدكتور عبد الحميد يونس في كتابه المعروف « الهلالية في التاريخ والادب الشعبي » - القاهرة ، ١٩٥٦ . وانظر مقال J. Schleifer في دائرة المعارف الاسلامية من « هلال »

وقس على ذلك ما كان من انتقال العرب المسلمين الى الاندلس بعد اتمام فتحها ، اذ صرف عرب الشام وغيرهم الهمم الى الحلول بها لخصبها وطيب هوائها . فنزل بها من اصول العرب وساداتهم جماعة اورثوها اعقابهم ، وفيهم قبائل من العدنانية والقحطانية (١) وكل قبيلة كانت تنزل البلد الذي يشبه بلدها باقليمه ومرعاه . ناهيك بما كان يتنقل من القبائل او البطون في اثناء الحروب في عصر الامويين للنجدة او نحوها (*)

العبيد والموالي في الاسلام

للعبيد والموالي شأن كبير في الدولة الاسلامية ، وقد اثروا في سياستها وجندها وفي سائر احوالها من العلم والادب والفقهاء ، فلاغرو اذا افردنا للكلام عنهم فصولا خاصة

الرق في الاسلام :

قلنا ان الاسترقاق عند العرب الجاهلية كان اكثره بالاسر او الشراء ، واما في الاسلام فاكثر الاسترقاق بالاسر ، وخصوصا في اثناء الفتوح لكثرة من كان يقع في ايديهم من الاسرى . فاذا غلبوا جندا او فتحوا بلدا ، اسروا رجاله وسبوا نساءه واطفاله ، واقتسموا الاسرى والسبايا والغنائم ، وهى كثيرة ربما زاد عدد الاسرى في المعركة الواحدة على عشرات الالوف ، فيختمون اعناقهم ويقسمونهم على الاسهم (***) وقد يصيب الفارس من العرب مائة

(١) نفع الطيب ١٢٧ ج ١

(*) اوفى مرجع لدراسة هجرات العرب الى الاندلس هو « جمهرة انساب العرب » لابن حزم ، القاهرة ١٩٥٥ . وقد درس هذا الموضوع المستشرق الاسباني Elias Teres في مقال نشر في مجلة Al-Andalus سنة ١٩٥٧ تحت عنوان Linajes arabes en Al-Andalus (***) القاعدة انه اذا تم فتح بلد عنوة يحل للمسلمين ان يقتلوا المحاربين او من يعين على الحرب ، فأما المرأة والشيخ الفاني والاعمى والمقعذ ونحوهم فلا يجوز قتلهم ، مالم يكن احدهم ذا رأى في الحرب ، بوجه قومه ويؤلب على المسلمين . وان طلب المحاربون صلحا اثناء الحرب اجيبوا اليه متى رأى الامام ذلك ، قال الله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » ، ووجب اذ ذاك تنفيذ شروط الصلح التى تعاقدوا عليها ، فاذا لم يكن هناك صلح وانتصر المسلمون وفتح البلد ، فهناك اسرى حرب ، وهناك اهل البلد المفتوح ممن لم يكونوا في الجيش المحارب ، فأما الاسرى فالامام مخير بين اطلاقهم دون فدية او مقابل فدية ، او فدائهم بأسير مسلم بين يدي الاعداء او الاحتفاظ بهم رقيقا . ونادرا ما كان الاسير يقتل . اما اهل البلد غير المحاربين ، فان وضعهم من الناحية النظرية وضع الاسرى ، ولكن عمر بن الخطاب اعتبرهم ملكا للدولة واعتقهم ، فأصبحوا موالي للعرب ، وتركهم يعملون في الارض او في مهنتهم على ان يؤدوا الخراج عما يزرعون من ارض والجزية عن رؤوسهم ، وتسقط الجزية بالاسلام ، فلا يبقى الا الخراج ولم تجر العادة باسترقاق اهل البلد المفتوح عنوة بصورة عامة ، بل الغالب ان هذا كان يجرى على المحاربين واهلهم وعبيدهم ، وعلى كبار رجال الدولة الذين قاوموا العرب واهلهم وعبيدهم ، وربما جرى على اهل المدن الذين قاتلوا المسلمين قتالا عنيفا ، وفي هذه الحالات كان اولئك جميعا يعتبرون رقيقا يؤخذ خمسمهم للدولة للتصرف فيهم على انهم فيء ، ويوزع الباقي على الفاتحين

والغالب ان عمليات الاسترقاق لم تكن تجرى على هذا النحو الا عقب المواقع او عقب دخول المسلمين البلد مباشرة ، ثم يعلن الامان ، ويصبح بقية اهل البلد موالي للدولة الاسلامية ويتركون احرارا ، على ان يؤدوا خراج الارض بصفة مستمرة وجزية الرؤوس الى ان يسلموا والولاء نفسه رابطة تختلف كل الاختلاف عن الرق ، فهو في حالة دخول قبيل كبير في ولاء

اسير ومائة جارية في واقعة واحدة ، فيجتمع عند بعضهم بتوالي الايام ألف عبد أو أكثر (١) وهم عند الامراء أكثر مما عند غيرهم ، وقد تزايدوا على الخصوص بعد عصر الراشدين . على أن الخليفة عثمان كان عنده ألف عبد (٢)

والغالب في الاسرى اذا كانوا كثارا أن يباعوا بالجملة قبل تفريق الاسهم ، فينادون على الاسير بمائة درهم وأقل أو أكثر ، وربما اقتضى لبيع أسرى معركة واحدة عدة أشهر . ومن أكثر الفتوح أسرى وغنائم فتوح الأندلس ، فقد ذكروا أنهم ظلوا يبيعون الاسرى والغنائم بعد معركة هناك ستة أشهر (٣) وتكاثرت الاسرى على المسلمين بعد واقعة عمورية ، حتى نادوا على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة للسرة (٤) وكثرت الاسرى والغنائم عليهم في واقعة الأرك بالأندلس ، حتى بيع الاسير بدرهم والسيف بنصف درهم (٥) (*)

الدولة الاسلامية أشبه بالحلف ، وفي الظروف التي تكونت فيها الامبراطورية الاسلامية لم يكن من الممكن أن تظل أغلبية ضخمة موالى عتاقة لاقلية صغيرة من العرب ، وخاصة بعد دخول أعداد عظيمة جدا من الموالى في الاسلام وظهور تفوقهم في ميادين السياسة والحرب والعلم ، ومن هنا فاننا نلاحظ عند الاقلية العربية تخوفا من طفيان الموالى عليهم ، وهذا هو السرفيما صدر عن بعض العرب من أقوال وافعال اعتبرها بعضهم دليلا على احتقار العرب للموالى ، ولكن الدولة اعتبرت الموالى مواطنين والفقهاء اعتبروهم اخوة في الدين ، وتحول الولاء شيئا فشيئا الى رابطة أخوة بين العرب وغيرهم

وفيما عدا الولاء العام للدولة كان هناك الولاء لافراد ، فان الخلفاء مثلا كانوا يعتبرون ما صار اليهم في الخمس من الموالى مواليتهم خاصة ، وكان هؤلاء الموالى يتمسكون بذلك الولاء ، حتى يصيروا من رجال صاحب الامر ، فصار لكل خليفة من خلفاء بنى أمية موال كثيرين يعيشون في الاقاليم محتمين بولائه ، ومن أشهرهم موالى بنى أمية في الأندلس ، وهم الذين أقاموا دولة عبد الرحمن الداخل ، وهناك موالى القواد والمحاربين ، وموالى من كان الخمس يقسم عليهم من أهل البيت والصحابة والقرشيين ومن اليهم ، وهؤلاء كان ولاؤهم ينسب اما اليهم شخصيا أو الى قبائلهم ، فيقال مثلا مولى عبد الله بن عباس أو مولى بنى هاشم ، ولم يكن هؤلاء رقيقا ولا عبيدا وانما عتقاء أو اولياء ، ولم تكن تبعيتهم لاصحاب ولائهم الا نوعا من الصلة المعنوية بينهم ، الا في بعض حالات الارث . ثم لم تلبث هذه الصلة أن ضاعت على الزمن ، ولم يعد الولاء الا صلة عاطفية يحتفظ بها المولى ، لانها تربطه بالاصل العربي

انظر : عبد الوهاب النجار : الموالى في الاسلام - القاهرة ١٩٤٨

أحمد أمين : فجر الاسلام - الطبعة الخامسة ص ٨٤ وما يليها

والمراجع التي أوردها روبرت برونشفيج في مادة « عبد » في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية ، ومادة « مولى » في Handwörterbuch des Islams

(١) ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ (٢) الدميري ٤٩ ج ١

(٣) نفع الطيب ٢١٣ ج ١ (٤) ابن الاثير ١٩٩ ج ٦

(٥) نفع الطيب ٢٠٩ ج ١

(*) المعلومات هنا مستقاة من مراجع شتى ، بعضها ليس مما يستند الى سائيه في الاحكام التاريخية ، مثل حياة الحيوان للدميري ، ثم أنها تتعلق بعصور متطاولة لم تكن الظروف فيها واحدة ، فهي تمتد من القرن الهجرى الاول الى زمن واقعة الأرك وقد وقعت في أوائل القرن السابع الهجرى . وغير خاف ان معاملة الاسرى تغيرت خلال هذه الاعصر الطويلة ، وخاصة ابتداء من القرن الثالث الهجرى بسبب اشتداد الحروب بين الدولة الاسلامية وخصومها من ناحية ، وانتقال الشؤون العسكرية للدولة الاسلامية الى أجناس مثل الاتراك والسلاجقة لم يلتزموا كثيرا بما قرره السلف في القرون الاولى

على أنهم كانوا يعدون البلد المفتوح عنوة ملكا للفاتحين ، بما فيه من الناس والدواب والبساتين والانهار والاشجار ، وقد تمسك بنو أمية بذلك وبالغوا فيه ، كقول سعيد بن العاص : « السواد بستان قريش » ، وقول عمرو بن العاص لصاحب خربتا : « ان مصر فتحت عنوة واهلها عبيدنا ندير عليهم كيف شئنا » (١) (*)

والغالب في عامة الجند من المسلمين ان يبيعوا اسراهم ويحرزوا اثمانهم ، لعجزهم عن القيام بمعاشهم ، فلم يكن يستبقى الاسرى في حوزته عبيدا الا الامراء ، حتى يفتديهم اهلهم او يعتقهم هو لسبب من الاسباب ومن مصادر الرقيق في الاسلام - غير الاسر - ان بعض العمال ، وخصوصا في افريقية وتركستان ومصر ، كانوا يؤدون بعض خراج اعمالهم من الرقيق (٢) وكان بعض اهل الذمة من البربر ونحوهم يقدمون بدل الجزية رقيقا من اولادهم (٣) غير ما كان يقع في ايدي المسلمين من الرقيق الاصلى في جملة الغنائم (***)

اما احكام الاسرى في الاسلام فالخليفة (او من يقوم مقامه) مخير بين اربعة اشياء : اما القتل ، واما الاسترقاق ، واما الفداء بمال او اسرى ، واما المن عليهم بغير فداء ، فان اسلموا سقط القتل وكان الخليفة على خياره في احد الثلاثة الباقية (٤) فكانوا يتصرفون في ذلك على ما تقتضيه الاحوال

ومن ملك رقيقا بالاسر او الشراء او غير ذلك كان مخيرا في استبقائه او بيعه او المن عليه بالعتق ، ومن اعتق عبدا صار مولاه . وللعرق اسباب كثيرة ، اهمها في الاسلام اظهار التقوى او الفيرة على الدين ، فاذا اسلم العبد وظهر التقوى اطلقه سيده ، فقد اعتق عبد الله بن عمر بن الخطاب على هذه الصورة ألف عبد (٥) واعتق محمد بن سليمان ٧٠٠٠ مملوك ومملوكة (***) وقد يعتقونهم فداء عن يمين ، او وفاء لنذر ، او التماسا للثواب ، او شكرا لله على

(١) ابن الاثير ٢٧٩ ج ٢

(*) لم يكن هذا هو الاساس ، وقد بسطنا حكم الشرع في اهل البلد المفتوح في تعليق سابق ، اما قول سعيد بن العاص ان السواد بستان قريش فقد انكره عليه الناس ولم يأخذ به احد ، وقول عمرو بن العاص لصاحب خربتا مشكوك فيه

(٢) المقرئى ٣١٣ ج ١ (٣) ابن الاثير ١٣ ج ٣

(**) ما يقوله المقرئى من ان بعض العمال كان يؤدى خراج بلده رقيقا غير صحيح ، فلم يحدث ابدا ان جبي الخراج رقيقا ، وانما الذى كان يحدث في اوائل سنوات الفتح ان يرسل العامل الى الخليفة ما وقع في الخمس من الرقيق . اما ما يقوله ابن الاثير من ان بعض اهل الذمة من البربر كانوا يقدمون في خراجهم اولادهم ، فلم يحدث الامرة واحدة ، عقب غزو عمرو بن العاص برقة ، ولم يقدم الاولاد في الجزية ، بل كان لهم ان يبيعوا اولادهم ليؤدوا الجزية بانماهم (٤) المواردي ١٢٥ (٥) ابن خلكان ٢٤٧ ج ١

(**) الاغلب ان المراد هنا محمد بن سليمان الكاتب وزير الخليفة المكتفى العباسى ، وهو الذى قضى على الحسين بن زكرويه القرمطى سنة ٢٩١ واستعاد مصر من الطولونيين في السنة التالية . وكان اولئك المالِك من اسارى القرامطة ومن مالِك الطولونيين فاطلقهم

نعمة ، أو نحو ذلك . وكان بعض أهل الورع يتاعون العبيد ويعتقونهم ابتغاء
مرضاة الله . واقسم عمر بن أبي ربيعة لما أسن أن لا يقول بيت شعر إلا أعتق
رقبة ، وقد نظم وبر بقسمه غير مرة (١) ، وكانوا يعتقون العبيد ترغيباً لهم في
الجهاد ، كما فعل الجنيد بن عبد الرحمن المري صاحب خراسان بهشام بن عبد الملك
في واقعة الشعب ، لما احتدم الوطيس وخاف الجنيد الفشل ، فصاح في
العبيد : « أي عبد قاتل فهو حر » ، فقاتل العبيد قتالاً أعجب منه الناس
وانهزم الأعداء (٢) وكثيراً ما كانوا يرغبون العبيد في نصرته الاسلام وهم عند
أعدائهم بأن يعدوهم بالعتق ، كما فعل النبي (صلعم) يوم حصار الطائف ، اذ
قال : « كل عبد نزل الى فهو حر » (٣) وكما فعل المسلمون في بعض البلاد
التي فتحوها ، فكانوا يعدون عبيدها بالعتق اذا أسلموا ، فيدخل بعضهم في
الاسلام على نية أن يرجعوا عنه بعد ذهاب الحرب ، ولكنهم لما أرادوا ذلك
عدهم المسلمون مرتدين فحل حربهم

على أن الاسلام جاء رحمة للارقاء ، فأرصى النبي بهم خيراً بقوله : « لاتحملوا
العبيد ما لا يطيقون ، وأطعموهم مما تأكلون » (٤) وقال : « لا يقل أحدكم :
عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى »

وفي القرآن الكريم : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذى
القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب
وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » .
والاسلام من الجهة الاخرى يحرض العبد على التقوى وحسن العبادة (٥) وقد
اجتص العرب المسلمون بالنجاة من الرق والسبى بقول الأئمة : « لا سبأ في
الاسلام ، ولا رق على عربى في الاسلام » . ومن أحكام العبيد عندهم أن يعاملوا
معاملة نصف الحر ، فالعبد اذا أذنب ضرب نصف ما يضرب الحر (٦) واذا
أحسن كانت جائزته لمولاه ، والاسرى الذين يقعون في أيدي العرب بالفتوح
من أهل البلاد المفتوحة فيهم النصراني واليهودى والمجوسى والصابى
والسامرى وغيرهم ، فهؤلاء اما ان يفتديهم أهلهم ، أو يبيعهم المسلمون لبعض
تجار الرقيق ، أو يستبقوهم في خدمتهم لقضاء حاجات المنازل ، أو رعاية
الابل أو الماشية ، أو لبرى القسى ورمى النبل أو جمع النبال المتساقطة وقت
القتال ، أو لرواية الشعر أو حفظ القرآن أو الحديث أو غير ذلك . فكانت
قيمة العبد تختلف باختلاف نوع صناعته ، فالعبد الذى لا يعرف صناعة
يساوى مائة دينار ، فاذا كان راعياً للابل يحسن القيام بها يقدرون قيمته
ب ٢٠٠ دينار ، فاذا كان عارفاً بصناعة النبال والقسى يباع باربعمائة دينار ، فاذا

(٢) المعارف ١٧

(٢) ابن الاثير ٧٨ ج ٥

(١) الاغانى ٦٤ ج ١

(٦) الاغانى ١٥٢

(٥) البخارى ٥٩ ج ٢

(٤) المقرئى ١٢٧ ج ١

كان يحسن رواية الشعر صارت قيمته ٦٠٠ دينار . تلك أثمان العبيد في
أواسط دولة بنى أمية (١)

وأما القن فهو العبد الذى يشتغل فى الارض ، وهو خاص بالقرى ،
ويسمى المزارع المقيم « فلاحا فرارا » ، فاذا أقطعت أرضه ، أو بيعت لأحد ،
أو دخلت فى ملك أحد بالفتح أو غيره ، كان الفلاح تبعا لها وصار « عبدا قنا » ،
الا أنه لا يرجو أن يباع أو يعتق ، ولا يستطيع مولاه ذلك لو أراد ، بل هو
قن ما بقى حيا ، وكذلك أولاده بعده ، فانهم يكونون عبيدا لمالك الارض أو
مقتطعها ، وقد أشرنا اليه فى كلامنا عن العبيد فى الجاهلية

الموالى فى الاسلام

والباقون فى الأسر اذا اعتنقوا الاسلام نجوا من الرق غالبا ، اذ يغلب أن
يعتقوهم مكافأة لهم ، ومن أعتق منهم صار مولى ، ولذلك كان الموالى من
المسلمين غير العرب ، استنكافا من استرقاق المسلم ، ثم أطلقه بنو أمية على
كل مسلم غير عربى ، فاذا قالوا « الموالى » أرادوا المسلمين من الفرس وغيرهم
الذين كانوا مجوسا أو ذميين واعتنقوا الاسلام ، أو كانوا ممن لازم العرب أو
التجأوا اليهم ، ويسمونهم « الحمراء » فاذا قالوا « الحمراء » أرادوا
الموالى . والحمراء فى القاموس العجم ، وهم كل من سوى العرب

وأصبح الموالى فى الاسلام طبقة خاصة من طبقات الهيئة الاجتماعية ، كان
لها شأن عظيم فى تاريخ الاسلام ، ويمكن اعتبارهم من قبيل العصبية
العربية ، لقول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « مولى القوم منهم » (٢) وقوله : « من ادعى
الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين » (٣) وأهل
الرجل عند العرب الموالى والذرارى . ويثق الرجل بمولاه كما يثق بابنه ،
لأنه لم يعتقه الا حبا فيه ، والمولى يعد عتقه منة لمولاه عليه ، فيترك نسبه الى
أهله وينتسب الى مولاه ، فيقال فلان مولى فلان ولا يقال ابن فلان . أو
ينتسب الى قبيلته فيقال مثلا ابن سريج مولى بنى نوفل ، ومحرز مولى عبد
الدار ، وحكم الوادى مولى الوليد بن عبد الملك ، وابن عياد مولى بنى مخزوم ،
وقس عليه . ولذلك كانت رابطة المولى بمولاه وثيقة ، وخصوصا من يعيش
من الموالى فى بيت مواليتهم ، ولكن الغالب أن يخرجوا لعمل يعملونه ، حتى
اذا انتشبت حرب اجتمعوا تحت لوأثمهم

وللموالى فضل كبير فى الاسلام ، لأن معظم الحفاظ وأهل التفسير واللغة
والشعر وسائر العلماء وأكثر التابعين منهم ، لاشتغال العرب عن هذه العلوم

(١) الاغانى ١٢٣ ج ١ (٢) العقد الفريد ١١١ ج ٢ (٣) ابن هشام ٧٧ ج ٢ والبيان والتبيين ١٦٤ ج ١

بالسياسة والسيادة والتنازع على السلطة (١) ومعظم الموالى الذين خدموا العرب فى صدر الاسلام من بقايا الفىء والغنائم فى فارس وغيرها ، وأكثرهم كانوا غلمانا فى جملة السبى ، فربوا فى الاسلام ونبغوا فيه أو نبغ أولادهم منهم أربعون غلاما كانوا يتعلمون الانجيل فى عين التمر لما فتحها خالد بن الوليد ، فغنمهم وبعثهم الى أبى بكر بالمدينة ففرقهم فى أهل البلاد من جملة الغنائم ، فاعتنقوا الاسلام وأعتقهم مواليهم فنبغ من أولادهم جماعة كانوا عوناً كبيراً للمسلمين فى السياسة والحرب والعلم والدين ، منهم موسى بن نصير فاتح المغرب والاندلس فان أباه منهم ، وحمران مولى عثمان بن عفان (٢) وأيضاً محمد بن اسحق صاحب المغازى والسير فان جده يسار منهم (٣) وقس على ذلك سائر مشاهير الموالى الذين أصلهم من السبى فى أثناء الفتح أو بعده

فأبو صفر من سبى دبا فى أيام أبى بكر (٤) ، وحماد الراوية أصل أبيه ديلمى من سبى مكثف بن زيد الخيل (٥) وسائب خاثر أصله من فىء كسرى ، ومروان بن أبى حفصة الشاعر الشهير أصله يهودى من سبى اصطخر (٦) والهروى اللغوى المشهور أسير وقع فى سهم عرب نشأوا فى البادية (٧) وابن الاعرابى سندی الاصل ، وأبو دلامة كوفى أسود كان عبداً لرجل من بنى اسد فأعتقه (٨) وقل نحو ذلك عن سائر حملة العلم فى الاسلام

وقد يكون المولى من أصل رفيع واسترقه الأسر ولم يتوفق له الفداء ، فان بعض موالى المنصور من اولاد المرازبة (٩) وأبو على بن بذيمة الذى يروى عنه وأبو زهير جد المطلب بن زياد أصلهما من أبناء الاكاسرة ، وقعا فى الاسر يوم المدائن فأهداهما سعد الفاتح الى سمرة بن جنادة الصحابى فأعتقهما ابنة جابر (١٠) . وانتقى أبو موسى الاشعري ستين غلاما من اولاد الدهاقين من سبى بيروذ بفارس ، وفرق بعضهم فى المسلمين ، غير الذين افتداهم أهلهم (١١)

وكان للخلفاء والامراء ثقة كبرى بمواليهم ، يعهدون اليهم بكل شئونهم ، فأكثر حجاب الخلفاء الراشدين من مواليهم ، لا فرق فى أن يكون أصلهم فارسياً أو ديلمياً أو حبشياً أو رومياً ، فموالى أبى بكر أولهم بلال بن رباح كان عبداً حبشياً لرجل من مكة ، اشتراه أبو بكر بخمس أواق وأعتقه . وهو أول من أذن فى المدينة ، وكان له مقام رفيع فى الاسلام ، وكذلك عامر

(١) الجزء الثالث من هذا الكتاب (٢) بن الاثير ١٩٢ ج ٢

(٣) ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ والمعارف ١٦٨

(٤) المعارف ١٢٠ ج ٩ (٥) الاغانى ٣٦ ج ٩ (٦) ابن خلكان ٥٠١ ج ١ (٧) الاغانى ١٢٠ ج ٩

(٨) الاغانى ٨٢ ج ٢٠ (٩) المعارف ١٠٣ (١٠) ابن الاثير ٢٣ ج ٣

ابن فهيرة ، وأبو نافع ومرة بن أبي عثمان وغيرهم (١) وقس على ذلك موالى عمر وعثمان وعلي وغيرهم من الخلفاء وكبار الصحابة . وكلهم يستهلكون في سبيل مواليتهم ، لا اعتقادهم الفضل لهم عليهم ، وفي التاريخ شواهد كثيرة من هذا القبيل على اختلاف الأعصر - من ذلك أن محمد بن يزيد المهلبى ، لما نشبت الفتنة بين الأمين والمأمون ، كان هو من حزب الأمين ، وأراد أن يحفظ له الأهواز من أصحاب طاهر بن الحسين قائد جند المأمون فباغته طاهر بجنده قبل أن يتحصن وضايقه ، فالتفت المهلبى المذكور الى مواليتهم وقال لهم : « ما رأيكم ؟ انى أرى من معى قد انهزم ، ولست آمن خذلانهم ولا أرجو رجعتهم ، وقد عزمتم على النزول والقتال بنفسى حتى يقضى الله بما أحب ، فمن أراد الانصراف فليصرف ، فوالله لأن تبقوا أحب الى من أن تموتوا » . فقالوا : « والله ما أنصفناك اذن . . تكون قد أعتقتنا من الرق ، ورفعتنا من الضعة ، وأغويتنا بعد القلة ، ثم نخذلك على هذا الحال ؟ فلعن الله الدنيا والعيش بعدك » . ثم نزلوا فغرقوا دوابهم واستقتلوا بين يديه (٢)

على ان المولى لا يزال احط مقاما من العربى . وكان الموالى فى صدر الاسلام يتولون كثيرا من مصالح الدولة التى تفتقر الى امانة وثقة ، فضلا عن العلم والدين . ولهم الرواتب السنية (٣) لكنهم كانوا محرومين من المناصب الرفيعة التى تحتاج الى شرف وعصبية ، كالقضاء مثلا ، فانهم كانوا يعدونه فوق مرتبتهم ، فان عمر بن العزيز لما أراد ان يولى مكحولاً القضاء أبى وقال : « قال النبى : لا يقضى بين الناس الا ذو الشرف فى قومه ، وانا مولى » (٤)

٤

(١) المعارف ٥٨ (٢) ابن الاثير ١٠٦ ج ٦ (٣) الاغانى ١٦٣ ج ١٠ (٤) العقد الفريد ٨ ج ١

سياسة الدولة

في عهد الأمويين

من سنة ٤١ - ١٣٢ هـ

قد رأيت مما تقدم ان سياسة الدولة في أيام الراشدين انما كان قوامها الجامعة العربية ، وعمادها العدل والرفق والأريحية، ففتحوا العالم وأسسوا الدولة الإسلامية ، وأخضعوا معظم المعمور في بضع وعشرين سنة ، ووجهتهم دينية وسلاحهم التقوى والحق ، والعمل بالكتاب والسنة، وغايتهم نشر الدين والتماس الثواب في الآخرة ، وحكومتهم بالانتخاب والشورى ، وسترى في سياسة بني أمية ما يخالف ذلك من كل الوجوه

انتقال الخلافة الى الأمويين

لما طمع بنو أمية في الخلافة ، كانت قد أفضت الى علي بن أبي طالب صهر النبي وابن عمه ، والمسلمون يعتقدون أنه أحق الناس بها ، لقربته من النبي وتقواه وشجاعته وعلمه ، وسابقته في الإسلام وفضله في تأييده . فتصدى له معاوية بن أبي سفيان ، وكان أبوه وأخوته من أشد الناس مقاومة للإسلام عند ظهوره ، ولم يسلموا الا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة ، وانما أقدموا على ذلك مضطرين ، لما رأوا الإسلام قد تأيد في جزيرة العرب ولم يبق سبيل الى مقاومته

وكان أبو سفيان والد معاوية زعيم أهل مكة ، وقد حارب النبي في عدة أماكن . وجاهر بعداوته وطعن فيه . فلما ظفر المسلمون في غزواتهم ، واشتد أزرهم وهموا بفتح مكة ومشوا حتى أقبلوا عليها ، كان أبو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا منها يتجسسون . فلقبهم العباس عم النبي ، فقال له أبو سفيان وقد أسقط في يده : « لقد أصبح أمر ابن أخيك عظيماً » فأشار عليه العباس أن يستأمن ، فلم ير له حيلة في غير ذلك فاستأمن ، ثم فتحت مكة ولم يكن له بد من الإسلام فأسلم هو وأولاده وفيهم معاوية ، وقد تألفهم النبي بالعطاء ليثبتوا في إسلامهم (١)

المنافسة بين بني أمية وبني هاشم

والسبب في طلب معاوية للخلافة متصل بالجاهلية . وذلك أن بني عبد

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب

مناف هم أشرف بطون قريش وأكثرهم عددا وقوة ، وهم فخذان : بنو أمية وبنو هاشم ، وكان بنو أمية أكثر عددا من بنى هاشم وأوفر رجالا ، وكان لهم قبل الاسلام شرف معروف انتهى الى حرب بن أمية والد أبى سفيان وجد معاوية . وكان حرب المذكور رئيسهم فى واقعة الفجار قبل الاسلام ، وله جاه وشوكة فى الفخذين جميعا ، فلما جاء الاسلام ، والنبي من بنى هاشم شق ذلك على بنى أمية وكانوا من أقوى الساعين فى مقاومته ، فلم يفلحوا . ولكنهم حملوا النبي على الهجرة من مكة الى المدينة ، وقد نصره الانصار هناك وهم من القحطانية حتى استتب له الامر ، وقد مات عمه ابوطالب وهاجر بنوه مع النبي الى المدينة . ثم لحقهم أخوه حمزة ثم العباس وغيره من بنى عبدالمطلب وسائر بنى هاشم ، فخلا الجو لبنى أمية فى مكة ، واستغلظت رياستهم فى قريش ، وزادت سطوتهم بعد واقعة بدر اذ هلك فيها عظماء قريش من سائر البطون . فاستقل أبو سفيان بشرف أمية بمكة والتقدم فى قريش ، وكان رئيسهم فى واقعة أحد وقائدهم فى واقعة الاحزاب وما بعدها . فلما استفحل أمر المسلمين وفتحوا مكة واستأمن أبو سفيان كما تقدم ، رأى النبي من حسن السياسة أن يمن على قريش كافة بعد أن ملكهم بالفتح عنوة ، فمن عليهم وأطلق سبيلهم وقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وفيهم معاوية ، فأسلموا جميعا

فلما مات النبي وتولى الخلافة أبو بكر ، جاء القرشيون ومعظمهم من بنى أمية ، وشكوا اليه ما وجدوه فى أنفسهم من التخلف عن رتب المهاجرين والانصار ، فقال لهم أبو بكر : « لقد جئتم الاسلام متأخرين ، فأدركوا اخوانكم فى الجهاد » فجاهدوا فى حروب الردة . ولما تولى عمر بن الخطاب أدرك ما فى نفوسهم ، فخاف بقاءهم فى المدينة ، فرمى بهم الروم ورغبهم فى الشام ، فاستعمل يزيد بن أبى سفيان عليها ، فانتقل معه سائر قريش ، واستطابوا فاكهة الشام فأقاموا فيها حتى توفى يزيد المذكور ، فولى عمر مكانه أخاه معاوية . ولما تولى عثمان سنة ٢٣ هـ أقر معاوية على الشام ، فاتصلت رياسة بنى أمية على قريش فى الاسلام كما كانت فى الجاهلية ، وبنو هاشم مشتغلون بالنبوة وقد نبذوا الدنيا (*)

(*) يذهب المقرئى فى رسالته القيمة « النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » (القاهرة ١٩٢٧) الى أن استيلاء بنى أمية على الامور يرجع الى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذكر انه لما توفى الرسول كان عماله على مكة واليمن والبحرين وتيماء وخيبر وفدك وتبوك كلهم من بنى أمية وحلفائهم . فلما تولى أبو بكر ترك بنو سعيد بن العاص أعمالهم واتوا الى المدينة ، فأراد أبو بكر ردهم الى ولاياتهم ، فقالوا : « نحن بنو أبى أحيحة ، لا نعمل لاحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا » ثم مضوا الى الشام وقتلوا وقتلوا فى مغازيها ، فيقال : « ما فتحت بالشام كورة من كوره الا وجد عندها رجل من بنى سعيد بن العاص ميتا » . ثم ايد المقرئى كلامه برواية للواقدي ، وقال بعد ذلك : « فاذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسس هذا الاساس ، وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد ، كيف لا يقوى ظنهم ، ولا ينبسط رجاؤهم ، ولا يمتد فى الولاية أملهم ؟ أم كيف لا يضعف ظن بنى هاشم وينقبض رجاؤهم ويقصر أملهم ، وكبراهم العباس بن عبد المطلب وابن أخيه على ابن أبى طالب رضى الله عنهما يريد احدهما استعمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته عن هذا الامر هل هو فيهم أو فى غيرهم وبأبى الآخر ذلك ؟ .. » ثم يقول بعد ذلك بكثير « فانظر كيف لم يكن فى عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى عمال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أحد من بنى هاشم ! فهذا وشبهه هو الذى حدد انياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأبوابهم كأسهم وقتل أمراهم »

وكان بنو أمية ينظرون الى ما ناله بنو هاشم بالنبوة من السلطان والجاه، ويتوقعون فرصة للقبض على أزمة الملك . فلما قتل عمر بن الخطاب وأمر بالشورى ، اختار الصحابة عثمان بن عفان وهو من بنى أمية ، ولا يخلو فوزهم بهذا الانتخاب من دسياسة أموية . وكان عثمان ضعيفا يؤثر ذوى قرابته فى مصالح الدولة ، فاغتنم الأمويون ضعفه وتولوا الاعمال واستأثروا بالأموال ، فشق ذلك على سائر الصحابة فنقموا عليه ، ثم استشهد بعد ذلك على ما هو معروف

فاتخذ الأمويون قتله ذريعة للقبض على الخلافة ، ورئيسهم معاوية بن أبى سفيان عامل عثمان على الشام ومعه رجال قريش . وكان أهل المدينة قد بايعوا على بن أبى طالب ، وجمهورهم الانصار . فأصبح المسلمون يومئذ حزبين رئيسيين : (١) الانصار ويريدون الخلافة لأهل بيت النبى (صلعم) جريا على نصرتهم اياه يوم هجرته (٢) بنو أمية فى الشام ويطلبونها لمعاوية ابن زعيمهم فى الجاهلية . وجمهور الصحابة يرون الحق لعلى ، فلم ير معاوية سبيلا الى نيل بغيته الا بالدهاء والتدبير . وكان أدهى اهل زمانه بلا منازع . فنظر فى الامر نظرة رجل يطلب الملك كما يطلبه أهل المطامع وطلاب السيادة فى كل عصر بلا علاقة بالدين ، وقد ساعده على ذلك أن خصمه عليا كان يعتبر الخلافة منصبا دينيا ، وهو زاهد فى الدنيا لامطمع له فى غير الثواب والحسنى . وان رجال معاوية قد ذهب منيهم حرمة الدين ، وسوا دهشة النبوة وذاقوا لذة الثروة وتعودوا السيادة فاتسعت مطامعهم . فثمرت مساعي معاوية فى اصطناع الاحزاب بقاعدة ذكرها فى حديث دار بينه وبين عمرو بن العاص . اذ قال معاوية : « لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » فقال عمرو : « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ » ، قال : « ان هم شدوا أرخيت ، واذا أرخوا شددت »

فأول شىء فعله معاوية أنه استعان بثلاثة من كبار الصحابة يعدمهم المؤرخون أدهى رجال العرب - ومعاوية أدهاهم جميعا - وهم : عمرو بن العاص ، وزيايد بن أبيه ، والمغيرة بن شعبة . ولولاهم لم يستتب له الامر ، لأن ابن العاص احتال فى نجاته من واقعة صفين ، بعد أن كادت الدائرة تدور عليه ، اذ ظهرت جيوش على على جيوشه ، فأشار عليه عمرو بن العاص أن يرفع المصاحف لايقاف الحرب ، ثم أشار بالتحكيم وخذع أبا موسى الأشعري نائب على فى ذلك التحكيم فخلع عليا وبايع معاوية (*) . ونال عمرو فى مقابل

(*) يبدو ان مسألة التحكيم قد اختلط امرها على الرواة ، فرووها على صورة لا يقبلها العقل اذا نحن دققنا النظر فيها ، فالروايات تصور أبا موسى الأشعري رجلا ساذجا يخذع عمرو بن العاص بحيلة لا تجوز على طفل ، فهم يزعمون انه اتفق مع عمرو بن العاص على أن يخلع كل منهما صاحبه ، مع ان معاوية لم يكن اذ ذاك خائفة ولا مطالبيا بالخلافة حتى يجوز خلعه فى مقابل خلع على الخليفة المبايع له المترف به حتى من معاوية . والروايات تسدل على ذلك الموضوع نقابا من الابهام حتى ليحسر معرفة حقيقة ما وقع ، ويبدو ان الحكيم لم يتفقا على شىء ، فازداد الهرج ، وزعم دعاة بنى أمية ان أبا موسى خلع صاحبه . اما القول بأن أبا موسى بلا فخلع عليا فبادر عمرو وقال انه يثبت صاحبه كما يثبت خاتما فى أصبعه ، فشىء اقرب الى

ذلك ولاية مصر طعمة له طول العمر (١) وزياد بن أبيه رجل لا يعرف له اب ، فلما رأى معاوية دهائه قربه منه وادعى أنه أخوه ، واستلحقه بنسبه وسماه زياد بن أبي سفيان ، في حديث طويل ذكرنا خلاصته فيما تقدم . واستلحق زياد أول عمل ردت به أعلام الشريعة الإسلامية علانية (٢) وكان زياد عوناً كبيراً لمعاوية في حفظ العراق وفارس . أما المغيرة بن شعبة فهو أول من ضرب الزيوف في الإسلام وأول من رشى (٣) وهو الذي حرض معاوية على مبايعة ابنه يزيد ، وجعل الخلافة وراثية في نسله وساعده على ذلك

فهؤلاء وغيرهم من كبار القواد اكتسب معاوية مساعدتهم بالدهاء والأطماع ، فأطعم ابن العاص مصر ، وأطعم المغيرة فارس ، وجعل زيادا أخاه . وكان يتساهل في محاسبة عماله ويفضى عن سيئاتهم (٤) ويبالغ في إكرامهم . ولو رأوا من على بعض ذلك لكانوا معه ، ولكن عليا كان دقيقاً في محاسبتهم ، متصلياً في رأيه لا يحيد عما يقتضيه ضميره - كذلك كان يفعل ابوبكر وعمر ، ولكن المسلمين كانوا في أيامهما لا يزالون في إبان الحمية الدينية والأريحية العربية ، ينصاعون لأوامر خليفتهم بكلمة ، ولذلك عدوا تصرف علي ضعفاً منه . فلما رأوا ضعفه انحازوا إلى معاوية بعد أن كانوا معه ، وأولهم المغيرة ابن شعبة ، فهذا جاء علياً يوم بويج ومعاوية واقف له بالمرصاد ، فأشار عليه أن يحاسن معاوية ولا يعزله عن عمله في الشام ، ريثما يستتب له الأمر فيعزله إذا شاء ، فلم يطعه علي ، فعاد إليه في اليوم التالي وخادعه ، وأشار عليه أن يعزل معاوية ويفعل كما يشاء ، ثم انحاز المغيرة إلى معاوية وصار من أكبر أنصاره

وقس علي ذلك تصرف علي مع ابن عمه عبد الله بن عباس ، وكيف كدره وأخرجه من حوزته بتدقيقه كما تقدم . ولما قتل علي خلفه ابنه الحسن ، فرأى نفسه عاجزاً عن منازلة معاوية ، فتنازل له عن الخلافة سنة ٤١ هـ فرسخت قدم معاوية فيها . وسار بنو أمية بعده على خطته ، وسار العلويون على خطة علي ، وكان الفوز دائماً لأهل الدهاء ، ففضى العلويون معظم أيامهم خائفين شاردين ، ومات أكثرهم قتلاً مع أنهم أهل تقوى ودين وحق ، وأولئك على الضد من ذلك - مما يدل على أن السياسة والدين لا يلتحمان إلا نادراً ، وما التحامهما أيام الراشدين إلا فلتة قلما يتفق مثلها . على أننا لا نعد دولة الراشدين حكومة سياسية ، وإنما هي خلافة دينية (*)

القصص ، وأولى بنا أن نسأل : قيم ثبت عمرو صاحبه ؟ فان قيل ثبته في الخلافة فان معاوية لم يكن بخليفة ولا مطالباً بخلافة ، وان قيل ثبته في ولاية الشام ، فليس عمرو بن العاص مندوب معاوية هو الذي يثبت في الولاية . انما يكون التثبيت من جانب الخليفة علي بن أبي طالب او مندوبه ، ويكون في ولاية الشام وحدها

(١) المقرئ ج ١ (٢) ابن الاثير ج ٢٢٥ (٣) المعارف ١٨٩ (٤) ابن الاثير ج ٢٦٠ ج ٢

(*) هذا هو رأى معظم المستشرقين ، وهم يصفون الدولة أيام الراشدين بأنها كانت حكومة

دينية (تيوقراطية) Theocracy

رغبة بنى أمية في السيادة

ان المحور الذى كانت تدور عليه سياسة بنى أمية ، والغرض الذى كانوا يرمون اليه ، انما هو احراز الخلافة والرجوع الى السيادة التى كانت لهم فى الجاهلية ، بقطع النظر عن وعورة المسالك المؤدية الى ذلك ، أو وخامة الاسباب التى تمسكوا بها . وقد فازوا بغايتهم ، فاتسعت المملكة الاسلامية فى أيامهم واشتدت شوكتها ، مالم تبلغ اليه دولة العباسيين بعدها (١) وكانوا يطلبون السلطة على أن لا يشاركهم فيها أحد ، وكان أشدهم فتكا عبد الملك بن مروان يقول : « لا يجتمع فحلان فى أجمة » (٢)

فرغبة بنى أمية فى السلطة على هذه الصورة ، مع وجود من هو احق منهم بها ، جرهم الى ارتكاب أمور آلت الى توجيه المطاعن اليهم . وقد ظهرت هذه الدولة وتغلبت على سائر طلاب الخلافة فى أيامهم بشيئين: العصبية القرشية ، واصطناع العصبيات أو الأحزاب الأخرى ، وهما أساس كل ماظهر من سياسة بنى أمية كما سترى

العصبية العربية فى عصر الامويين

العرب وقريش

كانت العصبية العربية فى الجاهلية بين القبائل بحسب الأنساب ، فلما جاء الاسلام تنوسيت تلك العصبية ، واجتمع العرب كافة باسم الاسلام أو الجامعة الاسلامية ، ومازالت الجامعة الاسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم طول أيام الخلفاء الراشدين . حتى اذا طمع بنو أمية فى الملك ، وقبضوا على أزمة الخلافة ، استبدوا وتعصبوا للعرب ، وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها ، فظلت خشونة البادية غالبية على حكومتهم وظاهرة فى سياستهم ، مع ذهاب مناقب البدو التى ذكرناها . وانما حفظوا من أحوال جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم « قریش » ، وإيثار أهلهم على سواهم . فجاشت عوامل الحسد فى نفوس القبائل التى كان لها شأن فى الجاهلية وضاع فضلها فى الاسلام ، وخصوصا أهل البصرة والكوفة والشام ، لأن أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبى (صلعم) ، ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقه ، مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها . فلما استفحلت الدولة اذا هم فى قبضة المهاجرين والأنصار ، من قریش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويشرب ، فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ،

(٢) ابن الاثير ٦٩١ ج٦

(١) الفخرى ٢٥

ومصادمة فارس والروم ، مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة
وكندة ، والازد من اليمن ، وتميم وقيس من مضر ، فصاروا الى الغض من
قريش والأنفة عليهم ، فعادت العصبية الى نحو ما كانت عليه في
الجاهلية

بدات هذه العصبية بتعصب العرب كافة على قريش ، حسدا لهم كما
ذكرنا ، ولاستبدادهم بالسلطة دون سائر الصحابة او التابعين مع استئثارهم
بالفء - الا الذين تألفهم معاوية من القبائل اليمانية او العدنانية . واول خلاف
وقع بين المسلمين من هذا القبيل حدث في ايام عثمان ، ذلك ان سعيد بن
العاص لما ولاه عثمان الكوفة اختار وجوه الناس واهل القادسية وقراء اهل
الكوفة لمجالسته ، فكانوا يسمرون عنده وفيهم جماعات من كل القبائل .
وكان بنو أمية وغيرهم من الصحابة قد أخذوا في امتلاك العقار وبناء المنازل ،
وبنو أمية اطول باعا يومئذ في ذلك لقرابتهم من الخليفة . فاتفق في احدى
مسامراتهم عند سعيد بن العاص ان بعضهم ذكر جود طلحة بن عبيد الله
أحد كبار الصحابة ، فقال سعيد : « ان من له مثل النشاستج لحقيق ان
يكون جوادا ، ولو كان لى مثله لأعاشكم الله به عيشا رغدا » . والنشاستج
ضبعة في الكوفة كانت لطلحة ، وهى عزيمة كثيرة الدخل اشتراها من اهل
الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخير وعمرها فعظم دخلها (١)

فلما قال سعيد ذلك قام غلام من الحضور فقال له : « لوددت ان هذا
الملطاط لك » . والملطاط ماكان للأكاسرة على جانبى الفرات مما يلي الكوفة .
فنهض بعض الحاضرين من غير قريش وانتهر الغلام فاعتذر أبوه عنه وقال :
« غلام فلا تجازوه » . فقال : « كيف يتمنى له سوادنا ؟ » اى سواد العراق
فقال سعيد : « السواد بستان قريش » . وكان الأشتر النخعي حاضرا ،
وهو من اليمانية ، وكان شديد التعصب لعلى بن أبى طالب ، فغضب وقال
لسعيد : « أتزعم ان السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستانك ولقومك؟ »
فقام عبد الرحمن الأسدى صاحب شرطة سعيد فقال للأشتر : « اتردون
على الأمير مقالته ؟ » واغلظ لهم ، فأشار الأشتر الى رفاقه فوثبوا على
الرجل فوطأوه وطأ شديدا حتى غشى عليه ، ثم جروا برجله ونضحوه بالماء
فأفاق ، فنظر الى سعيد وقال : « ان الذين انتخبتم لمسامرتك قتلونى » .
فقال سعيد : « والله لا يسمر عندى احد ابدا » (٢)

فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين ، وخصوصا
بينهم وبين اليمانية ، ومنهم الأنصار . وثبت الأنصار في نصره اهل البيت
ضد أهلهم من قريش مثلما فعلوا في اول الاسلام ، اذ جاءهم النبى مهاجرا

(١) ياقوت ٧٨٣ ج ٤ (٢) ابن الاثير ٧٢ و ٩٧ ج ٢

فرارا من اهله . ولما جرت واقعة صفين سنة ٣٧ هـ بين علي ومعاوية عدوها بين اليمنية « الأنصار » وقريش . فلما احتدم القتال في تلك الواقعة قال رجل يمني من انصار علي : « أيها الناس هل من رائج الى الله تحت العوالي (أي السيوف) ؟ والذي نفسي بيده لنقاتلنكم على تأويله (القرآن) كما قاتلناكم على تنزيله » ، وتقدم وهو يقول :

نحن ضربناكم على تنزيله واليوم نضربكم على تأويله
ضربا يزيل المهاب عن مقلبه ويذهل الخليل عن خليله

أو يرجع الحق الى سبيله (١)

القبائل اليمنية والمضرية

ثم صار أكثر اليمنية شيعة علي وأنصاره ، إلا الذين تألفهم معاوية بالعطاء ، لعلمه أن اكتفاءه بقريش ونحوهم لا يجديه نفعا ، فقرب منه قبيلة كلب وتزوج منها بجدل أم يزيد ابنه ، واستنصرهم علي قتلة عثمان لان امرأة عثمان كانت كلبية ، واستفواهم بالمال فحاربوا معه ، ولما فاز في حروبه ورسخت قدمه في الخلافة تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن ، وظلت كلب على نصره يزيد ابنه بعده لانهم أخواله

فلما مات يزيد وابن الزبير في مكة يطالب بالخلافة ، واختلف بنو أمية على اختيار خالد بن يزيد أو مروان بن الحكم (وكلاهما من أمية) ، ووقع الخصام بين دعاة ابن الزبير ودعاة بنى أمية ، كان أنصار ابن الزبير من قيس (مضرية) يدعون لابن الزبير ، وأنصار بنى أمية بنو كلب (يمنية) يدعون لخالد بن يزيد لانه ابن أختهم . ونهض أناس من بنى أمية فاعترضوا على صفر سن خالد ، فأجمعوا على بيعة مروان لشيخوخته على أن تكون الخلافة بعده لخالد . ثم جرت واقعة مرج راهط بين أصحاب مروان وأصحاب ابن الزبير ، أي بين كلب وقيس ، وفاز مروان وثبتت قدمه في الخلافة . ثم توفي مروان ولم يف لخالد ، فخلفه ابنه عبد الملك بن مروان الشديد الوطأة ، وظلت كلب معه وقيس مضطغنة عليه ، وانقسم العرب في سائر أنحاء المملكة الاسلامية بين هذين الحزبين : قيسية وكلبية ، أو مضرية ويمنية ، أونزارية وقحطانية . وقامت المنازعات بينهما في الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وافريقية والاندلس . وفي كل بلد من هذه البلاد وغيرها حزبان : مضري ويمني ، تختلف قوة أحدهما أو الآخر باختلاف الخلفاء أو الامراء أو العمال . فالعامل المضري يقدم المضرية ، والعامل اليمني يقدم اليمنية ،

ويختلف ذلك باختلاف الاحوال ، وله تأثير في كل شيء من تصارييف احوالهم ، حتى في تولية الخلفاء والأمراء وعزلهم ، وكثيرا ما كانت الولاية والعزل موقوفين على الانحياز الى أحد هذين الحزبين

فقد رأيت أن قبيلة قيس كانت على عبد الملك بن مروان ، ولكنها كانت أول نصير لابنه هشام ، فنصرته فقربها وأحقها بالديوان أى فرض لاهلها الرواتب والجرايات . وفى أيامه نقل كثير من بطونها وافخاذها الى بلاد الاسلام وخصوصا مصر والشام . وفى أيام هشام ارتفع شأن القيسية ، وصارت سائر المضرية أنصارا لبنى أمية ، ولاسيما لما قتل الوليد بن يزيد وأمه قيسية (١) فقام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يطالب بدمه رغبة فى نصرتهم ليشهد أزره بهم ، فأجمع المضرية على نصره مروان ، وما زالوا كذلك الى آخر أيامه ، فلما قامت شيعة بنى العباس كانت اليمينية من أنصارها

وكان تحت هذين الحزبين الكبيرين أحزاب فرعية تتخاصم وتتحارب . على أن مقام قريش مازال فى كل حال محفوظا ومفضلا على مقام سائر القبائل شرفا ونفوذا ، فكانوا اذا خافوا عصيان بعض الولايات على عاملها ولوا عليها عاملا من قريش ، فيدعون له ويجمعون على طاعته (٢)

على أن قريشا كانوا منقسمين فيما بينهم ، وأهم انقساماتهم بين بنى أمية وبنى هاشم ، فكان الناس يتعصبون لاحدهما على الآخر تبعا لغرضه او وطنه، وكثيرا ما كانوا يتشاجرون فى هذا السبيل فيشغلون أوقاتهم بالمناظرة والمفاخرة، حتى تحتدم نار الخصام وتتحول الى حرب يطير شرارها وتسفك فيها الدماء. وكانت قوة بنى هاشم فى الحجاز والعراق ، وقوة بنى أمية فى الشام، ويختلف هذا التحديد باختلاف العصور . وكثيرا ما كان الخصام يبدأ بين الشعراء ، واشتهر بعضهم على الخصوص فى هذه المطاعنات ، واشهر مناظراتهم فى هذا السبيل ما كان بين سديف الشاعر ، الذى ينتسب بولائه الى بنى هاشم ، فقد كان يتعصب لهم ، وسياب الشاعر وكان يتعصب لبنى أمية ، فكان هذان الشاعران يخرجان الى ظاهر مكة يذكران المثالب والمعائب ، والناس ينقسمون فى التعصب لهما ، حتى تولد من ذلك عصبتان كبيرتان عرفتا بالسديفية والسيابية ، وتواصل ذلك الى أيام الدولة العباسية ، وتغير أسماهما الى الحناطين والجزارين (٣) وسديف هذا هو الذى قال شعرا بين يدي السفاح قتل به سليمان بن هشام الأموى (*)

(١) ابن الأثير ١٥٩ ج ٥ (٢) ابن الأثير ١٧٨ ج ٥ (٣) الاغانى ١٦٢ ج ١٤

(*) سديف هو المعروف بسديف مولى بنى هاشم . انظر عنه الاغانى ، طبعة الساسى ٩٢/٤ -

٩٦ و ١٥٦/١٤ . وسياب هو ابو سيابة المذكور فى الاغانى ٩/٥ و ٤٤

عصبية العرب على العجم

وكما كان القرشيون في أيام بنى أمية مقدمين على سائر قبائل العرب ، فإن العرب على الاجمال كانوا مقدمين على سائر الامم الذين دانوا بالاسلام . ولم يكن هؤلاء يستنكفون من ذلك ، بل كانوا يعتقدون فضل العرب في اقامة هذا الدين ، وانهم مادته واصله ، ولا كانوا يأنفون من أن يسموا العرب اسيادهم ويعدوا أنفسهم من مواليهم ، بل كانوا يعدون طاعتهم وحبهم فرضا واجبا عليهم ، عملا بالحديث المأثور : « من أبغض العرب أبغضه الله » (١) وكثيرا ما كانوا يعترفون بفضلهم عليهم في العقل والحزم وسائر المناقب ، فان عبد الله ابن المقفع المنشئ الشهير - وكان عريقا في النسب الفارسي - ضمه مجلس في بيت بعض كبراء الفرس بالبصرة ، وفيه جماعة من اشراف العرب ، فتصدى هو للكلام فسأل بعض الحضور : « أى الامم أعقل ؟ » فظنوه يريد أمته فقالوا : « فارس » فقال : « كلا . . لانهم وان ملكوا الارض وضمت دولتهم الخلق لكنهم لم يستنبطوا شيئا بعقولهم » ، فقالوا : « الروم » ، فقال : « لا » حتى سئموا فقالوا : « قل أنت » ، قال : « العرب . واذا فاتنى حظى من النسبة اليهم فلا يفوتنى حظى من معرفتهم . ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت عليها ، اصحاب ابل وغنم وسكان شعر وأدم ، وجود أحدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ، ويشارك ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ماشاء فيحسن ويقبح ماشاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حياء الله فيهم وحبائهم في أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم اشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر على الخير فيهم ولهم »

العرب والموالى

فكان العرب يزدادون بأمثال هذه الاقوال افتخارا على سائر الامم ، وخصوصا على المسلمين منهم ، فكانوا يترفعون عنهم ويسمونهم الموالى كما تقدم . ومن اقوال أهل العصبية للعرب على العجم : « لو لم يكن منا على الموالى عتاقة ولا احسان الا استنقاذنا له من الكفر ، واخراجنا له من دار الشرك الى دار الايمان ، كما فى الاثر - ان قوما يقادون الى حظوظهم بالسواحيير . وكما قال : عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل . على أننا تعرضنا للقتل فيهم ، فمن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك ؟ . فالله أمرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم وورغبنا فى مكاتبكم »

وكانوا يكرهون أن يصلوا خلف الموالى ، وإذا صلوا خلفهم قالوا : اننا نفعل ذلك تواضعا لله . وكان نافع بن جبير التابعى الشهر اذا مرت به جنازة قال : « من هذا ؟ » ، فاذا قالوا : « قرشى » قال : « وا قوماه ! » واذا قالوا : « عربى » قال : « وا بلوتاه ! » واذا قالوا : « مولى » قال : « هو مال الله يأخذ ماشاء ويدع ماشاء » (١) . وكانوا يقولون : « لا يقطع الصلاة الا ثلاثة : حمار ، او كلب ، او مولى » . وكانوا لا يكتونهم بالكنى ، ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقب ، ولا يمشون فى الصف معهم ، ولا يدعونهم يتقدمونهم فى المواكب ، وان حضروا طعاما قاموا على رؤوسهم ، وان اطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه اجلسوه فى طريق الخباز ، لئلا يخفى على الناظر انه ليس من العرب ، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز اذا حضر أحد من العرب - وسيأتى الكلام على أحكام الموالى فى هذا العصر

وكان العرب فى أيام هذه الدولة يترفعون عن سائر الامم من الموالى واهل الذمة ، ويعدون انفسهم فوقهم جبلة وخلقة وفضلا ، وكانوا يسمونهم « الحمراء » كما تقدم ، وربما ارادوا بالحمراء الموالى على الخصوص . فكان العربى يعد نفسه سيدا على غير العربى ، ويرى انه خلق للسيادة وذاك للخدمة ولذلك لم يكن العرب يشتغلون فى صدر الاسلام الا بالسياسة والحكومة ، وتركوا سائر الاعمال لسواهم وخصوصا المهن والصناعات . ومن أمثالهم « ان الحمق فى الحاكة والمعلمين والغزاليين » لانها صناعات اهل الذمة (٢) وتخاصم عربى ومولى بين يدى عبد الله بن عامر صاحب العراق فقال المولى : « لاكثر الله فينا مثلك » ، فقال العربى : « بل اكثر الله فينا مثلك » ، فقيل له : « ايدعو عليك وتدعو له ؟ » ، قال : « نعم ، يكسحون طرقتنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا » (٣)

ولم يكن العرب يعتنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ ، لانه لازم للسيادة والفتح ، وأما الحساب والكتابة فقد كانت من صناعات الموالى واهل الذمة ، ولذلك كان العمال فى أيام بنى أمية مع تعصبهم للعرب قلما يولونهم الدواوين ، لانهم كانوا لا يكتبون ولا يحسبون (٤)

وكان الامويون فى أيام معاوية يعدون الموالى اتباعا وارقاء . فلما تكاثرت الموالى ادرك معاوية الخطر من تكاثرهم على دولة العرب ، فهم ان يأمر بقتلهم كلهم او بعضهم . وقبل مباشرة ذلك استشار بعض كبار الامراء من رجال بطانته ، وفيهم الاحنف بن قيس وسمرة بن جندب ، فقال لهما : « اتى رأيت هذه الحمراء (يعنى الموالى) واراها قد قطعت على السلف ، وكأنى انظر الى وثبة

(٢) البيان والتبيين ١٠٠ ج ١
(٤) المسعودى ١١٤ ج ٢

(١) العقد الفريد ٧٣ ج ٢
(٣) العقد الفريد ٧٣ ج ٢

منهم على العرب والسلطان ، فرايت أن أقتل شطرا وادع شطرا لا قامسة السوق وعمارة الطريق ، فما ترون ؟ » . فقال الاحنف : « أرى أن نفسى لا تطيب .. أخى لامى وخالى ومولاى وقد شاركناهم وشاركونا فى النسب » ، واما سمرة فأشار بقتلهم وطلب أن يتولى ذلك هو بنفسه ، فرأى معاوية أن الحزم فى رأى الاحنف فكف عنهم . فاعتبر مقدار استخفاف العرب بسواهم ، وكيف يخطر للخليفة أن يقتل شطرا منهم بغير ذنب اقترفوه كأنهم من الاغنام (*)

وكان العرب سكروا بخمرة السيادة والنصر ، بارتقائهم من رعاية الابل الى سياسة الممالك فى بضعة عشر عاما ، فتوهموا فى فطرتهم ما ليس فى سواهم من المناقب والسجاياء كما توهم الرومان قبلهم ، وكما يتوهم أهل هذا العصر فى بعض الامم السائدة فيعتقدون امتيازها بأصل فطرتها عن سائر الامم (***) فتوهم العرب فى أنفسهم الفضل على سائر الامم . . حتى فى أبدانهم وأمزجتهم فكانوا يعتقدون أنه لا تحمل فى سن الستين الا قرشية ، ولا تحمل لخمسين الا عربية كما تقدم ، وأن الفالج لا يصيب أبدانهم ولا يضرب أحدا من ابنائهم (***) الا أن يبذروا بذورهم فى الروميات والصقلييات وما أشبههن فيعرض الفالج لمن يلدنه (١) ولذلك كانوا فى أيام بنى أمية شديدي العناية فى حفظ أنسابهم من شوائب العجمة ، ومنعوا غير العرب من المناصب الدينية المهمة كالقضاء ، فقالوا : « لا يصلح للقضاء الا عربى » (٢) وحرموا منصب الخلافة على ابن الامة ولو كان أبوه قرشيا ، وكان ذلك من جملة ما احتج به هشام على يزيد بن على بن الحسين ، اذ قام يطلب الخلافة لنفسه فقال له هشام بن عبد الملك : « بلغنى انك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لانك ابن أمة » (٣) مع أن أمه من بنات ملوك فارس . وأول من ولى الخلافة من أبناء الاماء يزيد ابن الوليد الاموى سنة ١٠١ هـ ، وكانوا يسمون العربى من أم أعجمية « الهجين » ، ولا يزوجون الاعجمى عربية ولو كان أميرا وكانت هى من أحقر القبائل . فان بعض دهاقين الفرس أراد أن يتزوج امرأة من باهلة كانت فى بعض قصور الترك فأبت ، مع أن باهلة من أحقر قبائل العرب . ولم يكن

(*) كان دافعه الى ذلك كما هو ظاهر من النص هو الخوف من كثرة عدد الموالى ، فقد كانوا يزيدون على العرب أضعافا . وموقف العرب من الموالى منشؤه الاستعلاء على غيرهم ، ولكن لا ينبغي ان تفوتنا ملاحظة خوف العرب من الموالى

(**) يشير المؤلف هنا الى ما كان الانجلوسكسون مثلا يدعونه لانفسهم من الفضل على غيرهم ، وما زعمه أهل اوربا وامريكا من انهم آريون ممتازون على الساميين والحاميين ومن سواهم . وقد ذهبت هذه الدعوى الآن فى الظاهر ، أما فى الحقيقة فلا يزال أهل العرب يشعرون بأنهم قادة الانسانية ، وهم يتصرفون على هذا الاساس

(***) أى أن الفالج لا يصيب ابناءهم الصرحاء . وقد كان هذا صحيحا بالنسبة لعرب الجاهلية ، لان الفالج يتأتى من زيادة ضغط الدم ، وهذا بدوره يتأتى فى الغالب ، من الاسراف فى أنواع معينة من الطعام ، وكان الجاهليون متقللين من الطعام ، فلم يكن الفالج يصيبهم ، وقد أشار الى ذلك ابن سينا فى « القانون »

(١) طبقات الاطباء ١٥٠ ج ١ والاغانى ٨٨ ج ١٥ (٢) ابن خلكان ٢٠٥ ج ١

(٣) سراج الملوك على هامش مقدمة ابن خلدون ٢٨٨

اثقل على طباعهم من استرقاق العربى (١)

وكان فضل العرب على سواهم قضية مسلمة في صدر الاسلام لا تحتاج الى دليل ، فلما بالغ بنو أمية في الاستخفاف بغير العرب وقد ذهبت دهشة النبوة ، أخذ هؤلاء في التذمر ونصروا آل على والخوارج وغيرهم من اعداء الامويين ، وهان عليهم الرد على العرب في مفاخراتهم ، فنشأ من ذلك طائفة يعرفون بالشعوبية ، لا يعترفون بفضل العرب على سواهم ، وتصدوا للدفع حجج القائلين بفضل العرب على سائر الشعوب . ولم يكن الشعوبية يستطيعون الظهور في أيام بنى أمية (٢) فلما أفضت الخلافة الى بنى العباس وانحط شأن العرب بعد قتال الامين والمأمون ، ظهروا والفوا الكتب في مثالب العرب ، كما سيأتى

آثار بنى أمية فى الاسلام

فالدولة الاموية كانت شديدة الحرص على منزلة العرب ، كثيرة العناية في حفظ الانساب ، فجعلت في كل ديوان من دواوينها سجلا يقيدون فيه من يولد من أبناء العرب المقيمين في البلاد المفتوحة (٣) وهى التى جعلت الاسلام دولة ، وقد كان في أيام الراشدين دينا ، فصار على عهد الامويين عصبية وسيفا ، ثم صار دولة أيدها بنشر اللغة العربية في المملكة الاسلامية ، بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد أن كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية أو نبطية ، أصبحت هذه البلاد بتوالى الاجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الاصلية ، وهى تعد الآن من البلاد العربية . واذا نزلها التركى أو الأهمرنجى أو غيرها من أى أمة كانت وتوالد فيها عد نسله عربيا (*)

وظل العرب في أيام بنى أمية على بداوتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون اولادهم الى البادية لاتقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم (٤) وظل كثير من عادات الجاهلية شائعا في أيامهم ، كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الاشعار في الاندية العامة ، فكان اشراف اهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون ويتذاكرون أيام الناس . وكان خارج البصرة بقعة يقال لها المربرد ، يجتمع اليها الناس من البصرة وغيرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون (٥) كما كانوا يفعلون في عكاظ . وكان في المربرد حلقات للعلماء او الشعراء يجتمع عليهم الطلبة أو المریدون ، في جملتها حلقة كانت لراعى

(١) ابن الاثير ٤٤ و ١٢١ ج ٥ (٢) الاغانى ١٢٥ ج ٤ (٣) القرىزى ٩٤ ج ١

(*) كان ذلك في الدولة العثمانية ، فقد كان الاتراك يعتبرون انفسهم سادة اهل البلاد التى يحكمونها ، وكانوا يسمون من سواهم من سكانها عربا واولاد عرب ماداموا مسلمين لا ينتسبو الى اصل تركى

(٤) العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢ (٥) الاغانى ١٥٢ ج ١٩

الابل (*) والفرزدق وجلسائهما بأعلى المربد (١) وقس على ذلك ما كان يقع هناك من المفاخرة والمناضلة ، كأنهم رجعوا بعصبيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا اليه في ايام هذه الدولة ، وقد تكاثروا على عهدهما وانتشروا في ممالك الارض

العصبية الوطنية في عصر الأمويين

لم يكن للعرب قبل الاسلام جامعة وطنية يجتمعون بها أو يدافعون عنها ، لانهم كانوا لا يستقرون في وطن ، لتغلب البداوة على طباعهم وتنقلهم بالفرز والرحلة . فلما اسلموا وفتحوا البلاد ومضوا الامصار وابتنوا المدن واقاموا فيها ، تحضروا ونشأت فيهم الغيرة على تلك المواطن والدفاع عنها والتعصب لها ، وهي ما عبرنا عنه بالعصبية الوطنية

تحضر العرب بعد الفتح

وقد تدرج العرب الى الحضارة تدريجا ، ولم يكن ذلك مقصودا في بادئ الرأي وانما سيقوا اليه بطبيعة العمران ، لانهم كانوا في صدر الاسلام لا يزالون على بدائيتهم ، واذا ساروا للفتح ساقوا معهم اولادهم ونساءهم وابلهم وسائمتهم كما كانوا يتغازون في ايام جاهليتهم ، واذا فتحوا بلدا نصبوا خيامهم في ضواحيه والتمسوا المراعى لابلهم وخيلهم . وقد نهاهم عمر عن الزرع ، فكأنه نهاهم عن التحضر رغبة منه في استبقائهم جندا محاربا ، لا يمنعهم عن الجهاد عقار ولا بناء ، ولا يقعدهم عن القتال ترف ولا قصف . فكانوا يقيمون في معسكراتهم بضواحي المدن كما تقيم جيوش الاحتلال في هذه الايام ، وكانوا يعبرون عن ذلك بالحامية أو الرابطة . فكان المسلمون في عصر الراشدين فرقا تقيم كل فرقة في ضاحية مدينة من المدن الكبرى وتسمى جندا . وكانت عساكر الشام اربعة اجناد ، تقيم في ضواحي دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وعساكر العراق كانت تقيم على ضفاف الفرات مما يلي جزيرة العرب ، في معسكرين صاروا بعدئذ مدينتين هما : البصرة والكوفة . وكانت جنود مصر تقيم في معسكر على ضفاف النيل

(*) راعى الابل هو ابو جندل عبيد النمرى القيسى المعروف بالراعى او راعى الابل ، وهو من شعراء النقائص ومن طبقة جرير والفرزدق والاخلط
انظر عنه : احمد الشايب : تاريخ النقائص في الشعر العربي ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٢١ وما يليها

في سفح المقطم مما يلي بلاد العرب ، حيث بنيت الفسطاط بعد ذلك (*) وكان العرب (أو المسلمون) يقيمون في تلك المعسكرات بأولادهم ونسائهم ، لا يختلطون بأهل القرى ، حتى إذا جاء الربيع يرحلون خيولهم للمرعى في القرى ، يسوقها الاتباع من الخدم أو العبيد ومعهم طوائف من السادات . فاذا فرغوا من رعاية الخيل عادوا الى خيامهم ، وهم الى ذلك الحين اهل بدو وغزو ، ومركز دولتهم في المدينة وفيها مقر الخليفة واليها مرجع المسلمين عند الحاجة

فلما طال مقامهم في تلك المعسكرات ، وافضت الخلافة الى بنى امية وورغبوا في الشام عن الحجاز ، هان على المسلمين اغفال امر المدينة وسائر الحجاز ، وطاب لهم المقام في الشام وسائر الامصار ، واغفلوا وصية عمر فاقتنوا الارض والضياع وغرسوا المغارس ، فتحولت تلك المعسكرات بتوالي الاجيال الى مدن عامرة ، أشهرها البصرة والكوفة والفسطاط والقروان من المدن التي بناها المسلمون ، غير المدن القديمة التي استوطنوها في الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها . وما زالوا حتى اقتنوا المغارس والضياع ، وابتنوا المنازل والقصور . واشتغلوا بالزراع وتعلموا أشغال اهل المدن من تجارة وصناعة

تدرجوا الى ذلك في أعوام متطاولة ، لاستغنائهم عن الربيع لمعاشهم ** لانهم كانوا في صدر الاسلام شركاء فيما يرد على بيت المال من الفىء أو الفنائم من العراق وغيره من البلاد المفتوحة ، ولكل مسلم الحق في ذلك الفىء حيث كان مقامه . فأهل المدينة مثلا يتمتعون بفىء العراق ، وكذلك اهل الشام .

(*) الجند في المصطلح العام هم العسكر ، اما في مصطلح الدولة الاسلامية خلال عصر الراشدين والامويين فيراد بهم الجنود العربى المدون في الديوان ، الذي يفرض لرجال العطاء (المربيات) والارزاق (ما كان يعطى للجنود علاوة على مرتبه من الزيت والقمح والعلل والنسيج) . اما في المصطلح الادارى فالجند هو الاقليم العسكرى الذي تقوم بحراسته وتقيم فيه حامية عربية . وأول ناحية قسمت الى اجناد - أى ولايات عسكرية - هي الشام ، اذ قسم الى اربعة اجناد كما ذكر المؤلف . وقد اعتبرت البصرة والكوفة اول الامر جندين ، واعتبرت مصر جندا ، ثم تحولت البصرة والكوفة الى كورتين ، وقسمت مصر كورا ، ولم يعد العراق ومصر جندين ، أو ولايتين عسكريتين . اما الشام فقد ظل مقسما الى اجناد ، لان الدولة الاموية اعتبرت الشام كله اقليما عسكريا ، ومن الشام انتقل نظام الاجناد الى الاندلس فأنشئت فيه ست ولايات عسكرية عرفت بالاجناد . وفي غير الشام والاندلس لم يستمر نظام الاجناد ، بل حولت اراضى الدولة الاسلامية كلها الى كور ، أى الى أقسام زراعية مالية . وكانت الاجناد تخضع لنظام ادارى مالى خاص ، فكان قائد الجند يعتبر حاكم الاقليم في حين ان الخلافة كانت تقيم على الولايات الاخرى عاملا مدنيا وقائدا للعسكر ، وقد يجمع الامران للعامل اذا كان من العسكريين . وبينما كانت الولايات تؤدى خراجا عن الارض كانت الاجناد تؤدى العشر فقط لان الذين كانوا يجمعون الضرائب ويؤدونها الى الدولة كانوا قواد الاجناد ، وهم عرب والعرب لا يدفعون الا العشر على اعتبار انه صدقة لا خراج . وكان المزارعون يؤدون الخراج الى قائد الجند ، فيؤدى منه العشر ويستفضل الباقي ليوزعه على جنده . وقد اخذ العرب نظام الاجناد عن الروم ، فان البيزنطيين كانوا قد قسموا دولتهم ابتداء من ايام هرقل الى اقسام عسكرية يسمى واحدها تيمما Thema وجمعها Themata وقد عربها العرب الى بنود وبنود فيما يتصل بأقسام الدولة البيزنطية

(**) المراد بالربيع هنا الاعطيات ونصيب كل جندي من الفىء اذا كان ممن يستحقونه

قلما بدأوا بالاستيطان في أواخر عصر الراشدين ، وأراد أهل كل مصر أن يستقلوا بمصرهم ، كان ذلك مجحفاً بأهل المدينة ، لأن معاشهم من فيء البلاد المفتوحة ، فشكوا ذلك إلى الخليفة إذ ذاك عثمان بن عفان ، وطالبوه بفيئهم من الأرض بالعراق ، فاستبدله لهم من أهل العراق بأرض كانت لهؤلاء في الحجاز أو اليمن أو غيرهما من بلاد العرب (١)

تعصب الابن الإسلامية بعضها على بعض

ومما زاد المسلمين ايغالا في العصبية الوطنية انقسام الاحزاب السياسية يومئذ باعتبار المدن . وأول خلاف وقع بين بلدين اسلاميين الخلاف الذي وقع بين الشام والكوفة في أيام عثمان بن عفان (٢) ثم حدث الانقسام الوطني السياسي بعد مقتله ، وكان أساسه الميل إلى أحد طلاب الخلافة يومئذ ، وهم علي ومعاوية وطلحة والزبير ، فكان أهل الشام مع معاوية لأنه أميرهم ومعظمهم من قریش ، وكان أهل المدينة مع علي وهم الانصار وتبعتهم مصر ، وكان أهل الكوفة مع الزبير ، وأهل البصرة مع طلحة . فلما كانت واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وقتل طلحة والزبير انحاز أهل العراق إلى علي فضلا عن أهل المدينة ومصر ، وظل أهل الشام مع معاوية . ولما كانت واقعة صفين ومسألة التحكيم سنة ٣٧ هـ وغلب عمرو بن العاص بمكره ، ببيع معاوية وتركت مصر لعمرو ابن العاص عندما صارت مصر في حوزة معاوية . ولما قتل علي سنة ٤٠ هـ ومات الحسن ثم قام الحسين يطالب بالخلافة بعد موت معاوية وخلافة يزيد ، استعان الحسين بأهل العراق وانتقل اليهم ، فبايع أهل الحجاز لابن الزبير . فأصبح الحجاز مع ابن الزبير والعراق مع الحسين والشام ومصر مع معاوية (**)

وقس على ذلك انحياز تلك البلاد إلى الخلفاء باختلاف الاحوال ، فأصبح لكل بلد بتوالي الاعوام استقلال خاص وعوائد خاصة تميزه عن سواه ، على أنها كانت تمتاز بعضها عن بعض في ذلك من أيام معاوية ، فقد سأل معاوية ابن الكواء عن أهل الامصار فقال : « أهل المدينة أحرص الأمة على الشر وأعجزهم عنه ، وأهل الكوفة يردون جميعا ويصدرون شتى ، وأهل مصر أوفى الناس بشر وأسرعهم إلى ندامة ، وأهل الشام أطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمفويهم » (**)

(١) ابن الاثير ٥٢ ج ٣ وياقوت ٧٨٢ ج ٤

(٢) ابن الاثير ٦٥ ج ٢

(*) وبعد مقتل الحسين بن علي اختلف امر أهل العراق ، حتى بعث عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا فحاز العراق له ، وبذلك أصبح العراق مع الحجاز لابن الزبير ، ثم انضمت إليه مصر بعد ذلك

(**) يلاحظ في عبارة ابن الكواء تعصب ظاهر لأهل الشام ، وهذا طبيعي من رجل يحدث معاوية بن أبي سفيان زعيم أهل الشام إذ ذاك

وكان لاهل كل بلد غرض خاص في السياسة عبرنا عنه بالعصبية الوطنية وهي غير عصبية النسب ، اذ قد يجتمع اهل البلد الواحد على غرض واحد ويعرفون بجامعة واحدة ، كاهل البصرة والكوفة والشام والفسطاط ، وهؤلاء اخلاط من قبائل شتى . فكان لكل بلد في عصر بني امية جامعة خاصة يجتمع بها ويحارب باسمها . وهو مؤلف من قبائل تختلف نسبا وعصبية ، وفيها قبائل اليمن ومضر وربيعه وغيرها ، يقيم كل منها في حى خاص بها يعرف باسمها ، فكانت البصرة مثلا مؤلفة من خمسة اقسام تعرف بالاخماس ، كل خمس لقبيلة ، وهي الازد وتميم وبكر وعبد القيس واهل العالية . والمراد باهل العالية بطون قريش وكنانة والازد وبجيلة وختعم وقيس عيلان كله ومزينة (١) وفس على ذلك سائر البلاد

فاذا تحارب بلدان وقفت كل قبيلة من اهل البلد الواحد امام ما يقابلها من قبيلتها في البلد الآخر . ففي واقعة الجمل كانت الحرب بين البصرة والكوفة فلما انتشب القتال تصدت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية ، ونزلت قبائل مضر الى مضر ، وربيعه الى ربيعة . وكذلك في واقعة صفين ، وهي بين اهل الشام وقائدهم معاوية ، واهل العراق وقائدهم على . فلما التحم القتال سأل على عن اهل الشام فعرف مواقفهم ، فأخذ يستحث من معه من القبائل على اخوانهم في معسكر عدوه ، فقال للازد : « اكفونا الازد » ، وقال لختعم : « اكفونا ختعم » ، وأمر كل قبيلة معه ان تكفيه اختها في الشام . الا ان تكون قبيلة ليس لها بالشام احد فيصرفها الى قبيلة اخرى في الشام ليس بالعراق منها احد (٢) - فتأمل كيف غلبت الجامعة الوطنية على جامعة النسب ، وانما غلبت لان الاحوال اقتضتها فرأى الناس فيها ما يسر مطامعهم (*)

(١) ابن الاثير ٢٤ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٢١ و ١٤٩ و ١٧١ ج ٢

(*) الاصوب ان تسمى النزعة التي يتحدث عنها المؤلف نزعة محلية لا وطنية ، فان عرب البصرة مثلا لم يكن يحركهم شعور « وطني » وكذلك كان حال عرب الكوفة وعرب مصر وغيرهم . وكان كل فريق من العرب نزل قطرا من الاقطار قد أحب ان ينفرد بخيراته ويدود غيره من العرب عنه ، ويصور لنا هذا الشعور قول احد شيوخ عرب مصر عندما رأى القمح يحمل من مصر الى المدينة : « مالنا يحمل من بلادنا ؟ » ثم اخذ بخطام البعير وحال دون سير القافلة . كان العرب خلال هذا العصر الاول لا يتحمسون « للوطن » العراقي أو الوطن المصري ، بل لما اكتسبوه حقوق في كل من القطرين . حتى النزاع بين الشام والعراق الذي ملا العصر الاموي كله لم ينزاعا وطنيا ، بل محليا قريبا . بل اننا لا نستطيع ان نسمى حركات الانفصال التي قام بها العرب الرحمن الداخل في الاندلس وابن طولون في مصر حركات وطنية او قومية ، وانما هي نزعة محلية دفع اليها انانية الحكام ورغبتهم في الانفراد باقطارهم وخيراتها دون ان يشارك اهل البلاد الحقيقيون في ذلك ، فان ابن طولون والاشيد مثلا لم يتزعا حركتين مصريتين ، بل المصريين في واد وهما في واد . وادق تسمية للحركات التي ظهرت في صدر الاسلام انها كانت نزعات محلية عصبية ، والتي ظهرت ابتداء من النصف الثاني للقرن الثالث الهجري انها كانت حركات انفصالية . أما الحركات القومية فلم تظهر الا في القرن السادس عشر الميلادي ، بعد استيلاء الاتراك العثمانيين على البلاد الاسلامية واعتزازهم بتركيتهم او عثمانيتهم . فبدأ شعور العروبة يتحرك في نفوس العرب من سكان الدولة الاسلامية ، بدأ في صورة رد فعل لنزعة الاتراك العثمانيين ، ويمكن ان نصف هذه الحركة بأنها كانت قومية ، أى ان اقوام العرب تحركت للذعن عروبتها ، كما تحركت اقوام ايران للدفاع عن ايرانياتها ضد العثمانيين . وفيما يتصل بالحركات الوطنية في العالم الاسلامي لا يمكن ان يقال انها بدأت قبل القرن التاسع عشر

على ان اهل البلد الواحد كانوا يختلفون عددا ونسبا باختلاف عصبية الامير او الخليفة ، كما تقدم في كلامنا عن عصبية النسب . ويختلف غرض البلد الواحد باختلاف تلك الاحوال مما لا ضابط له ، فتنشب الحروب بين البلدين كما تنشب بين القبيلتين . ومن أشهر حوادث الخلاف بين البلاد في صدر الاسلام خلاف اهل الكوفة والبصرة ومفاخرتهما . ففي أيام علي والخوارج كانت البصرة عثمانية ، والكوفة علوية ، والشام أموية ، والجزيرة خارجية ، والحجاز سنية (١) وتقلبت هذه الاحوال كثيرا ، واختلفت باختلاف الدول والعصور . فحدثت بتوالي التقلبات السياسية تعدد الجامعات : أولها الجامعة العصبية أو جامعة النسب بين مضر واليمن ، والثانية جامعة الوطن بين العراق ومصر والشام ، والثالثة جامعة المذهب بين الفرق الاسلامية كالسنة والشيعة والمعتزلة ، وربما اجتمعت كل هذه الفرق في رجلين (٢)

ومما ساعد على نشوء الجامعة الوطنية أن اهل الحجاز كانوا يجتمعون بالحرمين ويفاخرون المسلمين بهما ، لان الاسلام لا يستغنى عنهما وفيهما شيعة على ولاسيما المدينة . فكان الامويون - مع عداوتهم للعلويين - لا يرون بدا من زيارة الحرمين ورعاية أهلها ، فيقف ذلك حجر عثرة في سبيل سلطانهم ، وخصوصا بعد أن احتفى ابن الزبير بالكعبة وأخرج بنى أمية واحزابهم من الحجاز ، فلم يستطع الامويون التغلب عليه الا بضرب الكعبة بالمنجنيق . ولهذا السبب خطر للأمويين أن ينقلوا منبر النبي من المدينة الى الشام ، ليجمعوا عندهم الدين والسياسة . ولعل الحجاج بنى القبة الخضراء في واسط لمثل هذه الغاية ، كما بنى المنصور في بغداد بعد ذلك قبة خضراء على مسجد بغداد تصفيرا للكعبة (٣) والغرض من ذلك كله تحويل القلوب عن الحجاز وتصغير أمر العلويين ، فلم يجدهم ذلك نفعا

اصطناع الاحزاب في عصر الامويين

سياسة معاوية

ومما احتاج اليه بنو أمية في سبيل التغلب لنيل الخلافة اصطناع الرجال واجتذاب الاحزاب ، كما فعل معاوية بن أبي سفيان في اكتساب نصره عمرو ابن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة ، اكتسبهم بالدهاء والعطاء . ثم صار بعد ذلك قاعدة سار عليها بنو أمية في تثبيت دعائم ملكهم ، والعلويون أبناء بنت النبي وأحفادها ينازعونهم عليه . على أنه لم يقم في بنى أمية رجل مثل معاوية في الدهاء والتعقل ، مما يعبر عنه أهل هذا الزمان بالسياسة .

(١) العقد الفريد ٢٧٧ ج ٢ (٢) ابن خلكان ١٠٠ ج ٢ (٣) المسعودي ١٦٦ ج ٢

وإذا قسنا أعمال هذا الرجل بأعمال أعظم رجال السياسة من أهل هذا العصر وغيره ، لرأيناه يفوق أكثرهم تعقلا وحكمة ودهاء ، وخصوصا إذا اعتبرنا موقفه بازاء طلاب الخلافة من أهل بيت النبي (صلعم) وأبناء عمه وأبناء بنته ، والمسلمون يعتقدون حقهم فيها وان معاوية طليق لا تحل الخلافة (١) وانه لم يعتنق الاسلام الا مكرها ، ومع هذا غلب عليهم جميعا فقبض على أزمة الملك وجعله ارثا في نسله ، ولم يسفك في سبيل ذلك دم كثيرا ، وانما كانت عمدته سعة الصدر والدهاء وبذل الاموال

أما سعة الصدر فانه كان يفضي عن مطاعن أهل البيت عليه ، ولو فعلوا ذلك بين يديه ، وبدلا من أن ينتقم منهم كان يبذل لهم الاموال ويقربهم . فربما دخل عليه الرجل منهم وهو في مجلسه وبين أمرائه ، فيطعن فيه ويعرض باختلاسه الملك ويفضل عليا عليه ، فيلين له الجواب ويهبه الاموال فينقلبه معه ولو كان من اقرباء علي . ذكروا أن عقيل بن ابي طالب وفد على معاوية وعلي لا يزال حيا ، فرحب به معاوية وسر بوروده لاختياره اياه علي اخيه ، وأوسعه حلما واحتمالا ، فقال له معاوية : « كيف تركت عليا ؟ » فقال « تركته علي ما يحب الله ورسوله ، وألفيتك علي ما يكره الله ورسوله » فقال معاوية : « لولا أنك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك جوابا تألم منه » . أحب معاوية أن يقطع الحديث مخافة أن يأتي بشيء يسوءه ، فوثب من مجلسه وأمر له ان ينزل وأوصل اليه مالا عظيما . فلما كان من غد جلس معاوية وبعث الى عقيل وقال له : « كيف تركت عليا اخاك ؟ » . قال : « تركته خيرا لنفسه منك ، وانت خير لي منه » (٢)

وأخبار معاوية مع صعصعة بن صوحان العبدي ، وغيره من رجال علي ومريديه كثيرة ، تدل على سعة صدر وحلم . فان لم يكفه الحلم عمد المخادعة أو البذل ، فلا يلتقى به واحد ممن يخاف بطشهم الا رجع راضيا وقد يأتيه الرجل مستجديا وهو يتعمد خداعه ، فينخدع له ويطاوعه ويجيزه ذكروا ان ابن الزبير - قبل قيامه بالدعوة لنفسه - هرب من عبد الرحمن ابن أم الحكم الى معاوية ، وقد أحرق عبد الرحمن داره بالكوفة ، فجاء معاوية متظلما وقال له : « ان عبد الرحمن أحرق داري » فقال معاوية : « و تساوى دارك ؟ » قال : « . . . ر . . . ا » ، فطلب منه شاهدا فاتاه بشاهد من أصدقائه ، فأمر له معاوية بالمال . فلما انصرف الرجلان قال معاوية لجلسائه « أي الشيخين عندكم أكذب ؟ والله اني لاعرف داره ، وما هي الا خصائد قصب ، لكنهم يقولون فنسمع ويخادعوننا فننخدع » (٣) وكان ذلك وامثالا

(١) المسعودي ١٢ ج ٢ (٢) المسعودي ٥٤ ج ٢ (٣) الاغانى ٤٨ ج ١٣

ما استكت ابن الزبير وغيره عن القيام لطلب الخلافة في أيامه

فأين هذا من تدقيق علي في محاسبة عماله ، حتى أغضب أكثرهم وخسر نصرتهم ، وفي جملتهم ابن عمه عبد الله بن عباس بعد أن كان أكبر نصير له ، فأغضبه من أجل وشاية لا طائل تحتها كما تقدم ؟ علي حين أن معاوية كان يهب لعماله الولايات طعمة لهم ، وإذا وفد أحدهم عليه بالغ في إكرامه والترحيب به ، فكان معاوية بن حديج إذا قدم علي معاوية في الشام زينت له الطرق بقباب الريحان تعظيما لشأنه (١)

وكان معاوية يحتمل الطعن والنقد على الخصوص من رؤساء القبائل وأهل البيوتات وزعماء الأحزاب ولو أطلقوا ألسنتهم عليه . فالاحنف بن قيس التميمي ، أحد السادة التابعين وأهل النفوذ ، كان علي رأى علي وقد نصره في واقعة صفين . فاتفق انه وفد علي معاوية بعد أن استقر له الأمر بالخلافة فلما دخل عليه قال له معاوية : « والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي الى يوم القيامة » ، فقال له الاحنف : « والله يا معاوية ان القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وان السيوف التي قاتلناك بها لفي أعماقها ، وان تدن من الحرب فترا ندن منها شبرا ، وان تمش اليها نهروا لها » ثم قام وخرج ولم يكلمه معاوية . وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت : « يا أمير المؤمنين من هذا الذي يهدد ويتوعد ؟ » . قال : « هذا الذي اذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من تميم لا يدرون فيم غضب » (٢)

علي ان معاوية كان اذا خاف عدوا لا يقدر عليه بالسيف ولا يستطيع اصطناعه بالمال احتال على قتله غيلة بالسسم ، كما فعل بعبد الرحمن بن خالد ابن الوليد ، وكان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا اليه بما عندهم من آثار آبيه ، ولغنائيه في بلاد الروم وشدة بأسه ، فخافه معاوية فأمر ابن الاثال الطبيب ان يحتال في قتله ، وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش وأن يوليه خراج حمص . فدس ابن الاثال اليه شربة عسل مسمومة مع بعض معاليكه فشربها ومات (٣) ونجا معاوية منه . وفعل نحو ذلك بالاشتر النخعي مالك بن الحارث ، وكان من أشد رجال علي بطشا أو هو أشدهم جميعا ، وقد أبلى معه في صفين بلاء حسنا . فلما اضطربت أحوال مصر بدسائس معاوية ، وكانت لا تزال في حوزة علي ، بعث الاشر واليا عليها . فعلم معاوية انه ان وليها امتنعت عليه ، فبعث الى المقدم علي أهل الخراج في القلزم - وهي في طريق الاشر لا بد من مروره بها عند قدومه الى مصر -

(١) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٢٠ ج ١ (٣) ابن الاثير ٢٢٩ ج ٢

وقال له : « ان الاشر قد ولي مصر ، فان كفيته لم آخذ منك خراجا مابقيت وبقيت » . فخرج حتى اتى القلزم واقام به ، فلما جاء الاشر استبقاه ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده ، فاتاه بطعام فلما اكل اتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سما فسقاه اياها ، فلما شربها مات . واخذ معاوية يقول لاهل الشام : « ان عليا قد وجه الاشر الى مصر فادعوا الله عليه » فكانوا يدعون عليه كل يوم ، واقبل الذي سقاه الى معاوية فأخبره بمهلك الاشر ، فقام معاوية خطيبا وقال : « اما بعد فانه كان لعلي يمينان فقطعت احدهما بصفين (يعنى عمار بن ياسر) وقطعت الاخرى اليوم (يعنى الاشر) » (١) فلما بلغ خبر الاشر الى عمرو بن العاص قال : « ان لله جنودا من العسل » (٢)

عمرو بن العاص

فكان معاوية واصحابه لا يضيعون فرصة ، ولا يباليون في انفاذ اغراضهم ما يرتكبون من القتل او نحوه . اما علي واصحابه فكانوا لا يحدون عن مناهج الدين ومقتضى الاريحية ، وكانت اريحتهم هذه مساعدا كبيرا لفوز معاوية عليهم . ففي واقعة صفين كانت كفة النصر راجحة لعلي ، ولو انه له ذلك لفضى على معاوية واغراضه ، وذهبت مساعيه ادراج الرياح ، ولذهب امر بنى أمية بذهابه واستتب الامر لعلي واهل بيته . وانما منع من فوز على دهاء عمرو بن العاص ، لان معاوية لما احتدمت المعركة ، ورأى الضعف في عسكره وأيقن الخذلان ، لجأ الى عمرو بن العاص وكان محاربا معه وقال له : « هلم مخباتك يا ابن العاص فقد هلكتنا ، وتذكر ولاية مصر » . فأشار عليه عمرو يومئذ برفع المصاحف وان ينادوا : « كتاب الله بيننا وبينكم ! من لشغور الشام بعد اهل الشام ؟ ومن لشغور العراق بعد اهل العراق ؟ ومن لجهاد الروم والترك ومن للكفار ؟ » فخدع رجال علي بهذه الحيلة واوقفوا القتال ، ثم اتفقوا على التحكيم وبه اتم ابن العاص حيلته ، فخلع عليا وبايع معاوية . فلولا عمرو بن العاص لفشل معاوية وذهب امره ، ولولا اريحية ابداهها علي في تلك المعركة لقتل عمرو قبل تدبير تلك الحيلة ، وذلك ان عمرو كان قد برز للنزال ، فبرز له علي فلما التقيا عرفه علي ، فشال السيف ليضربه ويتخلص منه ، فلما أيقن عمرو بالموت كشف عن عورته وقال : « مكرم اخوك لا بطل » ، فثارت الاريحية في نفس علي فحول وجهه عنه وقال : « قبحت ! » ونجا عمرو بتلك الحيلة (٣) وذهب عمل عمرو هذا مثلا وفيه يقول الشاعر :

(١) ابن الاثير ١٧٩ ج ٢ (٢) القريري ٢٠٠ ج ١ (٣) المسعودي ١٩ ج ٢

ولا خير في صون الحياة بذلة كما صانها يوما بذلته عمرو (*)

وكذلك كان أصحاب على من حيث الأريحية والتقوى وصدق اللهجة ، تلك كانت طبيعة الإسلام والمسلمين في ذلك العصر الذهبي ، إلا من طمع في الدنيا وانحاز إلى معاوية . وكانت هذه المناقب في على أقوى أحوالها ، ولو تساهل فيها أو أغضى عن شيء منها لنجا من شرور كثيرة ، ولذلك قالت قريش : « ان ابن أبي طالب رجل شجاع ولكنه لا رأى له في الحرب » (١)

فبالدهاء ونحوه تمكن معاوية من نيل الخلافة وتوريثها لابنه ، ثم صارت في بني مروان من أمية ، ولكنه لم يستطع قطع شأفة المقاومين من طلاب الخلافة ، وهم كثيرون أهمهم اولاد على . على أنه كان يسكتهم بالمسألة والبذل ، وكانوا يهابونه ويسكنون إلى سياسته ويتوقعون من الجهة الأخرى رجوع الخلافة إليهم بعد موته

فلما رأوه نقلها إلى ابنه يزيد ، ثار المطالبون بالخلافة في الحجاز والعراق وغيرهما ، وكل منهم يزعم أنه صاحب الحق فيها . فاجتمع سنة ٦٨ هـ أربعة ألوية في عرفات ، كل منها لزعم يطلب الخلافة لنفسه ، أحدها لبني أمية ، والآخر للعلويين باسم محمد بن الحنفية ، والثالث لعبد الله بن الزبير ، والرابع لنجدة الحروري من الخوارج . ثم قام غيرهم ولم يفز بالملك إلا بنو أمية ، للعصبية العربية واصطناع الأحزاب . واليك الأسباب التي ساعدتهم على اصطناع الأحزاب ، غير ما تقدم ذكره من دهاء معاوية وضعف رأى على في السياسة

بذل المال في عصر الأمويين

العطاء من بيت المال

العطاء من أكبر العوامل التي ساعدت بني أمية في اصطناع الرجال وكسر شوكة أعدائهم ، لأن العطاء رواتب الجند أو رواتب المسلمين ، وكانوا في صدر الإسلام كلهم جندا ، ولكل منهم راتب يختلف باختلاف نسبه من النبي ، أو سابقته في الإسلام ، أو غير ذلك مما تراه مفصلا في كلامنا عن الديوان في أيام عمر (٢) وترى الرواتب فيه للمسلمين على اختلاف طبقاتهم

(*) وبروي أيضا :

ولا خير في دفع الردى بمذلة كما رده يوما بسواته عمرو

وواضح أن القصة كلها مخترعة ، وكذلك معظم ما يرد في الكتب من الحكايات عن هذه الفترة

(١) الأغانى ١٥ ج ١٥ (٢) الجزء الأول من هذا الكتاب

حتى النساء والاولاد . وأصل هذا العطاء من أموال الفئء ، وهناك طبقة اخرى من المسلمين الذين لا يستطيعون الحرب ، فهم من الفقراء ويأخذون اعطيتهم من أموال الصدقة وهي الزكاة ، ولكل من الصدقة والفئء ديوان خاص وحساب خاص

فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب المسلمين ، فيجدر بهم ان يتقربوا منه أو يتزلفوا اليه . فاذا قبض عليه رجل حكيم مثل معاوية يعرف كيف يعطى ولمن يعطى ، أغناه ذلك عما سواه . فكان معاوية يزيد العطاء أو ينقصه أو يقطعه على حسب الاقتضاء ، والغالب ان يبذل الاموال ويضاعف الاعطية حيث يتوسم نفعا ، واخوف ما كان يخافه في خلافته قيام العلويين أو غيرهم من أهل بيت النبي ينازعونه الخلافة ، فبذل لهم العطاء بسخاء . فبعد ان كان عطاء الحسن والحسين بحسب ديوان عمر ... ره درهم في السنة جعلها معاوية مليون درهم ، أى انه ضاعفها ٢٠٠ مرة ، وأعطى مثل هذا المبلغ أيضا الى عبد الله بن عباس لانه ابن عم النبي ويخشى منه . وكذلك عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وغيرهم من كبار أبناء الصحابة أهل النفوذ فى الاسلام ممن يقيمون فى المدينة . فكان من جهة يتألفهم بالاموال ويشغلهم بالرخاء عن النهوض للمطالبة ، ومن جهة اخرى يتألف بهم أهل المدينة لانهم كانوا ينفقون تلك الاموال فى أهلها للتمتع بملاذ الحياة ، ومنهم من كان ينفق عطاءه على المغنين والشعراء . واكثرهم سخاء وبذلا من هذا القبيل عبد الله ابن جعفر ، وهو ابن عم الحسن والحسين ، فانه كان يقد على معاوية فى الشام فيدفع اليه عطاءه فيعود الى المدينة فيفرقه فى أهلها . وكان معاوية يعلم ذلك فيقربه ويحسن اليه ليستألف أهل المدينة به

ويقال انه قدم على يزيد بن معاوية بعد توليه الخلافة ، فقال له يزيد: « كم كان عطاؤك ؟ » فقال : « ألف ألف درهم » ، قال : « قد اضعفناها لك » ، قال : « فداك أبى وأمى ، ما قلتها لاحد قبلك » ، قال : « قد اضعفناها لك ثانية » فقيل ليزيد : « اتعطى رجلا واحدا ... ر ... ر ؟ » فقال : « ويحكم انى اعطيتها أهل المدينة اجمعين ، فما يده فيها الا عارية » (١)

وقس على ذلك بذل معاوية فى تألف القبائل ، فقد كان يفرض للقبائل التى تحارب معه ، ولو بعدت عن نسبه كاليمن مثلا ، فانه كان يتألفها بالاموال خوفا من بطشها . وكان يفرض لها ولا يفرض لقيس وهى اقرب اليه ، لانه لم يكن يخاف بأسها ، حتى ان احد رجالها كان يأتى معاوية يطلب منه ان يفرض له فيأبى ، كما فعل بمسكين الدارمى ، فانه طلب من معاوية ان يفرض

(١) العقد الفريد ١١٠ ج ١

له فأبى ، فقال شعرا يعاتبه فيه ويذكره بما بينهما من النسب ، ومن ذلك قوله :

أخاك أخاك ان من لا أخا له كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء - فاعلم - جناحه وهل يقنص البازى بغير جناح ؟
وما طالب الحاجات الا مفرر وما نال شيئا طالب كجناح

فلم يعأ به لانه انما كان ينظر الى مصلحة نفسه . فاعتزت اليمن واشتد بأسها واستطالت على الدولة ، وتضعضت قيس وسائر عدنان . فبلغ معاوية أن رجلا من اليمن قال يوما : « لهمت أن لا أدع بالشام أحدا من مضر ، بل هممت ان لا احل حبوتى حتى اخرج كل نزارى بالشام » فخاف معاوية بأس اليمنية ، ورأى أن يضربهم بالمضرية ، ففرض من وقته لاربعة آلاف من قيس وغيرها من عدنان ، وبعث الى مسكين يقول له : « لقد فرضنا لك وأنت في بلدك ، فاذا شئت أن تقيم بها أو عندنا فافعل ، فان عطاءك سيأتيك » . وصار معاوية يغزى اليمن في البحر وقيسا في البر (١) ولولا دهاؤه وحسن أسلوبه لما استطاع التوفيق بينهما

ويقال نحو ذلك في زيادة العطاء للذين شهدوا الوقائع الهامة ونصروا الامويين ، كواقعة صفين فان معاوية زاد عطاء اصحابها (٢) كما فعل عمر فيمن شهد القادسية . وسار خلفاء بنى أمية على خطوات معاوية ، فأعطوا احزابهم حتى فرضوا الاعطية للشعراء ، التماسا لقطع أسنتهم أو ليتقربوا الى قلوب الناس . وكان أهل التقوى يرون ذلك مجحفا بحقوق بيت المال ، ويعترضون على اعطاء الناس من مال الفئء فانه مال الله أو مال المسلمين . وكان ذلك من جملة ما غير أصحاب على على معاوية يوم صفين (٣) فلما تولى عمر بن عبد العزيز وسار على نهج الخلفاء الراشدين منع العطاء عن الشعراء ، فلما مات عادوا الى ماكانوا عليه

وكانوا يفرضون لاي من جاءهم ، ولو كان أعرابيا ، حتى كان أهل البادية كثيرا ما يبيعون ابلهم ويأوون الى المدن يطلبون الفرض لهم . ومع ذلك فأهل الانفة منهم كانوا يدركون ما وراء ذلك من استعباد النفوس ، لفرض يعتقدون انه ضد الحق ، وانه تأييد لدعوة القائمين على أهل البيت فتعافه نفوسهم . يحكى أن امرأة جيهة الاشجعي من أهل البادية حرضت زوجها على الذهاب الى المدينة لبيع ابله ويفترض في العطاء ، فأطاعها وساق ابله حتى اذا دنا من المدينة شرعها بحوض ليسقيها ، فحنت ناقة منها ثم نرعت ، وتبعها الابل ،

(١) الاغانى ٦٩ ج ١٨ (٢) المسعودى ١٥٧ ج ٢ (٣) ابن الاثير ١٥٠ ج ٣

وطلبها ففاته فقال لزوجته : « هذه الابل لا تعقل وتحن الى اوطانها » (*)
ثم قال شعرا :

قالت انيسة : دع بلادك والتمس
تكتب عيالك في العطاء وتفترض
فهمت ثم ذكرت ليل لقاحنا
اذ هن عن حسي مداود كلما
ان المدينة لا مدينة فالزمي
يجلب لك اللبن القريض وينتزع
وتجاوري النفر الذين ينبلهم
الباذلين اذا طلبت بلادهم

دارا بطيبة ربة الاطام
وكذاك يفعل حازم الاقوام
بذوى عنيزة او يقف بشام
نزل الظلام بعصبة اغنام
حقف السناد وقبة الارجام
بالعيس عن يمن اليك وشام
ارمى العدو واذا نهضت مرام
والماعى ظهري من الغرام (١)

ومن اقوال عبد الملك بن مروان : « انعم الناس عيشا من له ما يكفيه ،
وزوجة ترضيه ، ولا يعرف ابوابنا الخبيثة فنؤذيه » (٢)

وكان هم بنو أمية اهل المدينة ، لانهم شيعة على وفيهم الانصار ونخبة
القرشيين ، فكان عامل بنى أمية فيها اذا اجتمع اليه مال الصدقة من الاطراف
اقرض من أراد من قریش منه ، وكتب بذلك صكا عليه فيستعبدهم به
ويختلفون اليه ويدارونه . فاذا غضب على احد منهم استخرج المال منه ،
وما زال هذا شأنهم الى أيام الرشيد ، فكلمه عبد الله بن مصعب في صكوك
بقيت من ذلك فحرقت (٣)

وكانوا اذا عصاهم احد من المسلمين قطعوا عطاءه ، ولو كان العاصون
بلدا برمتها ، كما فعل الوليد لما ثار عليه زيد بن على ، فقطع عطاء اهل
الحرمين جميعا (٤) وحرّم الوليد آل حزم من العطاء ، لان قتلة عثمان دخلوا
اليه من دارهم في المدينة ، وقبض أموالهم وضياعهم ، وظلوا كذلك الى أيام
المنصورة فأفرج عنهم (٥) وكثيرا ما كان الانصار يمكثون بلا عطاء (٦) ولا ذنب
لهم الا أنهم ينصرون اهل البيت . وقطع عبد الملك بن مروان اعطية آل
سفيان ، مع أنهم أمويون مثله ، وانما فعل ذلك لموجدة وجدها على خالد بن
يزيد بن معاوية (٧)

فلا غرو اذا اضطر الناس الى مسايرتهم والاذعان لهم ، وهم يعلمون أنهم

(*) الخبر هنا مختصر اختصارا شديدا ، وقد وجدته في طبعة الساسي ج ١٦ ص ١٤١ ،
ونصه : « حدثني عمي عن سليمان بن عياش قال : قالت زوجة جيهنا الاشجعي له : لو هاجرت
بنا الى المدينة وبعث اهلك وافترضت في العطاء كان خيرا لك ، فقال : افعل . فأقبل بها
وبابله حتى اذا كان بحرة واقم من شرقي المدينة شرعا بحوض واقم ليسقيها ، فحنت ناقة
منها ثم نزعتم ، وتبعتها الابل ، وطلبها ففاته ، فقال لزوجته : « هذه ابل لا تعقل تحن الى
اوطانها ، ونحن أحق بالحنين منها . انت طالق ان لم ترجعي ، وفعل الله بك ! » . وردها وقال .»
(١) الاغانى ١٤١ ج ١٦ (٢) ابن الاثير ١٨٣ ج ١٠ (٣) الاغانى ١٠٥ ج ١٣
(٤) الاغانى ١١١ ج ٦ (٥) العقد الفريد ٤١ ج ٣ (٦) الاغانى ٦٢ ج ١٠
(٧) العقد الفريد ١٢٢ ج ١

يخالفون الحق باذعانهم ، وقد يصرحون بذلك فيما بينهم . كما حدث لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد ، فأقعدته في قبة حمراء وأقبل الناس يسلمون على معاوية بالخلافة ، ثم على ابنه يزيد بولاية العهد ، حتى جاء رجل منهم فسلم على الاثنين ، ثم رجع الى معاوية فقال : « يا أمير المؤمنين ، أعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لاضعتها » . وكان الاحنف بن قيس التميمي حاضرا ، فقال له معاوية : « ما بالك لا تقول يا أبا بحر ؟ » فقال : « أخاف الله اذا كذبت ، وأخافكم اذا صدقت » ، فقال معاوية : « جزاك الله على الطاعة خيرا » ، وأمر له بمال . فلما خرج لقيه ذلك الرجل فقال له : « يا أبا بحر ، انى لأعلم أن شر من خلق الله هذا وابنه ، ولكنهم استوثقوا من هذه الاموال بالابواب والاقفال ، فليس يطمع في استخراجها الا بما سمعت » (١)

تدقيق على وبخل ابن الزبير

ومما ساعد الامويين على اصطناع الرجال بالاموال ، أن مناظرهم أهل البيت وعبد الله بن الزبير كانوا قليلي العطاء ، اما عن امسك أو عن ورع ، حتى قالوا : « وما رؤى في الناس أبخل من أهل البيت ، ولا من عبد الله بن الزبير » (٢) وكثيرا ما كان امساكهم سببا في فشلهم وانحياز الناس الى بنى أمية ، فمن أمثلة ذلك أن مصقلة بن هبيرة الشيباني كان عاملا لعلي على ازدشيرخره ، فرأى اسرى كان بعض رجال لعلي قد أسرهم ، فاشتراهم منه شفقة عليهم ، وهم ٥٠٠ انسان بخمسمائة ألف ، وأطلق سراحهم . فطالبه على بالمال ، فأدى نحو النصف وطمع في الباقي ، فألح عليه أصحاب على فقال مصقلة : « اما والله لو كان ابن هند (يعنى معاوية) ما طالبني بها ، ولو كان ابن عفان لوهبها لى » ، فقالوا : « ان عليا لا يترك شيئا » ، فهرب مصقلة من ليلته ولحق بمعاوية (٣)

ومن أمثلة بخل ابن الزبير الذى افسد عليه الامر ، أن أخاه مصعبا لما قتل المختار بن أبى عبيد فى العراق ، وأخضع العراق لأخيه ، وقد ساعده على ذلك وجوه أهل العراق ، فجاء بهم حتى أتى أخاه فى مكة وكان لا ئذا بالكعبة وقال له : « يا أمير المؤمنين ، جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم بها نظرا لتعطيهم من هذا المال » فقال عبد الله : « جئتني بعبيد أهل العراق لاعطيهم مال الله ؟ والله لا فعلت » . فلما علموا ذلك وسمعوا منه جفاء انصرفوا من عنده وكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب (٤) وكان ذلك سببا فى ذهاب دولة ابن الزبير

(١) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ (٢) الاغانى ١٠٥ ج ١٣
(٣) ابن الاثير ١٨٨ ج ٢ (٤) العقد الفريد ١١٩ ج ١

وقس على ذلك بخل العلويين في فرض العطاء ، الا لاهل التقوى او من في معنائهم . على حين ان بنى أمية كانوا يفرضون للرجل ولاهله واولاده ، فقد فرض عبد الملك لعامر الشعبي (وما هو من رجال الحرب) الفين في العطاء ، وجعل عشرين من ولده واهل بيته في الفين الفين من اجل حديث حدثه اياه (١) وكانوا يفرضون للشعراء عطية معينة يقبضونها في اوقاتها غير الجوائز ، فمنهم من عطاؤه ألفان او اكثر او اقل . واذا مدحهم زادوا اعطيتهم ترغيبا لهم في مدحهم ، وكذلك كان يفعل عمالهم في سائر انحاء المملكة الاموية . واهل التقى من الخلفاء لا يرون للشعراء حقا في بيت المال (٢) فعمر بن عبد العزيز كان اذا اخرج شاعر ولم ير مناصا منه اعطاه من ماله الخاص (٣)

على ان غير الاتقياء منهم كانوا يقطعون عطاء الشاعر اذا حاد عما يريدونه ، كما فعل عبد الملك بن مروان بابن قيس الرقيات لما مدحه ، فقال له عبد الملك : « والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء » (٤) وكان عمر بن الخطاب يحرض القراء على التماس الرزق من عند انفسهم والا يكونوا عالة على الناس (٥) فكيف بالشعراء !

الاستكثار من الاموال في عصر الامويين

وبذل الاموال لاصطناع الاحزاب جر بنى أمية الى خرق كثير من القواعد التي وضعها الخلفاء الراشدون لاقتضاء الاموال وانفاقها . فقد كانت الاموال التي ترد على بيت المال تعد ملكا للمسلمين ، وليس الخليفة او عامله الا حافظا لها ، لينفقها في مصالحهم وتدير شؤونهم ، وله منها راتب معين يتناوله مثل سائر المسلمين ، وقد رايت ان ابابكر توفي وليس في بيت ماله غير دينار ، وان عمر كان اذا احتاج الى المال فوق راتبه استقرضه من بيت المال حتى يؤديه من عطائه . وكان عمر يرى انه لا ينبغي ان يبقى في بيت المال شيء ، ونهى عن اختزان المال ، وقد اشرنا الى غرابة هذا الراى في الجزء الثانى من هذا الكتاب . ونهى عمر ايضا عن الزرع ، وحرم على المسلمين اقتناء الضياع ، لان ارزاقهم وازراق عيالهم تدفع من بيت المال . اراد بذلك ان يبقوا جندا على اهبة الرحيل ، وان تبقى البلاد التي فتحوها فيئا يؤخذ من خراجها وجزية أهلها للانفاق على المسلمين . ووضعوا لكل من الخراج والجزية والصدقة احكاما لجمعها وتفريقها على مقتضى الشرع (٦)

(٣) الاغانى ١١٨ ج ١٧

(٢) الاغانى ٩٩ ج ١٠

(١) الاغانى ١٧١ ج ٩

(٥) العقد الفريد ٢٣٦ ج ١

(٤) الفرج بعد الشدة ١٢٣ ج ٢ والاغانى ١٥٩ ج ٤

(٦) الجزء الاول من هذا الكتاب

عمال بنى أمية

فلما اضطر بنو أمية الى اصطناع الرجال وجمع الاحزاب واسترضاء القبائل وبناء المدن ، اغضوا عن كثير من تلك الاحكام ، وتوقفوا الى عمال أشداء لا يبالون بالدين ولا أحكامه في سبيل أغراضهم ، مثل زياد بن أبيه عامل معاوية ، وعبيد الله بن زياد عامل ابنه يزيد ، والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان ، وخالد القسرى عامل هشام بن عبد الملك وغيرهم . فكان الخلفاء يكتبون الى عمالهم بجمع الاموال وحشدها ، والعمال لا يبالون كيف يجمعونها . فقد كتب معاوية الى زياد يقول : « اصطف لى الصفراء والبيضاء » فكتب زياد الى عماله بذلك وأوصاهم أن يوافوه بالمال ولا يقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضة (١) وكان العمال من الجهة الاخرى يختصون أنفسهم بجانب من تلك الاموال وليس ثمة من يحاسبهم ، وقد أطلق الخلفاء أيديهم في الاعمال ترغيباً لهم في البقاء على ولائهم ، فكان العمال يختزنون لانفسهم الاموال الطائلة ، حتى بلغت غلة أحدهم عشرة ملايين درهم في السنة وزادت ثروته على مائة مليون درهم (٢) وزادت نفقاتهم زيادة فاحشة ، ولم يعد عندهم لراتب العمالة قيمة ، حتى كتب أمية بن عبد الله الى عبد الملك بن مروان يقول : « ان خراج خراسان لا يفي بمطبخى » (٣) فلما رأى الخلفاء استئثار العمال بالاموال عمدوا الى مصادرتهم ، فكانوا اذا علموا بمال عند أحدهم أنفذوا اليه من يقبض أمواله ويتولى العمل مكانه ، والكل طامعون في الكسب لانفسهم

وكان العمال لا يرون حرجاً في ابتزاز الاموال من أهل البلاد التي فتحوها عنوة ، لاعتقادهم أنها فيء لهم كما تقدم . وكقول عامل بنى أمية في العراق : « السواد بستان قريش ، ماشئنا أخذنا منه وماشئنا تركناه » . وقد سأل صاحب اخنا بمصر عمرو بن العاص أن يخبره بما عليه من الجزية فأجابته : « لو أعطيتنى من الارض الى السقف ما أخبرتك بما عليك ، انما أنتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم » (٤) ومن قال ذلك يعد مصر فتحت عنوة . وقال غيره : « الصفد بستان أمير المؤمنين »

الاسلام والجزية

فكان العمال يبذلون الجهد في جمع الاموال بأية وسيلة كانت ، ومصادرها الجزية والخراج والزكاة والصدقة والعشور . وأهمها في أول الاسلام

(١) العقد الفريد ١٨ ج ١ وابن الاثير ٢٢٧ ج ٣

(٢) الاغانى ٦٢ ج ١٩ وابن خلكان ٣٦١ ج ٢

(٣) الاغانى ٥٦ ج ١٢ (٤) القريرى ٧٧ ج ١

الجزية لكثرة أهل الذمة ، فكان عمال بنى أمية يشددون في تحصيلها ، فأخذ أهل الذمة يدخلون في الإسلام ، فلم يكن ذلك لينجيهم منها ، لأن العمال عدوا إسلامهم حيلة للفرار من الجزية وليس رغبة في الإسلام ، فطالبوهم بالجزية بعد إسلامهم . وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف (١) واقتدى به غيره من عمال بنى أمية في إفريقية وخراسان وما وراء النهر ، فارتد الناس عن الإسلام وهم يودون البقاء فيه ، وخصوصا أهل خراسان وما وراء النهر ، فانهم ظلوا إلى أواخر أيام بنى أمية لا يمنعهم عن الإسلام إلا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعد إسلامهم ، فبعث إليهم رجلا اسمه أبو الصيذاء فقال الرجل : « أخرج إليهم على شريطة أن من أسلم لا تؤخذ منه الجزية » فقال أشرس : « نعم » فشخص إلى سمرقند ودعا أهلها إلى الإسلام على أن توضع الجزية عنهم . فسارع الناس إلى الإسلام وقل الخراج ، فكتب عاملها إلى أشرس : « ان الخراج قد انكسر » ، فأجابه : « ان في الخراج قوة للمسلمين ، وقد بلغني أن أهل الصفد وأشباههم لم يسلموا رغبة في الإسلام ، وإنما أسلموا تعوذا من الجزية ، فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرا سورة من القرآن فارفع خراجه » ففعل الناس ذلك وبنوا المساجد ، وكتب العمال بذلك إلى أشرس فأجابهم : « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه » فأعادوا الجزية على من أسلم ، فامتنعوا واعتزلوا في سبعة آلاف على عدة فراسخ من سمرقند ، وكانت بسبب ذلك فتنة ارتد عن الإسلام بسببها أهل الصفد وبخارا واستجاش الترك . وما زالوا كذلك حتى تولى خراسان نصر بن سيار وقد عرف موضع الخطأ ، فأعلن سنة ١٢١ هـ أنه وضع الجزية عن من أسلم ، وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين ، فلم يمض أسبوع حتى أتاه ٣٠٠٠ مسلم كانوا يؤدون الجزية (٢)

ناهيك بما كان يرتكبه بنو أمية من زيادة الخراج وضرب الضرائب (٣) والاستئثار بالفىء . ولم يقم من خلفائهم من نهى عن ذلك إلا عمر بن عبد العزيز ، فإنه لم ينفق من بيت المال درهما على نفسه ولا أخذ منه شيئا (٤) وأمر أهله بذلك فلم يلق سامعا . وهو الذى كتب إلى عماله لما ولى الخلافة : « ضعوا الجزية عن من أسلم ، ان الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » ولم تطل مدة حكمه (٥) وأراد يزيد بن الوليد ان يتشبه به فتبعه . وكان في جملة ضرائبهم ان يأخذ الخليفة لنفسه نصف دية المعاهد ، فأبطلها عمر بن عبد العزيز (٦)

(١) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب (٢) ابن الاثير ٢٦١ ج ٤ و ٦٨ و ١١١ ج ٥

(٣) الجزء الثانى من هذا الكتاب (٤) المقدم الفريد ٢٦٢ ج ٢

(٥) المقرئى ٧٨ ج ١ (٦) الاغانى ١٣ ج ١٥

واضطر الامويون للاستكثار من الاموال ان يمدوا ايديهم الى اموال الصدقة ، وهي الزكاة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتنفق في فقرائهم ، خلافا لسائر اموال الدولة كالفىء والغنيمة والجزية فانها تفرق في المقاتلة والجنود . فكان بنو امية كثيرا ما يعطون جوائز الشعراء ونحوهم من اموال الصدقة (١) وحقها ان تعطى من مال الخليفة الخاص ، او من مال الفىء ونحوه باعتبار ان تلك الجائزة مما ينفع المسلمين في تأييد دولتهم . او لعل الخليفة اعتبر الشعراء من فقراء المسلمين فأعطاهم من الصدقة ، وهو خلاف المألوف لانه انما اجازهم لانهم مدحوه فعليه ان يجيزهم من ماله الخاص . وكانوا أيضا كثيرا ما يعطون أرزاق المسلمين من مال الصدقة ، والمحاربون يستنكفون من ذلك ويعدون حطة في مقامهم ، كما اتفق لاهل المدينة وقد جاءهم الخليفة عبد الملك حاجا وأمر للناس بالعطاء ، فخرجت البدر مكتوب عليها «الصدقة» فأبى اهل المدينة قبولها ، وعدوا ذلك اهانة لهم تعمدتها عبد الملك ، لان اهل المدينة من أنصار أهل البيت وقالوا : « انما عطاؤنا من الفىء » فضرب عبد الملك مثلا كشف لهم به عما بينه وبينهم من التضامن من عهد مقتل عثمان ويوم الحرة

وكانوا كثيرا ما يعمدون اذا أعوزهم المال الى بيع الولايات بالرشوة ، وخصوصا في أيام ضعفهم وفساد دولتهم . فان الوليد بن يزيد لما تولى الخلافة زاد أعطيات الناس ترغيبا لهم في طاعته ، فلم يجد مالا يكفيه ، ولم يكن عنده من العمال الاشداء من يوافيه بالاموال حالا ، فكان من جملة ما استعان به على جمع الاموال انه باع ولاية خراسان وأعمالها ليوسف بن عمر ، وصارت الولايات في أيامه بالرشى للخليفة وأصحابه (٢) وكانت الولايات تعطى في أيام أسلافه جزاء على خدمة ، كما أعطى معاوية عمرو بن العاص مصر مكافأة لنصرته على على ، فاقتدى به خلفاؤه . فكانوا اذا التمس أحدهم الاحزاب اطمع رؤساءها بالولايات ، وصار ذلك مشهورا حتى أصبح الامير اذا دعى لنصرة أحد الخلفاء اشترط مالا او ولاية معينة . ومما يحكى أن عبد الملك بن مروان ، في أثناء محاربتة مصعب بن الزبير في العراق ، بعث الى اهل الكوفة والبصرة يدعوهم الى نفسه ويمنيهم ، فأجابوه وشرطوا عليه شروطا وسألوه الولايات . ومن غريب الاتفاق أن أربعين رجلا منهم سألوه ولاية أصبهان ، فقال عبد الملك لمن حضره : « ويحكم ! ما أصبهان هذه ؟ » تعجبا ممن يطلبها (٢)

(٢) ابن الاثير ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٢ ج ٥

(١) الاغانى ١٥٦ ج ١١

(٢) الاغانى ١٦٢ ج ١٧

الاستخفاف بالدين وأهله

لما طلب الامويون الخلافة لانفسهم ، وهم يعلمون ان اهل البيت احق بها منهم ، وان حجة اهل البيت في طلبها مبنية على اساس صحيح ، كان اكثر الفقهاء والعلماء وسائر رجال الدين يرون رأيهم ويؤيدون دعوتهم ، ولكن العصبية كانت مع الامويين ، والقوة غالبية . اما الفقهاء وسائر اهل التقوى فكانوا لا ينفكون عند سئوح الفرصة عن تفضيل اهل البيت ، وتذكير الامويين بما يرتكبونه في سبيل التغلب من الظلم والقسوة والتعدي ، ويعظونهم ويذكرونهم بتقوى الله . وكان معاوية لحلمه ودهائه يفضي عن اقوالهم ، ويقطع السننهم بالعطاء والمحاسنة والحلم . فتعودوا ذلك وبالغوا فيه ، حتى اذا افضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان عمد الى الشدة والعنف ، فحج سنة ٧٥ هـ بعد مقتل ابن الزبير ، ولما جاء المدينة وفيها أنصار اهل البيت خطب فيها خطابا قال فيه :

« أما بعد فاني لست بالخليفة المستضعف (يعنى عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يعنى معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يعنى يزيد) . الا واني لا اداوي هذه الامة الا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم . وانكم تحفظون اعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثل اعمالهم . وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من انفسكم . والله لا يأمرنى احد بتقوى الله بعد مقامى هذا الا ضربت عنقه » . فهو اول من نهى عن المعروف (١) فعظم ذلك على اعداء بنى أمية حتى تحسروا على ايام معاوية ، وقالوا قول ابن الزبير فيه لما جاءه نعيه : « رحم الله معاوية ، انا كنا لنخدعه فيتخادع لنا »

استهانة بعض الامويين بالمقدسات

أما عبد الملك فكان يرى الشدة ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف ، ولو خالف احكام الدين . وقد يتبادر الى الذهن انه فعل ذلك اقتداء بعامله ونصيره ومؤيد دولته الحجاج بن يوسف ، ولا نظنه مقتديا بذلك لانه صرح باستهانة الدين منذ ولى الخلافة ، وكان قبلها يتظاهر بالتدين فلما تولاه استهوته الدنيا . ذكروا انه لما جاءوه بخبر الخلافة كان قاعدا والمصحف في حجره فأطبقه وقال : « هذا آخر العهد بك » او « هذا فراق بينى وبينك » (٢) فلا غرو بعد ذلك اذا اباح لعامله الحجاج ان يضرب الكعبة بالمنجنيق وان يقتل ابن الزبير ويحتز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة (٣) والكعبة حرم لا يجوز القتال فيها ولا في جوارها ، فأحلوها وظلوا يقتلون الناس فيها ثلاثا ، وهدموا الكعبة ، واوقدوا النيران بين احجارها واستارها (٤)

(١) ابن الاثير ١٩٠ و ٢٥١ ج ٤

(٢) أبو الفداء ٢٠٥ ج ١ وسراج الملوك ٩٦

(٤) ابن الاثير ٣٦ ج ٥

(٣) العقد الفريد ٢٥٦ ج ٢

مما لم يحدث مثله في الاسلام ، ودخلوا المدينة وهي احد الحرمين وقاتلوا
 أهلها وسفكوا دماءهم ، لم يفلق لها باب الا أحرق مافيه ، حتى أن الاقباط
 والانباط كانوا يدخلون على نساء قريش فينزعون خمرهن من رؤوسهن
 وخالخلهن من أرجلهن ، بسيوفهم على عواتقهم والقرآن تحت أرجلهن (١) (*)
 ناهيك بمن قتلوه من الصحابة والتابعين وأهل التقوى صبورا ، وانما أرادوا
 بذلك تحقير أمر على وشيعته تأييدا لسلطانهم . ولهذا السبب أيضا لعنوه على
 المنابر ، وأمروا الناس بلعنه وقتلوا من لم يلعنه . وأول من قتل صبورا
 في هذا السبيل حجر بن عدى الكندى في أيام معاوية (٢) وظلوا يلعنون عليا على
 المنابر الى أيام عمر بن عبد العزيز فأبطل ذلك

الغلاة والنبوة في رأى بعض العمال

وفق بنو أمية الى عمال أشدء زادوهم استبدادا وشدة ، بما توخوه

(١) ابن خلكان ٢٧٤ ج ٢

(*) يلاحظ ان معظم هذه الاخبار التي روتها كتب التاريخ ظاهر الاختلاق والوضع ، وضعها
 في الغالب دعاة للأحزاب التي كانت تتصارع على السلطان ، ففي اثناء الصراع بين على ومعاوية
 كثرت الدعاية من الجانبين ، ومن هنا حفلت كتب التاريخ باخبار غريبة تؤيد عليا تارة ومعاوية
 تارة اخرى ، وكان الامويون امهر في الدعاية واعرف بأساليبها ، وقد رأيناهم يقدقون على الشعراء
 ليمدحوهم ، وعلى رؤساء الناس ليؤيدوهم ، وعلى أهل العلم ليسكتوا عنهم ، ومن ناحية اخرى
 نلاحظ ظهور القصص وان صنع القصص وروايتها في المجتمعات أصبحت عملا يتخصص فيه بعض
 الناس ، وقد أصبحت وظيفة القاص وظيفه رسمية يتقاضى صاحبها راتبا من خزانة الدولة ،
 ولم يكن عمل هؤلاء القصاص مجرد حكاية أقاصيص التقى والورع ، بل حكاية الاخبار المؤيدة
 للدولة واصحابها واسنادها الى كبار الرواة الموثوق فيهم ، ومن هنا كثرت القصص وامتلأت
 بها كتب التاريخ وشوهت بذلك حقيقة الحوادث . وقد كثرت خلال العصر الاموى القصص التي
 تظهر فضائل معاوية ومروان وعبد الملك بن مروان ومن اليهم ، فلما جاء العصر العباسى ، عمد
 المؤرخون والرواة الى تعديل هذه القصص بما يوافق صالح الدولة الجديدة ، وحذف معظم
 ما وضع في مدح الامويين من كتب التاريخ التي كتبت في الشرق أيام العباسيين ، ولم يبق فيها
 الا ما يبرز مساوىء الامويين ويظهر فضائل العباسيين والعلويين . واذا أردنا ان نأخذ فكرة
 عما وضع من الاقاصيص في مدح بنى أمية فلنقرأ العقد الفريد لابن عبد ربه ، فهذا كتاب وضعه
 مولى من موالى بنى أمية الاندلسيين ، وكان حريصا على اظهار محاسنهم ومحاسن اسلافهم
 من الامويين في المشرق . ونجد هذه الاخبار متواردة في معظم كتب التاريخ التي كتبت في الاندلس،
 وأظهر مثال لذلك أبو محمد على بن حزم الذى يدافع عن الامويين دفاعا عظيما وأبو بكر بن
 العربى الذى ذهب في كتابه « العواصم من القواصم » الى درجة أنه أيد يزيد في قتله للحسين
 ابن على رضى الله عنه

وتتضح هذه الظاهرة في كتاب في التاريخ لم ينشر بعد لعبد الملك بن حبيب الفقيه الاندلسى ،
 فقد ملا كتابه هذا بفضائل الامويين والتعصب لهم ، ولا شك انه كانت في المشرق كتب كثيرة كهذه،
 ثم اعدمت او شوهت أيام العباسيين . وبديهي ان خبرا مثل هذا الذى نعلق عليه ظاهرا الاختراع،
 فليس بمعقول ان عبد الملك بن مروان خاطب المصحف بقوله يوم أتته الولاية : « هذا آخر
 العهد بك ! » كأنه قد كفر بالاسلام وبالقرآن ، ولا شك أن الذى وضع هذا الخبر أراد بهذا
 المعنى تقريبا به للعباسيين والعلويين

ومن أواسط العصر العباسى نجد في كتب التاريخ كلها نزعة شيعية ظاهرة ، حتى لو كان
 مؤلفوها من أهل السنة ، فقد كان الشعور العام أن امتداح على وبنيه من أعمال التقى ، ونلاحظ
 هذا عند كبار المؤرخين وصفارهم ممن كتبوا بعد القرن الرابع الهجرى ، نلاحظه عند ابن خلدون
 وتلاميذه وخاصة المقرئى وابن حجر العسقلانى ، ونلاحظه عند السخاوى ومن تابعه . وقد
 ظل التعصب للعلويين غالبا حتى العصر الحديث

(٢) المسعودى ٢٩ ج ٢

من تمليقهم بالتعظيم والتفجير مما يخالف أحكام الدين . وأول من تجرأ على ذلك الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك ، فانه سمي الخليفة « خليفة الله » ، وعظم أمر الخلافة حتى فضلها على النبوة فكان يقول : « ما قامت السموات والارض الا بالخلافة ، وان الخليفة عند الله افضل من الملائكة المقربين والانبياء والمرسلين ، لان الله خلق آدم بيده واسجد له الملائكة واسكنه جنته ثم أهبطه الى الارض وجعله خليفة ، وجعل الملائكة رسلا » . واذا حابه أحد في ذلك قال : « أخليفة أحدكم في أهله اكرم عليه أم رسوله في حاجته ؟ » . وكان عبد الملك اذا سمع ذلك اعجب به (١) واقتدى بالحجاج من جاء بعده من العمال الاشداء كخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك فقد كان يقول قول الحجاج ، وخطب الناس في مكة مرة فقال : « أيها الناس ، أيهما أعظم ، أخليفة الرجل على أهله أم رسوله اليهم ؟ » يعرض ان هشاما خير من النبي (٢) واقتدى بالعمال سائر المملقين من وجوه الدولة ، وفيهم جماعة كبيرة انما أسلموا رغبة في الدنيا فزادوا الامور فسادا . وكانوا يملقون العمال من هذا القبيل ويجرئونهم على خرق حرمة الدين : ذكروا ان خالد القسري كان قليل العناية في حفظ القرآن ، فاذا تلا آية أخطأ فيها وألحن في نطقها ، فوقف مرة للخطابة فقال واخطأ ، ثم ارتج عليه وفشل ، فنهض صديق له من تغلب فقال : « خفض عليك أيها الامير ولا يهولنك ، فما رأيت قط عاقلا حفظ القرآن ، وانما يحفظ الحمقى من الرجال » فقال خالد : « صدقت ، يرحمك الله ! » (٣) (*)

فلا غرو بعد ذلك اذا قيل لنا ان الوليد بن يزيد ، سكير بنى مروان ، رمى القرآن بالنشاب وهو في مجونه وسكره . فقد ذكروا انه عاد ذات ليلة بمصحف فلما فتحه وافق ورقة فيها (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد) فأمر بالمصحف فعلقوه واخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه ثم قال :

أتوعد كل جبار عنيد ؟ فها انا ذاك جبار عنيد !
اذا لاقيت ربك يوم حشر فقل لله : مزقنى الوليد ! (٤)

(١) العقد الفريد ١٨ ج ٣ والمسعودى ١٠٤ ج ٢

(٢) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٤ و ١٢٠ ج ٥ والاغاني ٦٠ ج ١٩

(٣) الاغاني ٦٣ ج ١٩

(*) واضح جدا ان هاتين الحكايتين موضوعتان ، ويلاحظ ان صاحب العقد روى الخبر المذكور عن الحجاج بن يوسف لانه كان - رغم مشايخته للامويين - يستبيح نقد رجالهم وعمالهم بل كان هو نفسه ساخطا على عمال بني أمية في الاندلس كثير الخلاف والنقد لهم . وقد وجدنا الخبر الذي يورده المؤلف في طبعة لجنة التأليف من العقد (٢٥٤/٣) هكذا بعد ان روى اخبا أربعة ممن حادوا عن الدين وتغرب الحجاج الى الله بقتلهم :

« وقال ناقل الحديث : ونسى الحجاج نفسه ، وهو خامس هؤلاء الأربعة ، بل هو اشداهم كفر واعظمهم الحادا حين كتب الى عبد الملك بن مروان . . وكتابه اليه : ان خليفة الرجل في أهله اكرم عليه من رسوله اليهم ، وكذلك الخلفاء يا امير المؤمنين أعلى منزلة من المرسلين »

(٤) الاغاني ١٢٥ ج ٦ والمسعودى ١٢٤ ج ٢

فلم يكن يهم بني أمية نشر الاسلام ، وانما كان همهم الفتح والتغلب وحشد الاموال ، فتوقف نشر الاسلام على عهدهم في الاطراف البعيدة كالسند وتركستان مع رغبة أهلها فيه ، وانما نفرهم منه شدة بني أمية وجشعهم ، فكانوا يسلمون ثم يرتدون تبعا لما يرونه من المعاملة الحسنة أو السيئة . فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقى الورع ، وسار على خطوات سميح ابن الخطاب ، كتب الى ملوك السند وغيرهم يدعوهم الى الاسلام على أن يملكهم بلادهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانت سيرته قد بلغتهم فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . فلما قتل عمر المذكور سنة ١٠١ هـ وعاد بنو أمية الى سابق سيرتهم ارتد اولئك عن الاسلام (١)

وقس على ذلك ما ارتكبه الامويون من قتل ابناء على وصلبهم والمثلة بهم ، غير من قتلوه من التابعين وأهل الصلاح صبورا ، وأكثرهم اقداما على ذلك عاملهم الحجاج بن يوسف

الفتك والبطش في عصر الامويين

كان المسلمون في أيام الراشدين يرون الطاعة للامام واجبة ، لا يحتاجون في سياسة شؤونهم الى حيلة أو عنف ، ولا يجيدون عن الحق في أعمالهم أو اقوالهم . اذا أذنب أحدهم اعترف بذنبه وأذعن لما يفرضه الخليفة عليه من القصاص ونحوه ، فلم تكن الاحكام تحتاج الى بحث أو نقض أو حيلة ، ولا تنفيذها يفتقر الى شدة أو عنف . وربما اقتصر القصاص على التوبيخ أو اللوم ، واذا أخطأ الخليفة حكم على نفسه كما يحكم على رعيته . ولم يكن عندهم سجن يحبس فيه الناس ، وأول من وضع السجن معاوية ، وهو أيضا وضع الحرس (٢) لقلعة الحاجة الى ذلك في عصر الراشدين ، فكان عمر بن الخطاب يأمر القائد من كبار الصحابة أن يأتيه فيأتي صاغرا ، مع علمه أنه لو امتنع عن الجيء لعجز الخليفة عن استقدامه . وقد يأمر بجلد الرجل منهم فيذعن مطيعا . وكان عمر لا يتفاضى عن الذنب الصغير خوفا من الذنب الكبير ، ولذلك اشتهر بالحزم والصرامة

فلما تولى الخلافة معاوية ، وسلم الاعمال الى دهاته في العراق وفارس ومصر وغيرها ، والمسلمون لا يزالون في أريحياتهم وانفتهم ، وقد أطلق معاوية سنتهم بحلمه وسعة صدره ، خاف العمال أن يجر ذلك الى استفحال الامر فعمدوا الى الشدة . وأول من توخى الشدة والعنف زياد بن أبيه عامل معاوية على العراق ، زعم أنه يفعل ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب في اقامة السياسات بالصرامة والحزم ، ولكنه أسرف وتجاوز الحد . وهو أول من شدد

(٢) القرينى ١٨٧ ج ٢

(١) ابن الاثير ٢٧٣ ج ٤ و ٥٦ ج ٥

أمر السلطنة وأكد الملك لمعاوية ، فجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة (١) وتولى العراق بعده ابنه عبيد الله بن زياد في خلافة يزيد بن معاوية ، وفي أيامه قام الحسين بن علي يطالب بالخلافة ، وقد نقض بيعة يزيد وحمل على العراق ، فكتب يزيد الى ابن زياد : « احبس على التهمة ، وخذ بالظنة ، غير أن لا تقتل الا من قاتلك » (٢)

ولما أفضت ولاية العراق الى الحجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) وقد كثر المطالبون بالخلافة ، أراد الحجاج ان يتشبه بزياد وابنه في الشدة والعنف ، فبالغ في ذلك حتى اهلك ودمر (٣) ولم يكن الحجاج أشد وطأة من زياد أو ابنه ، ولكن زيادا كان يزجره حلم معاوية ، وابن زياد يزجره أمر يزيد أن لا يقاتل الا من قاتله . واما الحجاج فقد أعانته شدة عبد الملك على المبالغة في الشدة ، فأكبر المسلمون ذلك وتقموا على تلك الدولة وكثر الخارجون عليها واتهموا خلفاءها بالمروق من الدين . ومن اقوال الخوارج فيهم : « ان بنى أمية فرقة بطشهم بطش جبارين : يأخذون بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب » (٤)

بسر بن أرطاة وقتل الاطفال

على أن سياسة بنى أمية كانت من أول أمرها مبنية على الشدة والحزم ، غير ما تقتضيه سياسة الممالك في ذلك العصر ، ثم تجاوزوا الحدود ولم يبالوا بالفتك والقتل في سبيل تأييد دعوتهم والتغلب على أعدائهم . فكانوا يطلقون أيدي عمالهم في الاحكام ، يقتلون ويصلبون على ما يترأى لهم بدون مشور الخليفة ، مع أن ذلك لم يكن جائزا في أيام الراشدين ، لأن الخليفة منهم كان وهو مقيم في المدينة يدير شؤون الرعايا في أطراف المملكة ، وهذا الذي أراد عمر بن عبد العزيز ان يرجع اليه في أيام خلافته فلم يفسح له الاجل (٥) فلما مات كتب خليفته يزيد بن عبد الملك الى عماله أن يعودوا الى ما كانوا عليه قبلا من الشدة والبطش (٦)

فكان الخلفاء من بنى أمية يرون في اطلاق أيدي عمالهم أو قوادهم تشجيع لهم وتنفيذا لأغراضهم . وربما حرضهم الخليفة على الفتك عند الحاجة ، حتى في أيام معاوية ، فانه أرسل بسر بن أرطاة بعد تحكيم الحكمين وعلى بن أبي طالب يومئذ حتى ، وأرسل معه جيشا . ويقال انه أوصاهم أن يسيروا في الارض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي ، ولا يكفوا أيديهم عن النم

(١) ابن الاثير ٢٢٨ ج ٢ (٢) ابن الاثير ١٨ ج ٤
 (٣) ابن خلكان ١٢٤ ج ١ والبيان للجاحظ ١٧٥ ج ١ والعقد الفريد ٢ ج ٢
 (٤) البيان والتبيين ١٩٥ ج ١
 (٥) ابن الاثير ٢٩ ج ٥ (٦) العقد الفريد ٢٦٥ ج ٢

والصبيان • فسار بسر على وجهه حتى انتهى الى المدينة ، فقتل فيها أناسا من اصحاب على وهدم دورهم ، ومضى الى مكة وغيرها يقتل ويهدم ، حتى أتى اليمن وعليها عبید الله بن عباس عامل على وابن عمه ، وكان غائبا فرارا من القتل ، فوجد بسر ابنين له صبيين اسماهما عبد الرحمن وقثم ، فأخذهما وذبحهما بيده بمدية كانت معه (١) . وذكروا ان الغلامين كانا عند رجل من كنانة بالبادية ، فلما أراد بسر قتلهما قال الكناني : « تقتل هذين ولا ذنب لهما ؟ فان كنت قاتلتهما فاقتلني معهما » فقتله وقتلتهما معه ، فصاحت امرأة من كنانة : « يا هذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين ؟ والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية ولا الاسلام ، والله يا ابن أرتاة ان سلطانا لا يقوم الا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الارحام لسلطان سوء » . وقالت أم الصبيين شعرا في رثائهما كانت تنشده في المواسم مطلعها :

يا من أحس بابني اللذين هما كالدرتين تشظي عنهما الصدف

على أننا لا نظن معاوية كان راضيا عن ذلك العمل الفظيع ، لأنه يخالف دهاء وحلمه ، ونظنه أطلق يد بسر ولم يعين له حدودا ، وكان بسر سفاكا للدماء فلم يستثن طفلا ولا شيخا • ويؤيد ذلك ما أراد فعله بأولاد زياد بن ابيه بعد موت على ، اذ خاف معاوية زيادا وكان عامله على فارس فأمر بسر ان يستقدمه اليه ، فأمسك بسر اولاد زياد وكتب اليه : « اما تأتي حالا او اقتل اولادك » ، فلما بلغ معاوية ذلك منع بسرا من قتلهم (٢)

فاذا كان هذا حال العمال في أيام معاوية مع حلمه وطول أناته ، فكيف في أيام عبد الملك مع شدته وفتكه • فهل يستغرب ما يقال عن فتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبورا ولو كانوا ١٢٠٠٠٠٠ وهل يستبعد أن يكون في حبسه عند موته ٥٠٠٠٠٠ رجل و ٣٠٠٠٠٠ امرأة ؟ (٢) وكان عبد الملك أشد وطأة منه وأجراً على الغدر والفتك ، بل هو أول من غدر في الاسلام بعد أن أعطى الأمان - وذلك أن عمرو بن سعيد الأشدق أحد أمراء عبد الملك طمع في الملك لنفسه ، فاغتنم خروج عبد الملك من دمشق سنة ٦٩هـ لحرب مصعب ابن الزبير في العراق ، وجاء الى الشام ووضع يده عليها • فبلغ عبد الملك ذلك وهو في الطريق ، فرجع حالا الى دمشق وقاتل عمرايما فلم يقدر عليه . فخاف على سلطانه فاحتال في عقد الصلح فرضى عمرو وكتبها بينهما كتابا فيه أمان عبد الملك له • فاطمأن خاطر عمرو المذكور ، وخرج الى الخليفة حتى

(١) الاغانى ٤٤ ج ١٥ (٢) ابن الاثير ١٩٥ و ٢١١ ج ٢

(٣) المسعودى ١١٢ ج ٢ والكشكول ٢٢

أوطأ فرسه أطناب عبد الملك ، ثم دخل عليه فاجتمعا ودخل عبد الملك دمشق
وبعد دخوله بأربعة أيام أرسل الى عمرو فأجابه أنه آت العشية ، وأتاه
مئة من مواليه ، ودخل على عبد الملك وعنده جماعة من بني مروان ، وقد بقى
مواليه خارجا . فاستقبله عبد الملك حتى اجلسه معه على السرير وجعل
يحادثه ، ثم أمر أحد الغلمان أن يأخذ سيفه وقال له : « أتطمع أن تجلس
معي متقلدا سيفك ؟ » فأعطاه السيف . ثم قال عبد الملك : « يا أبا أمية
(عمرو) انك حينما خلعتني آليت بيمين ان أنا ملأت عيني منك وأنا مالك
لك أن أجعلك في جامعة » فقال له الحضور من بني مروان : « ثم تطلقه يا أمير
المؤمنين ؟ » قال : « نعم ، وما عسيت أن أصنع بأبي أمية ؟ » فقال بنو مروان
لعمرو : « أبر قسم أمير المؤمنين » ، فقال : « قد أبر الله قسمك يا أمير
المؤمنين » . فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة وقال : « يا غلام قم
فاجمه فيها » ، فقام الغلام فجمعه فيها فقال عمرو : « اذكرك الله يا أمير
المؤمنين أن تخرجني فيها على رؤوس الناس » ، فقال : « أمكر يا أبا أمية
عند الموت ؟ لا والله ما كنا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس » . ثم جذبته
جذبة فوق وأصاب فمه السرير فكسر ثنيته ، فقال عمرو : « اذكر الله يا أمير
المؤمنين ، كسر عظم مني فلا تترك ما هو أعظم من ذلك » ، فقال عبد الملك
« والله لو أعلم أنك تبقى على لو أبقيت عليك وتصلح قریش لأطلقتك ، ولكن
ما اجتمع رجلان في بلدة قط على ما نحن عليه الا أخرج أحدهما صاحبه ،
فلما رأى أنه يريد قتله قال : « أغدر يا ابن الزرقاء ؟ » ثم قتله عبد الملك (١)

وترى مما دار بينهما أن الذي جر عبد الملك الى هذا الغدر كثرة الطامع
في السلطة ، ولا رادع لهم من عند أنفسهم كما كانوا في عصر الدين والتقوى
فأصبح القوى يأكل الضعيف ومن سبق الى قتل صاحبه ملك ، وهي سياسة
الفتك . وقد نفعتهم هذه السياسة في تأييد سلطانهم ، ثم صارت سنة فيمن
ملك بعدهم من بني العباس وغيرهم . وآخر حادثة جرت من هذا القبيل فتك
محمد على باشا بالماليك ، وقد عمد بنو أمية الى ذلك استعجالا للنصر وتخلص
من أسباب النزاع ، فاذا خرج عليهم خارج جعلوا همهم قتله ، لعلمهم أنه اذا
قتل تفرق أصحابه ، واذا لم يتفرقوا استرضوهم بالأموال أو نحوها

خزاة الرؤوس

وكانوا يقتلون الخارجين عليهم ويمثلون بقتلاهم اربابا لأحزابهم، فيقطعون
رأس الرجل ويطوفون به من بلد الى بلد أو يصلبون الجثة حيث تزدحم الاقدا
- كانوا يفعلون ذلك على الخصوص برؤساء الأحزاب ولا سيما العلويين

(١) ابن الاثير ١٤٦ ج ٤

فكان العامل الأموي يقتل الخارج على الدولة ويبعث برأسه الى الخليفة في الشام ليطاف به في الاسواق . وأول رأس حمل من بلد الى بلد رأس عمر ابن الحمق الخزاعي (١) احد قتلة عثمان ، وأول رأس طيف به في الاسواق رأس محمد بن أبي بكر (٢) وأول رأس حمل الى الخلفاء رأسا هانيء وابن عقيل من أشياع الحسين في الكوفة ، ثم رأس الحسين بن علي ، أرسله ابن زياد من الكوفة الى يزيد بن معاوية في الشام ، وكذلك فعل المختار برؤوس قتلة الحسين ، فانه أرسلها الى محمد بن الحنفية (٣) . وهكذا فعل الحجاج برأس عبد الله بن الزبير ورؤوس أصحابه ، فانه أرسلها من مكة الى عبد الملك بن مروان في الشام . وكذلك فعل عبد الملك برأس مصعب بن الزبير ، فانه سيره من الكوفة الى الشام فنصب فيها (٤)

ومن غريب ما يحكى أنهم لما جاءوا الى عبد الملك برأس مصعب بن الزبير ، وهو جالس في طاق بالكوفة ، كان ابن عمير اللخمي حاضرا عنده ، فلما رأى الرأس بين يدي عبد الملك ارتعد . فقال له عبد الملك : « مالك ؟ » ، قال : « أعيد بالله أمير المؤمنين ! كنت في هذا الطاق بهذا الموضع مع عبيد الله ابن زياد فرأيت رأس الحسين بن علي بين يديه في هذا المكان ، ثم كنت مع المختار بن أبي عبيد الثقفي فرأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يديه ، ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت فيه رأس المختار بين يديه ، ثم هذا رأس مصعب بن الزبير بين يديك ! » فتشام عبد الملك من ذلك ، وقام فأمر بهدم ذلك الطاق (٥)

وصار قطع الرؤوس على هذه الصورة سنة في عصر بني أمية ومن جاء بعدهم من بني العباس ، وصار للرؤوس في دار الخلافة خزانة يحفظونها فيها : كل رأس في سفظ خاص (٦) وجرت العادة أيضا بصلب الجثث أو الرؤوس . لكنهم لم يكونوا ينصبون الا رؤوس الخوارج (٧) ويطوفون بها على رمح ، وكان بنو أمية يعدون العلويين خوارج ، فكانوا اذا قتلوا أحدهم صلبوه

ومن هذا القبيل تشديدهم في العذاب قبل القتل ، ولعل ذلك من مخترعات الحجاج لارهاب أعدائه واخضاعهم بالعنف . فمن ضروب التعذيب أنه كان يأتي بالقصب الفارسي فيشقه ويشده على الرجل وهو عار ، ثم يسله قصبه قصبه حتى يقطع جسده ، ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت (٨) فعل ذلك ببعض الذين حاربوه مع ابن الأشعث ارهابا لسواهم . وكان الخوارج

(١) المعارف ١٨٧ وطبعة القاهرة ١٩٣٥ ص ٢٤١
 (٢) العقد الفريد ٣٩ ج ١ (٣) ابن الاثير ١١٩ ج ٤
 (٤) ابن الاثير ١٦٢ ج ٤ (٥) ابن خلكان ٢٨٦ ج ١
 (٦) الفخرى ٢٤٨ ج ٢ (٧) العقد الفريد ٢٧٢ ج ٢
 (٨) المعارف ١١٥

أيضا يفعلون نحو ذلك بمن ظفروا به من أعدائهم ، حتى لقد يضعون الأطفال في القدور وهي تفور (١) اما اشتفاء أو انتقاما أو ارهابا

الموالي وأحكامهم في عصر الامويين

تكاثر الموالى

أفضت الخلافة الى الامويين فى أواسط القرن الأول للهجرة ، وعدد الموالى أخذ فى الزيادة بموالاته الفتح وتكاثر الرقيق بالاسر أو الاهداء • لأن العمال كثيرا ما كانوا يبعثون بمئات أو ألوف من الرقيق الابيض والأسود الى بلاط الخليفة هدية أو بدلا من الخراج أو نحوه (٢) والخليفة يفرق ذلك فى أهل بطانته أو قواده ، وهؤلاء يفرقونه فىمن حولهم أو يبيعونه فينتقل الى الناس على اختلاف طبقاتهم ، فمن أنجب من أولئك الأرقاء أو أعتق لسبب من الأسباب صار مولى ، وذلك كثير وعادى يومئذ - غير الذين كانوا يدخلون فى الولاء بالعقد وغيره • فتزايد عدد الموالى فى عصر الامويين زيادة عظيمة وصاروا يتقربون من مواليتهم بما يحتاجون اليه من شؤونهم ، فاستخدمهم العرب فى مصالحهم الصناعية أو الزراعية أو الدينية أو العلمية ، واشتغلوا هم بالرياسة والسياسة ، ولذلك كان أكثر القراء والشعراء والمغنين والكتّاب والحجاب من الموالى

وقد يشرى المولى فيبتاع العبيد ويعتقهم فيصيرون من مواليتهم ، وهؤلاء استطاع أحدهم أو بعض أولاده لمقتناء العبيد واعتاقهم صاروا مواليتهم ، وهكذا حتى يتفق أحيانا أن يكون الرجل مولى مولى ، أو مولى مولى مولى أو أكثر فعبد الله بن وهب الفقيه المالكي الشهير كان مولى يزيد بن رمانة ، وهذا مولى يزيد بن أنس الفهرى • وكذلك حماد بن سامة، والليث بن سعد ، وأبو أسامة وغيرهم • وكان ابن مناذر الشاعر مولى سليمان القهرمان ، وسليمان مولى عبيد الله بن أبى بكر ، وعبيد الله من موالى النبی (صلعم) (٣) • وأغرب من ذلك أن عبيد الله هذا ادعى أنه عربى من ثقيف ، وادعى سليمان القهرمان أنه عربى من تميم ، وادعى ابن مناذر أنه عربى من بنى جبير بن يربوع فيكون ابن مناذر مولى مولى مولى ، ودعى لمولى لمولى مولى مولى دعى • وقد بلغت نسبة الولاء عندهم الى خمس درجات ، فداود بن خالد بن دينار واخوته من أهل الحسديت ، وكلهم من موالى آل حنين ، وآل حنين موالى مثقب ، ومناذر مولى مسحل ، ومسحل مولى شماس، وشماس مولى العباس بن عبد المطلب (٤) فهو مولى مولى مولى مولى • وقس على ذلك ، مما يدل على تكاثر الموالى

(٢) السعوى ٢٥٤ ج ٢

(٤) المعارف ١٩٧

(١) السعوى ١٢٣ ج ٢

(٣) الاغانى ٩ ج ١٧

في ذلك العصر ، وفيهم الفارسي والفرغاني والتركي والديلمي والحراساني والرومي والبربري والسندی وغيرهم ، يشتغلون بما يحتاج اليه العرب من المهن والصناعات والآداب

ناهيك بالموالي المحاربين ، فقد كان في كل قبيلة من العرب عدد كبير منهم ، وبما زاد على عددها ، فاذا خرجت للحرب خرجوا معها ، وحاربوا في سبيل نصرتها . واختلف عدد الموالي بالنسبة الى مواليهم باختلاف الأعصر ، ففي أيام علي كانت نسبة الموالي الاحرار ممن يخرجون الى الحرب كنسبة واحد الى خمسة (١) ثم تكاثر الموالي في عصر الامويين حتى زاد عددهم على عدد الاحرار . وبنو أمية مع ذلك يحتقرونهم ويضطهدونهم ، وهم يصبرون على ذلك أو يفرون من سلطانهم الى أطراف المملكة . وممن فر من جور بني أمية ميمون جد ابراهيم الموصلی المغنی المشهور (٢)

قمة الموالي على العرب

فلما تكاثر الموالي ورأوا ماكان فيه الامويون من التعصب للعرب على سواهم - ولاسيما الموالي ، حتى كانوا يستخدمونهم في الحروب مشاة ولا يعطونهم عطاء ولا شيئا من الغنائم أو الفىء - عظم ذلك عليهم ، ورأوا في نفوسهم قوة فنفرت قلوبهم من بني أمية ، وأصبحوا عوناً لكل من خلع الطاعة أو طلب الخلافة من العلويين أو الخوارج . فكل من قام لمحاربة الامويين استعان عليهم بالموالي والعبيد ، وهم الفئة المظلومة . وأشهر من حاربهم بالموالي والعبيد المختار بن أبي عبيد الذي قام في العراق للمطالبة بدم الحسين سنة ٦٦ هـ ثم طلب الخلافة لمحمد بن الحنفية - فالمختار المذكور أطمع موالي العراق في الغنيمة وأركبهم على الدواب ، وكانوا ناقلين على أسيادهم ومواليهم لسوء معاملتهم ، فجاءوه متطوعين وجاءه عدد كبير من أباقي العبید وفيهم من ترك الاسلام غيظاً من بني أمية . فكان عدد الموالي في جند المختار أضعاف عدد الاحرار (٣) وقد أبلوا في الحرب معه أكثر من بلاء الاحرار ، لنقمتهم على أسيادهم . ولذلك كان أكثر القتلى في تلك الحرب من الموالي ، فقد بلغ عدد قتلهم في معركة سنة ٦٧ هـ ٦٠٠٠ ، ليس فيهم من العرب الاحرار الا ٧٠٠ ، وسائرهم من الموالي (٤) وفاز المختار بالانتقام للحسين فوزاً حسناً وقتل قتله . ولما رأى وجهاء الكوفة انتصار المختار بمواليهم وعبيدهم بعثوا اليه يقولون : « انك آذيتنا بموالينا ، فحملتهم على الدواب وأعطيتهم فيئنا » فأجابهم : « ان أنا تركت مواليكم ، وجعلت فيئكم لكم ، تقاتلون معي بني

(١) ابن الاثير ١٧٢ ج ٣ (٢) الاغانى ٢ ج ٥

(٣) ابن الاثير ١٢١ ج ٤ (٤) ابن الاثير ١٢٦ ج ٤

أمية وابن الزبير ، وتعطونني على الوفاء عهد الله وميثاقه وما أطمئن اليه من الايمان ؟ » فلم يرضوا . والمختار أول من جند الموالى وفاز بهم ، فجراهم ذلك على الدولة واستخفوا بها ونصروا أعداءها ، وأصبح الخلفاء العقلاء يسترضونهم بالعطاء ونحوه . وأول من فرض لهم العطاء من بنى أمية معاوية ، فانه جعل لكل واحد ١٥ درهما ، فعبد الملك جعلها ٢٠ ، ثم أبلغها سليمان الى ٢٥ ، وجعلها هشام ٣٠ (١) على أن ذلك الفرض قلما كان يعطى لهم ، لأن العمال كانوا يستخدمونهم غالبا بلا عطاء ولا رزق (٢)

والمولى اذا آنس من مولاه رضاء ومحاسنة استهلك في نصرته ، وكان لسيدة ثقة فيه ، حتى خلفاء بنى أمية فقد كانوا يقربون جماعة من مواليتهم ، يعهدون اليهم بمهامهم ويرفعون منزلتهم ويستشيرونهم في أمورهم ، والموالى يخلصون لهم ويستमितون في الدفاع عنهم ، كما كان موالى بنى هاشم يستमितون في نصره مواليتهم ، وكانت تقوم المفاخرات بين الحزبين ، وأشهرها مفاخرات سديف وسياب وقد تقدم ذكرها

وقد يكون المولى من أصل رفيع ، أو يرتقى الى أعلى المراتب ، حتى فى أيام بنى أمية رغم اضطهادهم وتعصبهم عليهم ، وأعظم موالى العراق وأشهرهم فيروز مولى أهل الحشخاش ، فانه ولى الولايات وخرج مع ابن الأشعث على الحجاج ، فقال الحجاج : « من جاءنى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم » فقال فيروز : « من جاءنى برأس بالحجاج فله ١٠٠٠٠٠ درهم » . فلما غلب ابن الأشعث هرب فيروز الى خراسان ، فقبض عليه ابن المهلب هناك وبعث به الى الحجاج فقتله بعد أن عذبه بسل القصب المشقوق على جسمه (٣) (*)

(١) العقد الفريد ٢٤٩ ج ٢ (٢) ابن الأثير ٢٤ ج ٥

(٣) المعارف ١١٥

(*) لا زالت سياسة الامويين مع الموالى فى حاجة الى دراسة ، فقد بالغ المؤرخون فى القول بظلمهم واحتقارهم اياهم مبالغة ينكرها الواقع ، فقد كان الكثيرون من رجال بنى أمية من الموالى ، ومثال ذلك موسى بن نصير وطارق بن زياد اللذان فتحا الاندلس ، فقد كانا موليين . وكان لكل خليفة من خلفاء بنى أمية طائفة من مواليتهم وتخلص له ، فهناك موالى عبد الملك وموالى هشام والوليد وسليمان اولاده ، وكلهم كانوا مخلصين لهم متمسكين بولائهم . وعندما زالت دولة بنى أمية فى المشرق كان مواليتهم هم الذين اقاموا دولتهم فى الاندلس بسواعدهم واخلصوا لهم اخلاصا عظيما . وكان بنو أمية الاندلسيون يقدرون مواليتهم ويثقون فيهم اكثر مما يثقون فى رجالهم من العرب . فلو أن سياسة بنى أمية مع الموالى كانت بهذا السوء الذى يصفه المؤرخون لما أخلص الموالى لهم هذا الاخلاص . والحقيقة أن هذه الصورة التى لدينا عن سياسة الامويين مع الموالى ترجع الى العصر العباسى ، وهى جزء من دعاية العباسيين ضد الامويين ، وقد ناقش هذه الناحية مناقشة موجزة - ولكنها عميقة - بوليوس فلهاوزر فى كتابه عن الدولة العربية وسقوطها ، فى فصل « عمر بن عبد العزيز والموالى » وهو فصل حقيق بأن يراجع كل معنى بدراسة تاريخ الدولة الاسلامية ، وخاصة بعد ان ظهرت ترجمتان عربيتان لهذا الكتاب القيم ، الاولى فى دمشق قام بها الدكتور يوسف العشر والثانية فى القاهرة قام بها الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ، وقد راجعتها . والدراسة التى نشرها الاستاذ عبد الوهاب النجار بعنوان « الموالى فى عصر بنى أمية » فى حاجة الى مراجعة واستدراك ، لانه جرى فيها على اسلوب الاصول العربية القديمة دون تمحيص كثير

على أن الموالى فى أيام بنى أمية كانوا على الاجمال أعداء الدولة ، يقومون عليها مع القائمين انتقاما لما كانوا يقاسونه من الاحتقار والجور من عصبية العرب على العجم ، فازداد الأمويون تحقيرا لهم . فبعد أن قال النبى : « مولى القوم منهم » منعوا زواجهم بالعربيات ، كما كان الفرس يمنعون زواج العرب ببناتهم قبل الاسلام (١) فاذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ أمره الى الوالى طلقها منه ، كما حدث لأعراب بنى سليم فى الروحاء ، فانهم جاءوا الروحاء فخطب اليهم بعض موالىها احدى بناتهم فزوجوه ، فوشى بعضهم الى والى المدينة بذلك ، ففرق الوالى بين الزوجين وضرب المولى مائتى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال محمد بن بشير الخارجى فى ذلك بعد مدح عمل الوالى واسمه أبو الوليد :

حمى حدبا لحوم بنات قوم	وهم تحت التراب أبو الوليد
وفى المثنين للمولى نكال	وفى سلب الحواجب والحدود
اذا كافأتهم بنات كسرى	فهل يجد الموالى من مزيد ؟
فأى الحق أنصف للموالى	من اصهار العبيد الى العبيد ؟ (٢)

وكثيرا ما كانوا يفعلون مثل ذلك بالموالى ، ولو كانوا من أهل المنزلة الرفيعة أو أهل العلم والتقوى ، فان عبد الله بن عون من كرام التابعين ولكنه كان مولى ، فتزوج عربية فضربه بلال بن أبى بردة بالسياط (٣)

على أن ذلك المنع كان شائعا قبل الاسلام ، وظل العرب يستنكفون منه رغم ما كان من نص الحديث المذكور وغيره . فسلمان الفارسى نصر المسلمين فى حروبهم من أيام النبى ، وله فضل كبير فى الاسلام ، فخطب الى عمر بن الخطاب ابنته فوعده بها لأنه لم ير فى زواجه بها بأسا ، أما ابنه عبد الله فلما بلغه ذلك غضب وشكاه الى عمرو بن العاص فقال له : « هنيئا لك يا أبا عبد الله ، ان أمير المؤمنين يتواضع لله عز وجل فى تزويجك بابنته » فغضب سلمان وقال : « لا والله لا تزوجت اليه أبدا » (٤)

فتزويج المولى بالعربية بالغ الأمويون فى تقبيحه تعصبا للعرب على سواهم ، وهو عندهم اقبح من زواج العربى بغير العربية . ولكن ذلك لم يكن محرما فى الدين ولا اعتبره أهل التقوى ، فعلى بن الحسين بن على المعروف بزین العابدين - وهو أحد الأئمة الاثنى عشر ومن سادات التابعين - كانت أمه سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس ، فلما توفى أبوه زوجها

(١) المسعودى ١٩٦ ج ١ (٢) الاغانى ١٥٠ ج ١٤
(٣) المعارف ١٦٧ (٤) العقد الفريد ١٢٢ ج ٣

بشريد مولى ابيه واعتق جارية له وتزوجها ، فكتب اليه عبد الملك بن مروان يعيره بذلك . فكتب اليه زين العابدين : « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ، وقد اعتق رسول الله صفية بنت حبي بن اخطب وتزوجها ، واعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش »

فلاسلام يرفع منزلة المولى ، واما الامويون فراوا تحقيره باعتبار انه غير عربى ، وشاع ذلك في ايامهم واصبح الناس يعيرون بمصاهرة الموالى . ومن اشعارهم في رجل من بنى عبد القيس بالبحرين زوج ابنته من احد الموالى قول ابي بجير يُونب آل عبد القيس لتزويجهم الموالى ومنهم الزارع والتاجر قال :

امن قلة صرتم الى ان قبلتم واصهب رومى واسود فاحم
شكولهم شتى وكل نسيبكم متى قال انى منكم فمصدق
اكلهم وافى النساء جدوده وكلهم قد كان فى اولية
على علمكم ان سوف ينكح فيكم فهلا اتيتم عفة وتكرما
تعيبون امرا ظاهرا فى بناتكم متى شاء منكم مفرم كان حده
وحصن بن بدر او زرارة دارم فقدصرت لادري وان كنت ناسيا
وعلى رجال الترك من آل مذحج وعلى رجال العجم من آل عالج
زعمتم بان الهند اولاد خندف وديلم من نسل ابن ضبة باسل
بنو الاصفر الاملاك اكرم منكم اطمع فى صهرى دعيا مجاهرا
ويشتم لوما عرضه وعشيرته

دعارة زراع واخر تاجر ؟
وابيض جعد من سراة الاحامر ؟
لقد جئتم فى الناس احدى المناكر
وان كان زنجيا غليظ المشافر
وكلهم اوفى بصدق العاذر
له نسبة معروفة فى العشائر
فجدعا ورغما للأنوف الصواغر
وهلا وجلتم من مقالة شاعر ؟
وفخركم قد جاز كل مفاخر
عمارة عيس خير تلك العمائر
وزبان زبان الرئيس بن جابر
لعل تجارا من هلال بن عامر
وعلى تميما عصابة من يحامر
وعلى البوادي بدلت بالحواضر
وبينكم قربى وبين البرابر
وبرجان من اولاد عمرو بن عامر
واولى بقربان ملوك الاكاسر
ولم تر شرا من دعى مجاهر ؟
ويمدح جهلا طاهرا وابن طاهر (١)

وغرس هذا الاعتقاد فى اذهان الناس حتى ان الموالى انفسهم كانوا يستنكفون من تزويج المولى بالعربية . ذكروا ان ابنا لنصيب المغنى الشهرى وهو مولى - احب بنت مولاة وكان مولاة قد مات ، فخطبها من اخيه فاجاب

(١) العقد الفريد ٢٢٢ ج ٢

الى طلبه ، فعرف نصيب بذلك فجمع وجوه الحى فلما حضروا أقبل نصيب الى أخى مولاه وقال له : « أزوجت ابنى هذا من ابنة أخيك ؟ » قال : « نعم » ، فقال نصيب لعبيد له سود : « خذوا برجل ابنى هذا فجروه فاضربوه ضربا مبرحا » ففعلوا ، ثم قال لأخى مولاه : « لولا أنى أكره أذاك لألحقتك به » . ثم نظر الى شاب من أشرف الحى فزوجه الفتاة ، وأنفق على العقد من جيبه (١)

ومع ذلك فالمولى لم يكن يخطب امرأة لنفسه ولا يزوج ابنته لرجل ما لم يستشر مولاه ، فإذا أحب رجل أن يخطب فتاة من بنات الموالى لا يذهب الى أبيها ولا الى أخيها وإنما يخطبها من موالىها ، فان رضى مولاهها زوجت والا فلا . وان زوجها الأب أو الأخ بغير رأى موالىه فسخ النكاح ، وان كان قد دخل بها عد ذلك سفاحا (٢)

وجملة القول ان تعصب بنى أمية للعرب جرهم الى تحقير غير العرب وخصوصا الموالى ، فنقم هؤلاء عليهم وكانوا أكبر المساعدين فى اخراج الدولة من أيديهم

أهل الذمة وأحكامهم فى عصر الامويين

عهد أهل الذمة فى أول الاسلام

الذمة فى اللغة العهد والامان والضمان ، وأهل الذمة هم المستوطنون فى بلاد الاسلام من غير المسلمين . قيل لهم ذلك لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، وأكثرهم من النصارى واليهود ، وقد دعاهم القرآن « أهل الكتاب » نسبة الى الكتاب المقدس التوراة والانجيل ، وقد أثنى عليهم وأوصى بهم خيرا(*) . وفى الحديث النبوى أقوال كثيرة

(١) الاغانى ١٣٦ ج ١ (٢) العقد الفريد ٧٣ ج ٢

(*) يتجه كثير من آيات القرآن الكريم الى التقريب بين المسلمين والنصارى كقوله تعالى : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى » (المائدة ٨٢) وقد كان موقف النصارى من الاسلام على عهد الرسول موقف حياد ، بل تأييد فى بعض الاحيان ، ومال نصارى جزيرة العرب الى الدخول فى الاسلام وانتهى أمرهم بالدخول فيه جميعا . أما اليهود فكان له منهم موقف آخر : بدأوا بعداء الاسلام والانضمام الى قريش طوال الفترة المكية ، فلما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة بدأوا يصانعونه ، وأراد الرسول ان يطمئنهم فعقد معهم الكتاب المشهور الذى أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم ومصالحهم ، ولكنهم بدأوا يتغيرون عليه ، وقد عرف انهم يدبرون عليه ويؤازرون أعداءه ويصانعونه على دخن ، ولكنه تركهم أملا فى تغيير قلوبهم ودخولهم فى الاسلام . فلما كانت غزوة الخندق انقلبوا على المسلمين وآزروا أعداءهم ملابية ، فلم يكد الاحزاب ينصرفون حتى أعلن عليهم الحرب وبدأ باجلائهم عن المدينة . وموقف القرآن الكريم منهم خلال الفترة المدنية على العموم موقف عداء صريح ، قال تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » (البقرة ١٢٠) ، وقال : « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » (المائدة ٦٤) وقال : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » (المائدة ٨٢) . ولكن الشرع ساوى بينهم وبين النصارى فى المعاملة واعتبرهم جميعا أهل كتاب ، وأضفت عليهم الدولة الاسلامية حمايتها وعاشوا فى ظلها فى امان . فبينما كانت أوروبا تضطهدهم كان لهم فى العالم الاسلامى مكانة وثروة ، وكان اليهود يهاجرون من نواحي أوروبا الى بلاد الاسلام هربا من الاضطهاد هناك ، وخاصة الى الاندلس حيث كانوا ينعمون بكل طمأنينة . ولولا ذلك لباد اليهود من الارض ، ومع ذلك ، فلم تكد أحوالهم تتحسن فى العصر الحديث حتى انقلبوا على المسلمين وأعلنوا عليهم حربا شعواء بلغت ذروتها فى مأساة فلسطين .

بمحاسنة أهل الذمة ، وخصوصا قبط مصر ، فقد رووا عن النبي (صلعم) انه قال : « اذا افتتحتهم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا ، فان لهم ذمة ورحما » اشارة الى أن أم اسماعيل أبي العرب منهم ، وقال : « الله الله في أهل الذمة ، أهل المدرة السوداء ، السحم الجعاد ، فان لهم نسبا وصهرا »

وكان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جيشا للفتح اوصوا قوادهم بأهل الذمة خيرا ، ولا سيما النصارى وربهانهم . واذا جاءهم أهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية ، في مقابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤوسهم . ويختلف مقدار الجزية ونوعها باختلاف الاحوال ، وعلى مقتضى التراضى بين المسلمين وأهل الكتاب ، ولكل صلح شروط تختلف باختلاف البلاد ، ولكنها في كل حال تقضى على المسلمين بحماية أهل الذمة والدفاع عنهم . فاذا امتنعوا عن أداء الجزية امتنع المسلمون عن حمايتهم ، واذا عرض للمسلمين ما يمنع حمايتهم جاز لأهل الذمة الامساك عن الدفع (١)

وفي تاريخ الفتوح عهد كثيرة كتبت لأهل الذمة ، عاهدتهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل أعمالهم ، في مقابل ما يؤدونه من الجزية ، ككتاب النبي (صلعم) الى صاحب أيلة (في العقبة) والى أهل أذرح في أثناء غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة . وهاك كتاب النبي (صلعم) الى صاحب أيلة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمانة من الله ومحمد رسول الله ليحيى ابن رؤبة وأهل أيلة : سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن اخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ولا طريقا يردونه من بر او بحر » (٢)

وهاك كتابه الى أهل أذرح وأهل مقنا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى بنى حبيبة وأهل مقنا : سلم انتم ، فانه انزل على انكم راجعون الى قريبتكم ، فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون ، ولكم ذمة الله وذمة رسوله ، وان رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به . لا شريك لكم في قريبتكم الا رسول الله أو رسول رسول الله ، وانه لا ظلم عليكم ولا عدوان ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيركم مما يجير منه نفسه ، فان لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة ، الا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله ، وان

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب (٢) ابن هشام ٤٠ ج ٣

عليكم بعد ذلك ربع ما اخرجت نخيلكم وربع ما صادت عنكم وربع ما اغتزلت نساؤكم ، وانكم قد ثريتم بعد ذلك ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة ، فان سمعتم واطعتم فعلى رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ، ومن ائتمر في بنى حبيبة واهل مقنا من المسلمين خيرا فهو خير له ، ومن اطلعهم بشر فهو شر له ، وليس عليكم امير الا من انفسكم او اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكتب على بن ابي طالب في السنة التاسعة « (١) » (*)

واقتمدى بالنبي (صلعم) قواده في أثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس ، وكتبوا العهود لأهل الذمة على نحو ما تقدم في مقابل الجزية - منها عهد خالد بن الوليد الذي كتبه لأهل الشام ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد اهل دمشق : اذا دخلها أعطاهم امانا على انفسهم واموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يهدم ، ولا يسكن شئ من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم الا بخير الا اذا أعطوا الجزية » (٢)

واليك صورة عهد ابي عبيدة الى اهل بعلبك :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب امان لفلان بن فلان واهل بعلبك ، رومها وفرسها وعربها ، على انفسهم واموالهم وكنائسهم ودورهم ، واهل المدينة وخارجها وعلى ارحائهم ، وللروم ان يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ، ولا ينزلوا قرية عامرة ، فان مضى شهر ربيع وجمادى الاولى ساروا الى حيث شاءوا ، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا ، ولتجارهم ان يسافروا الى حيث ارادوا من البلاد التي صالحنا عليها ، وعلى من اقام منهم الجزية والحراج . شهد الله وكفى بالله شهيدا » (٣)

وقس عليه عهود سائر الفاتحين ، مثل عمرو بن العاص وسعد بن ابي وقاص وغيرهما ، في مصر والعراق وفلسطين وفارس وافريقية والاندلس وغيرها ، على انهم كانوا يشترطون في الجزية ان يؤديها اهل الذمة عن يد وهم صاغرون (**)

اما شروط الصلح فكانت تختلف شدة ورفقا باختلاف البلاد والاحوال

(١) فتوح البلدان للبلاذري ٦٠

(*) في النسخة التي نراجع عليها : « سنة تسع »

(٢) البلاذري ١٢١ (٣) البلاذري ١٣٠

(**) المراد بعبارة « عن يد » أي يعطون الجزية بأنفسهم ولا يرسلونها ، أما « صاغرون » فمعناها « وهم على الطاعة » . وخلاصة الآية كلها انه لا يجوز لهم ان يخرجوا على الطاعة ويعتصموا ببلدهم ثم يرسلوا الجزية

التي فتحت بها ، فصلح مصر يختلف عن صلح الشام ، و صلح الشام غير صلح العراق .

العهد النبوية

وبين أيدي الناس نسخ من عهد يقولون أن النبي (صلعم) كتبه الى النصارى ورهبانهم يسمونه « العهد النبوية » ، والنسخ المذكورة تختلف نصا وتتفق مغزى . ويقولون ان العهد المذكور كتب بخط على بن ابي طالب ، ووضع في مسجد النبي في السنة الثانية للهجرة ، وحملت منه نسخ الى الاديار ، ومن ذلك نسخة كانت محفوظة في دير طورسينا ، فنقلها السلطان سليم الفاتح العثماني الى الاستانة في اوائل القرن السادس عشر للميلاد ، بعد أن عرضها على مجلس شرعى ، فنقلوها الى اللغة التركية ، وأبقوا النسخة التركية في الدير وصورة الاصل العربي مع عهد برعاية حقوقهم الواردة في نص ذلك العهد ، وحملوا النسخة العربية الاصلية الى الاستانة (١) - واليك نص العهد النبوية نقلا عن كتاب « منشآت سلاطين » لأفريدون بك بعد البسملة : (٢)

« هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله الى كافة الناس اجمعين ، رسوله مبشرا ونذيرا ومؤتمنا على وديعة الله في خلقه ، لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ، كتبه لأهل ملة النصارى ولمن تنحل دين النصرانية ، من مشارق الارض ومفاربها قريبا وبعيدها فصيحها وعجمها معروفها ومجهولها ، جعل لهم عهدا فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه الى غيره وتعدى ما أمره ، كان لعهد الله ناكثا ولميثاقه ناقضا وبدينه مستهزئا وللعنته مستوجبا ، سلطانا كان أم غيره من المسلمين - وان احتمى راهب أو سائح في جبل أو واد أو مفارة أو عمران أو سهل أو رمل أو بيعة ، فأنا أكون من ورائهم أذب عنهم من كل غيرة لهم بنفسى وأعوانى واهلى وملتى واتباعى ، لأنهم رعيتى وأهل ذمتى وأنا أعزل عنهم الاذى فى المؤمن التى يحمل أهل العهد من القيام بالخراج (*) الا ما طابت له نفوسهم ، وليس عليهم جبر ولا اكراه على شىء من ذلك ، ولا يغير اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانته ولا حبس من صومعته ولا سائح من سياحته ، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم ، ولا يدخل شىء من مال كنائسهم فى بناء مساجد المسلمين ولا فى بناء منازلهم ، فمن فعل شيئا من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد رسوله . ولا يحمل على الرهبان والاساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة ، وأنا أحفظ ذمتهم اينما كانوا من بر أو بحر فى

(١) الهلالان ١٥ و ١٧ من السنة السابعة (٢) قاموس الادارة والقضاء (مادة بطركخانة)

(*) نظن أن الاصوب هنا : من بعد القيام بالخراج

المشرق أو المغرب والجنوب والشمال ، وهم في ذمتى وميثاقى وأمانى من كل مكروه ، وكذلك من ينفرد بالعبادة في الجبال والمواضع المباركة لا يلزمهم مما يزرعون لا خراج ولا عشر ، ولا يشاطرون لكونه برسم أفواههم ، ولا يعاونون عند ادراك الغلة ، ولا يلزمون بخروج في حرب وقيام بجبرية ، وإلا من أصحاب الخراج وذوى الاموال والعقارات والتجارات مما هو أكثر من اثنى عشر درهما بالجملة في كل عام ، ولا يكلف أحد منهم شططا ولا يجادلون الا بالتى هى احسن ، ويحفظونهم تحت جناح الرحمة ، يكف عنهم اذية المكروه حيثما كانوا وحيثما حلوا - وان صارت النصرانية عند المسلمين فعليها برضاها ويمكنها من الصلاة فى بيعها ، ولا يحال بينها وبين هوى دينها ، ومن خان عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله ، ويعاونون على مرمة بيعهم ومواضعهم ، وتكون تلك مقبولة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد ، ولا يلزم أحد منهم بنقل سلاح بل المسلمون يذبون عنهم ، ولا يخالف هذا العهد أبدا الى حين تقوم الساعة وتنقضى الدنيا « اهـ

والغالب فى اعتقادنا أن النبى (صلعم) اذا كان قد أعطى عهدا للنصارى والرهبان عموما فهو غير هذا العهد ، أو لعله كان مختصرا وطولوه ، أو تنوسى وضاع أصله فكتبوه من عندهم ، أو أن النصارى وضعوا هذا العهد من عند انفسهم لغرض سياسى ، إذ لم يذكر خبر هذا العهد أحد من مؤرخى الفتوح أو غيرهم من كتاب المسلمين فى الأزمنة الاولى ، فضلا عما فى عبارته وألفاظه مما لم يكن معروفا فى صدر الاسلام وخصوصا فى السنة الثانية للهجرة

عهد عمر

ويذكرون أيضا عهدا يعرف بعهد عمر بن الخطاب لأهل الشام ، أشار إليه غير واحد من مؤرخى المسلمين ، وقد أورده بعضهم بنصه منهم أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى المالكى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ ، أورده فى كتاب « سراج الملوك » نقلا عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري المتوفى سنة ٧٨ ، واليك صورة العهد المذكور برواية ابن غنم قال :

« كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام : (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة (كذا) انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لأنفسنا وذراريها وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على انفسنا الا نحدث فى مدائننا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها فى خطط المسلمين فى ليل ولا نهار . وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم . ولا تؤوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوسا ، ولا نكتم غشا للمسلمين ، ولا

نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ، ولا ندعو اليه أحدا ، وإلا نمنع أحدا من ذوى قرابتنا الدخول في الاسلام ان أراد ، وان نوقر المسلمين وتقوم لهم من مجالسنا اذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قنسوة ولا عمامة ، ولا نعلين ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتنى بكناهم ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر . وان نجز مقادم رؤوسنا ونلزم زينا حيثما كنا ، وان نشد الزناير على اوساطنا ولا نظهر صلباننا وكتبتنا في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا الا ضربا خفيفا ، ولا نرفع اصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعائنا ولا باعوثنا ولا نرفع اصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع الى منازلهم) فلما أتيت عمر رضى الله عنه بالكتاب زاد فيه (ولانضرب أحدا من المسلمين ، شرطنا ذلك على انفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الامان، فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمننا على انفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق) فكتب اليه عمر (أمض ما سألوه وألحق فيه حرفين اشترطهما عليهم مع ما شرطوه على انفسهم : ان لا يشتروا شيئا من سبايا المسلمين ، ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده» اهـ (١) (*)

ويلحق بالعهد المذكور احكام تتعلق بالكنائس وضعها عمر أيضا ، وذلك انه أمر فهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ، ومنع من ان تحدث كنيسة بعد الاسلام ، وأمر أن لا تظهر عليه خارجه من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه (٢)

وترى في نص هذا العهد ضغطا على النصارى وتصغيرا لهم ، خلافا لما جاء في سائر عهود الامان او كتب الصلح في صدر الاسلام ، وخلافا لما هو معروف من عدل عمر بن الخطاب ورفقه بأهل الذمة ، كما يستدل من سيرة حياته فانها تدل على صدق لهجته في الفكر والقول والعمل ، فكان اذا اساء مسلم الى مسيحي اقتص له منه ولو كان المسلم من كبار الصحابة ، كما اقتص لذلك القبطى من عمرو بن العاص وابنه وقال لعمر : «يا عمرو مذكم

(١) سراج الملوك ٢٨٣

(*) ظاهر ان هذا النص موضوع ، وضع بعد ايام عمر بن الخطاب بزمن طويل ، وقد اثبت نفر من المستشرقين ذلك . وابسط دلائل وضعه انه لم يروه الا أبو بكر الطرطوشى في «السراج» ، والطرطوشى من أهل القرن السادس الهجرى ومن طرطوشة بشمال شرقى الاندلس ، وهو يسنده الى عبد الرحمن بن غنم وهو من أهل القرن الهجرى الاول ، وهو الذى فتح أقصى شمالى الشام وأرمينية ، وما بين الطرطوشى وابن غنم كثير في الزمان والمكان

(٢) سراج الملوك ٢٨٦

تعبدتهم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ (١) ،
فنرى لأول وهلة تناقضا بين هذه المناقب ونص هذا العهد ، فيتبادر
الى الذهن أنه موضوع بعد عصر عمر بأزمان ، كما قلنا عن نص العهدة
النبوية ، ولكن حاله يختلف عن حالها بما يرجح صحته . فلننظر أولا في صحة
نسبته الى عمر ، ثم في سبب التناقض الظاهر بينه وبين مناقبه

نسبة هذا العهد الى عمر

الارجح في اعتقادنا أن عمر كتب عهدا لنصارى الشام ، ان لم يكن هذا هو
بنصه فهو بمعناه على الاقل ، وسبب هذا الترجيح :
١ - أن العهد المذكور وارد في كتب المسلمين بنصه الاصلى بطريق الاسناد ،
فالطروشى وان كان من أهل القرن السادس للهجرة فانه أورد نص العهد
بطريق الاسناد الى الراوى الاصلى ، على عادة المؤرخين المحققين في أوائل
الاسلام ، مما يدل على أنه نقله من كتاب قديم

٢ - ان « سراج الملوك » الذى أورد نص هذا العهد هو من كتب الادب
والسياسة المهمة ، وليس من كتب الفكاهة ، ومؤلفه من أكبر علماء الاندلس ،
صحاب ابا الوليد الباجى وأخذ عنه مسائل الخلاف وأجاز له ، وقرأ الفرائض
والحساب والادب ، وجاء بغداد ومصر وتفقه على أبى بكر الشاشى وعلى أبى
احمد الجرجانى ، وأتى الشام وسكنها ودرس بها وكان اماما فقيها عالما
زاهدا ورعا . وكان مع ذلك متعصبا على النصارى يرى تحقيرهم ، واتفق
انه دخل على الافضل شاهنشاه ابن امير الجيوش بمصر وبجانب الافضل
رجل نصرانى فوعظ الافضل حتى بكى ثم أنشد :

يا ذا الذى طاعته قربة وحقه مفترض واجب
ان الذى شرفت من اجله يزعم هذا أنه كاذب

وأشار الى النصرانى فأقامه الفضل من موضعه (٢) ولعل تعصبه هذا حمله
على اثبات هذا العهد فى كتابه ، مع رغبة أكثر الذين سبقوه فى اغفاله لما
توهموا فيه من المغايرة لمناقب الخلفاء الراشدين . ولا يقال ان الطروشى
وضع هذا العهد من عند نفسه ، لان من كان فى منزلته من الزهد والتقوى
ينزه نفسه عن الكذب

٣ - ان أكثر مواد هذا العهد واردة فى كتب الفقه من أحكام أهل الذمة ،
كما وردت فى هذا العهد بمعناها الحرفى تقريبا (٣) وأكثر هذه الاحكام كتب
قبل زمن الطروشى . ناهيك بما جاء من ذلك فى كتب السياسة والادارة ،

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب (٢) ابن خلكان ٤٧٩ ج ١

(٣) الهداية ٥٧٤

وبعضها أشار الى هذا العهد اشارة صريحة وأورد بعض نصه . فقد جاء في كتاب الاحكام السلطانية للماوردي المتوفى سنة ۴۵۰ هـ (اي قبل الطرطوشي بخمس وسبعين سنة) بباب الجزية والحراج قوله : « واذا صلحوا - النصارى - على ضيافة من مر بهم من المسلمين قدرت عليهم ثلاثة ايام لا يزدون عليها ، كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ، ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة ، وتبيت دوابهم من غير شعير ، وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن - الى ان قال - ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان : مستحق ومستحب ، أما المستحق فسته شروط :

- ۱ - أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له
- ۲ - أن لا يذكروا رسول الله «صلعم» بتكذيب له ولا ازدراء
- ۳ - أن لا يذكروا دين الاسلام بدم له ولا قدح فيه
- ۴ - أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح
- ۵ - أن لا يفتنوا مسلما عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دمه
- ۶ - أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يؤووا أغنياءهم

فهذه الستة الحقوق ملتزمة فتلزم بغير شرط ، وانما تشترط اشعارا لهم وتأكيذا لتغليظ العهد عليهم ، ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضا لعهدهم وأما المستحب فسته أشياء :

- ۱ - تغيير هيئاتهم بلبس الفيار وشد الزنار
- ۲ - أن لا يعلوا على المسلمين في الابنية
- ۳ - أن لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم
- ۴ - أن لا يجاهروهم بشرب الخمر ولا باظهار صلبانهم
- ۵ - أن يخفوا دفن موتاهم
- ۶ - أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقا وهجانا الخ (۱)

فقول الماوردي هذا يكاد يكون نص عهد عمر حرفيا بعد الترتيب والتبويب

فالعهد المذكور كان معروفا قبل كتاب سراج الملوك . ويؤيد ذلك ان ابن الاثير أشار اليه اشارة تدل على اعترافه بفحواه وينسبه الى عمر ، كقوله في حوادث سنة ۴۸۴ هـ : « وأخرج توقيع الخليفة بالزام اهل الذمة بالفيار ولبس ماشرطه عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » (۲)

(۱) الماوردي ۱۳۸ (۲) ابن الاثير ۷۶ ج ۱۰

٤ - ان الخلفاء الاولين في القرون الاولى للاسلام كانوا اذا ارادوا تجديد عهد اهل الذمة ، ولا سيما النصارى ، فرضوا عليهم مثل فحوى هذا العهد من تغيير الزى ونحوه ، مما يدل على اتصال هذا العهد بالقرن الاول ، واقدامهم عمر بن عبد العزيز الخليفة التقى المشهور باقتفائه آثار سميته وجده لامة عمر بن الخطاب ، وهو اول خليفة اموى اراد رد النصارى الى ما شرطه عليهم عمر ، وكانوا قد اغفلوا اكثر شروطه وخصوصا من حيث اللباس وتشبهوا بالمسلمين بلبس العمامة ، فامرهم ان يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام . وقس على ذلك سائر الخلفاء الذين اضطهدوا النصارى ، فانهم كانوا يرجعون الى فحوى عهد عمر كما سترى (*)

عهد عمر ومناقبه

اما ما يظهر من التناقض بين هذا العهد ومناقب عمر ففيه نظر ، ولا بد في بيانه من المقابلة بين مناقب عمر وفحوى ذلك العهد :

مناقب عمر بن الخطاب

أظهر مناقب عمر العدل مع الصراحة وحرية الضمير والشدة ، والتقوى مع الفيرة الشديدة على الاسلام والرغبة في تأييده ونشره ، فقد كان عادلا حتى لا يبالي أن يحكم على ابنه أو على نفسه ، فهو مثال للعدل مجسم لا يزال

(*) تطورت معاملة أهل الذمة مع الزمن تطورا عظيما ، ففي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبمقتضى الكتاب الذى كتبه مع اليهود ، كان هؤلاء الاخرون معتبرين مساوين للمسلمين حلفاء للامة الاسلامية ، وفي العهد الذى كتبه الرسول لاهل نجران ضمن لهم حرية العقيدة في مقابل جزية يؤدونها ، وفي السنة التاسعة للهجرة تقرر ألا يبقى في جزيرة العرب الا المسلمون ، وأصبحت الشروط الخاصة بأهل الذمة جارية على من هم خارج الجزيرة ، وجرى أبو بكر وعمر على سنن الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد نعم النصارى واليهود بكل ما كان ينعم به المسلمون فيما عدا جزية الرعوس ، ولم يشترط عمر عليهم الا عدم بناء كنائس جديدة في أرض المسلمين ، ولم يعرف لهم في عهده أو عهد بني أمية ملابس خاص أو مركب خاص ، بل كان في بلاط الامويين عدد كبير من النصارى يتمتعون بمكانة عظيمة ، منهم الاخطل الشاعر ويوحنا الدمشقى وغيرهما . وقد بدأ الوضع يتغير خلال العصر العباسى ، وكلما اضطرب أمر الدولة زادت القيود الموضوعة على النصارى ، وكلها من تشريع الخلفاء والفقهاء ، دون سند صريح من سنة الرسول والراشدين ، حتى اذا وصلنا الى أيام الماوردى ، في أواخر القرن الخامس الهجرى ، كان التضييق قد بلغ حدا عظيما ، وقد زاد بعد ذلك على أيام السلاجقة والأتراك والمماليك ووضعت عهدود نسبت الى السلف ، ورويت أحاديث موضوعة تتناقض مع تسامح الاسلام ولم يدرس الموضوع أحد من مؤرخى المسلمين المحدثين ، ولكن كثيرا من المستشرقين كتبوا فيه ، أهمهم Tritton في مقالات كتبها في المجلة الشرقية الملكية سنوات ١٩٢٨ و ١٩٢٩ و ١٩٣١ وقد ترجمها الدكتور حسن حبشى ونشرها في كتاب عنوانه : «اهل الذمة في الاسلام» ، وينبغى ان نلاحظ ان تريتون نفسه أصله من رجال الدين ولا يخلو من تعصب على الاسلام وأهله . وقد قلنا ان النص المنسوب الى عمر بن الخطاب موضوع ، ويفلج انه وضع في أوائل القرن الثالث الهجرى ، لاننا لا نجد اشارة اليه قبل ذلك ، ومن الغريب أننا لانجده عند البلاذرى أو الطبرى أو ابن الاثير ، ولهذا نستطيع القطع بأن كل ما فى الاصول من اشارات الى عهد عمر أو معاملة عمر موضوع ولا اساس له .

المسلمون الى اليوم يتمثلون بأحكامه ويحاولون الاقتداء به ، ولم يستطع أحد منهم أن يدرك شأوه . وكانت غيرته على الاسلام لا مثيل لها ، فلا يعمل عملا أو يقول قولا الا وهو ينظر من ورائه الى نشر الاسلام ورفع مناره وجمع كلمة العرب في نصرته . فالعدل يقضى عليه أن ينصف اهل الذمة ويحاسبهم ، ولكن رغبته في نشر الاسلام كانت تظهر من خلال ذلك الانصاف . فقد أطلق حرية الدين في مملكته ، وأبقى اهل الذمة على ما كانوا عليه من أمر دينهم وطقوسهم وقسوسهم وكنائسهم ، ولكنه منعهم من احداث كنائس جديدة لكي تنحصر النصرانية فيتغلب الاسلام عليها ثم يحوها . والعدل قضى عليه أن يحسن الى نصارى العرب مكافأة لنصرتهم المسلمين في العراق ، ففرض عليهم الصدقة بدلا من الجزية ، ولكن رغبته في جمع كلمة العرب تحت لواء الاسلام قضت بالاشتراط عليهم أن لا ينصروا أولادهم (١) فعوى عهد عمر :

وفحوى العهد المذكور يرجع الى اربعة شروط اولية وهى :

١ - ألا يحدث النصارى معبدا

٢ - أن ينزلوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثة أيام

٣ - ألا يؤووا في كنائسهم جاسوسا ولا يكتموا غشا للمسلمين

٤ - ألا يقلدوا المسلمين بشيء من اللباس أو الركوب أو تعلم القرآن أو نقش اسمهم بالعربية على أختامهم

وانه بغير هذه الشروط لا يكون لهم امان على انفسهم وذرايرهم واموالهم فالشرط الاول ينطبق على رغبة عمر في تأييد الاسلام ونشره كما تقدم والشرط الثانى تستلزمه حال المسلمين في بلاد الفتح ، فقد كانوا غرباء بين اهل الذمة ، والعرب اهل ضيافة ولم يكن اهل تلك البلاد يألون تلك العادة ، فجعلها عمر شرطا واجبا عليهم رحمة بالمسلمين في أسفارهم للحرب وغيرها (*)

(١) المعارف ١٩٢ والبلاذرى ١٨٣ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٢

(*) نزول الجنود على اهل البلاد وعيشتهم على نفقتهم تقليد عسكري قديم مجحف بالناس فقد كان جند الرومان مثلا اذا نزلوا بلدا استحلوا دخول بيوته وارغموا اهله على اطعامهم واطعام دوابهم ، وكانوا يسمون ذلك « ضيافة » Hospitalitas ، وكان الجنود ينتهزون هذه الفرصة ويرهبون الاهالى بمطالبهم من الطعام وما اليه . وقد حاول اباطرة الرومان ان يحددوا الضيافة بثلاثة ايام وبأنواع معينة من الطعام فلم يستطيعوا أن يحملوا الجند على ذلك . وعندما غزا الجرمان اراضى الدولة الرومانية استغلوا حق الضيافة وقاسموا الاهل اموالهم واملاكهم على أساس الثلثين للجرماني والثلث للروماني ، وظل ذلك عرفا مقرر للمحاربين في أوروبا طوال العصور الوسطى ، وكان يعرف بحق الايواء droit de gîte أما في المصطلح الاسلامى فيعرف بالنزالة ولم يقرر المسلمون لجنودهم حق النزالة على اهل الراشدين ، بل لم نسمع عنه ايام بنى أمية ، ومن هنا فاننا نستبعد ان يكون هذا العهد كتب في أيام عمر ، ويلاحظ أن تحديد النزالة بثلاثة ايام واعفاء الناس من تقديم اصناف معينة للجنود كالدجاج وما اليه ، واعفاءهم من تقديم شعير للدواب ، كل ذلك كان من صالح اهل البلاد وحماية لهم من الجند ، وقد وضع في زمن متأخر على كل حال .

أما الشرطان الثالث والرابع فلا بد في تطبيقهما على أخلاق عمر من مقدمة صغيرة . . .

نصارى الشام وقيصر الروم

أول ما يلاحظ في هذا العهد أن عمر أخذه على نصارى الشام دون سائر أهل الذمة في الشام ودون نصارى سائر الامصار . فهو لا يسرى على قبط مصر او نبط العراق ، ولا على صابئة حران ولا مجوس فارس ، ولا على اليهود في بلد من البلاد . فلا بد لذلك من سبب متصل بما حواه ذلك العهد من الشدة ، والا فلماذا لم يجعله عاما على سائر بلاد الاسلام ؟ ولماذا لم يدخل فيه اليهود والصابئة وغيرهم من أهل الذمة ؟ وزد على ذلك أنهم ينسبون الى عمر عهدا (١) آخر لأهل الذمة كافة ، وليس فيه ضغط ولا تضيق وانما مرجعه الى التسامح والرعاية والحماية ، ويشبه العهدة النبوية في اكثر نصوصه ، ورأينا فيه مثل رأينا في تلك العهدة : لان عبارته تخالف عبارة صدر الاسلام ، ولم يذكره أحد من كتاب المسلمين القدماء ، ولكنه يوافق روح ذلك العصر بفحواه لمشابهته أكثر عهود الصلح التي كتبت يومئذ وذكرنا بعضها فيما تقدم . فمن المعقول أن يعطى عمر لاهل الذمة عهدا بهذا المعنى ، لانه ينطبق على عدله ورفقه في معاملتهم ، وهو عام لهم يشمل كل طوائفهم

أما العهد الذى نحن بصدده فقد أعطى لنصارى الشام على الخصوص . وكأنه اختصهم بالتضيق . فهو لم يفعل ذلك الا لسبب دعاه اليه . والغالب فى اعتقادنا أنه اشترط هذه الشروط صيانة لبلاد الشام من رجوع الروم اليها بمساعى أهلها النصارى ، اذ يكونون عيوننا للروم على المسلمين ، لما بينهم وبين الروم من الرابطة الدينية ، وهى أقوى الجامعات فى الشرق من اقدم أزمانه الى هذا اليوم . فكل طائفة من الطوائف الشرقية تفضل ان يحكمها حاكم من مذهبها ولو كان ظالما ، على أن تخضع لحاكم من غير دينها ولو كان عادلا . وفى التواريخ شواهد كثيرة تؤيد هذا القول حتى فى عصرنا الحاضر ، مع ما داخل نفوس المشاركة من التسامح الدينى . فان كل طائفة من أهله تفضل أن يحكمها ابن دينها ، لا تبالى بعدله أو ظلمه . النصرانى يفضل حاكما مسيحيا ، والمسلم يفضل حاكما مسلما ، فكيف بتلك العصور والدين مرتبط بالسياسة ؟

ونصارى الشام اذعنوا للجزية ، ودخلوا فى سلطان المسلمين . وظلوا على ما كانوا فيه من حيث الدين وطقوسه ، يقيمون الصلاة فى كنائسهم كما كانوا يقيمونها قبل الاسلام ، يأتيهم القسيس والاساقفة من القسطنطينية أو

(١) قاموس الإدارة والقضاء « مادة بطركخانة » نقلا من منشآت سلاطين

انطاكية ، ولسانهم لسان دولة الروم ومعتقدهم مثل معتقدها . وقد بينا في غير هذا المكان أن الفتح الاسلامي كان في صدر الاسلام احتلالا عسكريا ، ولم يكن المسلمون يتعرضون للمسيحيين في شيء من طقوسهم الدينية ولا احوالهم الشخصية ولا احكامهم القضائية ، وكانوا يعترفون لصاحب القسطنطينية بسيادته في ذلك على نصارى الشام . فاذا حدث ما يمس هذه السيادة احتج ملك الروم على الخليفة ، وخصوصا من حيث الكنائس . وكان الخلفاء يراعون عهودهم في هذا الشأن ، حتى اذا استفحل أمر بنى أمية خرقوا حرمة تلك العهود كما خرقوا سواها مما أقره الراشدون

ذكروا أن الوليد بن عبد الملك سمع صوت ناقوس فقال : « ما هذا ؟ » قيل : « بيعة » فأمر بهدمها وتولى بعض ذلك بيده فتسابق الناس يهدمون فرفع النصارى أمرهم الى قيصر القسطنطينية فكتب الى الوليد : « ان هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك ، فان يكونوا اصابوا فقد اخطأت ، وان تكن أصبت فقد اخطأوا » (۱) ولم يجد اعتراضه نفعا . ولكن ذلك يدل على أن نصارى الشام كانوا في صدر الاسلام تحت حماية الروم ، أو هم يعدون قيصر الروم حاميا لكنائسهم ، كما يعتقدون الآن في بعض دول أوروبا . فضلا عما غرس في قلوبهم من حب دولة الروم بواسطة كهنتهم وتعاليمهم . وهب أنهم كانوا ناقلين على تلك الدولة من بعض الوجوه الدينية ، فأصبحوا بعد دخولهم في سلطنة العرب يفضلون بقاء القديم على قدمه ، وذلك عادى في الامم التي تعودت الرضوخ لسواها ، فانها لا تستقر على حال ولا يهون اخضاعها الا بطريق الدين . ناهيك بما كان يجدده الكهنة والاساقفة من أسباب الميل الى قيصر القسطنطينية ، والفتح يومئذ حديث والقيصر يرجو استرجاع تلك البلاد الى سلطانه ، على أن يستعين على ذلك بأهل مذهبه المقيمين بجوار المسلمين فيتخذهم عيونا له عليهم

وكان بعض نصارى الشام لا يدخرون وسعا في هذا السبيل ، فينقلون أخبار المسلمين الى الروم ، واذا جاء جواسيس الروم آووهم في منازلهم واعانوهم في استطلاع الاخبار . فربما دخل النصراني بين المسلمين وهو في مثل لباسهم ، وقد نقش اسمه بالعربية على خاتمه مثلهم ، وحفظ شيئا من القرآن ليوهم المسلمين أنه منهم . والشام لم يتم فتحها بعد ، وعمر لا يزال يخاف انتفاضها بعدها عن مركز الخلافة . فخوفا من مثل ذلك اشترط على أهلها أن لا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من اللباس أو الركوب وغيره ، وان لا يؤووا احدا من جواسيس الروم ، ولا يكتموا غشا للمسلمين

ولنحو هذا السبب ايضا أوصى عمر أن لا يستعملوا أهل الكتاب ، لانهم أهل رشى ولان بعضهم أولياء بعض . ويقال أن اصل هذا المنع منقول عن النبي في حديث جرى له يوم خروجه الى بدر (۲) على أن هذه الوصية

(۱) المسعودى ۱۱۳ ج ۲ (۲) سراج الملوك ۲۸۴

لم يمكن العمل بها لاضطرار المسلمين الى من يعرف الحساب والكتابة ،
وخصوصا في اول الاسلام اذ كانت الدواوين لا تزال بلغاتها الاصلية
فالارجح عندنا أن عمر كتب عهدا لنصارى الشام (أو استكتبهم عهدا)
ان لم يكن هذا نصه فهو فحواه ، ولا يستبعد وقوع بعض التغيير في نصه
بعد ذلك . ان السبب فيما حواه من الشدة خوفه من نصارى الشام ، لانهم
اقرب نصارى الشرق الى كنيسة القسطنطينية . أما القبط فقد كانوا أعداء
تلك الكنيسة ، وهم الذين واطأوا المسلمين على الروم وسهلوا لهم الفتح .
وانه لم يفعل ذلك للتضييق على النصارى تعصبا للدين او كرها للنصرانية .
ثم أطلق المسلمون هذا العهد على سائر أهل الذمة (*)

(*) ليست لدينا أى اشارة صريحة الى ذلك العهد في أى من مراجعنا الرئيسية ، ولم يقل
مؤرخ بأن عمر سلم بأن يكون ولاء نصارى الشام لقيصر القسطنطينية . بل انه من الثابت ان
دخول المسلمين الشام كان معناه انفصال كنائسه عن كنيسة القسطنطينية . وانما حدث فيما
بعد ، خلال القرن الرابع الهجرى ، عندما تفككت أوصال الدولة العباسية وتقدم البيزنطيون
فاستعادوا أنطاكية لفترة قصيرة ، ودخلوا حلب واخرجوا منها أكثر من مرة ، أن كسبت الكنيسة
البيزنطية بعض الحقوق على نصارى الشام ، وقد سلم لهم بذلك الحمدانيون أصحاب حلب
والوصل بسبب ضعفهم وعجزهم عن حماية رعاياهم . وقد بلغ ذلك التيار ذروته في استيلاء
الصلبيين على الشام ، فقد اجتهد اباطرة الدولة البيزنطية في ان يكون لكنيسة القسطنطينية
اشراف على كنائس الشام ، وقد دام ذلك حتى تم اخراج الصليبيين من الشام على يد صلاح الدين
ومن أتى بعده من الايوبيين والمماليك

أما القول بأن كنيسة القسطنطينية كان لها اشراف على كنائس الشام وضعته بعض الدول
الاوربية أثناء ضعف الدولة العثمانية ، فقد كانت هذه الدول تتنافس في اقتسام أراضي
الامبراطورية العثمانية ، وحرصت كل دولة اوربية على ان يكون لها ولاء النصارى الذين على
مذهب كنيستها ، وسلمت لهم الدولة العثمانية في ضعفها بذلك ، فأصبح لكنيسة القسطنطينية
اشراف على كنائس الروم الارثوذكس ، وهم غالبية نصارى الشام ، واجتهدت فرنسا في تقوية
الموارنة وربطتهم بالكرسى البابوى ، وحرص الانجليز والامريكيون على تقوية البروتستانتية واتباع
كنائسها لكنائس بلادها . واجتهد مستشرقو كل من هذه البلاد في التماس ادلة تاريخية تؤيد
دعوى اشراف كنائس بلادهم على النصارى الذين على مذهبهم ، معتمدين على تصريح كان
سلاطين آل عثمان قد أعطوه للملوك فرنسا يبيح لهم حق رعاية رعايا الدولة الذين على مذهبهم .
وقد وجد أولئك المستشرقون في بعض كتب النصارى التى كتبت في العصر المتأخرة عهدا
موضوعة ومنسوبة الى عمر بن الخطاب أو الى خلفاء بنى العباس ، فاعتمدوا عليها تأييدا لدعوى
بلادهم السياسية ، ولهذا ، فبينما نجد المنصفين من المؤرخين من أمثال فناوزن لايشيرون الى
هذه العهود ، نجد المتعصبين منهم من أمثال هنرى لامنس وليونى كايثانى يتمسكون بها ، مع
عدم وجودها في أى مرجع من المراجع الرئيسية التى نعتمد عليها ، بل ليس لها أثر عند ابن
عساکر ، وهو صاحب أطول تاريخ للشام وأكثره تفصيلا ، وكذلك القلانسى صاحب تاريخ دمشق ،
بل ليس لها أثر في « تاريخ بطاركة الاسكندرية » لساوبرس بن المقفع (نشره زايبولد ثم نشر
جزءا منه الدكتور سوربال عطية)

انظر ، خلاف المراجع العربية المعروفة :

De Goeje, Mémoire sur la conquête de la Syrie. Leyde 1900.

Wellhausen, Das arabische Reich und sein Sturz. Berlin 1902

L. Cahen, Annali dell'Islam, Vol. III.

H. Lammens, Etudes sur le règne du calife Umayyade Moawiya Ier. Beyrouth, 1909

L. Bréhier, L'Eglise et l'Orient au Moyen-Age., 1907

De Vogüé, Les Eglises de Terre-Sainte, Paris 1860.

Gaudefroy-Demombynes. La Syrie à l'époque des Mamlouks. Paris 1923.

H. Lammens, Relations officielles entre la Cour romaine et les Sultans mamlouks
d'Égypte. Dans : Revue de l'Orient Chrétien, 1863.

Testa, Recueil des Traités de la porte Ottomane avec les puissances étrangères.
6 Vol. Paris 1864.

الامويون وأهل الذمة

كذلك كانت أحكام أهل الذمة لما أفضت الخلافة الى بنى أمية ، وكانوا لا يخافون الروم على الشام ، لان مقر خلافتهم فيها وقد احتلوا الشواطىء وتغلبوا على أهلها ، وصاروا يفزون الروم في البحر . عى انهم ضيقوا على أهل الذمة من جهة الجزية في جملة مساعيهم في حشد الاموال لاصطناع الاحزاب والتمتع بأسباب الدنيا ، فزادوا الجزية والخراج وشددوا في تحصيلهما ، وضيقوا على الناس حتى أخذوا الجزية ممن أسلم . واما من بقى على دينه من أهل الكتاب فكانوا يسومونهم سوء العذاب ، ويحتقرونهم لانهم ليسوا عربا ولا مسلمين . ولا غرابة في ذلك بعد ما علمت من احتقار بنى أمية لغير العرب من المسلمين . وكانوا يعدون الناس ثلاث درجات أولها العرب ، ثم الموالي ، ثم أهل الذمة . ويؤيد ذلك رأى معاوية في أهل مصر . قال : « وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف : فثلث ناس ، وثلث يشبه الناس . وثلث لا ناس . فأما الثلث الذين هم ناس فالعرب ، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي ، والثلث الذين هم لاناس فالمسألة » يعنى القبط (۱) (*)

ولما رأى القبط ان الاسلام لا ينجيهم من الجزية أو العنف في تحصيلها عمد بعضهم الى التلبس بثوب الرهبنة ، والرهبان لا جزية عليهم ، فأدبر عمال بنى أمية غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان ، وازدادوا غيظا منها حتى اراد بعضهم اقتضاءها من الاموات فضلا عن الاحياء ، بأن يجعلوا جريد الموتى على أحيائهم (۲) وأمثال هذه الحوادث كثيرة في عهد بنى أمية ، ذكرنا كثيرا منها في الجزء الثانى من هذا الكتاب مع الطرق التى كان يتخذها عمال بنى أمية لابتزاز الاموال من أهل الذمة (**)

(۱) المقرئى ۵۰ ج ۱

(*) روى ذلك الخبير المقرئى في الخطط ، وظاهر ان القول موضوع على لسان معاوية فهو أولا لم يزر مصر حتى يستطيع ان يقول : وجدت أهل مصر ، ومن ابن يتأنى له العر بأهل مصر وطبقاتهم اذا كان لم يعرفها معرفة مباشرة ؟ وثانيا : لم يكن الموالي في مصر الكثرة بحيث يكونون طبقة من طبقات السكان ، فلم يدخل في ولاء العرب من أهل مصر نفر قليل جدا . والموالي القليلون الذين كانوا فيها هم موالي العرب ، وثالثا : ان عبارة « لاناس » ليست عربية فصيحة تصدر عن مثل معاوية ، وقد أخذ الناس بعد أيام معام بمائة وخمسين سنة على ابي نواس استعماله عبارة شبيهة بهذه

(۲) المقرئى ۲۹۵ ج ۱

(**) لم يكن المراد بذلك جباية جزية على الاموات ، بل المراد ان المال المفروض على كل قرية تقرر جملة واحدة اول الامر بدون تفصيل خراج أو جزية ، وقد قام الاقباط بعد ذلك بتقسيمه على أفراد أهل القرية ، وكان العرب يريدون أن يأخذوا هذه المبالغ المقررة كل دون النظر الى ما يحدث من تغيير في وضع بعض الناس كدخولهم الاسلام أو ترهيبهم أو انتقالهم من القرية ، فضلا عن ان يموت منهم . وقد طالب القبط باحتساب هذه التغيرات وحطها بقيمة الخراج فرفض العرب ، حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأمر بوضع الجزية عن اسلم بدأ بعد ذلك حساب الضرائب على أساس الواقع ، ولم يكن من ذلك بد ، خاصة بعد اسلم الكثيرون ولم يعودوا خاضعين للجزية وتغير وضع أراضيهم فأصبحت عشيرة بعد كانت خراجية

فعل الامويون ذلك وأغضوا عن شروط عمر ، حتى اذا أفضت الخلافة الى حفيده ومريده عمر بن عبد العزيز كان من جملة ما قلده فيه انه كتب الى عماله باحياء ذلك العهد كقوله : « وأمروا من كان على غير الاسلام ان يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ، ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام ، ولا تركوا أحدا من الكفار يستخدم أحدا من المسلمين ، ولا تستخدموا أحدا من اهل الذمة » (١) ونهى النصارى عن ضرب النواقيس وقت الاذان (*)

ونظرا لاهتمام بنى أمية بجمع الاموال للاسباب التى قدمناها ، وأهل الذمة أقدر على مساعدتهم فى جمعها من سواهم ، لاقتدارهم فى الحساب والكتابة واعمال الخراج ، استخدموهم فى هذا السبيل رغم ارادتهم ، ولم يكن يهمهم ذلك من وجه دينى لنشر الاسلام أو حصر النصرانية ، ولولا ذلك ما ولوا خالدا القسرى العراقين ، وأمه نصرانية رومية كان يراعى جانبها ويكرم النصارى من أجلها ، فاعتز النصارى فى أيامه . وأراد خالد أمه على الاسلام فلم تسلم ، فابتنى لها بيعة فى ظهر القبلة بالمسجد الجامع فى الكوفة ، فكان المؤذن اذا أراد ان يؤذن ضرب لها بالناقوس (٢) وكان خالد يولى النصارى والمجوس على المسلمين عكس وصية عمر بن عبد العزيز ، ويطلق أيديهم فى الحكومة فيستبدون بالمسلمين . وعمر بن أبى ربيعة الشاعر المشهور كانت أمه نصرانية ماتت والصليب فى عنقها (٣) وكان النصارى فى أيام بنى أمية يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم أحد . وكان الاخطل الشاعر النصرانى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن ، وهو سكران وفى صدره صليب ولا يعترضه أحد ، ولا يستنكفون من ذلك لانهم كانوا يستعينون به فى هجو الانصار (٤)

على أن الخلفاء من بنى أمية كانوا اذا قربوا نصرانيا أو يهوديا طلبوا اليه أن يدخل فى الاسلام ، فلا يمنعه من الرفض مانع ، الا من يغضب الخليفة

(١) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ وابن الاثير ٣١ ج ٥

(*) روى ذلك أيضا المقرئ فى الخططه (٩٨/١) وابو المحاسن بن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة » (٢١٠/١) وساويرس بن المقفع فى « سير الآباء البطارقة » ، ج ٥ ص ٧١ - ٧٢ ، وهذا الاخير يحمل على عمر بن عبد العزيز حملة شديدة بسبب ذلك ويقول انه « كان يفعل خيرا عظيما أمام الناس ويفعل السوء أمام الله » إذ أمر باعفاء الاساقفة والكنائس من الخراج وعمر المدن التى خربت وأبطل الجبايات (الضرائب غير الشرعية) ، فعاش الاقباط فى أمن وهدوء ، ولكنه مالبت أن أرسل كتابا يأمر فيه الاقباط بالتخلى عن أعمالهم فى الدولة ، ماداموا على دينهم ، أما من يريد منهم الاحتفاظ بعمله فايكن على الاسلام . ولهذا سلم الاقباط ما بيدهم من الوظائف والاعمال الى المسلمين . ويقول الكندى : انه فى خلافة عمر بن عبد العزيز « نزعوا موازيت (رئاسة القرى) القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها » (كتاب القضاة ص ٧١) . غير أن الواقع ان هذه الاوامر لم تنفذ ، فاحدى الاوراق البردية المحفوظة فى هيدلبرج وتاريخها سنة ١٧١ هـ فيها اسم مازوت قبطى .

انظر سيدة اسماعيل الكاشفة : « مصر فى فجر الاسلام » (القاهرة ١٩٤٧) ص ٢٠٠ - ٢٠١

(٢) الاغانى ٥٩ ج ١٩ (٣) الاغانى ٣٢ ج ١ (٤) الاغانى ٧٤ و ١٧٨ ج ٧

عليه ولم يكن يحتاج اليه فينتقم منه ، كما اصاب شمعة وكان من رهط
الفرس نصرانيا ، فدخل على بعض خلفاء بنى امية فقسال له : « اسلم
يا شمعة » قال : « لا والله لا اسلم ابدا ، ولا اسلم الا طائعا اذا شئت »
فغضب وأمر فقعطت بضعة من فخذة وشويت بالنار واطعمها . اما الاخل
فان عبد الملك قال له مرة : « الا تسلم فنفرض لك في الفىء ونعطيك عشرة
آلاف ؟ » قال : « كيف بالخمير ؟ » قال : « وما نصنع بها ؟ وان اولها لمر
وآخرها لسكر » فقال : « اما اذا قلت ذلك فان بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها
الا كلعقة من الفرات بالاصبع » فضحك

اما عمال بنى امية فكانوا يضايقون النصارى في استخراج الاموال ، فمن
سهل لهم استخراجها اكرموا . وفي خطط المقریزی فصول في انتقاض القبط
فلترجع هناك (۱)

الخلاصة

وجملة القول ان الدولة الاموية دولة عربية أساس سياستها طلب السلطة
والتغلب ، فاستعان أصحابها على ذلك بالعصبية القرشية واصطناع الاحزاب .
فجرتهم تلك العصبية الى انقسام العرب الى قبائلها كما كانت في الجاهلية
وانقسمت أيضا الى عصبية وطنية . وبالغوا في التعصب للعرب وامتهان
غير العرب من الموالى وأهل الذمة . وأعوزهم اصطناع الاحزاب الى الاستكثار
من الاموال لانفاقها في اجتذاب قلوب الرجال . والاستكثار منها بعثهم على
الظلم في تحصيلها والخروج بذلك عما يقتضيه العدل ، ومدوا ايديهم الى
اموال الصدقة وغيرها ، واستأثروا بالفىء ، ورأوا أعداءهم العلويين يطلبون
الخلافة بالحق ، وسلاحهم الدين والتقوى واذا جادلوهم غلبوهم ، فاستخفوا
بالدين تحقيرا لاهله وعمدوا الى الدهاء والحيلة والاغضاء عن الاريحية ،
وبالغوا في الشدة والعنف واشتهر ذلك عنهم ولم ينكره أحد من المؤرخين
حتى اهلهم من أعقابهم . فأبو الفرج صاحب الاغانى اموى (۲) وأكثر ما يعرف
من مساوىء بنى امية مقتبس من كتابه

والفضل في ثبات دولتهم لثلاثة من خلفائهم اشتهروا بالدهاء والسياسة
والتدبير ، حكم كل منهم نحو عشرين سنة وهم : معاوية بن ابى سفيان (حكم
من سنة ۴۱ - ۶۰ هـ) وعبد الملك بن مروان (من ۶۵ - ۸۶ هـ) وهشام
ابن عبد الملك (من سنة ۱۰۵ - ۱۲۵ هـ) وكان المنصور العباسى لما افضت
الخلافة اليه يتبع هشام في سياسته (۳) واما عمر بن عبد العزيز فقد كا
أحسنهم تدينا ، ولكنه جاء في غير اوانه فلم يطل مقامه . ولولا هؤلاء السواسر

(۱) المقریزی ۷۹ و ۲۰۲ و ۴۹۳ ج ۱ (۲) ابن الاثير ۲۲۹ ج ۸ (۳) المسعودى ۱۲۲ ج

لذهبت الدولة من أيديهم عاجلا ، لما تداول الخلافة بينهم من الخلفاء الضعفاء
 أهل الترف واللهو والقصف . وأولهم يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٦٤ هـ
 فقد كان مغرما بالصيد كثير العناية باقتناء الجوارح والكلاب والقروود والفهود،
 وكان يحب الطرب والمنادمة على الشراب ، فجرى عماله على مثاله وأظهروا
 الشراب ، وفي أيامه ظهر الغناء في مكة والمدينة واستعملت الملاهي ، ولم يكن
 المسلمون يعرفونها من قبل ذلك (١)

ومنهم يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٠٥ هـ ويسمونه خليع بنى أمية ،
 فقد تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وسار في طريق غير طريقه ،
 فشغف بجاريتين اسم احدهما سلامة والاخرى حيابة فقطع معهما زمانه،
 وغنت يوما حيابة :

بين التراقى واللهاة حرارة ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فطرب يزيد ثم قال : « أريد أن أطير » وأهوى ليطير فقالت : « يا أمير
 المؤمنين لنا فيك حاجة » فقال : « والله لأطيرن » فقالت : « على من تدع
 الأمة ؟ » قال : « عليك » وقبل يدها ، فخرج بعض خدمه وهو يقول : « سخنت
 عينك فما أسخفك ! » . وخرج يوما ليتنزه في ناحية الاردن ومعه حيابة ،
 وبينما هما في الشراب رماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت
 وماتت . فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها ، حتى أنتنت وهو يشمها ويقبلها وينظر
 اليها ويبكى ، فكلموه في أمرها حتى أذن بدفنها وعاد الى قصره كئيبا حزينا
 وسمع جارية له تتمثل بعدها :

كفى حزنا بالهائم الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى ، وبقي بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس ، أشار عليه اخوه
 مسلمة بذلك مخافة ان يظهر منه ما يسفه عند الناس (٢) ولم يحكم الا
 أربع سنوات

ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٦ هـ وكان خليعا
 سكيرا همه الصيد وشرب الخمر ، حتى جعل الخمر في برك يفوص فيها
 ويشرب (٣) وأول شيء فعله لما ولى الخلافة انه بعث الى المغنين في المدينة
 ومكة وأشخصهم اليه ، واستقدم أهل المجون والخلاعة ونادمهم ، وبالغ في
 التهتك والمكر ولكنه لم يحكم الا سنة واحدة

على ان العرب اعظموا تهتك بنى أمية من أيام يزيد بن معاوية ، واستغربوا

(١) المسعودى ٦٨ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٥٧ ج ٥ (٣) الاغانى ٩٨ ج ٢

البيعة له ، فكيف بعد الذي شاهدوه من يزيد والوليد وغيرهما ، حتى قال بعض الشعراء يخاطبهم :

ان البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس انفسكم ان الذئاب اذا ما الحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم فثم لا حسرة تفنى ولا جزع

فأين هؤلاء من دهاة بنى أمية الذين ذكرناهم ، ولم يكن فيهم من يمس الخمر أو يتماجن أو يتخالع ؟ حتى هشام بن عبد الملك ، مع انه جاء في أواخر الدولة ، فكان لا يشرب الخمر ولا يسقى احدا في حضرته مسكرا ، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه (١)

فلما انغمس بنو أمية في الترف والقصف ، مع ما كان من تعصبهم على غير العرب واحتقارهم الموالى واساءتهم الى أهل الذمة وسائر أهل القرى ، بما كانوا يسومونهم اياه من نهب غلتهم في أثناء السفر - اذ كان جند المسلمين في أواخر ايام بنى أمية اذا مروا بقرية غصبوا من يمرون بهم أموالهم (٢) - فأصبح الناس يتحدثون بقرب زوال دولتهم ، ولم يمض الا سنوات قليلة حتى ذهبت وقامت الدولة العباسية مقامها (*)

(١) الاغانى ١٦٧ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٤٦ ج ٥

(*) حملت الدولة الاموية من أول الامر اسباب زوالها في صلب تكوينها ، فقد انتزع معاوية بن أبي سفيان الخلافة انتزاعا دون نظر الى رأي عامة المسلمين او ما جرى عليه العرف الى ذلك الحين في تولية الخلفاء ، وكان الرأي العام الاسلامي لا يرى له فيها حقا ، حتى الذين كانوا لا يريدون عليا لم يقولوا بأن معاوية احق بها من غيره ، وكان هو نفسه يشعر انه اغتصب الامر اغتصابا ، ولهذا لجأ الى المصانعة واسكات اصوات المعارضين بالمال حينا وبالقوة حينا آخر ، لا لمجرد أنه امتاز بهذه الصفة غير محددة المعنى ، التي يصفه بها المؤرخون وهي « الحلم » ، بل لانه لم يكن يستطيع الا ان يكون حليما ، فان الناس من حوله كانوا يستكثرون الامر عليه ، ويرون انه اغتصبه ليستمتع بخيراته ، فأقبل يشرك الناس فيما يصل اليه من الاموال ، حتى يشعروا أنه وان كان قد حاز الخلافة الا ان لهم من خيراتها نصيبا ، فمضى يعطى بملء اليدين ، وكان اكرم على خصومه منه على انصاره ، مما أشعر الخصوم بأنهم ، مهما كان الامر ، قد كسبوا من خلافته شيئا . ومادام معاوية لم يستند الى رأي المسلمين أو الى عواطفهم فقد جعل قاعدة خلافته تلك القبائل التي اعانته على النصر ، ولهذا فانه لم يكن خليفة بقدر ما كان شيخا قبيليا ، وكانت سياسته سياسة شيخ قبيلة ، واهدافه أهداف شيخ قبيلة ايضا ، فهو اذا كان قد اقام خلافة من نوع جديد لم يعرفه المسلمون ، وهي الخلافة الملكية ، فانه لم يعرف كيف يضع أسسا لهذه الدولة ، فلا هو نظم جيشها ولا مالياتها ولا اداراتها ، وانما مضى الامر في أيامه على هواه ، وكلما عرضت مشكلة حاول ان يحلها حلا مؤقتا : باعطاء المال او بارسال جيش ، وقد ترك معظم المشاكل دون حل . فلم يكذب يموت حتى تجددت في شكل اشد حدة ، وجرؤ الناس على ابنه وكثرت الثورات ، واضطر يزيد الى اخمادها بوسائل زادت تعقيدا ، فمقتل الحسين مثلا خلق مشكلة اعوض من مشكلة مجرد مطالب بالخلافة ، بل خلق مشكلة الشيعة كاملة

وكان المروانيون أبعد عن سياسة الملك من السفينيين ، فقد كان مروان بن الحكم شيخا قبيليا صرفا لا يعرف الا الحيلة والحرب ، والدول لا تساس بالحيلة والحرب ، ثم جاء ابنه عبد الملك وكان قاسيا عنيفا ، لا يتصف بما اتصف به معاوية ، فمضى يضرب خصومه حتى امتلات القلوب

العصر الفارسي الأول

العصر الفارسي الأول

من خلافة السفاح سنة ١٢٢ هـ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ

دعونا هذا العصر فارسيا مع انه داخل في عصر الدولة العباسية ، لان تلة الدولة على كونها عربية من حيث خلفائها ولغتها وديانتها ، فهي فارسية من

حقدا عليه وعلى بيته ، وكان حقد العرب عليه اكبر من حقد الموالي ، ومات هو ايضا مخد مشاكل عويصة دون حل ، فلا الدولة وضع لها نظام ، ولا المسلمون رضوا عنه ، ولا خرج الامم عن انه اغتصاب قبائل معينة للامر بالقوة والقهر

واذ كان اعتماد بني أمية على عرب الشام ، فان أي انكسار في وحدة هذه القبائل كان معذ ضياع الدولة . وقد كان التنافس بين مضر واليمن قائما من ايام معاوية ، ولكنه لم يظهر صورة خطيرة الا بعد عمر بن عبد العزيز ، واول صورة مريرة نشهدها له كانت في النزاع بين يزيد بن المهلب ويزيد بن عبد الملك ، وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في تعليل هذا النزاع ولكن سببه الحقيقي هو التنافس بين كبار رجال الدولة وامراء البيت الاموي ، فان رج مثل زياد بن أبيه وابنه عبد الله بن زياد والمغيرة بن شعبة والحجاج بن يوسف والمهلب بن أبي سفرة وابنه يزيد كانوا يرون انهم اعمدة الدولة ، وانها قائمة بهم لابامراء البيت الاموي وكان لهم من المكانة والوجاهة والسلطان والمال ما يضاهاى ما للخلفاء انفسهم ، ولهذا فقد كان يتعالون على امراء البيت الاموي ولا يستمعون الى مطالبهم ، على اعتبار ان هؤلاء الامراء يصير منهم الى الخلافة الا من يريد رجال الدولة ، ولهذا فقد كان الامراء موغرى الصدور . هؤلاء الرجال ، لا يكاد احد منهم يتولى الخلافة حتى يعصف بمن كان يرفض مطالبه منهم . ففعل سليمان بن عبد الملك مع موسى بن نصير ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وآل الحجاج وكما فعل هشام بن خالد بن عبد الله القسري . وشيئا فشيئا خلت الدولة من الرجال ، فلا منهم ايام الوليد بن عبد الملك ومروان بن محمد احدا . وبصور لنا ذلك التنافس بين رجال الدولة وامراء بني أمية قصة يحكيها ابن الاثير ، ونستشهد بها هنا ، لا على انها حقيقة على انها رمز ، فقد روى ان يزيد بن المهلب خرج يوما من الحمام في عهد سليمان بن عبد الملك وقد تضحخ بالغالية ، فمر بيزيد بن عبد الملك ، وهو الى جانب عمر بن عبد العزيز ، فزيد : « قبح الله الدنيا ! لوددت ان مثقال الغالية بألف دينار ، فلا ينالها الا كل شريف » فسمع المهلب قوله فقال له : « بل وددت ان الغالية لاتكون الا في جبهة الاسد ، فلا ينالها مثلى » فقال له يزيد : « لئن وليت يوما لاقتلك » فقال له ابن المهلب : « والله لئن وليت الامر وانا حي لا ضربن وجهك بخمسين الف سيف ! »

واذ لم يكن لدولة بني أمية عماد من القانون فلم يكن لها بد من الاستناد الى القوة ، وكان قوتهم في اتحاد عرب الشام حولهم ، فلما اتجهوا الى التفريق بين المضربة والقيسية ضعف العزم وهوى بنيان الدولة ، فكان لا بد ان تسقط

ثم ان اغتصاب بني أمية للامر جعل الناس جميعا أعداء لهم ، فعداء العراق لهم معروف وكذلك كان حالهم مع الحجاز ومصر ، وثار بهم العلويون والخوراج ، واقبل الناس يؤيد الثائرين ، فجعل الامويون يرمون خصومهم بالجيش بعد الجيش ، وقد انتصرت جيوشهم معظم الوقائع ، ولكن كل واقعة منها كانت تستهلك جانباً من حماتهم ، حتى اذا كانت مروان بن محمد كانت الوقائع قد استهلكت حماتهم ، فضغت جيوشهم وسهل على ابي مس الخراساني ان يهزمهم

اما الترف واللهو فليسا بسببين حقيقيين من اسباب زوال الدولة ، وقد كان معظم خلفاء امية بعيدين عن الاسراف في المتاع ، واذا كانت دولة بني أمية قد دامت نحو التسعين سنة فان معاوية بن ابي سفيان وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك وخدمهم حكموا منها ستين وحكم مروان سنتين ، والوليد بن عبد الملك عشرا ، وسليمان اربعا ، وعمر بن عبد الله سنتين ، ومروان بن محمد خمسا ، ومجموع هذه ثلاث وعشرون ، اذا اضيفت الى الستين المجموع ستا وثمانين سنة ، تولى الامر فيها خلفاء بعيدون عن اللهو والترف ، والباقي سنوات هي التي حكم خلالها يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد ، وهما وحدهما اشتهرا بين بني أمية باللهو واللهو

واذا كان الخلفاء الراشدون خلفاء حقا ، فقد كان الامويون ملوكا لاخلفاء ، وبدأ العباس خلفاء ملوكا ثم صاروا ملوكا خلفاء ، ثم اصبح الامر ملوكا وسلطنة وزعامة عسكرية بعد ذلك

حيث سياستها وادارتها ، لان الفرس نصروها وايدوها ، ثم هم نظموا حكومتها واداروا شؤونها ، ومنهم وزراءها وكتابها وحجابها . وقد حملهم على القيام بنصرتها ما علمته من عصبية بنى أمية على غير العرب ، واحتقار الموالي واكثرهم من الفرس ، فكانوا ينصرون كل ناظم على تلك الدولة من الشيعة والخوارج . على أنهم كانوا أكثر رغبة في نصره الشيعة ، لما رأوه في دعوتهم من قوة الحججة يومئذ ، لانهم يدعون الى بيعة صهر النبي أو أبناء بنت النبي . فكان العلويون يثنون دعائيتهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد البعيدة عن مركز الخلافة الاموية ، والفرس يبايعونهم وينصرونهم على أمل التخلص من ظلم بنى أمية

ثم قام بنو العباس لطلب الخلافة ، وفازوا بها على يد أبي مسلم الخراساني ، واستعانوا بانقسام العرب يومئذ ونقمة اليمينية على بنى أمية ، ولم يبق من العرب من ينصر الامويين الا مضر ، فاستعان أبو مسلم باليمينية على الامويين ، حتى فاز بمشروعه . واليك البيان

انتقال الخلافة الى العباسيين

الشيعة العلوية

ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدوا وآل على بن أبي طالب يطالبون بالخلافة ويسعون في ادراكها . وأول من طلبها بعد على ابنه الحسن ، ثم تنازل عنها معاوية سنة ٤١ هـ ، ففضب أشياع العلويين في الكوفة من تنازله وهاجوا - وأمير الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الداهية الشهير ، فشدد في اخماد الثورة وقتل جماعة من أشياع على ، فيهم حجر بن عدى وأصحابه . فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية ، لعل انتخاب الامة يقع على واحد من أبناء على فترجع الخلافة الى أهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه . فلما علموا ببيعته تقموا عليه ، وزادهم نقمة ما علموه من تهتكه وقصفه واشتغاله بالصيد عن أمور الخلافة - ومن قول عبد الله بن هشام السلولى في ذلك :

خشينا الفيظ حتى لو شربنا دماء بنى أمية ما رويننا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الارانب غافليننا (١)

وكان أوجه العلويين يومئذ الحسين بن على ، فلما مات معاوية سنة ٦٠ هـ وتولى ابنه يزيد أبى الحسين أن يبايعه . على أن أكثر الذين بايعوه من أهل التقوى عدوا بيعتهم خرقا لحرمة الدين (٢) . وكان الحسين في المدينة . فلما طلبوا منه أن يبايع يزيد فر الى مكة ، وأكثر شيعته في الكوفة ، فكتبوا اليه وحرصوه على القدوم اليهم لينصروه فأطاعهم ، ولما اقترب من الكوفة قعدوا

(١) المسعودى ٥٠ ج ٢ . (٢) ابن الاثير ٢٥٢ ج ٣

عن نصرته . . وبعث اليه امير الكوفة يومئذ عبد الله بن زياد جندا حاربه ،
فدافع عن نفسه واهله حتى قتل قتلته المشهورة في كربلاء ، يوم عاشوراء من
سنة ٦١ هـ

ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته ، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة
مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ يطالبون بدمه وسموا انفسهم « التوابين » ،
وامير الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد ، فأخرجوه منها وولوا عليهم رجلا
منهم . فتغلب ابن زياد عليه . فنهض المختار بن ابي عبيد الثقفي ، وهو من
جملة الذين طمعوا في السيادة لابتزاز الاموال في اثناء تلك الفوضى واختلال
الاحوال . وكان المختار على الهمة فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعو
الى بيعة محمد بن الحنفية أخى الحسين من أبيه . فتبعه على ذلك
جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » ، وزحف على ابن زياد فهزمه
وقتله وقتل اكثر قتلة الحسين . ولكن محمد بن الحنفية لم يكن
راضيا عن تلك الدعوة ، فبعث الى المختار يتبرأ منه . فحول المختار دعوته
الى عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين ، لان ابيه
الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين في الخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم .
وأقام عبد الله في مكة يدعو الى نفسه . على أن المختار لم يخلص النية في دعواته
لاحد ، لانه انما كان يريد لها لنفسه . فلما علم ابن الزبير بغرضه ، بعث اخاه
مصعبا على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هـ

اما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين الى فرقتين ، احدهما
تقول ان الحق في الخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي ، والاخرى تقول
بتحولها بعد الحسن والحسين الى أخيهما محمد بن الحنفية ، وهى الفرقة
الكيسانية . وأكثرهما ظهورا وتصديا الفرقة الاولى ، فبايعوا بعد الحسين
ابنه عليا المعروف بزین العابدين ، وتسلسلت الخلافة بعده في أعقابه حتى
صار الائمة ١٢ اماما وهم : علي ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد
الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي الرضا ، ومحمد التقي ، وعلي
النقى ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي (✽) . وتفرع من الشيعة العلوية
أيضا فرق آخر ، بايعت غير واحد من أعقاب علي ، كالزيدية نسبة الى زيد
ابن علي بن الحسين ، والاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق ،
وفرق آخر لا محل لذكرها

وكان بنو أمية اذا سمعوا بظهور احد دعاة العلوية بذلوا جهودهم في قتله ،

(✽) اللقب الغالب لمحمد التقي هو محمد الجواد ، ولعلي النقى علي الهادي ، ومحمد المهدي
يعرف بالمهدي المنتظر . وقد اختفى هذا الاخير سنة ٢٦٠ هـ وذهب شيعته الى أنه ارتفع الى
السماء وسيعود ، ولا زالت الشيعة الاثنا عشرية في انتظاره على الرغم من ظهور كثيرين ادعى كل
منهم انه المهدي المنتظر

فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر وصلبوا آخرين ، فأصبح دعاة الشيعة يتسترون خوف الفتك بهم . فلاقى العلويون في أيام بنى أمية ضنكا شديدا ، وكادوا يهلكون جوعا وأصبح هم أحدهم قوت عياله ، حتى تولى خالد القسرى عامل بنى أمية المتوفى سنة ١٢٦ هـ فأعطاهم الاموال ورفق بهم ، فعادوا الى طلب الخلافة (١) وخالد هذا غريب الاخلاق ، فمع كونه من عمال بنى أمية فقد كان ينصر العلويين ويستعمل أهل الذمة كما تقدم

الشيعة العباسية

وكان من جملة المطالبين بالخلافة من أهل البيت بنو العباس عم النبي ، لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والامويون في ابان دولتهم ، وانما كانوا يدعون الى انفسهم سرا . وكان العلويون والعباسيون في أيام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون لانهم من بنى هاشم ، وكلا الرهطين اعداء بنى أمية من قبل الاسلام - والمضطهدون يتقاربون على اى حال

وظل العباسيون يتسترون في دعوتهم ، وهم مقيمون في الحميمة من اعمال البلقاء بالشام ، حتى ضعف شأن بنى أمية فهموا بالنهوض . واتفق في اثناء ذلك أن الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده الى ابنه أبى هاشم ، وكان أبو هاشم هذا يقد على خلفاء بنى أمية من المدينة الى الشام ، فيمر في اثناء الطريق بالحميمة . ففي بعض وفداته على هشام بن عبد الملك ، أنس هشام منه فصاحة وقوة ورياسة ، مع علمه بطمعه في الخلافة ، فدرس اليه في اثناء رجوعه الى المدينة رجلا سمه في لبن . فشر أبو هاشم بالسم وهو في بعض الطريق ، فخرج الى الحميمة ، وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فنزل عنده . ولما أحس بدنو الاجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله ، فأوصى الى محمد المذكور بالخلافة بعده . وكان معه جماعة من شيعته ، سلمهم اليه وأوصاه بهم . فلما مات أبو هاشم ، تهوس محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح ، لأنه اكتسب حزب الكيسانية جميعا ، فأخذ في بث الدعوة سرا . ثم توفي وقد أوصى بالخلافة بعده الى ابنه ابراهيم ، وعرف بالامام

فأخذ ابراهيم الامام في بث دعائه ، وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها أكثر من سائر اهل الامصار ، ولان الشيعة الكيسانية اكثرهم من خراسان والعراق . وقد نصروا العلويين مرارا . فبعث اليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبى هاشم ، وأوصاهم أن يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » أي أهل النبي ، ولم يعين العلويين ولا العباسيين . وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الاموية،

(١) ابن الاثير ١٢٩ ج ٥

فهان عليهم أن يبايعوا لآل محمد ، وهم يحسبون الأمر يكون مشتركا بين العباسيين والعلويين . وتوفق إبراهيم الامام في اثناء ذلك الى ابي مسلم الخراساني القائد العجيب ، فاتم أمرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور

بيعة المنصور للعلويين ونكته

وكان بنو هاشم - العلويون والعباسيون - لما راوا اختلال أمر بني امية ، اجتمعوا بمكة وفيهم اعيان بني هاشم ، علويهم وعباسيهم ، وتداولوا في قرب انحلال دولة الامويين ، وفيمن يخلفهم من أهل البيت . وكان في جملة الحضور أبو العباس المعروف بالسفاح ، وأخوه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس ، وهو أبو جعفر المنصور ، وغيرهما من آل العباس . فأجمع رأيهم على مبايعة أوجه العلويين يومئذ ، وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن علي ، الملقب بالنفس الزكية . فبايعوه لتقدمه فيهم ، ولما علموه له من الفضل عليهم ، وبايعه أبو جعفر المنصور في جملتهم (١) ولعل هذه المبايعة هي التي أسكتت العلويين عن طلب الخلافة ، في اثناء انتشار دعاة العباسيين في طلبها ، كأنهم اتفقوا أن تكون الخلافة مشتركة في أهل البيت . لان العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » ، وليس باسم الامام إبراهيم أو غيره من بني العباس

أما دعاة الشيعة العلوية ، الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة الى العباسيين ، فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين . وفي جملتهم أبو سلمة الخلال المثرى الفارسي الشهير ، وكان يقيم في حمام أعين بضواحي الكوفة ، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين ، وقد بذل ماله وجأه في سبيل نشرها . فلما سمع بانتقال البيعة الى بني العباس ، كظم غضبه وتربص ليرى مايقول الناس . ثم علم ان إبراهيم الامام عين ابا مسلم وأرسله الى خراسان ومعه الوصية المشهورة (من اتهمته فاقتله) وقد اطاعه النقباء فأطاعه أبو سلمة في جملتهم ، وهو يتوقع أن تكون البيعة شورى بين الشيعة (٢) ولما بلغه أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية قتل إبراهيم الامام ، أضمر الرجوع الى الدعوة العلوية (٣) ثم جاءه أخوه الامام ، وفيهم أبو العباس السفاح واخوته وسائر أهل بيته وقد انتقلت البيعة الى ابي العباس المذكور ، فأنزلهم أبو سلمة عنده ورأى نفسه عاجزا عن نقل البيعة ، فسكت فبقيت لآل العباس . وكان أبو مسلم وسائر النقباء والقواد يحاربون عساكر الامويين في خراسان وفارس والعراق ، فلما غلبوهم وملكوا خراسان وما يليها جاءوا العراق وبايعوا ابا العباس ، فسكت العلويون خوفا على انفسهم

(١) ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الاثير ٢٤٣ ج ٥ والنخري ١٤٧

(٢) الفرج بعد السدة ١٢٠ ج ٢ (٣) المسعودي ١٥٠ ج ٢

من ذلك التيار العظيم ، وهم يتوقعون مع ذلك ان تكون الخلافة شورى بين
الرهطين

وعلم العباسيون بما كان يضمه أبو سلمة من نقل الخلافة الى العلويين،
فشكوه الى أبي مسلم سرا . فدرس اليه رجلا قتله بالكوفة غيلة ، وأشاعوا
ان بعض الخوارج قتله ، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا في اخلاصهم ، حتى
تم الامر لهم

أما آل الحسن بن علي ، الذين كانوا قد بايعوا أحدهم محمد بن عبد الله في
المدينة وبايعه معهم سائر بني هاشم ومنهم أبو جعفر المنصور ، فلما علموا
بذهاب دولة بني أمية ومبايعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ جاءوا اليه
في الكوفة يطالبونه ببيعتهم ، فاسترضاهم أبو العباس بالاموال وقطع لهم
القطائع . وكان في جملة القادمين اليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة
فأكرم السفاح وفادته وعرض عليه ما يرضاه من المال وقال له : « احتكم علي »
فقال عبد الله : « بألف ألف درهم ، فاني لم أرها قط . . » ولم يكن هذا المال
موجودا عند السفاح ، فاستقرضه له من رجل صيرفي اسمه ابن أبي مقرن
ودفعه اليه . واتفق - وعبد الله المذكور عند السفاح - ان بعض الناس جاءه
بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قد اغتنتمتها من مروان بن محمد ،
فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر اليها ويبكي ، فسأله عن
السبب فقال : « هذا عند بنات مروان ، وما رأيت بنات عمك مثله قط . . »
فجابه به ، ثم أمر الصيرفي ان يبتاعه منه فابتاعه بثمانين ألف دينار (نحو
مليون درهم) وأمر أبو العباس باكرام عبد الله وانزاله على الرحب والسعة ،
وهو يتوجس مما في ضميره ، فبث عليه العيون فأنس عنده طمعا فزاده عطاء ،
فعاد عبد الله الى المدينة مثقلا بالاموال ففرقها في أهله ، وكانوا أهل فاقة فلما
رأوا تلك الاموال سروا

وأما عبد الله فما زال مضمرا المطالبة بالخلافة لابنه (١) على ماتمت المبايعة
عليه ، والعباسيون يخافون ذلك والسفاح يسترضيه وسائر أهله بالاموال
كما رأيت . فلما توفي السفاح سنة ١٢٦ هـ خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ،
وكان رجلا شديد البطش لا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه . فكان
همه قبل كل شيء ان يتحقق ما في نفس بني الحسن في المدينة، لان لهم في عنقه
بيعة ، فبث عليهم العيون وأراد اختبارهم ، فبعث بعطاء أهل المدينة على
جاري العادة من قبل ، وكتب الى عامله فيها : « أعط الناس في أيديهم ولا
تبعث الى احد بعطائه ، وتفقد بني هاشم ومن تخلف منهم عن المنصور ،
وتحفظ بمحمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن » ففعل العامل ذلك ، فلم

يتخلف عن العطاء الا محمد و ابراهيم المذكوران ، فكتب اليه بذلك ، فتحقق المنصور انهما ينويان القيام عليه ، وقد سكتا في اثناء خلافة اخيه لانه كان يكرمهما ويفدق عليهما والمنصور لا يرى ذلك ، فلما راوا تضيقه عزموا على الخروج ، فبثوا الدعوة في خراسان وغيرها يدعون شيعتهم الى بيعتهم . فلم أبو جعفر بذلك ، فبعث من يقبض على كتبهم في الطريق ، واحتال في استطلاع أسرارهم ، وأراد استقدام ابني عبد الله وكتب اليه يستقدمه بهما ، فأنكر عبد الله أنه يعرف مقرهما ، فأصبح هم المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين ، وخصوصا بنى الحسن وهم يقيمون في المدينة ، فبعث الى عامله فيها أن يقبض عليهم جميعا ، ثم امره أن ينقلهم الى العراق ، فنقلهم وهم مثقلون بالقيود والاغلال في أرجلهم وأعناقهم ، وقد حملهم على محامل بغير وطاء ، ولكن ليس فيهم محمد ولا ابراهيم ابنا عبد الله لاستتارهما فجاءوا بنى الحسن وعدتهم بضعة عشر رجلا ، فأمر المنصور بقتلهم فقتلوا الا بضعة قليلة

أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة فلم يقع في الفخ ، فبعث المنصور الى عامله في المدينة يشدد في طلبه ، فلم ير محمد بدا من القيام . فظهر بالدعوة ، فبايعه أهل المدينة بعد أن استفتوا أمامهم مالك بن أنس ، فأفتاهم بالخروج معه فقالوا : « أن في أعناقنا بيعة لابي جعفر » فقال : « انكم بايعتموه مكرهين . وان بيعة محمد بن عبد الله أصح منها لانها انعقدت قبلها » (١) وكان أبو حنيفة أيضا على هذا الرأي ، يقول بفضل محمد هذا ويحتج الى حقه ، فحفظ لهما المنصور هذا القول فتأدت اليهما المحنة بسبب ذلك . فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هـ أصبح من أكبو المضطهدين لهما ف ضرب مالكا على الفتيا في طلاق المكره ، وحبس أبا حنيفة على القضاء كما هو مشهور

وكان لنكك المنصور بيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم في اذهان العلويين ، لانها جاءتهم بغتة ، وكانوا يظنون أن ذلك لا يصدر من أهل البيت كما صدر من بنى أمية ، فتحسروا على أيام بنى أمية وتمنوا رجوعها - ذكروا عن محمد ابن عبد الله ، في أثناء قيامه على المنصور ، أنه سمع شاعرا يرثي بنى أمية فبكى ، فقال له عمه : « أتبكي على بنى أمية وأنت تريد بنى العباس ماتريدا؟ » فقال له : « يا عم ، لقد كنا نقمنا على بنى أمية مانقمنا ، فما بنو العباس الا أقل خوفا لله منهم ، وان الحجة على بنى العباس اوجب منها عليهم . ولقد كان للقوم اخلاق ومكارم وفواضل ليست لابي جعفر » (٢)

سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم

القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم أن بنى العباس قاموا يدعون الى أنفسهم وهم بين

(١) ابن الاثير ٢٥١ ج ٥ وابن خلدون ٣ ج ٤ (٢) الاغانى ١٠٦ ج ١٠

خطرين عظيمين : الاول ان يحاربوا بنى أمية ويتغلبوا على أحزابهم ، والثانى ان يأمنوا جانب العلويين فى مسابقتهم الى الخلافة . وكانت الحوادث قد علمتهم ان الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط ، كما قامت فى عصر الراشدين وكما أرادها بنو على ، وان العلويين انما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم فى دعوتهم على شرف نسبهم وصدق تدينهم ، وان معاوية لم يغلب الا بالدهاء والحيلة ، وان عبد الملك لم يستطع استبقاءها الا بالفتك وشدة البطش . فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين ، بمبايعة أبى هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن على العباسى كما تقدم ، ثم أفضت بعده الى ابنه ابراهيم الامام ، وتوفق هذا الى أبى مسلم الخراسانى ورأى فيه الشدة والدهاء ، جعله قائدا على نقبائه ودعاته وأوصاه وصية هى محور سياسة العباسيين فى تأييد دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا أهل بيت ، أحفظ وصيتى : أنظر الى هذا الحى من اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم . واتهم ربيعة فى أمرهم . وأما مضر فانهم العدو القريب الدار . واقتل من شككت فيه . وان استطعت ان لاتدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل . وأيما غلام بلغ خمسة أشبار واتهمته فاقتله . . » (١)

فخرج أبو مسلم من عند الامام ابراهيم بهذه الوصية ، وقد عمل بها وعول عليها ، فكان يقتل كل من اتهمه أو شك فيه ، فبلغ عدد الذين قتلهم فى سبيل هذه الدعوة ٦٠٠٠٠ نفس قتلوا صبورا (٢) بدون حرب فى بضع سنين . وفى جملتهم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة ، كأبى سلمة الخلال الذى نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه ، وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال لابى مسلم أمير آل محمد . فحالما استشار السفاح أبا مسلم فى شأنه واتهمه بنقل الخلافة الى العلويين ، أشار أبو مسلم بقتله فقتلوه وقتلوا عماله على الاطراف . وفعل نحو ذلك أيضا بسليمان بن كثير ، وهو من أكبر دعاة الدولة العباسية قبله ، وكان شيخا جليلا لم يدخر وسعا فى نصرة تلك الدعوة . فبعد قتل أبى سلمة بلغ ابا مسلم عنه مثل مابلغه عن أبى سلمة ، فأحضره اليه وقال له : « اتحفظ قول الامام لى : من اتهمته فاقتله ؟ » قال : « نعم » قال : « فانى قد اتهمتك ! » فخاف سليمان وقال : « أناشذك الله . . » قال : « لا تناشدنى » فانت منطو على غش الامام « وامر بضرب عنقه (٣) ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة ، وفيهم الامراء والقواد . قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالعدو ، ومنهم الكرمانى واولاده وكبار رجاله (٤) وغيرهم بشر كثير ، حتى سئم الناس

(١) ابن الاثير ١٦٥ ج ٥
(٢) ابن الاثير ٢٢٧ ج ٢
(٣) ابن الاثير ٢٠٨ ج ٥
(٤) ابن الاثير ١٨٢ ج ٥

فعله وملوا سفك الدماء ، واصبح المسلمون - حتى رجاله - لا يدعى احدهم الى مقابلته الا اوصى وتكفن وتحنط . وثار من ذلك بعض الامراء من شيعة بنى العباس وصاح في رجاله : « ماعلى هذا اتبعنا آل محمد : ان تسفك الدماء وان يعمل بغير الحق . . » فتبعه على رايه اكثر من ٣٠٠٠٠ رجل ، فوجه اليهم ابو مسلم جندا قاتلهم وقتلهم

المنصور والدولة العباسية

فبهذا وامثاله مهد ابو مسلم الخلافة لبنى العباس ، فساعدهم اولا على اخراجها من بنى امية الى اهل البيت ، ولم يكتف ببيعة ابي العباس وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى امية ، ولكنه حرصهم على قتل من بقى من بنى امية بالاغراء او التخويف على السنة الشعراء . ويقال انه هو الذى اوعز الى سديف الشاعر مولى بنى هاشم ان يقول ذلك الشعر فى مجلس السفاح ، وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد آمنه واكرمه وامن سائر بنى امية - فيقال ان سديفا دخل يوما على السفاح وعنده سليمان ابن هشام فأنشد سديف قوله :

لا يفرنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها امويا

فتأثر السفاح ، وأمر بسليمان فقتل . ودخل شاعر آخر فقال شعرا آخر ، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بنى امية ، فقتله وبسط له النطوع على جثثهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا (١) وقيل فى كيفية قتلهم غير ذلك ، وأن الذى قتلهم عبد الله بن على عم السفاح ، وهو مشهور بكرهه لبنى امية وشدة نقمته عليهم ، ولكن لا خلاف فى أنهم قتلوا غدرا سنة ١٣٢ هـ وهم آمنون كما قتل الامراء المماليك بمصر فى اوائل القرن الماضى

والغالب أن ابا مسلم اوعز الى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا فى سبيل دولتهم فأشار الى سديف أن يحرضهم على ذلك بشعره . ولم يقل سديف ذلك حين بنى العباس بل كرها لبنى امية وانتقاما لآل على ، لانه من الشيعة العلوية وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعة . فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك نقم على العباسيين وهجاهم بأشعار بلغ خبرها المنصور ، فكتب الى عامله ان يأخذ سديفا فيدفنه حيا ففعل (٢)

(٢) العقد الفريد ٢٢ ج ٣

(١) الفخرى ١٣٤ والعقد الفريد ٢٧٩ ج ٢

وبعد أن قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الامويين ، عمدوا الى استئصال شأفتهم من سائر البلاد . ولم ينج منهم الا قليلون ، أهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ففر الى المغرب وأسس دولة بنى أمية بالاندلس كما سيأتي . وتولى استئصال شأفة الامويين من بنى العباس عبد الله بن علي ، فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ومثل بجثثهم ، انتقاما لما فعلوه قبلا بالائمة من آل علي ، وخصوصا زيد بن زين العابدين . فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره وهو لم يبل ، فضربه ثمانين سوطا ثم أحرقه (١)

وبعد أن تخلص المنصور من الامويين ، لم يدخر أبو مسلم وسعا في تخليص الدولة من أقربائه آل العباس أنفسهم ، وفي جملتهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره ، وقد طمع في الخلافة فحاربه بأمر المنصور وغلبه ، واستولى على مافي عسكريه من الغنائم والاسلحة . فأراد المنصور أن يوجه همه الى بنى الحسن منافسيه في الخلافة ، فاشتغل خاطره بأبي مسلم وأصبح خائفا منه على سلطانه ، بعد ما بلغ اليه من النفوذ والشهرة والدالة . ولم يكن همه الا قتله ليفرغ للعلويين ، فاتهمه بأنه ينوي اخراج الملك منهم فاستحق القتل عملا بوصية الامام

وكان المنصور قد خاف أبا مسلم وعزم على قتله ، من عهد خلافة أخيه أبي العباس ، ولكن أبا العباس لم يرد الاقدام على ذلك . فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ، ولكنه استخدمه في حرب عمه عبد الله بن علي ، فضرب عدويه أحدهما بالآخر ، فأيهما قتل صاحبه انفرد فيسهل على المنصور قتله . فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن علي ، احتال المنصور في استقدامه اليه من خراسان في حديث طويل ، وأدخله عليه دخول الزائر الأمين ، وقد أكن له أناسا بالاسلح وراء الستر ، فأخذ سيفه منه وحادثه ، وتدرج من العتاب الى التوبيخ ، حتى اذا أزفت الساعة صفق المنصور ، فخرج الكامنون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هـ فأمر به فلقوه بالبساط ، ثم دعا بعض رجال خاصته وشاورهم في قتله - ولم يقل انه قتله - فقال له أحدهم : « ان كنت قد أخذت من رأسه شعرة فاقتله ثم اقتله » فأشار المنصور الى البساط ، فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقق موته قال : « عد هذا اليوم أول يوم من خلافتك . . » (٢)

ولما فرغ المنصور من أبي مسلم ، لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية ، لعلمه انه ركب بقتله خطرا عظيما ، فما عثم أن ثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية ، وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن بن زائدة . فقتل

(١) ابن خلكان ٢٠٥ ج ٢ (٢) المسعودي ١٦٧ ج ٢

الراوندية جميعا ، ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة ، فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة ، ثم عمد الى تخليص الخلافة من آل علي ، فحارب محمد بن عبد الله وقتله . ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها ، منهم عمه عبد الله ، وكان أبو مسلم قد غلبه ولكنه لم يتمكن من قتله ، فاحتال المنصور في استقدامه بأمان بعثه اليه مع ولديه ، فجاء فحبسه عنده . ثم علم سرا أن ابن عمه عيسى بن موسى ينوى الخروج عن طاعته ، وكان واليا على الكوفة ، فتجاهل وبعث اليه وقد دبر أمرا كتبه عن رجال بطانته ، فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاكرام ، ثم أخرج من كان في حضرته من الحاشية واستبقاه وحده ، وأقبل عليه وقال : « يا ابن العم . . انى مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ، ولا أرى سواك مساعدا لى على حمل ثقله ، فهل أنت في موضع ظنى بك ، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكى ؟ » فقال له عيسى : « أنا عبد أمير المؤمنين ، ونفسى طوع أمره ونهيه . . » فقال المنصور : « ان عمى وعمك عبد الله قد فسدت بطانته ، واعتمد على ما بعضه يبيع دمه ، وفى قتله صلاح ملكنا . فخذ اليك واقتله سرا . . » فأطاعه عيسى ، فسلم اليه عمه فمضى به الى الكوفة وأضمر المنصور أن ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلمه الى أعمامه أخوة عبد الله ليقتلوه به ، فيكون قد استراح من الاتهام . أما عيسى فكأنه شك فى نية المنصور ، والناس يومئذ يتهمون بعضه بعضا خوفا من وصية الامام ، فاستشار بعض ذوى مشورته فحذروه من عاقبة ذلك ، فحبس عمه ولم يقتله
 فى بيت جعل أساسه على الملح (١)

وأمثلة ما أتاه المنصور من الدهاء والفتك فى تأسيس دولته كثيرة . وكما يعطى الأمان ثم ينكث ، كما رأيت فعله بعمه عبد الله ، وكما فعل بابن هبيرة عامل بنى أمية على واسط ، لما بويح السفاح وأرسل أخاه المنصور لمحاربتهم فجرت السفراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هبيرة فى أمان بنى العباس فكتب له المنصور أمانا ظل ابن هبيرة أربعين ليلة وهو يشاور فيه العلن حتى تحقق صحته ورضى به ، فبعثه الى أبى جعفر ، فأنفذه أبو جعفر الى بنى العباس فأمره بامضائه . وكان رأى أبى جعفر فى بادىء الامر أن يفى أعطاه ، ولكن أبا مسلم (وكان لا يزال حيا) أشار على السفاح أن يقتله قائلا : « ان الطريق السهل اذا ألقيت فيه الحجارة فسد . لا والله لا يصلح طريق ابن هبيرة . . » فبعد أن جاء ابن هبيرة الى أبى جعفر مستأمنا غدر به وقتله
 لانه اتهمه ، ثم اتهم أبا مسلم وقتله بعد أن أمنه كما رأيت . وشاع ذلك .

(١) المستطرف ٦٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٧ ج ٥ (٢) ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢

الأمان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس . فلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة ، خافه المنصور كما تقدم ، فبعث اليه يعرض عليه الأمان ويعده خيرا ، فأجابه محمد : « أي أمان تعطيني ؟ أمان ابن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله ، أم أمان أبي مسلم ؟ » (١)

وظل المنصور وأبو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما في الدهاء والفتك . على انهم لم يكونوا يبطشون أو يفتكون الا بمن نازعهم على الخلافة ، فهذا يقتلونه على الشك . أما أحكامهم فيما خلا ذلك ففي نهاية العدل والرفق ، كما سيأتي . أما من كان في نفسه مطمع في الخلافة أو ما يتعلق بها فحكمه حكم المجرمين ، فكل من يطلب الخلافة لنفسه أو يسعى فيها لأحد كانت حياته في خطر ، فاذا دعي للمثول بين يدي الخليفة اغتسل وتحنط استعدادا للموت

وكان المنصور أيضا قدوة لعبد الرحمن بن معاوية ، مؤسس دولة بني أمية في الاندلس ، وقد فر من العراق فالشام الى المغرب خوفا من القتل ، فنصره رجاله وخصوصا مولى له اسمه بدر ، سعى في تأييد سلطانه مثل سعى أبي مسلم في الدولة العباسية ، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجنه ثم أقصاه حتى مات ، وفعل نحو ذلك في رؤساء الاحزاب الذين نصره ، وسيأتي الكلام على ذلك

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم في تأييد دولتهم ، حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون الى ذلك اذا أعوزهم الاستدلال به . فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفسانى في نصره أخيه المأمون ، وقد تولى قيادة جنود الخراسانيين وغلب على جند الأمين وكاد يذهب بدولته ، كتب اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلم انه ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه الا السيف ، فانظر لنفسك أو دع . . » (٢) وفي الواقع أن المأمون لما استتب له الأمر في الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبي مسلم ، فأهدى له خادما كان رباة وأمره أن يسمه ففعل (٣)

سياسة الدولة العباسية في معاملة الرعية

الوالي الفرس

قد رأيت ان الدولة العباسية قامت بالفرس وغيرهم من الرعايا ، وفيهم الموالى وأهل الذمة وكانوا ناقلين على دولة بني أمية ، فنصروا أهل البيت انتقاما منها ، والجمهور الأهم منهم الفرس

(١) ابن الاثير ٢٥٤ ج ٥ (٢) المسعودي ٢١٣ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٢٢٧ ج ١

الفرس والعرب قبل الاسلام

الفرس أهل سياسة وسلطان ، وقد انشأوا الدول وساسوا الناس ووضعوا الاحكام من قديم الزمان . وضخمت دولتهم وقويت شوكتهم حتى حاربوا اليونان والرومان ، ونبغ فيهم القواد والعلماء والحكماء ، وترجموا العلم والفلسفة ، وكان لهم شأن كبير في التاريخ القديم ، واشتهر فيهم فضلا عن الأسر المالكة والدهاقين والأساورة بيوتات شريفة ، أشهرها سبعة كان الشرف فيها . وعلى أطلال اصطخر عاصمة الفرس القدماء ، وغيرها من بقايا مدنهم القديمة ، نقوش كتابية ، مثل التي خلفها الفراعنة واليونان والرومان وغيرهم

وكان في مملكة فارس قبائل كثيرة من العرب ، يقيمون على حدودها بين النهرين في العراق والجزيرة ، وكانت لهم دولة عربية تحت رعاية الفرس ، وهم المناذرة في الحيرة . وكثيرا ما كان الفرس يتعلمون لغة العرب وينظمون الشعر العربي ، حتى ملوكهم فانهم لم يكونوا يستنكفون من ذلك - حكى أن بهرام بن يزدجرد بن سابور نشأ بين العرب بالحيرة وتعلم العربية ونظم فيها شعرا (١) وكانوا يستخدمون العرب في دواوينهم ، للكتابة أو الترجمة بينهم وبين من يفد على ملك الفرس من عرب الحجاز أو اليمن أو نجد ، وخصوصا بعد أن دخلت اليمن في حوزتهم على عهد كسرى أنوشروان

وأشهر كتاب العرب في دواوين الفرس آل عدى بن زيد من المضرية ، وكان عدى وأبوه وجده من مهرة الكتاب ، على قلة من يحسن الكتابة من العرب في ذلك العهد ، وكانوا يخدمون الفرس في دواوينهم . فجده حماز بن زيد ابن أيوب كان كاتباً عند النعمان في الحيرة ، وتقرب من الفرس وولد له زيد ، فأوصى به إلى دهقان كان صديقا له وهو من أهل الدولة ، فرباه الدهقان وعلمه الفارسية فنبغ في اللسانين ، فتقدم الدهقان إلى كسرى أن يولييه البريد . ولم يكن ينال هذا المنصب إلا أبناء المرازبة ، فتقدم يزيد في الدولة حتى صار كسرى يستشير في مهامه ، وولد لزيد ابنه عدى وتثقف وتعلم مثل أبناء الأساورة ، وأتقن ألعاب الفرس على الحيل بالصوالة ، فقربه كسرى وجعله كاتباً في ديوانه بالمدائن ، وصار من أصحاب السطوة والكلمة النافذة ، وكسرى يأذن له مع الخاصة ويبعث به في المهمات الكبرى إلى ملك الروم وغيره . وإذا فسد العرب على الفرس وتمردوا توسط عدى في اصلاحهم ، وإذا مات ملك العرب في الحيرة لا يولي كسرى من يخلفه إلا بمشورة عدى . فشق ذلك على ملوك الحيرة حسداً له ، لانهم يمنية وعدى مضرى (*) ، فوشى به بعضهم

(١) السعدي ١١٣ ج ١

(*) هكذا تقول المراجع وهو مستبعد ، لانه من غير الثابت ان عدى بن زيد كان مضرياً . ثم ان الخلاف بين المضرية واليمنية لم يكن في ذلك العصر معروفاً على الصورة التي صار اليها بعد الاسلام ، كما سبق ان ذكرنا في تعليقاتنا . واخيراً لا يستطيع أحد القطع بأن أصل ملوك الحيرة يمني . وقد بسطنا القول في ذلك في تعليقاتنا على الطبعة الجديدة من تاريخ العرب قبل الاسلام للمؤلف

الى كسرى حتى قتل ، وتولى بعده ابنه زيد بن عدى فى المكاتبة عن كسرى الى ملوك العرب فى أمورها وفى خواص أمور الملك • وكانت لكسرى وظائف يؤديها اليه العرب كل عام ، فكان زيد يتولى ذلك وغيره (١)

وجملة القول أن العرب كانوا يخدمون الفرس فى أيام دولتهم قبل الاسلام ، كما خدم الفرس العرب فى أيام دولتهم بعد الاسلام ، على ان الفرس بلغ من ضخامة سلطانهم وسعة ملكهم قبل الاسلام أن كانوا يسمون أنفسهم الاحرار والأسياد ويعدون سائر الناس عبيدا لهم ، أى انهم أصيبوا بما أصاب العرب بعد ذلك ، وبما يصاب به غيرهم من الامم التى توفق الى السيادة فيغلب عليها الغرور وتترفع عن سواها

فلما ظهر الاسلام وقامت دولة الخلفاء مقام دولة الاكاسرة ، كان ذلك شديدا على الفرس ، وخصوصا بعد ما لاقوه من ضغط بنى أمية واحتقارهم ، فكانوا ينتفضون فيحاربهم الأمويون ، ويبالغون فى اهانتهم وظلمهم ويضربون مدائنهم بالمجانيق ويقتلون أهاليها ، حتى أفنوا أكثر البيوتات القديمة ووجوه الأساورة الذين كانوا يأوون الى اصخر (٢) فلا لوم عليهم بعد ذلك اذا نصرخوا كل قائم على الدولة الاموية • على أنهم لم يفوزوا الا بطلبها للعباسيين كما رأيت ، وكانوا يعدون ذلك فوزا لأنفسهم ، تخلصا من عصبية العرب عليهم ، وطمعا فى الرجوع الى ما كانوا عليه من السلطة والشوكة

استخدام الموالى الفرس

فلما قبض العباسيون على أزمة الملك ، جعلوا عاصمة مملكتهم بين شيعتهم فى العراق ، فأقاموا أولا فى الكوفة ثم فى الهاشمية ، حتى بنى المنصور مدينة بغداد على دجلة فجعلوها دار الخلافة • وقربوا الموالى الفرس ، وخصوصا أهل خراسان ، فجعلوهم بطانتهم ورجال دولتهم ، ولاسيما الذين حاربوا مع أبى مسلم فى طلب الخلافة لهم • وأشهرهم خالد بن برمك جد الوزراء البرامكة ، فانه كان من قواد جند أبى مسلم ، وشهد معه الوقائع وأبلى بلاء حسنا فى نصره أهل البيت ، وكان أبوه برمك من مجوس بلخ ، وكان يخدم بيتا من بيوت النار هناك اسمه النوبهار ، اشتهر هو وبنوه بسدائنه ، وكان برمك عظيم المقدار عند الفرس • فأسلم خالد ودخل فى جند أبى مسلم ، وكان عاقلا حازما فلم يجعل للعباسيين محلا للشك فى صداقته ، كما فعل أبو مسلم • فقدمه أبو العباس وولاه الوزارة ، ثم تولاه للمنصور وخدمه بعد مقتل أبى مسلم فى محاربة الاكراد ، وكانوا قد تغلبوا على فارس (٢)

(١) الاغانى ٢٠ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٤٩ ج ٣ (٢) ابن خلكان ١٠٦ ج ١

وتوالت الوزارة فى أعقابه الى يحيى ابنه ، فجعفر ابن ابنه ، وهو الذى نكب البرامكة على عهده لسبب سنذكره

وكذلك فعل العباسيون فى استخدام الموالى فى مهماتهم . وأول من استخدمهم لذلك المنصور ، فانه استعمل مواليه وعلمانه وصرفهم فى مهماته وقدمهم على العرب ، فاقتدى به الخلفاء بعده حتى سقطت دولة العرب ، كما سيجىء . ولما حضرته الوفاة أوصى بثلاث ماله لمواليه (١) وأوصى باكرامهم . ومن أقواله فى وصيته لابنه المهدي : « وانظر الى مواليك فأحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم ، فانهم مادتك لشدتك ان نزلت بك . . . وأوصيك بأهل خراسان ، فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولتك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئتهم وتكافئهم عما كان منهم ، وتخلف من مات منهم فى أهله وولده» (٢) (*)

ولا غرو اذا أكرم العباسيون أهل خراسان ، بعد أن آثروهم على أهلهم وأبنائهم وقتلوا من خالفهم . ولكن العرب كانوا يستغربون ذلك لأول وهلة ، فكانوا اذا جاءوا مجلس الخليفة رأوا الخراسانيين يذهبون ويجيئون ويدخلون على الخليفة كأنهم من أهله ، والعرب يقفون ببابه لا يؤذن لهم الا بمشقة - ذكروا أن أبا نخيلة الشاعر العربى وفد على أبى جعفر المنصور ، ووقف ببابه واستأذن فلم يؤذن له ، وهو يرى الخراسانية تدخل وتخرج ونهزأ به ، فيرون شيخا أعرابيا جلفا فيعبثون به ، فسأله صديق له رآه فى تلك الحال : « كيف ترى ما أنت فيه من هذه الدولة ؟ » فقال :

أكثر خلق الله من لا يدري من أى خلق الله حين يلقى
وحلة تنشر ثم تطوى وطيلسان يشتري فيغلى

(١) الفخرى ١٢٠ (٢) ابن الاثير ٧ج ٦

(*) لانبالغ اذا قلنا ان معظم هذه الوصايا موضوع : فوصية الخليفة كما نجدها فى الكتب اما أن تكون من صنع بعض اهل التوفى أو بطنته ، ليضمنوا لانفسهم حقوقا يزعمون ان صاحب الامر أوصى بها ، أو من صنع بعض الصالحين بنية الحث على الخلال الحميدة ، أو من اختراع دعاة الدولة ، وربما كانت من صنع المؤرخين انفسهم . ووصية المنصور لابنه المهدي نموذج طيب لما نقول ، فقد رويت فى صور شتى ، وفى الصورة الاولى يقول ابن الاثير : « فلما كان اليوم الذى ارتحل فيه (أى مات فيه المنصور) قال له (أى لابنه المهدي) : انى لم ادع شيئا الا وقد تقدمت اليك فيه ، وسأوصيك بخصال ما أظنك تفعل واحدة منها ، وكان له سفظ فيه دفاتر علمه وعليه قفل لايفتحه غيرى ، فقال للمهدي : انظر الى هذا السفظ فاحتفظ به فان فيه علم أبائك ، ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة ، فان أحزنك أمر فانظر فى الدفتر الكبير ، فان أصبت فيه ماتريد والا فى الثانى أو الثالث ، حتى بلغ سبعة ، فان نقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فانك واجد فيها ماتريد ، وما أظنك تفعل . . . » فهذا كلام ظاهر الاختراع ، ومن الطريف أن المنصور نفسه لم يستفد من هذه الكراريس ، بل لم ينتفع باللخص ، وقضى حياته كلها قلقا متخوفا . لايدرى ماسيحدث له بعد ساعة ، فضلا عن « ما هو كائن الى يوم القيامة ! » . والوصية كلها فى أسلوب سخيف ، ويفلب على ظنى أنها من وضع أحد خدم القصر والصورة الثانية التى يروونها ابن الاثير يبدو بوضوح أن واضعها أحد الفقهاء المحترفين فى

لعبد عبـد أو لمولى مولى يا ويح بيت المال ماذا يلقى (١)

وكان المهدي بن المنصور اذا أراد الشورى جمع خاصته للمداولة ، وأول من يتكلم منهم الموالي (٢) وقس على ذلك في سائر الاحوال . فأصبحت بطانة الخليفة ورجال دولته وخاصة حكومته من الموالي الفرس ، وهم نظموا الحكومة ودواوينها ، ورتبوا أحوالها ومنهم الوزراء والقواد والعمال والكتاب والحجاب كأنها دولتهم ، لان الغالب في هذه المناصب أن تنتقل من الرجل الى بعض أولاده ، مثل منصب الخلافة ، فاشتهر بعض البيوتات بالوزارة أو الولاية ، كال برمك وآل وهب وآل قحطبة وآل سهل وآل طاهر وغيرهم

وكانت أمور الدولة ترجع الى الوزراء : يولون ويعزلون ، واذا تولها أحدهم ولى الاعمال رجالا من أصحابه أو مريديه ، ومن ناحية أخرى تغيرت الاحوال على أهل البلاد ، واطمأنت خواطرهم وتفرغوا للعمل في التجارة أو الصناعة أو الزراعة ، ونسوا ما كانوا فيه من ضغط بنى أمية واستبدادهم ، وأطلقت حرية العمل وحرية الدين ، وذهبت عصبية العرب ورتع الناس في بحبوحة الأمن

ولما استبد الاتراك في الدولة وضعفت شوكة الفرس ، بعد المأمون كما سيأتى ، ظل الموالي من أصحاب النفوذ في دولة الخلفاء ، يعتمد عليهم الخليفة في أموره الخاصة والعامة من الكتابة الى القيادة ، ولم يعد التقدم فيهم للفرس بنوع خاص ، ولكنهم أصبحوا أخلاطا منهم ومن سواهم ، وانما تجمعهم كلمة الموالي ويتفانون في خدمة الخليفة أو الامير

أهل الذمة في الدولة العباسية

لما أخذ الموالي الفرس في تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها، أحسوا بافتقارهم الى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة في العراق والشام ، وكانوا أهل معرفة في الحساب والكتابة والخراج فضلا عن العلوم ، فأطمعهم بالرواتب والحوادث وسهلوا لهم أسباب المعيشة وقربوهم وأكرمهم . فاطمأنوا لتلك الدولة وتقاطروا الى بغداد ، وخدموا العباسيين بعقولهم وأقلامهم ، بما آنسوه من تسامحهم واطلاق حرية الدين لهم ، فاستخدمهم العباسيون في دواوينهم وولوهم خزائنهم وضياعهم

فالجهاينة (الصيارف) كان أكثرهم من اليهود ، والكتاب كان فيهم جماعة

القصر ، وكلها نصائح ومواعظ ، ومن أطرف مافيا قول المنصور : " واينك والدم الحرام فإنه حوب عند الله عظيم ، وعار في الدنيا لازم مقيم " ، والمعروف أن المنصور كان من أكثر الناس سفكا للدماء بغير حق ، فكان واضح الوصية اراد ان يسخر منه او يحذر ابنه من الوقوع فيما وقع فيه أبوه

أنظر : الكامل في التاريخ ، طبعة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٥٧ ، ج ٥ ص ٤٣ - ٤٤
(١) الاغانى ١٤٨ ج ١٨ (٢) العقد الفريد ٥٣ ج ١

كبيرة من النصارى • وكثيرا ما كان النصارى يتقلدون ديوان الجيش ، وربما عظمت منزلة صاحب هذا الديوان - وهو نصراني - حتى يتسابق أكابر رجال الدولة من المسلمين الى تقبيل يده • وممن تقلدوا ديوان الجيش من النصارى في الدولة العباسية ملك بن الوليد ، قلده اياه المعتضد بالله ، واسرائيل النصراني ، قلده اياه الناصر لدين الله • وقد أدرك بعضهم رتبة الوزارة ، فتقلد أمرها أبو العلاء صاعد بن ثابت في أيام المتقى بالله (١)

وسرى ذلك الاعتدال والتسامح في الدين الى الدولة الفاطمية بمصر ، وكان لاهل الذمة فيها شأن عظيم ، فتقلد الوزارة أو الكتابة (وهي كالوزارة في مصر) غير واحد منهم ، وقويت شوكتهم في الدولة ، فاستوزر العزيز بالله الفاطمي رجلا نصرانيا اسمه عيسى بن نسطوروس ، وآخر يهوديا اسمه منشأ ، فعز النصارى واليهود في أيامهما (٢) ومن نافذى الكلمة في الدولة الفاطمية من أهل الذمة ، فهد بن ابراهيم النصراني كاتب برجوان ، صاحب النفوذ الاعظم في أيام الحاكم بأمر الله • فكان فهد هذا يوقع عن برجوان ، ويخاطب بالرئيس ، وله نفوذ عظيم • وارتفع شأن النصارى في أيامه ، حتى كادت الدولة تكون في أيديهم (٣) على أن الكتابيين - أهل الذمة - كانوا في أيام الحاكم هم أهل الدولة ، وكذلك في أيام الحافظ (٤) وكتاب الجيش في أكثر الأحيان من اليهود

ناهيك بمن كان الخلفاء والأمراء يستخدمونهم من أطباء أهل الذمة وحكمائهم وتراجمتهم وكتابهم ، وخصوصا نصارى الشام ، فانهم خدموا التمدن الاسلامي في نقل العلوم من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها الى اللغة العربية ، على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وبيننا ما كان من محاسنة الخلفاء لهم وتقديمهم ورعاية جانبهم وكرامتهم ، وفيهم النصراني واليهودي والمجوسي والسامري والصابي وغيرهم ، والكل راتعون في حبوحة السكينة والطمأنينة يتكسبون من خزائن الخلفاء والأمراء

وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية يكرمون الأساقفة ويجالسونهم • فالهادي كان يستدعى اليه الأسقف تيموثاوس في أكثر الايام ويحاوره في الدين ، ويبحث معه وينظره ، ويطرح عليه كثيرا من المشكلات ، وله معه مباحث طويلة ضمنها كتابا ألفه الأسقف المذكور في هذا الموضوع ، وكذلك كان يفعل معه هرون الرشيد (٥) وغيره ، وأغضوا عن بعض ما في عهد عمر ابن الخطاب من التضييق على النصارى ، كمنعهم من احداث الكنائس (٦) أو الاحتفال بالاعیاد ، أو منعهم من خدمة الدولة ، وسهلوا لهم الاختلاط بهم

(١) تاريخ الوزراء ٩٥ والفرج ١٤٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٢ ج ٩ والسيوطي ١٧ ج ٢

(٣) المقرئ ٤ و ٣١ ج ٢ (٤) المقرئ ٤٠٦ ج ١ (٥) تاريخ المشرفة (خط) ١٤٢

(٦) المقرئ ١١٥ ج ٢

وأظهروا احترام مذهبهم ، حتى أصبح النصارى يهدون الخلفاء أيقونات بعض القديسين فيقبلونها منهم ، وكثيرا ما كان الاساقفة يطلبون من الخلفاء أن يثبتوهم في مناصبهم للاعتزاز بذلك على أخصامهم أو منازعيهم

اضطهاد أهل الذمة في العصر العباسي

على أن ذلك لم يمنع تضيق بعض الخلفاء على النصارى ، بمقتضى عهد عمر ، وهدم كنائسهم - فان الملوك المستبدين (*) تختلف سياستهم باختلاف أخلاقهم وأطوارهم ، فقد يترأى لبعضهم التضيق على النصارى لسبب أو لغير سبب ، كما فعل هرون الرشيد والمتوكل من خلفاء بني العباس (**). فالمتوكل المتوفى سنة ٢٤٧ هـ كان شديد الوطأة على النصارى ، ولعله أشد الخلفاء العباسيين وطأة عليهم ، لانه أمر بهدم الكنائس المحدثه بعد الاسلام، ونهى أن يستعان بهم في الاعمال ، أو أن يظهروا الصلبان في شعائرتهم ، وأمر أن يجعل على أبوابهم صور شياطين من الخشب ، وأن يلبسوا الطيالسة العسليه ، ويشدوا الزنار ، ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين في مؤخر السرج ، وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب ، قدر كل واحدة أربع أصابع ولون كل واحدة غير لون الاخرى ، ومن خرج من نسائهم تلبس ازارا عسليا ، ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك (١)

ولا يستغرب هذا التضيق من المتوكل ، فانه تقم مثل هذه النعمة على سائر أهل الدولة وغيرهم ، وشدد النكير على الشيعة وأهلك العلماء والكتاب . وكان شديد التعصب على الشيعة ، فاضطهدهم وعذبهم ، ولاقى أهل الذمة منه الشدائد (٢) على أنه لم يرتكب هذا الشطط بغير سبب دعا اليه ، فقد حمله عليه انتصار النصارى لأعداء الدولة - وذلك أن أهل حمص المسلمين وثبوا بعاملهم سنة ٢٤١ هـ فأعانهم النصارى عليه ، فكتب العامل الى المتوكل فأمره باخراج النصارى وهدم كنائسهم، وكان هذا من أسباب نقمته عليهم (٣)

ويقال نحو ذلك فيما صدر في أيام الرشيد من الاوامر بهدم الكنائس في الثغور ، وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم (٤) - فعل الرشيد ذلك على أثر رجوعه من حرب الروم في هرقله ، فالظاهر أن

(*) يريد بالمستبدين هنا المنفردين بالسلطان في دولهم ، لا المستبدين بمعنى التالين (***) راجع مقرر الرشيد على النصارى عند الطبري ، طبعة اوربا ج٢ ص ٧١٢ ، وما قرره المتوكل - نفس المصدر والطبعة والجزء ص ١٢٨٩ وخطط المقرئ ج ٢ ص ٤٩٤ ، والنجوم الزاهرة لابي المحاسن ج ٢ ص ١٧٤ - ١٧٥

(١) ابن خلدون ٢٧٥ ج ٣ وابن الاثير ٧٢٠ ج ٧ والمقرئ ٤٩٤ ج ٢

(٢) تاريخ المشاركة (خط) ١٤٦ (٣) ابن الاثير ٧٢٩ ج ٧ (٤) ابن الاثير ٨٢ ج ٦

نصارى الثغور (الحدود بين مملكة الروم ومملكة الاسلام) ساعدوا أبناء طائفتهم الروم فى التجسس على أحوال المسلمين واستخدموا الكنائس لهذه الغاية ، فأمر الرشيد بالتضييق عليهم انتقاما منهم ، وخصص أمره هذا بأهل الثغور على الحدود ، وشدد على الخصوص فى مخالفتهم هيئة المسلمين فى لباسهم ، دفعا لتنكرهم وتجسس أحوال المسلمين - والا فالرشيد من أحسن خلفاء بنى العباس عدلا ورفقا بأهل الذمة ، وكان أحد عمال أخيه الهادى قد هدم بعض الكنائس بمصر ، فلما أفضت الخلافة اليه أمر بإعادة بنيانها (١)

وهكذا يقال فى اضطهاد النصارى بمصر على عهد الدولة الفاطمية ، مع ما تقدم من منزلتهم وحرية الدين عندهم . وأقدم ما قاسوه من تضييق الحكام فى طقوسهم وكنائسهم فى أيام الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ وسبب ذلك ما ذكرناه من تقدم النصارى فى مصالح الدولة فى أيامه حتى صاروا كالوزراء، ونعاضموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم ، فتزايدت مكائدهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم النصرانيين ، فغضب الحاكم بأمر الله - وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه الى حد الجنون . فأمر بقتل حذيين الرجلين وشدد على النصارى فأمرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار فى أوساطهم ، ومنعهم من عمل الشعانين والتظاهر بما كانت عاداتهم فيه ، فقبض على ما فى الكنائس وأدخله فى الديوان ، ومنع النصارى من شراء العبيد ، وهدم كنائسهم وأجبرهم على الاسلام ، وغير ذلك من التشديد والعنف (٢) مما لم يقاس النصارى مثله من قبل ، ولعله أعظم ما أصابهم من الاضطهاد فى ابان التمدن الاسلامى . ولا جناح على التمدن الاسلامى منه ، لان مرتكبه أتاه عن حمق أو جنون

وقد سوغ للحاكم المبالغة فى اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ ، فحرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان فى القسطنطينية ، فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على أهل مذهبهم فى بلاده، وكان فى جملة ما هدمه من الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بعد الحاكم ، عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على إعادة بناء جامع القسطنطينية ، وان يعاد بناء كنيسة القيامة ، وأن يؤذن لمن أظهر الاسلام فى أيام الحاكم ان يعود الى النصرانية اذا شاء ، فرجع اليها كثيرون (٣)

وربما كان السبب الذى حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفا ، فعظمه

(١) المقرئى ٥١١ ج ٢ (٢) المقرئى ٤٩٥ ج ٢ (٣) المقرئى ٢٥٥ ج ١

تعصبه وحمقه فأمر بالهدم والقتل . على أنه كثيرا ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم أمورا مضحكة تشبه الجنون الصريح ، كإصداره المنشورات بمنعهم من أكل الملوخيا أو من البقلة المسماة بالجرجير ، أو منعهم من عمل الفقاع ، ومنع النساء من التبرج أو المسير في الطرق ، والأمر بسب السلف ولعنهم ، ونقش ذلك على المساجد وأبواب الحوانيت وعلى المقابر ، ونحو ذلك من الأوامر التي تدل على اختلال في عقله . على أننا قلما نراه أتى أمرا إلا لسبب ، وإن كان ضعيفا - فالسبب في منعه الناس من أكل الملوخيا مثلا أن معاوية بن أبي سفيان عدو الشيعة كان يحبها ، والدولة الفاطمية شيعية . ومنعهم من أكل بقلة الجرجير لأنها منسوبة إلى عائشة أم المؤمنين ، ومنعهم من أكل المتوكلية لأنها تنسب إلى المتوكل وهو من أعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقاع لأن علي بن أبي طالب كان يكرهه (١) وقس على ذلك سائر ضروب الحماسة والغرابة ، ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم . على أنه عاد ، لسبب طفيف أو بلا سبب ، فأمر ببناء تلك الكنائس (٢) وخير النصارى في الرجوع إلى دينهم فارتد كثير منهم - وقد تقدم أن ذلك كان في أيام ابنه الظاهر . ومن أعماله الغريبة أنه ابتنى المدارس ، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخربها ، وألزم الناس باغلاق الأسواق نهارا وفتحها ليلا ، فظلل الناس على ذلك دهرا طويلا (٣) فمن كانت هذه أعماله لا يستغرب منه اضطهاد ، ولا يعد اضطهاده عارا على الدولة أو الأمة

على أن أفضع ما قاساه النصارى واليهود من الاضطهاد ، إنما كان في دور الاضمحلال أو التقهقر في العصور الإسلامية الوسطى ، وخصوصا بعد الحروب الصليبية ، لأنها كانت سببا كبيرا في إثارة التعصب بين الامتين . فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكامهم لدينهم ، وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الافرنج سرا ، فبالغ أمراء المسلمين في الفتك بهم . فنصارى « قارا » مثلا - بين دمشق وحمص - كانوا يسرقون المسلمين في أثناء تلك الحرب ، ويبيعونهم خفية للافرنج ، فلما مر بها السلطان الملك الظاهر في أثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم ، واتخذ صبيانهم مماليك فتربوا بين الأتراك في الديار المصرية ، فصار منهم اجناد وأمراء (٤) كما فعل العثمانيون بتجنيد الانكشارية بعد ذلك بزمن غير بعيد

وتزايدت الضغائن بعد تلك الحروب بين المسلمين وأهل الذمة في بلادهم ،

(١) المقرئى ٢٤١ ج ٢ (٢) ابن الأثير ٨٦ ج ٩ (٣) السيوطى ١٧ ج ٢
(٤) أبو الفداء ٤ ج ٤

حتى أصبحت كل من الطائفتين تبذل جهدها في اذى الاخرى ، ولما كانت الحكومة اسلامية فالنصارى هم المغلوبون . فاذا احترقت حارة للمسلمين اتهموا النصارى واليهود باحراقها ، فتأمر الحكومة باحراقهم او احراق كنائسهم (١) وهذا التعصب من مقتضيات تلك العصور المظلمة ، لان الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين في بلادهم مثل هذه المعاملة او اشد منها . وكثيرا ما كانوا يهددون اسرى المسلمين بالقتل او يتنصروا (٢) واذا دخلوا بلدا اسلاميا بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم في الجوامع (٣) ولما تغلب نصارى الاندلس على المسلمين اجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود واهل الدجن (*) ولما غلبوهم في آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم (٤)

تعصب العامة على النصارى

قلنا ان الخلفاء والامراء قدموا النصارى في مصالح الدولة ، واغدقوا عليهم الاموال وكرمواهم ورفعوا منزلتهم ، وانهم فعلوا ذلك لاحتياجهم اليهم في ابان ذلك التمدن ، لنقل العلوم او الطب او الحساب او الكتابة او غيرها مما تحتاج اليه الدولة في تنظيم شؤونها ، لاشتغال المسلمين يومئذ بالرياسة . وكان اولو الامر من الجهة الاخرى يقدمون المسلمين في المعاملات الرسمية على سواهم من اهل الذمة ، كما كان الامويون يقدمون العرب على غير العرب ، فنشأ التحاسد بين عامة المسلمين وعامة المسيحيين . وذلك طبيعي في كل مملكة يتنازع العمل فيها ملتان او طائفتان ، ولا يزال ذلك جاريا على نحو هذا الشكل الى يومنا هذا

نشأ هذا التحاسد أولا بين العامة ونحوهم من اهل المهن العلمية او الحرف الصناعية ، الذين يحومون حول الخلفاء والامراء للارتزاق بما يعوزهم من اسباب المدنية ، او يرضيهم من عوامل الرخاء والترف كالشعر والفناء والكتابة والحساب وغيرها . واما اهل الطبقة العليا (الشرفاء) والاغنياء ورجال الدولة ، فقلما كانوا يتعصبون او يتباغضون ، وانما كانوا ينظرون الى الرجال من حيث هم بقطع النظر عن مذاهبهم ، فالشريف الرضى الذي كتب الى الخليفة القادر بالله :

(١) المقرئى ٨ج ٢ وابو الفداء ١١٧ ج ٤ وسراج الملوك ١٨٩

(٢) ابن الاثير ٢٩ ج ٧

(٣) ابن الاثير ٦٢ ج ٨

(*) اهل الدجن هم المسلمون الذين دجنوا ، اى اقاموا خاضعين تحت حكم النصارى في الاندلس بعد سقوط بلادها في ايديهم ، ويسمون ايضا المدجنين ، ودخلت الكلمة في اللغة الاسبانية في صورة mudejares. mudejar

(٤) نفع الطيب ١٢٦٩ ج ٢

عظفا أمير المؤمنين فائنا
 ما بيننا يوم الفخار تفاوت
 الا الخلافة ميزتك فائني
 في دوحة العلياء لا نتفرق
 أبدا ، كلانا في المعالي معرق
 أنا عاطل منها وانت مطوق

رثى أبا اسحق الصابي بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

أرايت من حملوا على الاعواد أرايت كيف خبا ضياء النادى
 فلم يقع ذلك موقع الاستحسان عند العامة ، فعابه بعضهم لكونه شريفا
 يرثى صابئا فقال له : « انما رثيت فضله » (١)

وأما العامة ومن جرى مجراهم ، أو استعان بهم على بعض المصالح أو المناصب ، فكانوا يظهرون التعصب على النصارى ، ويسعون في أذيتهم لدى ولاية الامور ، فاذا كان صاحب الامر حازما لا يصغى للوشاية - ذكروا أن رجلا نصرانيا من اهل بغداد اتهمه بعض المسلمين سنة ٢٨٤ هـ أنه شتم النبي (صلعم) فاجتمع اهل بغداد وصاحوا بالقاسم بن عبيد الله وزير المتضد بالله يومئذ وطالبوه باقامة الحد عليه ، وكأنه اعتقد براءة الرجل فلم يجب طلبهم (٢) واتصل الامر بالخليفة وكان له شأن كبير . والحكم صاحب الاندلس في أوائل القرن الثالث للهجرة صلب أحد عماله لانه ظلم أبناء أهل الذمة (٣)

فلما اقتربت الدولة من الشيخوخة أخذ هذا التعصب يسرى من العامة الى الخاصة ، لرغبة الناس يومئذ في التقرب من رجال الدولة بالتزلف والتملق التماسا للكسب ، فينتحلون الاسباب المساعدة على ذلك ، ويتسابقون الى دس الدسائس واختلاق الوشائيات . وأسهل وسائل التزلف في الدولة الاسلامية التدين ، لاشتراك الدين والسياسة في مصالحها ، فكان بعضهم يستعينون في اظهار التدين والغيرة على الاسلام بالطعن في الاديان الاخرى ، فاذا كان صاحب الامر ضعيفا انطلى عليه ذلك ، واضطهد أهل تلك الاديان . ولذلك كان التعصب على أهل الذمة ، ولاسيما النصارى ، يزداد بتقدم الدولة الاسلامية نحو الشيخوخة . وقد اشتد في الاجيال الاسلامية الوسطى على أثر الحروب الصليبية ، فأصبح الحكام وأرباب المناصب العلمية وغيرها يجاهرون باحتقار غير المسلمين ، ويبالغون في اضطهادهم ويعاملونهم معاملة الاعداء . وتمكنت العداوة بين الفئتين ، وكل منهما تحاول اذية الاخرى ، حتى أصبح النصارى يودون التخلص من دولتهم بأية وسيلة كانت . فلما جاء التتر لفتح بغداد سنة ٦٥٦ هـ كان هوى أهل الذمة معهم . وتعاضم هذا التباغض على الخصوص قبيل النهضة الاخيرة ، أي منذ قرن وبعض القرن ، حتى في المعاملات

(١) ابن خلكان ٢ ج ١ و ٢ ج ٢ (٢) ابن الاثير ١٩٢ ج ٧ (٣) ابن الاثير ١٥٧ ج ٦

الرسمية ولاسيما في البلاد البعيدة عن المدنية - فقد اطلعنا صديق عالم على صورة رخصة من جانب الشرع الشريف في ديار بكر ، بدفن رجل مسيحي توفى فيها نشرها لغرابة عبارتها وهي :

« من جانب الشرع الشريف في ديار بكر الى مطران طائفة كفر السريان .
 « ايها المكروه بالنظر والمعتقد ، أن يعقوب الكافر من طائفتكم المكروهة حيث أن الملعون قد فطس وهلك ، فلأجل ادخال جثته الكريهة ضمن الارض ، قد صدر الاسترحام من مرشد محلته وجرى اخذ الخراج ، وأن تكن الارض لا تقبل جثته الخبيثة ، ولكي لا تكون سببا لفساد الهواء ، قد اعطيناه الرخصة بعنوان الشرع الشريف أن تدفن ، ضمن مدينتكم المخصوصة بموجب مذهبكم الباطل الى زمرة جهنم . اقتضى اعطاء هذه الرخصة لكي لا يكون مانع من طرف أحد في ٢٦ جمادى الاولى سنة ١٢٠٣ » انتهى

فأى مسلم أو مسيحي من أهل هذا العصر يطلع على هذا ولا ينكره أو يستغربه ؟ ولولا ثقتنا بصدق الناقل لانكرناه نحن أيضا . وقد هون علينا تصديقه أن صديقا آخر مقيما في القاهرة أكد لنا وجود رخص كثيرة في بعض البطر كخانات بمصر في مثل هذه العبارة . وقد أخذ هذا التعصب في الزوال من بدء هذه النهضة ، ومتى نضجت نرجو أن يزول تماما باذن الله (*)

تحاسد النصارى

على أنك لو تدبرت ما كان يلحق النصارى من الاذى في ابان التمدن الاسلامي لرأيت سببه في كثير من الاحوال عوشاية بعض طوائف النصرانية ببعض الآخر ، كالنساطرة واليعاقبة في العراق . وكثيرا ما كان أهل النفوذ من النصارى أنفسهم أشد وطأة على أهل دينهم من حكامهم المسلمين ، كما كان عيسى بن

(*) لم ينكر المسلمون أول الامر الا تولية الولاة لنفر من النصارى في الوظائف ، وقد بدأ ذلك من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، اذ يحكى انه لما عرف ان لابي موسى الاشعري كاتباً نصرانياً ضرب فخذة وقال : « الا اتخذت رجلاً حنيفاً ! » ولكن العمال لم يراعوا ذلك بعد عصر الراشدين ، فكثر تولية المسيحيين الوظائف ، على ان الغالب انهم كانوا يولون قبل القرن الثالث على اهل ملتهم ، وفي خلال القرن الثالث أنكر الناس على الوزراء مرتين تولية رجلين من النصارى ديوان الجيش - وديوان الجيش ليس الجيش ، فليس معنى ذلك ان قائد جيش الخلافة كان نصرانياً ، وانما معناه ان الكاتب الموكل بالشؤون الحسابية والادارية كان نصرانياً . وقد بالغ المؤرخون في تصوير ذلك ، فقال ابو هلال الصابي في كتاب الوزراء ان الناس لاموا الوزير لانهم « جعل انصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمثلون امره » (ص ٩٥) ، ولما كان كل موظف في الدولة يفسم ايمانا بالامانة قبل ان يتولى عمله فقد استحدثت في ايام الرشيد ايمان خاصة باليهود الذين يتولون شيئاً من اعمال الدولة ، وفي أواخر القرن الثالث كان النصارى قد علا أمرهم وغلبوا على الكتاب ، فأمر المقتدر بما كان المتوكل قد أمر به من اخراجهم من الوظائف وكان ذلك عام ٢٩٦ هـ ٩٠٩ م . ثم أمر المقتدر بعد ذلك الا يستخدم احد من اليهود والنصارى الا في الطب والجهيزة . غير ان ذلك كله كان مؤقتاً ، فما أسرع ما كانت الدولة تعود الى استخدامهم ، لان شعور الود والتأخي كان سائداً بين الناس ، وكانت روح التسامح هي الغالبة . وكان المثقفون من المسلمين يعلمون ان المسيحية قد حثت على المحبة ورقة القلب ، ولكنهم

شهلا الطبيب لما تولى الطبابة (*) ونال منصبا في دار الخلافة ، فاغتنم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والاساقفة يأخذ أموالهم لنفسه ، حتى أنه كتب الى مطران نصيبين كتابا يلتمس منه فيه من آلات البيعة أشياء عظيمة المقدار ويهدده ، ومن أقواله له : « أأست تعلم أن أمر الملك بيدي ، أن شئت أمرضته وان شئت عافيته ؟ » فبعث المطران بالكتاب الى الربيع حاجب الخليفة فانتقم الخليفة منه

واعتبر ما أجراه بختيشوع بن جبرائيل الطبيب مع حنين بن اسحق المترجم الشهر ، لما رأى من منزلته عند الخليفة المتوكل ، فحسده عليها وعمل على الكيد له من طريق الدين ، وذلك أنه اصطنع ايقونة (صورة) للسيدة العذراء وفي حجرها السيد المسيح . وأوعز الى بعض خاصته أن يحملها هدية الى الخليفة في وقت عينه له ، وذهب الى مجلس الخليفة في الميعاد المضروب ، وكان هو المستقبل للايقونة من يد الخادم والحامل لها ، وهو الذي وضعها بين يدي المتوكل ، فاستحسنها المتوكل جدا ، وجعل بختيشوع يقبلها بين يديه مرارا كثيرة ، فقال له المتوكل : « لم تقبلها ؟ » فقال له : « يامولانا اذا لم أقبل صورة سيدة العالمين فمن أقبل ؟ » فقال له المتوكل : « وكل النصراري يفعلون

كانوا يرون ان النصراري قلما يعملون بذلك ، ومن امثلة ذلك قول الجاحظ : « وكل خصاء في الدنيا فانما اصله من قبل الروم ، ومن العجب انهم نصراري ، وهم يدعون من الرحمة والرافة ورقة القلب والكبد مالا يدعيه احد من جميع الاصناف ، وحسبك بالخصاء مثلة ، وحسبك بصنيع الخاصي قسوة » (كتاب الحيوان ، ص ٥٦) . ويفهم مما كتبه المقدسي عن الشام مما قاله يحيى بن سعيد البطريق ان عدد العمال النصراري هناك كان عظيما جدا ، ومما يدل على خلو قلوب الناس من العصبية ان نصر بن هارون وزير عضد الدولة استأذن سيده في عمارة البيع والاديرة ، وفي اطلاق المال لفقراء النصراري فاذن له ، بل افتى بعض كبار فقهاء الاسلام بانه يجوز ان يكون وزير التنفيذ - لا وزير التفويض - من اهل الذمة

وربما جاز القول بأنه ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجري بدأ التعصب بين المسلمين والنصراري يظهر بصورة اصبحته مهددة للامن ، والسبب في ذلك هبوط المستوى المعيشي والثقافي للناس جميعا ، وسيطرة الجهلاء والرعاغ وادعياء الدين . وفي ذلك الحين ايضا ظهر تعصب الجماهير حول الحنابلة وكثرت مهاجمتهم لغير اهل مذهبهم من المسلمين فضلا عن النصراري واليهود ، حتى اختل الامن في بغداد واصبحت ميدانا للفوضى والسلب والنهب ، وكلما زادت الحالة السياسية والاقتصادية والثقافية سوءا زادت البلية حتى كان ذلك من أسباب خراب بغداد ، وكان خرابها مقدمة سقوطها .

وكانت الحروب الصليبية ذات أثر حاسم في تطور العلاقات بين المسلمين والنصراري في الشرق الاسلامي ، فقد كانت من النصرانية على الاسلام ، وأعلن الذين قاموا بها انهم يفعلون ذلك انتقاما من المسلمين واستردادا للأراضي المقدسة منهم ، فأثاروا بدعوتهم تلك وبأفاعيلهم في المسلمين مشاعر هؤلاء وفسدت العلاقات بينهم وبين اخوانهم النصراري ، ولم تعد العلاقات بين الجانبين الى ما كانت عليه من الصفاء الى اواخر العصور الوسطى

ثم جاء الاحتلال الاوروبي من اواخر القرن الثامن عشر ، واجتهد في التفريق بين المسلمين والنصراري ، مما كان له أسوأ الاثر في بعض البلاد العربية ، ولكن الحال تحسن بعد خروج المستعمرين وتنبه العرب الى ضرورة الوحدة وترك الخلاف في مسائل الدين ، وقالوا : الوطن للجميع والدين لله ، وأخذ التسامح يحل من جديد رغم محاولات المستعمرين التي لازالت مستمرة الى اليوم .

انظر : آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ، طبعة ١ ، القاهرة ١٩٤٧ - الفصل الرابع : اليهود والنصراري ص ٣٤ وما يليها (*) يراد بالطبابة هنا تعيينه طبيبا خاصا للخليفة ، وهي وظيفة ، وتختلف عن الطب وهو علم الطب وصنعتة بصفة عامة

كذلك ؟ » فقال : « نعم يا امير المؤمنين وفضل منى ، لانى انا قصرت حيث انا بين يديك . ومع تفضيلنا معشر النصارى ، فانى اعرف رجلا من النصارى فى خدمتك ، وافضالك وارزاقك جارية عليه ، يتهاون بها ويبصق عليها، وهو زنديق ملحد لا يقر بالوحدانية ولا يعرف آخرة ، يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب بالرسول » فقال له المتوكل : « من هذا الذى هذه صفته ؟ » فقال له : « حنين المترجم » فقال المتوكل : « اوجه احضره ، فان كان الامر على ما وصفت نكلت به وخذلته فى المطبق ، مع ما اتقدم به فى امره من التضييق عليه وتجديد العذاب » فقال : « انا احب ان يؤخر مولاي امير المؤمنين امره الى ان اخرج واقيم ساعة ، ثم تأمر باحضاره » فقال : « انى افعل ذلك » . وخرج بختيشوع توا الى حنين واخبره : « ان الخليفة اهديت اليه ايقونة كذا ، وقد استحسناها . وان نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه ، احتقرنا وقال لنا : هذا ربكم وامه مصوران . وقد سألنى امير المؤمنين عن رأى فيها ، فقلت له : مثلها يكون فى الحمامات والكنائس وغيرها مما لا نبالى به . فطلب الى ان ابصق عليها فبصقت ، فاذا دعا بك افعل مثل فعلى » فصدقه حنين . ولما دعاه الخليفة فعل كما قال له بختيشوع ، فحالما بصق على الايقونة امر الخليفة بحبسه ، ووجه الى ثيودوسيوس الجاثليق يومئذ فأحضره ، فلما رأى الايقونة وقع عليها وقبلها ، ولم يزل يقبلها ويبكى طويلا ، ثم اخذها بيده وقام قائما ، فدعا لامير المؤمنين وأطنب فى دعائه ، فدعاه الى الجلوس والايقونة فى حجره ، فطلب الجاثليق اليه ان يتركها له . ثم سأل الخليفة عما يستحق الذى يبصق عليها ، فقال : « اذا كان مسيحيا عارفا فانى احرمه دخول الكنيسة ومن القربان ، وامنع النصارى من ملاهسته وكلامه واضيق عليه » فأعطى الخليفة الايقونة للجاثليق مع جائزة ، وامر بحنين فجلد بالسياط والحبال ، وامر بنقض منازل وحبسه ، ولم ينج من ذلك حتى اعتل المتوكل واحتاج الى مشورته فأفرج عنه (١)

فاذا كان هذا فعل المتوكل فى هذه الحال ، وهو كما وصفناه من شدة وطأة على النصارى وغيرهم من اهل الذمة ، فكيف فى غيره من الخلفاء المعتدلين ؟ وقد رأيت من حديث حنين هذا ان الخلفاء كانوا يفرضون على النصارى صدق التدين فى النصرانية ، فضلا عن اعفائهم من الاسلام ، الا من اراد باختياره . وكانوا ايضا يشاركون النصارى فى احتفالاتهم بالاعياد الكبرى كالميلاد والشعائين ، ويخرجون معهم الى اماكن النزهة كأنهم امة واحدة (٢) ولم يكن ذلك مقصورا على العراق والشام ، فان المصريين كانوا يحتفلون بأعياد النصارى السنوية كما يحتفل بها النصارى أنفسهم ، وكان الخليفة يفرق الناس الهدايا فى عيد الميلاد والفتاس ، ويفرح المصريون جميعهم معا (٣)

(١) طبقات الاطباء ١٩٤ ج ١ (٢) ابن الاثير ١١٣ ج ٨ والفرج ١٥٦ ج ٢ (٣) المقريز

وكانت الحكومة اذا انشأت معهدا خيرا كان حظ أهل الذمة منه مثل حظ المسلمين ، وخصوصا المستشفيات ودور المرضى ، فانها كانت تبني لمعالجة المسلم والذمي ، فاذا لم يكن فيها ما يكفي الاثنيين قدموا المسلم (١) على ان المسلمين في ابان تمدنهم اطلقوا حرية الدين لرعاياهم ، على اختلاف طوائفهم ونحلهم ، فلم يسمع انهم اكرهوا طائفة من الطوائف على الاسلام تعصبا للدين ، حتى في أيام بنى أمية مع ضغطهم على غير العرب في طلب المال ، فقد رأيت ما كان من خالد القسرى وغيره . وأما بنو العباس فكانوا أقرب الى الاعتدال وحرية الدين ، ولذلك تعددت البدع الدينية في أيامهم من المجوس وغيرهم ، ناهيك بالفرق الاسلامية وتعددتها . وكان أكثر الخلفاء تسامحا في الدين المأمون ، فكان هو نفسه شيعيا ، وكان وزيره يحيى بن أكثم سنيا ، ووزيره أحمد بن أبي داود معتزليا (٢) يكفيك من تسامحه في الدين انتصاره للمعتزلة في القول بخلق القرآن - وأول من قال بذلك رجل يهودى اسمه لبيد الاعصم ، الذى يقال انه سحر النبى (صلعم) . فكان لبيد يقول ان التوراة مخلوقة ، ثم قال بخلق القرآن ، وعنه أخذ طالوت ابن أخته ، وأخذه ابان بن سميعان عن طالوت ، وأخذه الجعد بن درهم عن أبان في أيام هشام بن عبد الملك الاموى ، وأظهر مقالته في خلق القرآن وانكار ما فيه ، وان فصاحته لا تعجز الناس بل يقدرون على مثلها وأحسن منها (٣) فغضب عليه هشام وبعث به الى خالد القسرى أمير العراقيين وأمره بقتله ، فحبسه ولم يقتله . فألح عليه ، فأخرجه يوم الاضحى ، وبعد أن صلى قال : « أريد أن اضحى اليوم بالجعد بن درهم ، فانه يقول ما كلم الله موسى ولا اتخذ ابراهيم خليلا ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا » ثم ذبحه (٤) . ولما تولى مروان بن محمد كان يقول بخلق القرآن مثل الجعد (٥) حتى اذا تولى المأمون نصر المعتزلة - ولعله أخذ الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه - وتبعه الواثق بالله فقال مثل قوله فعظم ذلك على عامة المسلمين وأنكروه وسموا الواثق كافرا (٦) كما سمو المأمون أمير الكافرين (٧) وكان ما كان من المحنة في ذلك أيام المتوكل . وانقسم المسلمون الى حزبين ، والخلفاء ضد المعتزلة وقد شددوا النكير على القائلين بخلق القرآن ، وتناشدت الشعراء ذلك طعنا فيهم وتكفيرا لهم ، كقول أبى خلف المعافرى :

لا والسدى رفع السما ء بلا عماد للنظر

- (١) طبقات الاطباء ٢٢١ ج ١
 (٢) المقرئى ٢٤٦ ج ٢
 (٣) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٥
 (٤) ابن الاثير ١٢٣ ج ٢٨٥ و ٢٨٥ ج ٧
 (٥) ابن الاثير ١٢١ ج ٦
 (٦) ابن الاثير ٨ ج ٧
 (٧) ابن الاثير ١٢١ ج ٦

ما قال خلق في القرا
لكن كلام منزل
ن بخلقه الا كفر
من عند خلاق البشر (١)

وبالجملة فقد كانت الافكار من حيث الدين مطلقة الحرية في تلك العصور، لا يكره الرجل على معتقده أو مذهبه ، فربما اجتمع عدة اخوة في بيت واحد وكل منهم على مذهب . فأولاد ابي الجعد ستة ، كان منهم اثنان يتشيعان واثنان مرجئين واثنان خارجيين (٢)

فسياسة الدولة العباسية في معاملة الرعايا من المسلمين واهل الذمة انما هي المحاسنة والعدل والرفق . وقد اتينا بأمثلة من عدل الخلفاء الاولين من بنى العباس ورفقهم في الجزء الثاني من هذا الكتاب . وكانوا يحاسنون الفرس وسائر اهل النفوذ من الموالى على الخصوص ، ولا سيما بعد أن صارت الحكومة اليهم وقبضوا على جندها ومالها ، فكان الخلفاء يقدمونهم ويكرمونهم ويطلقون ايديهم في شؤون الدولة ، فاذا داخلهم شك في اخلاصهم ولو على سبيل الوشاية فتكوا بهم فتكا ذريعا ، كما اتفق للبرامكة وغيرهم من وزراء العصر العباسي الاول

العصية العربية في العصر العباسي

سلسلة التقسيم (*)

على ان المنصور كان همه منصرفا الى العرب ، لانهم اهل عصبية اذا اجتمعوا تغلبوا على الدولة وفعلوا ما ارادوه ، لما يعلمه من جراتهم في طلب الحق وتقيح الظلم جهارا ولا يحملون ضيما ، وهو كما علمت بما ارتكبه في تأسيس دولته من القدر والفتك ، مما لا تصبر عليه النفوس الابية . وقد زاده حذرا منهم ما كان يسمعه من اقوالهم الدالة على اباء الضيم ولو كان فيه ما يسوءه ، كما اتفق له وهو في بعض حجاته ، وكان يطوف بالكعبة ليلا ، اذ سمع قائلا يقول : « اللهم أشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع » فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله ، فطلب ان يؤمنه حتى يقول الحق فأمنه . فقال له : « ان الذي حال بين الحق وأهله هو انت يا امير المؤمنين » . قال المنصور : « ويحك ! وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي ، والحلو والحامض عندي ؟ » . فقال الرجل : « لان الله تعالى استرعاك المسلمين واموالهم ، فجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وابوابا من الحديد وحجابا معهم الاسلحة وامرتهم الا يدخل عليك الا فلان وفلان ، ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع

(١) نفع الطيب ١٥٨ ج ٣ (٢) المعارف ١٥٦ -
(*) المقصود بالتقسيم هنا التفريق بين الناس وجعلهم احزابا متعادية حتى يسهل على الخليفة قيادهم

والعاري ولا الضعيف والفقير ، وما أحد الا وله من هذا المال حق . الخ «
 فهذا وأمثاله نبه المنصور لجرأة العرب ، فجعل يفكر في اذلالهم ويستنبط
 له الحيل ، وكان للعرب ديوان خاص لهم فيه الرواتب على انسابهم ومراتبهم ،
 وفيهم اليمنية والمضرية . فلما فرغ المنصور من تأييد دولته بمقاتلة العلويين
 والخوارج وغيرهم ، وقد بنى بغداد وحصنها وأنشأ فيها منازل الجند ،
 نظر الى من حوله منهم على الاجمال ، فاذا هم ثلاث فرق كبرى : اليمنية
 والمضرية والخراسانية ، فاتفق سنة ١٥١ هـ أن بعض الجند شغبوا عليه
 وحاربوه على باب الذهب ، وهو قصره في بغداد ، فأوجس خيفة من تكرار
 ذلك ، لعلمه أن دولته انما قامت بالجند ، فاذا اجتمعوا عليه أخرجوها من
 يده ، وهو يعلم أيضا ان لكل من هذه الفرق هوى مع بعض دعاة الخلافة
 العلويين أو غيرهم ، فليس أهون عليهم من ردها الى دولة جديدة

وكان كبير بنى العباس يومئذ قثم بن العباس بن عبيد الله بن عباس ،
 وهو شيخهم وله الحرمة والتقدم عندهم ، فاستشاره المنصور في ذلك قائلا:
 « أما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا ؟ وقد خفت أن تجتمع كلمة
 هؤلاء فيخرج هذا الأمر من أيدينا ، فماذا ترى ؟ » . قال : « يا أمير
 المؤمنين عندي رأى ان أظهرته لك فسدد ، وان تركته أمضيته وصلحت
 خلافتك وهابك جندك » . قال له : « أفتمضي في خلافتي شيئا لا أعلمه ؟ »
 قال له : « ان كنت عندك متهما قلا تشاورني ، فان كنت مأمونا عليها
 فدعني أفعل رأبي » . فقال له المنصور : « فامضه » . فانصرف قثم الى
 منزله فدعا غلاما له فقال : « اذا كان الغد فتقدمني واجلس في دار أمير
 المؤمنين ، فاذا رأيتني قد دخلت وتوسطت أصحاب المراتب ، فانهض وخذ
 بعنان بغلتي ، واستحطفني بحق رسول الله وبحق العباس وبحق أمير المؤمنين
 الا ما وقفت لك وسمعت مسألتك وأجبتك عنها ، فاني سأنتهرك عند ذلك
 وأغلظ لك فلا تخف وعاود المسألة ، فاني سأضربك فعاد وقل لي : أي
 الحيين أشرف ، اليمن أم مضر ؟ فاذا أجبتك فاترك البغلة وانت حر » .
 ففعل الغلام كما أمره ، وفعل قثم به ما قاله ، الى أن قال : « مضر أشرف ،
 لان منها رسول الله (صلعم) وفيها كتاب الله ، وفيها بيت الله ، ومنها خليفة
 الله » . فامتعضت اليمن من قوله ، لأنه لم يذكر لهم شيئا ، وقال بعض
 قوادهم : « ليس الأمر كذلك مطلقا بغير فضيلة لليمن » . ثم قال للغلام
 له : « قم الى بغلة الشيخ فاكبحها » ففعل حتى كاد يعقبها ، فامتعضت مضر
 وقالوا : « يفعل هذا بشيخنا ؟ » فأمر بعضهم غلامه فضرب يد ذلك الغلام
 فقطعها ، فنفر الحيان ودخل قثم على المنصور . وافترق الجند العربي من
 ذلك الحين ، فصارت مضر فرقة واليمن فرقة والخراسانية فرقة ، وقال

قثم للمنصور : « قد فرقت بين جنك وجعلتهم أحزابا ، كل حزب منهم يخاف أن يحدث حدثا فتضربه بالآخر » (١) (*)

وكان المهدي بن المنصور قد جاء من خراسان ، فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها ، فهناؤه بمقدمه فأجازهم وكساهم ، وفعل المنصور بهم مثل ذلك ، فقال قثم للمنصور : « قد بقي عليك بالتدبير بقية ، وهى أن تعبر بابنك « المهدي » فتنزله في ذلك الجانب من بغداد ، وتحول معه قطعة من جيشك ، فيصير ذلك بلدا وهذا بلدا ، فان فسد عليك أولئك ضربتهم بهؤلاء ، وان فسد عليك هؤلاء ضربتهم بأولئك ، وان فسد عليك بعض القبائل ضربتهم بالقبائل الأخرى » فقبل رايه واستقام ملكه ، وبني المهدي بلدا سماه الرصافة - فاستعان المهدي في استبقاء دولته بسياسة التقسيم

وما زال شأن العرب يضعف في الدولة العباسية تدريجا ، وحزب الفرس يقوى حتى أصبحت الدولة في أيام الرشيد بين عاملين كبيرين : أحدهما فارسى والآخر عربى كل منهما يحاول الاستئثار بالسلطة . وكانت بطانة الخليفة أيضا حزبين ، أحدهما ينتمى الى الفرس والآخر الى العرب . مرجعهما الى ابني الرشيد الأمين والمأمون ، لأن الاول أمه عربية هاشمية (زبيدة) وأم الثانى أمة فارسية يقال ان الرشيد اشتراها لتلد له لأن امراته زبيدة أبطأت في الحمل ، فولدت له عبد الله المأمون ، ثم حملت زبيدة فولدت محمدا الأمين (٢) فوقع بين الوالدتين من التحاسد مثل الذى وقع بين سارة وهاجر امرأتى ابراهيم الخليل . وسرى هذا التحاسد في البطانة ومنه الى سائر رجال الدولة ، وهوى بنى هاشم وسائر العرب مع الأمين ، وهوى سائر رجال الدولة من الفرس وغيرهم مع المأمون . وكان زعيم الحزب العربى الربيع بن يونس وابناؤه من بعده

والربيع يتصل نسبه بكيسان مولى الحرث مولى عثمان بن عفان ، فجدته مولى مولى . ودخل الربيع في جملة موالى المنصور ، فولاه حجابته ثم جعله وزيره ، وكان المنصور شديد الميل اليه حسن الاعتماد عليه ، فسأله يوما عما يتمناه منه فقال : « ان تحب ابني الفضل » . فقال المنصور : « كيف اخترت له المحبة دون كل شيء ؟ » . فقال : « لأنك اذا احببته كبر عندك

(١) ابن الاثير ٢٨٥ ج ٥

(*) روى هذا الخبر الطبرى - ٩ ص ٢٨١ - ٢٨٢ ، وعنه نقله ابن الاثير بتحريف بسيط ، ومن رايانا ان عداوة مضر واليمن لم تشر بهذه القصة ، وانما كانت موجودة بالفعل قبل أيام العباسيين ، وقد روى المؤلف ما كان من شأنها في العصر الاموى . واذا كان ولايد ان نقلها نفي حدود ، وعى انها دبرت للايقاع بين المضرية واليعمنية من جند المنصور

(٢) المسعودى ٢١١ ج ٢

صغير احسانه وصغر عندك كبير اساءته » . ومات الربيع في أيام الهادي سنة ١٧٠ هـ . ولما تولى الرشيد الخلافة واستوزر البرامكة ، سقط في يد الفضل بن الربيع لخروج الوزارة من يده ، فرام التشبه بهم ومعارضتهم ، ولم يكن له من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم ، فكان في نفسه منهم احن وشحناء ، فسعى بهم عند الرشيد ، وكان سعيه من جملة أسباب نكبتهم

نهاب عصبية العرب بذهاب دولة الامين

وكان المأمون ، فضلا عن نسبه الفارسي من أمه ، قد ربي في حجر جعفر بن يحيى البرمكي ، وهو الذي سعى له في ولاية العهد (١) ورباه على حب الفرس . والفضل بن الربيع سعى في تأييد بيعة الأمين . ولما توفي الرشيد بعد مقتل البرامكة ، كان الفضل بن الربيع هو الذي حمل الامين على نقض بيعة المأمون (٢) واختلف الاخوان على البيعة ، وكان المأمون عند أخواله بخراسان ، والأمين في أهله ببغداد ، وانتشب القتال بين الفريقين - وهو قتال بين الفرس والعرب ، لأن العرب في معظم المملكة العباسية كانوا من حزب الأمين (٣) . وقد نصر الخراسانيون ابن أختهم المأمون ، بتدبير الفضل بن سهل . وكان الأمين يحرض جنده في بغداد بمشورة الفضل بن الربيع . وكان العرب من الجند العباسي قد انهكتهم الحضارة والترف ، وتبددوا بسياسة التقسيم ، فلم يستطيعوا دفاعا . فلما ضاق الحال بالأمين ، ولم يبق عنده مال للتجنيد ، استنجد رعاع أهل بغداد ، وفيهم العيارون والشطار وكانوا طوائف كبيرة . وأمر بعض قواده أن يتتبعوا أصحاب الأموال والودائع والذخائر من أهل الملة وغيرهم ، فلم يزد ذلك الا ضعفا . وانقضت تلك الحروب بفوز المأمون ، وسيأتي تفصيل ذلك . فأخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها الى المأمون ، كما أخرجوها قبلا من بني أمية وسلموها الى أجداده

فاستفحل أمر الفرس في أيام المأمون وازداد العرب ضعفا ، حتى كثيرا ما كانوا يتعرضون له في الشوارع يشكون اغضائه عنهم ، ومن أقوالهم : « يا أمير المؤمنين ، انظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان . . » (٤)

فلما أفضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وقد جمع ما جمعه من الاتراك والفراغنة ، كانت الضربة القاضية على العرب في الدولة العباسية ، لانه كتب الى عماله في الاطراف باسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع

(٣) القرظي ١٧٨ ج ١

(٢) ابن الاثير ٨٩ ج ٦

(١) ابن الاثير ٩٤ ج ٦

(٤) ابن الاثير ١٧٦ ج ٦

العطاء عنهم ، ففعلوا وهم يستعبدون بالله من ذلك ، وانحط شأن العرب من ذلك الحين (١) ومنعوا من الولايات . وآخر من ولى مصر منهم عنبسة ابن اسحق ، صرف عنها سنة ٢٤٢ هـ (٢) فتمكن الفرس من الدولة وزادت رغبتهم في نزاعها من العرب على الاطلاق ، فقام مرداويج في اصفهان سنة ٣٢٢ هـ يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة الى الفرس ويبطل دولة العرب (٣) فلم يفلح ، على ان النفوذ تحول بالتدريج الى الخدم ، كما سترى (*)

(١) المقرئى ٩٤ و ٣١١ و ٣١٣ ج ١ وابن خلدون ١٣٠ ج ١ (٢) المقرئى ٢٩٤ ج ٢
(٣) الفخرى ٢٥٣

(*) لم تكن الفتنة بين الامين والمأمون في اول امرها فتنة بين العرب والفرس ، فقد كان حول كل منهما عرب وفرس ، وكان بين العرب المحيطين بالمأمون من لا يقل اخلاصا له عن حوله من الفرس ، وكذلك كان الفرس المحيطون بالامين لا يقل اخلاص بعضهم له عن اخلاص العرب ، وانما الخلاف في أساسه خلاف بين اخوين على الملك ، فان ولاية عهد الرشيد كانت للمأمون اولا ، ولكن الامين عدا على حق اخيه وباع لنفسه ، ولم يكتف بذلك ، بل خلع المأمون من ولاية العهد وباع لابنه فكانت الحرب . بل ان بعض العرب المحيطين بالامين كانوا لا يرون خلع المأمون عن ولاية العهد ، فبينما كان الفضل بن الربيع (وهو مولى) وعلى بن عيسى بن ماهان والسندى وغيرهم من الفرس يحثون الامين على خلع اخيه ، كان عبد الله بن خازم (وهو عربى) يحذره من ذلك . وكان في عسكر المأمون المؤيد له رافع بن الليث بن مضر بن سيار وهزيمة ابن اعين وهما عربيان ، بل ان الكثير من العرب المحيطين بالامين كانوا أميل الى المأمون ، مثال ذلك العباس بن موسى بن عيسى بن محمد بن على العباسى ، فقد ارسله الامين في وفد ليقنع المأمون بالتنازل عن حقه في ولاية العهد ، فلم يلبث ان انضم الى المأمون هذا ولم يكن المأمون فارسى الميول ، ولا الامين عربيا ، وانما كانا كغيرهما من اهل العصر يعيشون في وسط فيه عرب وفرس ، وكان كل منهما يحس انه عربى هاشمى خالص العروبة ، وربما كان ذلك أظهر في المأمون منه في الامين . ولم يتحمس جند العرب للامين ويعتقدوا انه يمثلهم ، ولم ينفر العرب من المأمون ويعتبروه خصما لهم ، وكانت أمور الامين بيد مولى فارسى هو الفضل بن الربيع ، وأمور المأمون بيد مولى فارسى آخر هو الفضل بن سهل الملقب بدي الرياستين

ولم يكن في جيش الامين من العرب نفر كبير ، وقد وصف طاهر بن الحسين قائد المأمون هذا النفر في قوله يصف عسكر الامين : « ان اهل الرى لعلى (بن عيسى بن ماهان) لهائون ومن سطوته مشفقون ، ومعه من اعراب البوادي وصعاليك الجبال والقرى كثير ، ولست آمن ان أقمت بالرى أن يثب اهلها بنا خوفا من على » . وهذا يدل ايضا على خوف قائد المأمون من انقلاب اهل الرى عليه (وهم فرس)

وانما تطور الامر بعض الشيء بعد انتصار طاهر بن الحسين على بن ماهان عند الرى ، فقد كانت الهزيمة وسط بلاد الفرس ، فتشجع الفرس وتزاحموا على جيشه ، وتخاذل أنصار الامين من الفرس ، وانضم الكثير منهم الى المأمون ، بل اضطرب جند الامين في بغداد نفسها ، قال ابن الاثير : « ومشي القواد بعضهم الى بعض في النصف من شوال ، فاتفقوا على طلب الارزاق والشغب ، ففرق فيهم مالا كثيرا ، بعد ان قاتلهم عبد الله بن خازم ، فمنعه الامين » وقد تأكد انصراف قواد الفرس عن الامين بعد هزيمة عبد الرحمن بن جبلة وهو القائد الثانى الذى عينه الامين على جنده بعد قتل على بن عيسى بن ماهان ، فهنا نجد الفرس ينصرفون عن الامين ، لا عن عصبية للمأمون ، بل ميلا الى اخوانهم الذين انتصروا على الامين ، وكان قواد الجند في تلك الاعصر مع الغالب دائما . ولم يجد الامين بعد ذلك قوادا من الفرس يوليهم ، فولى عربيا من امثال أسد بن يزيد بن مزيد واخيه احمد وعبد الله بن حميد بن قحطية ، ومع ذلك فقد كان الذى يتولى الامر للامين هو الفضل بن الربيع وهو مولى كما قلنا ، وكان يشكو من عدم اكترات الامين للامر ولهوه ، وهو المسئول عن ذلك ، لانه هو الذى هون عليه امر اخيه المأمون وتشجعه على عزله ، ومع ذلك فقد أراد ان يتنصل من المسئولية ويلقى التبعة كلها على الامين ،

وفي أيام المأمون ومن جاء بعده تظاهر الشعبوية بالظعن على العرب، وكان المأمون يقربهم ويجعلهم من بطانته ويجيزهم، ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة، وكان شديد التعصب على العرب - وأبو عبيدة الراوية الشهير، وعلان الشعبوية. وألف الشعبوية الكتب في ذكر مثالب العرب والرد على القائلين بتفضيلهم على سواهم من الأمم

والشعبوية يقولون بالمساواة بين بني الانسان، ولذلك سموهم أيضا: « أهل التسوية »، ومن أقوالهم في الرد على العرب أن النبي (صلعم) نفسه ساوى بين المسلمين على اختلاف جنسياتهم بقوله: « المسلمون اخوة، تتكافأ دماءهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم ». وقوله في خطبة حجة الوداع: « ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى ». وما جاء في القرآن: « ان أكرمكم عند الله أتقاكم ». والشعبوية ينوبون بدفاعهم عن كل أمم الارض في ذلك العهد، الا العرب، فاذا افتخروا (أى الشعبوية) بملوكهم ذكروا الفراعنة والنماردة والعمالقة والاكاسرة والقياصرة، وافتخروا بسليمان الحكيم والاسكندر الكبير وملكوك الهند. واذا فاخروهم بالانبياء والمرسلين ذكروا الانبياء من آدم الى أيامهم، وانهم جميعا من غير العرب، الا أربعة هم: هود، وصالح، واسماعيل، ومحمد (صلعم). واذا فاخروهم بالعلم والصناعة والفلسفة، ذكروا اختراع لعبة الشطرنج ورمانة القبان والاسطراب، وفخروا بفلسفة اليونان وأشعارهم وسائر علومهم وعلوم الهند والفرس وغيرهم. وبلغ من جسارة بعض الشعبوية في بعض ردوده أن قال: « فما الذي تفخر به العرب على العجم؟ فانما هي

فقال لاسد بن يزيد بن يزيد: « ان هذا الرجل قد القى بيده القاء الامة الوكعاء، يشاور الناس ويعزم على الرؤيا، وقد امكن مامعه من اهل اللهو والجسارة، فهم يمدونه الظفر ويمنونه عقب الايام، والهالك اسرع اليه من السيل الى قيعان الوحل (كدا)، وقد خشيت والله أن نهلك بهلاكه ونعطب بعطبه، وانت فارس العرب وابن فارسها، وقد فزع اليك في هذا الامر ولقاء هذا الرجل... ». ولم يتم الاتفاق بين الامين ويزيد بن يزيد فحبسه واستدعى أخاه أحمد بن يزيد وسيره في ٢٠ ألف وسير عبد الله بن حميد بن قحطبة في ٢٠ ألف أخرى، ولكنهما اختلفا، فعادا دون قتال، والغالب ان معظم الخلاف وقع بين من معهما من جند العرب والفرس وتبين بوضوح ان الامين لم يعد يستطيع الاعتماد على الفرس. وهنا لجأ الامين الى عبد الملك بن صالح، وكان محبوبا من أيام الرشيد، فأطلقه وولاه القيادة واستشاره فنصحه بالاعتزاز بعرب الشام، وقال له: « يا أمير المؤمنين، أرى الناس قد طمعوا فيك، وجندك قد أعيتهم الهوام وأضعفتهم الحروب وامتلات قلوبهم هيبة لعدوك، فان سيرتهم الى طاهر قلب بقليل ممن معه كثيرهم، وهزم بقوة نيته ضعف نصائحهم ونياتهم، واهل الشام قوم قد خسرتهم الحروب وأدبتهم الشدائد، وكلهم منقاد الى متنازع الى طاعتى، وان وجهنى أمير المؤمنين اتخذت له منهم جندا يعظم نكايتهم في عدوه ». فولاه الامين الشام، وأصبح الامر بهذا صراعا بين العرب والفرس، وخاصة بعد أن وقع النفور بين من بقى على طاعة الامين من جند الفرس وجنده من العرب. فلما دارت الدائرة أخيرا على الامين بدا الامر وكأنه من اوله صراع بين العرب والفرس

كالذئاب العادية والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضا ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثقون في حلق الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الأبل « (١) واستشهدوا على ذلك بأبيات من أقوال العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض وقالوا : « لا يفلح العربي ان لم يكن معه نبي ينصره » (٢) وعيروهم باستلحاق الأدعياء ونظموا الأشعار طعنا فيهم . وممن نظم المطاعن عليهم الحسن بن هانئ وبشار بن برد وغيرهما ، على أن بشارا كان تارة مع هؤلاء وتارة مع هؤلاء

وقام المتعصبون للعرب فألفوا الكتب في الرد على الشعوبية . ومن أشهرها ألف في ذلك كتاب « تفضيل العرب » لابن قتيبة ، وقد رد الشعوبية عليه في مناظرات يطول شرحها . وعلى أي حال فان السياسة وطبيعة العمران قضت بذهاب دولة العرب (*)

٤

(١) العقد الفريد ٦٩ ج ٢ (٢) ابن الأثير ٥٧ ج ٧

(*) الدراسات عن الشعوبية كثيرة ، وأحسن من تحدث عنها في العصر الحديث الاستاذ احمد أمين في « ضحى الاسلام » ، ومن المستشرقين اجناس جولدتسيهر ، اذ له في الموضوع بحثان مهمان هما : الشعوبية Die Shu'ubiyya في كتابه : دراسات اسلامية Mohammedanische Studien ج ١ ص ١٤٧ - ٢١٦ و « الشعوبية بين مسلمي الاندلس :

Die Shu'ubiyya unter den Mohammedanern in Spanien

نشره في مجلة جمعية المستشرقين الامان ZDMG مجلد ٦٣ ص ٦٠١ - ٦٢٠

نكبة الوزراء الفرس

الوزراء الفرس قبل البرامكة

قد رأيت أن الخلفاء العباسيين قربوا الموالي الفرس وولوهم المناصب الكبرى ، فاتخذوا منهم الوزراء والعمال ، فاعتز الفرس وتاقت نفوسهم إلى الاستبداد بالدولة والرجوع إلى ما كانوا فيه على عهد الأكَاسرة . وهم يعلمون أن ذلك لا يتيسر لهم في الإسلام إلا بصيغة دينية تحت راية الخلافة الإسلامية . وربما كان ذلك الأمل في جملة ما حملهم على التشجيع لأهل البيت في أيام بني أمية ونصرتهم في طلب الخلافة

فلما انتقلت البيعة من العلويين إلى العباسيين وبويع هؤلاء بالخلافة ، ثم جعلها المنصور محصورة فيهم دون العلويين ، وقاتل آل الحسن وقتلهم بعد أن قتل أبا مسلم وغيره من شيعته ، لم ير الفرس بدا من الرضوخ لسلطانه خوفا من بأسه . على أنهم ظلوا على مذهب الشيعة ، وتربصوا يتوقعون فرصة يثبون فيها على الدولة أو ينشئون لأنفسهم دولة شيعية وكان الخلفاء يلاحظون ذلك ويحاذرون الوقوع فيه ، فيستخدمون الفرس في أكبر مصالح الدولة على حذر . فاذا رأوا من أحدهم ميلا إلى التشيع عزلوه أو قتلوه ، ولذلك كان الوزراء يكتمون تشيعهم ، والخلفاء يثنون عليهم العيون في منازلهم ، كما فعل المهدي بوزيره يعقوب بن داود ، وأصله من موالي العرب ، وكان في بادئ أمره كاتباً عند إبراهيم بن عبد الله العلوي الحسنى أخى محمد بن عبد الله الذي قام في المدينة وقتله المنصور . وكان يعقوب قد خرج مع محمد هذا على المنصور ، ثم رجع في جملة الراجعين ، وكنم ميله واتصل بالمهدي فاستخدمه وأحبه كثيرا ووثق به ، حتى آخاه وأعلن ذلك في الدواوين ، فقال سلم الخاسر في ذلك :

قل للإمام الذي جاءت خلفته تهدي إليه بحق غير مردود
نعم القرين على التقوى أعنت به أخوك في الله يعقوب بن داود
وأحرز يعقوب المذكور نفوذا عظيما ، حتى غلب على أمور المهدي وسهل له الأسراف والاشتغال عن مصالح الدولة ، وتفرغ هو للعمل ، والعرب لا يعجبهم ذلك ، فجعلوا يعرضون به بالأشعار ونحوها ، والمهدي يسمع أقوالهم ولا يبالي بها - روى أن المهدي حج مرة فمر بمكان عليه كتابة قرأها فاذا هي :

لله درك يا مهدي من رجل لولا اتخاذك يعقوب بن داود

فقال المهدي لمن معه اكتبوا تحته : « على رغم انف الكاتب لهذا وتعسا لجده »

فلما لم يجد أعداؤه حيلة في تغيير قلب المهدي عليه تحولوا الى الوشاية من جهة لا بد للخليفة أن يتنبه لها ، فقالوا له : « ان يعقوب يميل الى العلوية ، وانه كان معهم عند قيامهم على أبيه » فاشتغل خاطره ، وكان يعقوب يكتنم ذلك عنه ، فأراد أن يمتحنه . فدعا به يوما وهو في مجلس فرشه موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية جميلة ، ثم اظهر المهدي أنه مسرور منه فأهداه المجلس بما فيه والجارية أيضا ، ثم تقدم اليه بمهمة طلب قضاءها - وهي أن رجلا من العلوية يريد المهدي أن يتخلص منه ، فأوصى يعقوب أن يقتله ، فوعده بذلك بعد أن أقسم الايمان . وذهب الى منزله واستقدم ذلك العلوي وكلمه فرآه ليبيبا ، وتوسل الرجل اليه ان يحقن دمه ، فحن له يعقوب وعفا عنه وأوصاه بالفرار وساعده بالمال . وكانت الجارية في بعض جوانب البيت تسمع ما جرى ، فنقلت الحكاية كما جرت . فبعث المهدي حتى قبض على الرجل وخبأه ، واتى بيعقوب فاعترف له بما فعله فحبسه بالمطبق عدة سنين ، ولم يخرج الا في السنة السادسة من خلافة الرشيد ، شفيع له يحيى بن خالد البرمكي ، لأنهما من طينة واحدة ومذهب واحد ، وكان يعقوب قد عجز فخيره الرشيد في الإقامة حيث يشاء ، فاختار مكة فسيروه اليها وتوفي فيها سنة ١٨٧ هـ وهي السنة التي نكب فيها البرامكة (*)

الوزراء البرامكة

مرتبتهم في الدولة

لما توفي المهدي والهادي وافضت الخلافة الى الرشيد استوزر البرامكة ، لأن خالدا جدهم من قواد أبي مسلم ، وقد جاهد في نصرة العباسيين جهادا حسنا ، فاستوزره أبو العباس واستعمله المنصور في الحروب كما تقدم . وكان خالد كبير العقل واسع الصدر ، لم يبلغ احد من ولده مبلغه في الجود والرأى والبأس والعلم ، واشتهر ابنه يحيى بموفور العقل وسداد الراى ، وكان مقربا من المهدي يعول على رأيه . وولد ليحيى سنة ١٤٨ هـ غلامه الفضل ، قبل ولادة الخيزران للرشيد بسبعة أيام ، وربى الطفلان معا

(*) روى هذه الاخبار محمد بن عبدوس الجهشيلري في كتاب الوزراء ، القاهرة ١٩٢٨ ص

فارضعت الخيزران الفضل من لبن ابنها ، فكان الفضل بن يحيى اخا الرشيد من الرضاعة ، وفي ذلك يقول سلم الخاسر : (١)

اصبح الفضل والخليفة هرو ن رضيعى لبان خير النساء

ولما ترعرع هرون عهد المهدي الى يحيى بتربيته ، فشب الرشيد في حجره وكان يدعوه : « يا ابي » ، فلما مات المهدي سنة ١٦٩ هـ في جرجان كان اكبر رجال الدولة المقربين يومئذ يحيى بن خالد والربيع بن يونس . وخاف الرشيد اختلال الأمر اذا علم الناس بموت ابيه وهم في تلك الحال ، فاستشار يحيى فأشار عليه برأى كان فيه الصواب ، حتى رجعوا الى بغداد وقد هاج الناس ، وفيها الخيزران أم الهادي والرشيد ، فبعثت الى الربيع ويحيى لتشاورهما ، فأجابها الربيع ولم يجبها يحيى ، وأوصاه أن يقوم بأمر الرشيد كما كان في أيام ابيه ووبخ الربيع (*)

وأول شيء خطر للهادي بعد قبضه على أزمة الخلافة أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد ، ويحول الارث الى ابنه لتبقى الخلافة في نسله ، كما كان يفعل معظم الخلفاء في مثل هذه الحال . فأعلن الهادي عزمه لبعض خاصته

(١) ابن الاثير ٢٧٧ ج ٥

(*) الخبر مختصر هنا بعض الشيء ، ولا بأس من روايته بنصه كما ساقه ابن الاثير (٥ / ٧٢ - ٧٤) لانه ينبيء عما كانت الدولة العباسية تعانيه في ذلك الوقت المبكر من الاضطراب في مسألة وراثة العهد والخوف من الجند واختلاف الوزراء والناصحين فيما بينهم . وقد روى ابن الاثير هذا الخبر بعد حكايته لموت المهدي بماسبذان من أعمال جرجان : « ولما توفي المهدي كان الرشيد معه بماسبذان ، فأتاه الموالى والقواد وقالوا له : ان علم الجند بوفاة المهدي يؤمن الشغب ، والرأى أن تنادى فيهم بالرجوع حتى تواريه ببغداد » ، فقال هارون : ادعوا الى ابي يحيى بن خالد (البرمكى) ، وكان يحيى يتولى ماكان الى الرشيد من أعمال المغرب من الانبار الى افريقية (أى الجزء الغربى من الدولة) ، فاستدعى بيحيى الى الرشيد ، فقال : ما تقول فيما رأى هؤلاء ؟ وأخبره الخبر (أى كتمان أمر وفاة المهدي) قال : لا أرى ذلك ، لان هذا لا يخفى ، ولا آمن اذا علم الجند ان يتعلقوا بمحملة ويقولوا : لانخلى حتى نعطي لثلاث سنين أو أكثر ، أو يتحكموا ويشتطوا ، ولكنى أرى أن يوارى رحمه الله هنا ، وتوجه نصيرا (أحد الموالى) الى أمير المؤمنين الهادي بالخاتم والقضيب والتعزية والتهنئة ، فان الناس لا ينكرون خروجه ، اذ هو (أى نصير) على بريد الناحية ، وان تأمر لمن تبعك من الجند بجوائز مائتين مائتين ، وتنادى فيهم بالرجوع ، فلا تكون لهم همة سوى أهلهم . ففعل ذلك ، فلما قبض الجند الدراهم تنادوا : بغداد ! بغداد !

فلما بلغوها ، وعلموا خبر المهدي أتوا باب الربيع (بن يونس) واحرقوه (غضبا عليه ، وقد كان الربيع وزير المهدي ، فظنوا انه هو الذى كتم عليهم الخبر وضيع عليهم فرصة المطالبة بعالم أكثر) واخرجوا من كان في الحبوس وظالبوا بالارزاق . فلما قدم الرشيد ارسلت الخيزران الى الربيع والى يحيى بن خالد تستدعيهما لتشاورهما في ذلك (وكانت الخيزران أميل الى تولية الرشيد) ، فأما الربيع فدخل عليها ، وأما يحيى فامتنع لما يعلم من غيرة الهادي . وجمع الاموال حتى اعطى الجند لسنين فسكتوا . وكتب الهادي الى الربيع كتابا يتهدده بالقتل ، وكتب الى يحيى يشكره ، ويأمره بأن يقوم بأمر الرشيد . وكان الربيع يود يحيى ويشق به ، فاستشاره فيما يفعل خوفا من الهادي ، فأشار عليه بأن يرسل ولده الفضل الى الهادي بالهدايا والتحف ، ويعتذر اليه ، ففعل ورضى الهادي عنه . وكان الربيع قد أوصى الى يحيى بن خالد ، وأخذت البيعة للهادي ببغداد . وكتب الرشيد الى الأفاق بوفاة المهدي ، وأخذ البيعة للهادي وسار نصير الوصيف الى الهادي بجرجان ، فعلم بوفاة المهدي والبيعة له ، فنادى بالرحيل وركب على البريد مجدا ، فبلغ بغداد فى ٢٠ يوما . ولما قددها استوزر الربيع ، وفى هذه السنة أيضا هلك الربيع «

فوافقوه ، وخلصوا هرون وبايعوا جعفر بن الهادي ، وتنقصوا من الرشيد في مجلس الجماعة . فأمر الهادي الا يسار بين يديه بالحربة ، على جاري العادة في المسير بين يدي ولي العهد ، فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه ، ورضى هو بذلك . ولكن يحيى لم يرض ، بل حرضه على التمسك بحقه في ذلك ، فوشى بعضهم الى الهادي ان يحيى يفسد الرشيد عليه ، فبعث الهادي الى يحيى فقال له : « يا يحيى ، مالي ولك ؟ » . قال : « ما يكون من العبد الى مولاه الا طاعته » . فقال : « لم تدخل بيني وبين اخي وتفسده علي ؟ » فقال : « من أنا حتى ادخل بينكما ؟ انما صيرني المهدي معه ، ثم أمرتني أنت بالقيام بأمره فانهيت الى أمرك » . فطابت نفس الهادي بهذا القول . فاعتنم يحيى رضاه وقال : « يا أمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم ايمانهم ، وان تركتهم على بيعة اخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة » ، قال : « صدقت » وصرفه

فلما لقي الهادي القواد الذين خلعوا الرشيد حملوه على معاودة الخلع ، فبعث الى يحيى فحبسه ، فكتب اليه يحيى وهو في الحبس : « ان عندي نصيحة » فأحضره وسأله عما عنده فقال يحيى : « يا أمير المؤمنين ، أرايت ان كان الأمر الذي لا نبلغه ونسأل الله ان يعدمنا قبله ؟ (يعني موت الهادي) اتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الرشيد ، او يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟ » . قال : « ما اظن ذلك » . قال : « يا أمير المؤمنين ، أفتأمن ان يسمو اليها اكابر أهلك مثل فلان ، ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد ابيك ؟ والله ان هذا الأمر لو لم يعقده المهدي لأخيك لقد كان ينبغي ان تعقده أنت له ، فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي ؟ ولكني أرى ان تقر الأمر على اخيك ، فاذا بلغ (جعفر) أشده أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبايعه » فقبل الهادي قوله وعمل به (١)

وتوفي الهادي ولم يملك الا سنة ، وافضت الخلافة الى الرشيد ، ويحيى اول من بشره بها وأتاه بالخاتم وهو نائم ، فعرف الرشيد فضله في ذلك وقال له : « يا ابي أنت اجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك الأمر » . ودفع اليه خاتمه وجعل اصدار الأمور وايرادها اليه . وكان يعظمه ، فاذا ذكره قال : « ابي » وفي هذه الوزارة يقول الشاعر :

الم تر ان الشمس كانت سقيمة فلما ولي هرون اشرق نورها ؟
بيمن أمين الله هرون ذي الندى فهرون واليها ويحيى وزيرها (٢)

(١) ابن الاثير ٢٩ ج ٦
(*) ابن الاثير : الكامل ٨٢/٥ ، وقد ورد البيتان في الاغانى (٢٨/٥) بصورة اخرى :
الم تر ان الشمس كانت مريضة فلما ولي هارون اشرق نورها
فألبست الدنيا جمالا بوجهه فهارون واليها ويحيى وزيرها

وخلف يحيى اولادا أحسنهم الفضل في جوده ونزاهته ، وجعفر في كتابته وفصاحة لسانه ، ومحمد في بعد همته ، وموسى في شجاعته وبأسه . وقد تولوا أرفع المناصب وتصرفوا في الدولة ، وخصوصا جعفر والفضل ، فضلا عما اشتهروا به من الجود والسخاء ، وكان أبوهم يحيى جوادا مثلهم ، فاشتق الناس من اسمهم فعلا للسخاء فقالوا : « تبرمك الرجل » أى جاد وسخا (*)

واراد الرشيد اكرام يحيى ، فولى ابيه الفضل وجعفر أعظم الاعمال ، فقسم المملكة بينهما ، فجعل جعفر عاملا على الغرب كله من الانبار الى افريقية ، وقلد الفضل الشرق كله من شيروان الى أقصى بلاد الترك . فشخص الفضل الى خراسان سنة ١٧٦ هـ فجعلها مركز عمله ، وأزال سيرة الجور منها وبني المساجد والحياض والربط وأحرق دفاتر البقايا (***) وزاد الجند ووصل الزوار والقواد والكتاب ، لكنه لم يقم فيها الا قليلا ، فاستخلف على عمله وشخص الى العراق سنة ١٧٩ هـ ، فأكرمه الرشيد ثم ولاه الوزارة ، ورأى بعد قليل أن ينقلها الى جعفر فخاطب أباهما قائلا : « قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر ، وقد استحييت من مكاتبته في هذا المعنى فاكتب أنت اليه » . فكتب يحيى الى الفضل : « قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك الى شمالك » ، فأجابه الفضل : « قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في أخى ، وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه » (١)

وتمكن جعفر عند الرشيد وغلب على أمره ، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه ، حتى اتخذ الرشيد ثوبا له زيقان ، فكان يلبسه هو وجعفر جملة . وتصرف جعفر في المملكة تصرفا مطلقا ، لم يكن يمضى أمرا الا أمضاه الرشيد ، ولو كان فيه هبة نصف مملكته أو تزويج بعض بناته . وفي حكايته مع عبد الملك بن صالح الهاشمي ما يمثل ذلك الاطلاق أحسن تمثيل : كان الرشيد متغيرا على عبد الملك لأنه من بنى عمه وله طمع في الخلافة ، فاتفق أن عبد الملك المذكور كان مرة في مجلس شراب بمنزل جعفر ، فلما أراد الانصراف قال له جعفر : « أذكر حوائجك » فشكا اليه أن الرشيد متغير عليه ، فقال له : « قد رضى عنك أمير المؤمنين وزال ما عنده منك » ، فقال : « وعلى... ر... ر... درهم دينا » ، قال : « تقضى عنك وانها لحاضرة »

(*) ويقال أيضا : تبرمك الرجل ، أى ساد وبلغ من السلطان مبلغا عظيما وتصرف في الامور وادركه البطر . انظر دوزى : ملحق القواميس ، مادة : برمك (***) أى بقايا الضرائب المتخلفة من الاعوام الماضية ، وكان العمال يطالبون الناس بها ويرهقونهم . ويسمى الغاء البقايا أيضا بالسامحة (١) الفخرى ١٨٦

ولكن كونها من أمير المؤمنين أشرف بك وادل على حسن ما عنده لك « قال : « وابراهيم ابني أحب ان أرفع قدره بصهر من ولد الخلافة » قال : « قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته » . قال : « وأوثر التنبية على موضعه برفع لواء على رأسه » . قال : « قد ولاه أمير المؤمنين مصر » . وخرج عبد الملك والحضور يعجبون من اقدام جعفر على ذلك من عند نفسه ، وخافوا أن يفضب الرشيد من هذه الجسارة ، فما عثم ان علموا بامضاء الرشيد كل ذلك وهو يقول : « احسن احسن » (١)

ناهيك بما كان من اطلاق يده في خزائن الدولة وفي رقاب الناس . ومع ذلك فان الرشيد حالما أوجس منه على سلطانه نكبه ونكب سائر اهله نكبتهم المشهورة ، واختلف المؤرخون في سببها وهو ما تذكره

نكبة البرامكة

الرشيد والشيعة

كان البرامكة من الشيعة ، وكان جدهم خالد قد بايع للعلويين قبل العباسيين مثل سائر أهل خراسان وفارس . فلما غلب العباسيون وشاهد فتكهم بأبي سلمة ثم بأبي مسلم وسواه ممن يريد الخلافة للعلويين ، رأى من الحكمة وسداد الرأي أن يفضى عن ذلك الامر ، وأخلص الخدمة للسفاح ثم للمنصور . وسار ابنه يحيى وأولاده على نحو ذلك ، وهواهم لا يزال مع الشيعة العلوية من ايثار آل علي ، لكنهم كانوا يكتمون ميلهم وخصوصا في خلافة الرشيد ، لانه كان شديد الوطأة على العلويين وشيعتهم يتتبع خطواتهم ويقتلهم (٢) وكان يكره الشيعة منذ صباه ، وهم يخافونه من قبل الخلافة . فلما تولى الخلافة امر باخراج الطالبين جميعا من بغداد الى المدينة (٣)

واشتهر بذلك حتى أصبح الشعراء يتقربون اليه بهجائهم ، وكان شعراء العلويين يهجونه لهذا السبب ، وهم لا يجسرون على الظهور في حياته . فلما مات ودفن في طوس ، قال دعبل بن علي يعرض بما ارتكبه العباسيون جميعا بقتل العلويين ، من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد ، وأشار الى اجتماع القبرين في طوس - قبر الرشيد وقبر الرضا - قال :

وليس حى من الاحياء نعلمه	من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
الا وهم شركاء في دمائهم	كما تشارك ايسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة	فعل الغزاة بأرض الروم والحزر
أرى أمية معذورين ان قتلوا	ولا أرى لبني العباس من عذر

(١) ابن خلكان ١٦ ج ١ (٢) العقد الفريد ١٤٢ ج ١ (٣) ابن الاثير ٤٧ ج ٦

أربع بطوس على القبر الزكى اذا
قبران في طوس : خير الناس كلهم
ماينفع الرجس من قرب الزكى ولا
هيئات كل امرىء رهن بما كسبت
ما كنت تربع من دير الى وطر
وقبر شرهم ، هذا من العبر !
على الزكى بقرب الرجس من ضرر
له يداه فخذما شئت أو فذر (١) (*)

وكان البرامكة يكرهون تعصب الرشيد على العلوية، ويعدون عمله حراما (٢) ويكظمون . على أنهم كانوا يساعدون الشيعة سرا بما يبلغ اليه امكانهم ، وكان كبارهم يجتمعون الى جعفر ، وجيه البرامكة يومئذ وصاحب الصوت الأعلى عند الرشيد ، ويذكرون أعمال الرشيد ، وجعفر يحاذر أن يبلغ ذلك اليه ، ولكن حساده فى بلاط الخليفة - وأكثرهم من العرب أو من ينتمى اليهم - كانوا يسعون به الى الرشيد ، وأشدهم غيظا منه وأقدرهم على الكيد به زبيدة أم الأمين ، لانه فضل ابن ضرته المأمون على ابنها . وقد اضطغنت عليه مذ كانوا فى الكعبة ، وقد جاءها لتعليق كتابى العهد للأمين والمأمون ، فلما حلف الأمين اليمين على جارى العادة وهم بالخروج من الكعبة ، رده جعفر وقال له : « ان غدرت بأخيك خذلك الله » وطلب اليه أن يحلف على ذلك ثلاثا ، فشق طلبه على أمه زبيدة فحقدتها عليه ، وكانت من جملة من حرص الرشيد على الايقاع به (٣) فضلا عما بينهما من العداوة العنصرية ، وناهيك بمن كان يحسد البرامكة من أمراء العرب ، وخصوصا آل الربيع وآل مزيد الشيبانى ، فان البرامكة أضعفوا نفوذهم فى الدولة وأغروا الرشيد بهم (٤) غير حسادهم من الفرس ، حتى عمهم محمد بن خالد ، فانه كان من جملة حسادهم والساعين فى أذاهم (٥)

هؤلاء جميعا كانوا يوغرون صدر الرشيد على جعفر ، تارة من حيث تشيعه وطورا من حيث استبداده بالدولة ، وآونة من حيث استنثاره هو وأهله بالاموال ، والرشيد يحفظ ذلك ويتدبره ، وقد غلب عليه ما غرس فى نفسه من أفضال يحيى عليه ، وآثار أبنائه فى تنظيم دولته واحياء معالمها ، وان يكن ساء ما يبيده جعفر أحيانا من نصرة العلويين أو استنصارهم، فان جعفر

(١) الاغانى ٥٧ ج ١٨

(*) قال ابو الفرج بعد ان روى هذه الابيات لدعبل الخزاعى : « يعنى قبر الرشيد وغيره (على) الرضا عليه السلام ، فهذه واحدة ، واما الثانية فان المأمون لم يزل يطلبه وهو طائر على وجهه حتى دس اليه قوله ... الخ » . وقد روى الاصفهاني هذا الخبر فى معرض التلام عن تعلق دعبل بالعلويين وانه على رغم احسان الرشيد اليه لم يكذب بسمع بموته حتى قال فيه هذا الشعر بهجوه . وقد فعل دعبل مثل ذلك مع المأمون ، فان هذا قد استرضاه وأحسن اليه ، فأقبل عليه وانشده الشعر ، ولكنه قال رغم ذلك شعرا فى هجائه

(٢) الاغانى ٧٦ ج ٢٠ (٣) المسعودى ١٩٥ ج ٢

(٤) ابن الاثير ٥٧ ج ٦ وابن خلكان ١٧٩ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٧١ ج ٦

لما ولاه الرشيد المغرب استخلف على مصر رجلا شيعيا (١) فكان الرشيد صابرا على ذلك يتربص الفرص

الشيعة العلوية بخراسان

وكان الخراسانيون ومن والاهم من أهل طبرستان والديلم - قبل قيام العباسيين - من شيعة علي ، وانما بايعوا للعباسيين مجاراة لأبي مسلم أو خوفا منه . فلما رأوا ما حل به من القتل غدرا ، غضبوا وتعاقدوا على الأخذ بنأره ، ثم رأوا المنصور فتك بالراوندية اخوانهم وهم من أصحاب أبي مسلم ، ثم بنى بغداد وتحصن فيها ، فتربصوا واذا هو قد حارب العلويين وبطش فيهم ، وفر من بقي من ولد علي الى أطراف المملكة الاسلامية في خراسان والمغرب ، وأخذوا يبثون دعواتهم وينشرون دعوتهم سرا ، فكان الخراسانيون من أقوى أنصارهم انتقاما من المنصور ، لقتله أبي مسلم وعملا بتعاقدهم عليه فكان العباسيون انما يخافون على دولتهم من خراسان ، لانها شيعة العلويين وأهلها أشداء ولهم رهبة في قلوب الناس ، منذ نقلوا الخلافة من بني أمية الى بني العباس . وكان داعية الشيعة هناك في أيام الرشيد يحيى أخا محمد ابن عبد الله الذي حاربه المنصور وقتله . فظهر يحيى هذا في الديلم سنة ١٧٦ هـ وقويت شوكته حتى خافه الرشيد ، فسرح إليه الفضل بن يحيى فاستنزله الفضل من بلاد الديلم بالحسنى ، على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطه ، فكتب له أمانا أمضاه الرشيد وجلة بني هاشم ، وجاء الفضل ومعه يحيى الى بغداد ، فوفى له الرشيد بكل ما أحب وأجرى له أرزاقا سنوية

ثم خطر له أن يحبسه خوفا منه ، ولعل بعض الأعداء الشيعة حرضوه على حبسه ، لكنه لم يكن يستطيع ذلك لعهد الأمان الذي بيده . فاستشاور الفقهاء في الأمان فقال بعضهم : الأمان صحيح ، فحاجه الرشيد فقال الآخر - وهو أبو البخترى القاضى : هذا أمان منتقض من وجه كذا ، فمزقه الرشيد وصمم على حبس الرجل ، فدفعه الى جعفر فحبسه وهو يرى انه مظلوم ، لان جاء على الأمان وقد نكث الرشيد الأمان ، فحدثته نفسه أن يطلقه بما له من النفوذ والقدرة ، ولم يكن يظن الرشيد يسأل عنه . فبعث الى يحيى المذكور من الحبس فخاطبه ، فتوسل الرجل اليه وقال : « اتق الله في امرى ولا تتعرض ان يكون غدا خصمك محمد (صلعم) فوالله ما أحدثت حدثا ولا آويت محدثا » فرق له جعفر وقال : « اذهب حيث شئت من بلاد الله » . قال : « وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ ؟ » فوجه معه من أداه الى مأمته (٢)

(١) السيوطى ١٠ ج ٢ (٢) ابن خلدون ٨ ج ٤ وابن الاثير ٥٠ و ٧٠ ج ٦

وكان حساد جعفر يراقبون حركاته ، وخصوصا الفضل بن الربيع ، لانه كان يرشح نفسه للوزارة بعد أبيه فسبقه اليها أولئك العجم، وكانت له عيون على جعفر فأخبروه بما فعله ، فرفع الخبر الى الرشيد فأنكره ، ولكنه انتهر الفضل وأظهر أن جعفر انما فعله بأمره . ثم بعث الى جعفر فدعاه الى الطعام معه ، وجعل يلقيه ويحدثه ثم سأل عن يحيى فقال : « هو بحاله في الحبس » فقال : « بحياتي ؟ » ففطن جعفر فقال : « لا وحياتك . . » ، وقص عليه أمره وقال : « قد علمت أنه لا مكروه عنده » ، فقال الرشيد : « نعم ما فعلت ، ما عدوت ما في نفسي » . وقد كظم غيظه وعزم على الايقاع به من ذلك الحين . ولما قام جعفر عنه قال في نفسه : « قتلني الله ان لم أقتلك ! » ولكنه مكث يترقب الفرص ويدبر الحيل ، لما يعلمه من نفوذ البرامكة بما يبذلونه من الاموال للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى بنى هاشم أنفسهم

وأراد أن يغالطه لئلا ينتبه جعفر لما في نفس الرشيد عليه ، فأظهر أنه يريد أن يوليه خراسان ، فأخذ الخاتم ودفعه الى أبيه يحيى ، وعقد له على خراسان وسجستان ثم عزله عنها بعد عشرين يوما (١) فهو اما ولاء اياها تمويها أو ولاء ثم خافه

وكان في جملة حساد البرامكة علي بن عيسى بن ماهان ، فسعى بموسى ابن يحيى أخى جعفر واتهمه في أمر خراسان ، وأعلم الرشيد أنه يكاتبهم ليسير اليهم ويحرضهم على خلع الطاعة ، فصدق الرشيد الوشاية فحبسه ثم أطلقه ، ولكنه تغير على البرامكة جميعا وظهر ذلك في بعض معاملاته . فكان يحيى بن خالد مثلا يدخل على الرشيد بغير اذن ، فعرض الرشيد في بعض حديثه استهجانا ذلك فكف يحيى عنه . وكان يحيى اذا دخل على الرشيد قام له الغلمان ، فأوصى الرشيد مسرورا خادمه ألا يقوموا له ، فشعر يحيى بهذا التغير وتناقل الناس خبر ذلك ، ولبثوا يتوقعون شرا يصيب البرامكة وليس من يجروا على اخبارهم به . على انهم كانوا يعرضون في أثناء الغناء بما يخافونه عليهم - ومن ذلك ما كان يغنيه ابن بكار أحيانا :

ما يريد الناس منا ؟ ما تنام الناس عنا ؟
انما همهم أن يظهروا ما قد دفنا

وكان الرشيد يستعظم الاقدام على ذلك الامر ، ويخاف أنصار البرامكة اذا هو فتك بهم ، فأراد أن يستطلع أفكار خاصته في هذا الشأن ليرى وقعه

في قلوبهم ، والمغنون أحسن وسيلة لذلك لمخالطتهم الناس في حال سكرهم
وطربهم ، والسكر يبعث صاحبه على الافشاء بما في ضميره والتصريح بما
يجول في خاطره . فسأل الرشيد مغنية اسحق الموصلى مرة : « بأى شيء
يتحدث الناس ؟ » فقال : « يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة وتولى الفضل
ابن الربيع الوزارة » فأظهر الرشيد الغضب وصاح به : « ما أنت وذاك ؟
ويلك ! » فأمسك (١)

وكان للرشيد عيون على البرامكة في منازلهم ودواوينهم ، يحصون عليهم
أنفاسهم فلا يخلو أن تبدر منهم بادرة تلميحا أو تصريحاً ، والوشاة
يعظمونها له

وكان في جملة جواسيس الرشيد خادمان خزريان رباهما وأهداهما الى
جعفر ، فكانا ينقلان اليه كل ما يدور في مجالس جعفر يوماً . وكان لجعفر
مجلس أنس يعقده في منزله مرة في الاسبوع ، يحضره أرباب الدولة وأهل
الوجاهة من الفرس ، يلبسون اثواباً لونها واحد يخلعها عليهم جعفر ويلبس
مؤمئذهم . ففي أحد هذه المجالس دار الكلام على أبى مسلم وبطشه ، وكيف
استطاع وحده أن ينقل الدولة الاسلامية من عائلة الى عائلة . فقال جعفر
« لا يستغرب ذلك منه ولا فضل له به ، لانه لم يدركه الا بقتل ٦٠٠٠٠٠
نفس سفك دماءهم صبوا ، وانما الرجل من ينقل الدولة من قوم الى قوم بغد
سفك دم » (٢) وكان الغلامان الخزريان يسمعان قوله فنقلاه الى الرشيد
وأفهاماه انه يعرض بنقل الدولة من العباسيين الى الفرس أو العلويين ، فازداد
خوف الرشيد منه

فلما كانت السنة التي نكبوا فيها (سنة ١٨٧ هـ) كان الرشيد قادماً من
الحج وقد صمم على الفتك بجعفر ، فأظهر رضاه عنه وولاه كورة خراسان
أراد بذلك أن يطمئنه ليأخذ الخاتم منه بحجة الولاية ، وخلق عليه وعقد له
لواء وعسكراً بالنهروان . فضرب الناس مضاربهم هناك ومكثوا يتأهبون
للسفر ، وفيهم نخبة من أصحاب جعفر ، وبقي هو ببغداد يتأهب للحاق بهم

وكان له صديق من الهاشميين غيور عليه اسمه اسماعيل بن يحيى ، قد
علم ما في نفس الرشيد على جعفر وأهله ، فأراد أن يتوسط في اصلاح
ما بينهما ، فجاء جعفر في أثناء تأهبه للخروج الى خراسان ، وخلا به وحاد
في شؤون شتى حتى تطرق الى الموضوع الذي جاء من أجله ، فقال له
« يا سيدي أنت عازم على الخروج الى بلدة كثيرة الخير واسعة الاقطار عظيم

(٢) زينة المجالس (فارسي)

(١) الاغانى ١١٢ ج ٥

المملكة ، فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده ، • فلما سمع جعفر قوله غضب كأن ما يجول في نفس الرشيد لم يخطر بباله وقال : « والله يا اسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك الا بفضلتي ، ولا قامت هذه الدولة الا بنا • أما كفى أنى تركته لا يهتم بشيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيوت أمواله مالا ، وما زلت للامور الجليلة أدبرها حتى يمد عينه الى ما ادخرته واخترته لولدى وعقبى بعدى ، وداخله حسد بنى هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع ؟ والله لئن سألتني شيئا من ذلك ليكونن وبالا عليه ! » كأنه يهدده بذهاب خراسان • فلما سمع اسماعيل تهديده ورأى غضبه ، خرج من عنده واحتجب عنه وعن الرشيد ، لأنه صار متهما عندهما

فسمع ذلك الحديث أحد جواسيس الرشيد ونقله اليه ، فصمم على الفتك به • ولعله كان ينوى القبض عليه وحبسه فقط ، فلما بلغه هذا التهديد عزم على قتله • وأكبر الاقدام على ذلك ، فاستشار زبيدة امرأته، وصرح بما يجول في خاطره قائلا : « انى خائف ان تمكن هؤلاء من خراسان أن يخرج الامر من يدي » فحرضته على سرعة الفتك به ، ويقال انها ذكرت له أمورا ارتكبتها جعفر في بيت الرشيد (١) تتعلق بالعباسة أخته • فاغتنم الرشيد بعد جعفر عن رجاله ومريديه ، وهم في عسكره بالنهروان وهو في بغداد، وبعث خادمه مسرورا ليأتيه برأسه ، فذهب اليه وقتله كما هو مشهور • ووجه الرشيد من أحاط بأبيه يحيى وسائر أولاده وبأخيه الفضل ليلا ، فحبسهم وقبض ما وجدته لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك ، وأرسل الى سائر البلاد يقبض على أموالهم ووكلائهم ورقيقهم وأسبابهم ، ولم يتعرض لمحمد بن خالد لانه كان من جملة الساعين بهم ، وأسند الوزارة بعدهم الى الفضل بن الربيع عدوهم • ثم ندم الرشيد على قتل البرامكة وكان اذا ذكرهم بكى (٢) وقد أصاب جعفر من الرشيد كما أصاب بزرجمهر وزير كسرى ابرويز ، اذ اتهمه كسرى بالزندقة فقبض عليه وقتله ثم ندم على قتله (٣)

فالرشيد فتك بالبرامكة لانه خافهم على سلطانه، عملا بسياسة العباسيين في تأييد دولتهم ، اذ اتهم جعفر وشك فيه فقتله • وهى غير سياستهم في معاملة رعاياهم ، فانها كانت مؤسسة غالبا على ما تقتضيه الشريعة الاسلامية ويستدعيه الحق ، مع رفق وحلم وبذل ومحاسنة ، ولا سيما الرشيد فقد كان اذا وعظته بكى ، واذا استعطفته عفا واذا استجديته سخا ، حتى جرى خبره مجرى الامثال • أما العلويون فكان لا يخاف الله فيهم (٤) ولا فيمن

(١) الاتليدى ١١٣ (٢) الاغانى ٧٤ ج ١٧ (٣) المسعودى ١١٩ ج ١

(٤) الفخرى ١٧

يدعو اليهم أو ينصرهم (*)

الأمين والمأمون

أو العرب والفرس

لما قتل البرامكة على هذه الصورة غضب أهل خراسان وتضاعفت نقيمتهم على الدولة العباسية ، وتعاقدوا على الاخذ بثأر أبي مسلم والبرامكة ، وترقبوا يتربصون الفرص . وتوجهت آمالهم الى المأمون لان أمه فارسية ، وقد شب في حجر جعفر البرمكي على الميل الى الشيعة العلوية - ولم تكن الشيعة يومئذ مذهباً دينياً كما هي اليوم ، وانما كانت حزبا سياسيا يراد

(*) لانهمنا قضية البرامكة هنا من حيث ما وقع بينهم وبين الرشيد ، فهذه مسألة مكانها كتاب في التاريخ السياسي العام للدولة الإسلامية ، ولكنها تهتمنا من حيث دلالاتها الاجتماعية ، فان تاريخ آل برمك يمضي بنا في أعماق تكوين الإدارة العباسية ، ويطلعنا على حقائق كثيرة تتعلق بطبيعة رجالها وأساليبهم في العمل وغاياتهم من وراءه . والبرامكة خير نموذج لمثل هذه الدراسة ، فان بيتهم يسير موازيا لبيت العباسيين من اول الامر ، ولم يبالغ جعفر بن يحيى البرمكي عندما امتن على الرشيد بأفضاله عليه وافضال أهل بيته على البيت العباسي ، ففي محاذاة كل عباسي نجد برمكيا لا يقل عنه مهارة او قدرة ، بل ان تاريخهم في الاسلام يرجع الى ما قبل الدولة العباسية بكثير ، يرجع الى أيام الفتح نفسه . والرأي السائد أن آل برمك كانوا أول أمرهم مجوسا ، وأنهم كانوا سدنة لبيت النار المسمى نوبهار . وقد أثبت بارتولد ان نوبهار لم يكن بيت نار ، بل ديرا لرهبان البوذيين ، وقد تحدث عنه السائح الصيني هيوانج - شوانج ، ووصفه في القرن الثامن الميلادي ، وترجم الوصف St. Julien في كتابه :

Mémoires sur les contrées occidentales, I, 30 sqq.
Histoire de la vie de Hiouen-Tsang, p. 64.

وانظر ايضا :

Browne, A literary history of Persia, p. 257.

وقد استولى العرب على بلخ وخرابوا النوبهار عام ٦٦٢/٤٢ - ٦٦٤ . ويقال ان برمك رئيس الدير أسلم اذ ذاك ، ولكن ذلك مشكوك فيه . وقد دخل برمك في خدمة المسلمين منذ أيام الامويين ، ويقال ان زوج برمك وقعت أسيرة بيد قتيبة بن مسلم فتراها أخوه عبد الملك ، وحملته منه بخالد ، ثم أطلقها بعد ذلك ، وهناك من يقول ان خالدا فارسي الاب والام ، وان أمه ابنة أمير الصاغانيان . ويقال ان برمك كان ماهرا في الطب ، وانه شفى الامير مسلمة بن عبد الملك ، ودخل في خدمة عبد الملك بن مروان . اما صلة البرامكة بالعباسيين فترجع الى أيام الدعوة السرية الاولى ، أيام كان الدعاء يدعون للرضا من اهل البيت ، دون نص على عباسي او علوي وكاد يصيب برمك ما اصاب ابا سلمة الخلال عند قيام الدولة ، ومن المعروف ان ابا سلمة راح ضحية الحركة السرية التي قام بها ابو العباس واعمامه فاخطفوا بها الخلافة بواسطة ابي مسلم ، ولم يقر الكثيرون من انصار الدعوة ذلك ، او فوجئوا به فترددوا بين ما كانوا يدعون له من العلوية وما صار اليه الامر بالفعل من العباسية ، فتخلص ابو العباس من المترددين في سرعة وقسوة ، وكان من الضحايا ابو مسلمة وغيره . واذا كان برمك قد تردد ، فن ابنته خالدا لم يتردد في الالتقاء بطاعته كاملة الى العباسيين ، وتذهب الروايات الى انه ربي في بيت العباسيين ، وتقص في ذلك قصصا طويلا يحتاج الى دراسة . والثابت ان خالدا بلغ مبلغا عظيما من السلطان أيام المنصور ، وولى له الوزارة . وقد قدم خالد للمنصور هدية قدره ٢٧٠٠٠٠ درهم ليفوز لنفسه بولاية الموصل ، ولاينه يحيى بولاية آذربيجان . وعندما تولم الرشيد ترك يحيى آذربيجان واقبل ليتولى وزارة الرشيد ، وقد اطلق له الرشيد الامر فأصبح صاحب سلطان مطلق خطر ، وهو لا يسأل عن ذلك ، وانما يسأل عنه الرشيد فهو الذي سلم اليه ذلك ، وكان الرشيد اذ ذاك صغيرا لا تتجاوز سنه الثالثة والعشرين ، وقد استعاض يحيى بابنيه الفضل وجعفر ، فاما الفضل فكان حذرا قليل الاختلاط بالرشيد في حين أن جعفر أسرف في ذلك اسرافا كانت نتيجته هلاكه . وليس من الضروري ان نرد انقلاب الرشيد على جعفر

به جماعة الفرس أو غيرهم من أنصار العلويين • فتمكن حب الفرس ومذهبهم من نفس المأمون منذ نعومة أظفاره ، وكان يحيى بن خالد قد اختار الفضل ابن سهل السرخسى لخدمة المأمون • والفضل أصله من مجوس خراسان ، أسلم على يد المأمون (١) سنة ١٩٠ هـ وتشيع طمعا في نصرته الفرس في خراسان ، وكان هماما فقدمه يحيى في الدولة حتى صار من خاصته ، ثم جعله قهرمانا له • وتوسم الفضل في المأمون نجابة وتعقلا ، فتوقع أن تصير الخلافة اليه فلزمه وخدمه وتقرب منه • وكان المأمون يجعله ويقدمه، ولم يكن الفضل طامعا في أقل من الوزارة - يحكى أن مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رأيه في الفضل واكرامه اياه ، نقل ذلك للفضل وقال له : « لا أستبعد أن يحصل لك منه ١٠٠٠٠٠٠ درهم » فاغتناظ الفضل وقال : « والله ما صحبتته لاكتسب منه مالا قل أو جل ، ولكنى صحبتته ليمضى حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب » (٢)

وكان الرشيد لما بايع لاولاده بولاية العهد جعل للأمين العراق والشام الى آخر المغرب وهو الخليفة بعده ، وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق (٣) على أن يتولى الخلافة بعد أخيه الأمين • وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من أحزاب الشيعة ، وفي جملتهم الفضل بن سهل ، وأراد الرشيد سنة ١٩٢ هـ أن يسير الى خراسان ، فأمر ابنه المأمون أن يبقى في بغداد حتى يرجع • وكان الرشيد مريضا ، فخاف الفضل أن يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه هدرا ، فجاء الى المأمون وقال له : « لست تدري ما يحدث بالرشيد ، وخراسان ولايتك ومحمد الأمين المقدم عليك ، وإن أحسن ما يصنعه بك أن يخلعك ، وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها كما تعلم ،

الى علوية كان يسترها جعفر ، فقد كان بعيدا عن هذه النواحي العاطفية ، وكان يتمتع بسُلطان لا مزيد عليه ، وليس من الضروري أيضا أن نلقى بالا الى ما يقال من صلة جعفر بالعباسة ، فهذه أسطورة مستبعدة الحدوث ، وليس هناك ما يؤيد مسلك جعفر في مسألة يحيى بن عبد الله العلوي ، فقد روى المؤرخون مثلها تماما فيما يتصل بالمهدى واحداً العلويين ، وإنما الحقيقة ان السلطان الذي وصل اليه جعفر كان عظيما جدا ، ومسئوليته خطيرة ، وكلما مضى الزمن زاد تمكن جعفر وسلطانه وكثرت وشايات الحساد فيه ، وكان بلاط العباسيين حافلا بالحسد والحساد ، وكانت الكراهية بين رجال البلاط عظيمة ، وكل منهم يقيم الجواسيس على الآخر • وكان في خلق الرشيد عاطفية وخجل واضطغان • أضف الى ذلك أن منافسات الحريم كانت على أقصاها ، وكل واحدة من نساء الرشيد ترجو ان يكون الامر لابنتها ، وقد اتخذ يحيى من اول الامر موقفا معارضا لزبيدة ام الامين ، فعملت على التخلص منه • ومما يلاحظ ان الرشيد لم يفض على البرامكة كلهم ، بل على جعفر فقط ، ثم أخذ الباقيين بجريزته ، ثم اسف على ما فعل بعد فوات الفرصة

انظر - بالإضافة الى الطبرى ، وهو اوسع المؤرخين تفصيلا في هذه الناحية - ضياء الدين البرنى : « اخبارى برمكيان » ، قطعة نشرها Schefer في Christometie Persane 11, 2-54 والمسعودى : « مروج الذهب » ٤ / ٣٦١ - ٣٦٢ وانظر مادتي الرشيد وجعفر عند ابن خلكان (١) ابن خلكان ٤١٣ ج ١ وابن الاثير ٧٩ ج ٦ (٢) الفخرى ٢٠٣ (٣) ابن الاثير ٦٩ ج ٦

فماطلب الى أمير المؤمنين أن تسير معه « فطلب المأمون ذلك من أبيه فامتنع أولاً ، ثم أجاب - ولا بد لامتناعه من سبب كان يجول في خاطره ، وهو يتوقع قرب أجله ويرى لاولاده عليه رقباء (١) يحصون أنفاسه ويستطيّلون بقاءه

فسار المأمون مع أبيه والفضل معهما ، واهتم الفضل في أثناء الطريق بتأييد أمر المأمون ، فأخذ له البيعة على كل من في عسكر الرشيد من القواد وغيرهم ، وأقر له الرشيد وهو في طوس والأمين في بغداد ، وله عيون مع الرشيد أشدهم غيرة عليه الفضل بن الربيع ، وزير الرشيد بعد البرامكة . فلما بلغ الأمين اشتداد المرض على أبيه بعث الى ابن الربيع وغيره يستحثهم على بيعته . فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ هـ احتال ابن الربيع على من كان في ذلك العسكر ، والمأمون غائب في مرو وحرصهم على اللحاق بالأمين . فأطاعوه رغبة منهم في الرجوع الى أهلهم وأولادهم في بغداد ، وأغفلوا العهود التي أخذت عليهم للمأمون ، وحملوا ما كان في عسكر الرشيد الى الأمين ، وتمت البيعة له . ثم حسن الفضل بن الربيع للأمين أن يخلع أخاه المأمون من ولاية العهد ، ففعل

الفضل بن سهل وعلى الرضا

فلما بلغ المأمون موت أبيه ، ورجوع رجاله الى أخيه بالاموال والاحمال وقد نكثوا عهده ، خاف على نفسه فجمع خاصته بمرو وشاورهم في الامر ، وأظهر لهم ضعفه وانه لا يقوى على أخيه ، فنشطوه ووعدوه خيراً . وقال له الفضل بن سهل : « أنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم . اصبر وأنا أضمن لك الخلافة » ، فاطمأن خاطر المأمون بهذا الوعد الصريح وقال له : « قد صبرت وجعلت الامر اليك فقم به » وسماه ذا الرياستين ، أى رياسة السيف ورياسة القلم

فبذل الفضل جهده في نصرة المأمون ، لانه انما يعمل لنفسه ووطنه وأمته ، واستمال الناس وضبط الثغور . وتعاضمت العداوة بين الأخوين ، وقطعت الدروب بينهما من بغداد الى خراسان ، وأبطل كل منهما اسم أخيه من الخطبة ، وتجردت الجيوش وحدثت معارك هائلة فاز فيها جند المأمون ، وهم الفرس بقيادة طاهر بن الحسين ، وانتهت الحرب بفتح بغداد وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ ، وقد حملوا رأسه الى المأمون في خراسان . فلما تحقق المأمون صدق ما عاهده الفضل عليه ، أصبح آله بيده لا يخالفه في شيء . فاستبد الفضل في الدولة ، وولى أخاه الحسن بن سهل كور الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن ، على ان يكون مقامه في بغداد . ثم اغتتم

(١) ابن الاثير ٨٢ ج ٦

عده الفرصة لنقل الخلافة الى العلويين . وكان داعيتهم يومئذ في خراسان على بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، المعروف بعلي الرضا . فبذل الفضل جهده في تحريض المأمون على بيعة علي الرضا بولاية العهد بعده ، أي أن يخرج الخلافة من بني العباس الى العلويين . وربما جعل تلك البيعة شرطا لمساعدته في استرجاع الخلافة له ، أو أنه حسن له ذلك ولم يشترطه . فأجابته المأمون الى طلبه ، اما وفاء لوعده ، أو مجاراة له للمكر به ، أو أنه فعله عن حسن ظن في العلويين ، لأنه رضع حب الشيعة من طفولته وكان يظهر التشيع (١) فبايع لعلي الرضا سنة ٢٠١ هـ وجعله الخليفة بعده ، ولقبه « الرضا من آل محمد » ، وأمر جنده بطرح السواد لباس العباسيين ولبس الحضرة ، وكتب بذلك الى الآفاق

فلما بلغ ذلك الخبر الى بغداد ضج الهاشميون وأتباعهم ، وأعظموا الامر وامتنعوا عن البيعة لعلي المذكور ، وقالوا : لا تخرج الخلافة من ولد العباس ، وقد تحققوا أن تلك البيعة انما هي دسياسة من الفضل بن سهل ، فأنكروا ولاية أخيه الحسن بن سهل على بغداد . وأقروا أخيرا على خلع المأمون وبيعة عمه ابراهيم بن المهدي ، فبايعوه ولقبوه « المبارك » ، وبعث الهاشميون الى المأمون يهددونه بالقتل اذا بقي على عزمه

وكان الفضل بن سهل يخفي هذه الاخبار عن المأمون ، لئلا يخاف فيندم وينكث البيعة فيخلع عليا فيذهب سعيه عبثا . وكان علي الرضا مطلعاً على ما حدث في بغداد ، وأبت نفسه أن يحدث ذلك بسببه ، ولا يطالع المأمون عليه فجاءه بنفسه وأخبره بما صار اليه حال بغداد ، وأنهم بايعوا ابراهيم ابن المهدي . فاستغرب المأمون الخبر ولم يصدقها وقال : « بل هم ولوه عليهم في أثناء غيابي ، كذلك أخبرني الفضل » . فقال له : « ان الفضل قد كذبك » فأدرك المأمون دسياسة الفضل ، وأنه انما نصره لهذا الغرض ، وشك فيه فحل قتله عنده ، فدس اليه أناسا قتلوه في الحمام بسرخس مغافصة ثم حاكمهم على قتله وقتلهم به (٢)

وفكر في بيعة علي الرضا ، فأعظم أن يرجع عنها وخاف اذا رجع أن يثور عليه أهل خراسان ويقتلوه ، فعمد الى سياسة الفتك فدس اليه من أطعمه عنبا مسموما فمات (٣) فذهبت الاسباب التي أغضبت أهل بغداد ، فخلعوا ابراهيم بن المهدي وعادوا الى بيعة المأمون . فهرب ابراهيم والفضل بن الربيع وسائر الذين كانوا مع الأئمة في تلك الثورة ، وجاء المأمون بغداد سنة ٢٠٤ هـ واستقر بها . ودفعاً للشبهة فيما اشتهر به من حب آل أبي طالب اضطهادهم

(١) المسعودي ٢٢٤ ج ٢

(٢) ابن الاثير ١٤٣ ج ٦ والفخرى ١٩٩ والافغانى ٣١ ج ٩ وابن خلكان ٤١٤ ج ١

(٣) ابن الاثير ١٤٤ ج ٦ والفخرى ١٩٩

ومنعمهم من الدخول عليه وأمرهم بلبس السواد (١)

فاضطرب أمر الشيعة في بغداد ، مع بقاء النفوذ للفرس وهم يكتمون تشيعهم الى آخر خلافة الواثق ، فلما تولى المتوكل سنة ٢٣٢هـ اضطهد الشيعة وشدد النكير عليهم ، لانه كان قد ربي من حدائثه بين جماعة أهل عصبية عربية يكرهون الفرس أو الشيعة ، منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي من بنى شامة ، وعمرو بن فرخ الرخجي ، وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة ، الذي كان يتقرب الى الرشيد بهجو العلويين وهو من موالي بنى أمية . وكانوا يخوفون المتوكل من الشيعة على الاجمال ، ويشيرون عليه بابعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ، ثم حسنوا له الواقعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين . فأثرت أقوالهم فيه ، وشب على كره الشيعة وكره الخلفاء الذين كانوا ينصرون الشيعة قبله ، وهم المأمون والمعتصم والواثق (٢) كما أثرت تربية البرامكة في المأمون وحببوا اليه الشيعة وأهلها (٣)

فلما تولى المتوكل أمر بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المباني ، ومنع الناس من اتيانه ، وبالغ في بغضه عليا وأهل بيته حتى جعله سخرية - ذكروا أنه كان في جملة ندمائه مخنث اسمه عبادة ، كان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع تشبها بالامام علي ، ويرقص ويقول : « قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين » (يعني عليا) والمتوكل يشرب ويضحك (٢) وغلبت السنة في الدولة من ذلك الحين وقوامها الاتراك ، كما سيأتي . وبذهاب أمر الشيعة من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وبخلافة المتوكل ينقضي العصر الفارسي الاول

(١) ابن الاثير ١٥٦ ج ٦ (٢) ابن الاثير ٢٢ ج ٧

(*) كشفت حرب الامين والمأمون عن نواحي الضعف في الدولة العباسية بصورة تلقى ضوءا على كثير من الحوادث التي وقعت قبلها . فقد بدا بوضوح ان الامور المالية كانت مضطربة من زمن بعيد ، وان خزائن بغداد كانت خاوية تقريبا ، وان الجند هم أصحاب الكلمة العليا ، وانهم كانوا شرادم من العتاة لا يحرسون على شيء قدر ما يحرسون على ما يصيبون من مال ، ويكفي ان تستعيد مشهد قتل الامين حتى تستدل على ان الدولة فقدت الهيبة وان القلوب فقدت الايمان والرحمة - أما ما يقال من مبايعة المأمون لعلي بن موسى الرضا بولاية العهد ، فلم يكن ذلك الا حيلة منه اراد ان يكسب بها تأييد أهل بغداد ، فلما رأى ان حيلته لم تنفع انصرف عنها . كذلك كان رجال الدولة من طراز سيء جدا ، وظاهر بن الحسين نفسه نموذج سيء لرجال الحرب ، فهو لم يثبت فيها كفاية ، بل غلبه سوقة بغداد مرارا ، فكان يلجأ الى حرق البيوت على الناس . ولما صار الامين في يده أمر به قتل علي صورة لاشهامة فيها ولا مروءة ، وكان الفضل بن سهل اسوأ من ظاهر بن الحسين ، اصف الى ذلك ان البيت العباسي نفسه كان خلوا من الرجال الذين يعتمد عليهم ، وفي تصرفات المأمون نفسه ما يدل على أنه لم يكن خيرا من أخيه الامين ، وكان الامر قد وصل الى ان أصبحت الخلافة غنيمة لمن غلب ، واذا كانت الدولة قد استقامت بعد ذلك ، فقد كان ذلك مصادفة ، وكان ظاهرا ان الدولة في حاجة الى انشاء جديد ، وبدلا من ان يهتم المأمون بذلك جعل همه تكوين جنس جديد من المحاربين ، فبدأت قصة الاتراك وحلوا بعد قليل محل الفرس ، ولم يحسن انشاء القوة الجديدة ، فلم يلبث الاتراك ان صاروا أسوأ من الفرس

(٣) أبو الفداء ٤٠ ج ٢

الاسرار فى الدولة العباسية

واشتهر بنو العباس على الخصوص بحفظ الاسرار والتكتم فيما ينوونه ، وكانوا يفرضون ذلك على مواليهم ورجال بطانتهم ، ولاسيما فيما يحتاجون اليه لتثبيت دعائم دولتهم ، كما رأيت من تصرف الخلفاء مع قوادهم ووزرائهم من أول دولتهم ، وخصوصا المنصور مع أعمامه وأبى مسلم وغيرهم، وتصرف الرشيد مع البرامكة ، والمأمون مع الفضل بن سهل وعلى الرضا وطاهر بن الحسين . وكانوا يرون كتمان مشروعاتهم شرطا من شروط نجاحها ، كما فعل قثم بن العباس فى التفريق بين فرق الجند بحيلة لم يشأ أن يطلع المنصور عليها . وكانوا يستعينون على ذلك بالعيون والارصاد ، وكل منهم يتجسس على صاحبه . فيبث الخليفة العيون على قواده ووزرائه ، ووزراؤه يقيمون الارصاد عليه . فربما كان خادم الرجل وجاريتة عينا عليه ، وقد يقيم الخليفة الجواسيس والرقباء على أولاده أو أخوته، أو يقيم ولاية العهد الرقباء على آبائهم، كما فعل الأمين والمأمون بأبيهم الرشيد ، فقد كان رقيب المأمون على أبيه مسرورا الخادم ، ورقيب الأمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب ، وكانوا يحصون أنفاسه (١) كما تقدم

ولما تولى المأمون ائحلافة وأتى بغداد كان يتجسس على ابراهيم بن المهدي ، فألزمه رجلا ينقل اليه كل ما يسمعه من لفظه جدا أو هزلا (٢) وهكذا كان سائر الخلفاء ، وخصوصا فى أواخر الدولة ، لان التجسس يكثر اذا مالت الدولة الى السقوط وتدانست من الهرم ، كما سيجىء . وكان للوزراء عيون على الخلفاء ، وللخلفاء عيون على العمال ، هم أصحاب البريد أو أصحاب الاخبار، غير ما كانوا يبثونه من الخدم والجوارى والمغنيات لهذه الاغراض - كانوا يفعلون ذلك خوفا على سلطانهم ، فبالغوا فى التكتم الى ما يفوق الوصف . فكان للمأمون على كل واحد صاحب خبر ، وكان يغتفر كل شىء الا القدح فى الملك وافشاء السر والتعريض بالحريم (٣)

وبمحافظةهم على الاسرار والتكتم فى أعمالهم ، اشكل على الناس كثير من الحوادث التى جرت فى أيامهم ولم يفهموا أسبابها . فنكبة البرامكة مثلا تكهن المؤرخون فى تدوينها رجما بالغيب ، وذهبوا فى أسبابها كل مذهب . وكم من قتيل لم يعرف قاتله فحسبوه مات من أكلة عنب أو تمر أو غير ذلك ، وانما قتل مسموما بدسياسة بعض الخلفاء أو القواد أو ولاية العهد الى طبيبه أو صاحب داره (٤)

(١) ابن الاثير ٨٢ ج ٦ (٢) الاغانى ٨٢ ج ٢٠

(٣) المسعودى ٢٢٥ ج ٢ وطبقات الاطباء ١٧١ ج ١ (٤) طبقات الاطباء ١٨٢ ج ١

اختلاط الانساب بعد الاسلام

قد رأيت ما كان للعرب من العناية في حفظ أنسابهم حتى كانوا يحتقرون من لم يكن مولودا من أبوين عربيين ، فاذا كان أبوه غير عربي سموه المذرع ، وان كانت أمه أعجمية سموه الهجين . واذا كانت أمه أمة استعبدوه ، فاذا أنجب (*) اعترفوا به ، والا ظل عبدا ، والعرب لا تورث الهجين ، وهو من قبيل احتقارهم غير العرب كما تقدم

أبناء الاماء

ولما جاء الاسلام وغلب العرب على أمم الشرق من فارس والترك وغيرها ، وكثرت السبايا في أثناء الفتوح، اتخذوا من النساء أظنارا ودايات ومراضع، واقتنوا الجوارى للفراش ، وكانوا في بادئ الرأي يكرهون التزوج بهن ويحتقرون أبناءهن ، وخصوصا في الحجاز مركز الجامعة العربية ، حتى نشأ في المدينة ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من الاماء ، وهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ، وفاقوا أهل المدينة فقها وعلماء وورعا فرغب الناس في السرارى (١)

على أن بنى أمية ظلوا يحتقرون أبناء الاماء ، تعصبا للعرب على العجم ، فبلغ عبد الملك يوما أن علي بن الحسن تزوج جارية له واعتقها ، فكتب اليه يؤنب فأجابه علي : « ان الله رفع بالاسلام الخسيصة واتم النقيصة واكرم به من اللؤم . فلا عار على مسلم ، وهذا رسول الله (صلعم) قد تزوج أمته وامرأة عبده » ، فلما تلا عبد الملك جوابه قال : « ان علي بن الحسين يشرف من حيث يتضعب الناس » . علي أن العرب أصبحوا بعد الاسلام يرفعون من شأن الهجناء ، اعتمادا على أن النسب ليس من قبيل الام وانما النسب للآباء عملا بقول الشاعر :

لا تشتمن امرا من أن تكون له أم من الروم أو سوداء عجماء
فانما أمهات القوم أوعية مستودعات ، وللأحساب آباء

أما بنو أمية فظلوا على احتقارهم بنى الاماء الى أواخر دولتهم ، وكانوا لا يستخلفونهم ، وقالوا : لا تصلح لهم العرب . ولذلك لما قام زيد بن علي بن الحسين يطالب بالخلافة في أيام هشام بن عبد الملك عيره هشام بقوله : « أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وانت ابن أمة ؟ » قال : « يا امير المؤمنين ، ان الاميات لا يقعدن بالرجال عن الغايات . وقد كانت أم اسماعيل أمة لام أسحق ، فلم يمنعه ذلك ان بعثه الله نبيا وجعله للعرب آبا ، فأخرج مرا صلبة خير البشر محمدا » (٢) فالعلويون كانوا اقرب للاختلاط بغير العرب

(*) أي اذا ظهرت نجابته

(١) العقد الفريد ٢٢٩ ج ٢ (٢) المسعودي ١٢٠ ج ٢

استنكافا من شدة تعصب بنى أمية للعرب ، ولذلك كان الموالي أكثرهم من شيعة العلويين

وكان العرب في صدر الاسلام بهذا الاعتبار طائفتين ، فيهم من يحقر أبناء الاماء وفيهم من لا يجعل لنسب الام قيمة - ذكروا أن عبد الملك بن مروان سابق ولديه سليمان ومسلمة ، فسبق سليمان فقال عبد الملك :

الم أنهمم أن تحملوا هجناكم
وما يستوى المرآن: هذا ابن حرة
وتضعف عضداه ويقصر سوطه
وأدركنه خالاته فنزعنه
وهاك ما قاله حاتم الطائي :

ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
ولا كلفت خبزا ولا طبخت قدرا
فجاءت بهم بيضا وجوههم زهرا
إذا لقي الأبطال يطعنهم شزرا
فيوردها بيضا ويصدرها حمرا
إذا ما سرى ليل الدجى قمرا بدر (١)

على أن طبيعة العمران غلبت على ما اراده الامويون من حفظ النسب العربي ، وقضى الاختلاط بالاعاجم باختلاط الانساب ، حتى في الخلفاء من بنى أمية ، فبايعوا في أواخر دولتهم لابناء الاماء . وأول من تولى الخلافة من الخلفاء الهجناء يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ ، ولكن أمه كانت من نسل يزدجرد بن كسرى ، سبها قتيبة ببلاد الصفد وأرسلها الى الحجاج فقدمها الحجاج الى الوليد بن عبد الملك فأولدها يزيد (٢) ويقال أن بنى أمية حظروا مبايعة بنى الاماء ، ليس لاستهانة بهم ولكنهم كانوا يرون زوال دولتهم على يد ابن أمة ، فلما تولى يزيد المذكور ظنوه الذي يذهب ملكهم على يده ، فلم يلبث سبعة أشهر حتى مات ، ووثب مكانه مروان بن محمد وأمه أمة كردية ، فذهب ملكهم على يده

الخلفاء الهجناء

أما بنو العباس فقامت دولتهم بالموالي ، وقد ضعفت في أيامهم العصبيية العربية لكثرة الاختلاط ، فأصبحوا لا يعتدون بالام على الاطلاق ، وكان أكثر خلفائهم من بنى الاماء من ابراهيم الامام فما بعده ، وفيهم الاماء من الفرس والترك والروم والاكراذ والبربر والاحباش والزنج وغيرهم ، واليك أسماء بعض خلفاء بنى العباس من أبناء الاماء :

(١) العقد الفريد ٢٣٠ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٢٧٥ ج ٤ و ١٤٧ ج ٥

اسم الخليفة	جنس أمه	اسم الخليفة	جنس أمه
ابراهيم الامام	بربرية	المأمون	فارسية
المنصور	بربرية	المنتصر بالله	حبشية رومية
الرشيد	حرشية (*)	المستعين بالله	صقلية
ابراهيم بن المهدي	زنجية	المعتز	جارية ؟
المهتدي	رومية	المستضيء	أرمنية
المقتدر	تركية	الناصر	تركية
المكتفي	تركية		

وقس على ذلك الخلفاء من الدول الأخرى . فان المستنصر بالله الفاطمي أمه أمة سودانية ، وعبد الرحمن الداخل الأموي أمه بربرية . ناهيك بأبناء الخلفاء الذين لم يتولوا الخلافة حتى في صدر الإسلام ، فان محمد بن الحنفية أمه جارية سندية سوداء

فاذا كان هذا حال اختلاط النسب في الخلفاء ، فكيف في سائر طبقات الناس؟ فالنسب العربي لم يكن خالصا إلا في الجاهلية وصدر الإسلام إلى أواسط الدولة الأموية ، وظل بعد ذلك محفوظا من حيث الآباء فقط ، أما من حيث الأمهات فانه اختلط اختلاطا عظيما . ونحن نعلم الآن ان الولد يرث من أمه كما يرث من أبيه ، وربما كان من حيث الاخلاق أقرب إلى أمه مما إلى أبيه . فالعرب بعد القرن الثاني للهجرة قل فيهم الدم العربي الخالص ، إلا في البادية أو حيث لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم . فضلا عما أثر فيهم من طبائع الاقاليم التي نزلوها وعادات أهلها

فالعرب الحضري في القرن الثالث للهجرة هم غير العرب في صدر الإسلام فكيف في حضر هذه الأيام وقد توالى فيهم الاختلاط والتزاوج؟ ناهيك بمن يتعرب وينتسب إلى البلاد ، فأهل الشام ومصر والعراق والمغرب مثلا بعدون من العرب ، وهم في الحقيقة اخلاط من العرب والترك والديلم والجرس والروم والفرس والارمن والكرج وغيرهم ، ولكن الرجل اذا نزل بعض هذه البلاد عد في بادئ الرأي غريبا ، فاذا قطنها وتناسل فيها كان أولاده مولدين ، فاذا توالى عليهم الاجيال سموا عربا

(*) عند ابن الأثير (٨٢/٥) : « وأمه الخيزران أم ولد يمانية جرشية » ، وفي نسخة :
جرشية

العصر التركي الأول

العصر التركي الاول

من خلافة المتوكل سنة ٢٢٢ الى تسلط الديلم سنة ٣٢٤ هـ

نريد بهذا العصر المدة التي استبد فيها الاتراك بالدولة العباسية، وهم الاجناد، تميزا له عن العصر العباسي الفارسي الذي استبد فيه الفرس، وهم الوزراء. وليس بين العصرين حد فاصل ينتهي اليه الواحد ويستدئ منه الآخر، بل هما تعاصرا مدة كان الاول في اواخره، والآخر في اوائله

الاتراك القدماء

الترك امة قديمة جدا مؤلفة من قبائل وبطون وافخاذ، كانت مواطنهم على جبال الالطاي او جبال الذهب في اواسط آسيا بين الهند والصين وسيبريا. وهم يذهبون في اصل اجتماعهم مثل مذهب الرومانيين في مؤسس دولتهم «روميس» فيعتقدون ان برترينا اول قوادهم رضع من ثديي الذئبة، فلما شب قادهم في الحروب والغزو بخيامهم وانعامهم، لانهم اهل بادية، فحاربوا الامم المجاوزة لهم وخصوصا سكان الصين. وخلف برترينا غير واحد من ابناؤه. وكانوا قد شاهدوا مدن الصين وعمرانها فاحب بعضهم ان يبني المدن فمنعه بعض امرائه، ومن نصائحه في هذا الشأن قوله: «نحن يامولاي اقل من عشر اهل الصين عددا وقوتنا انما هي بماطلاق حريتنا، اذا راينا في انفسنا قوة على الحرب هجمنا والا رجعنا الى البادية، واهل المدن محبوسون داخل الاسوار كأنهم في قفص»، فأعجبه راي الرجل وعدل عن التحضر. وتلك كانت حال العرب في صدر الاسلام، فان بداوتهم كانت من اهم اسباب تغلبهم

وما زال الاتراك اهل بادية وغزو وخيام، يزدادون قوة وعددا حتى اجتمع منهم نحو ٤٠٠٠٠٠ رجل حاربوا اهل الصين والفرس والرومان خمسين سنة، وظفروا في معظم حروبهم، وقد عقدوا مع الرومان في ايام جوستنيان صلحا وظلت العلاقات حسنة بينهم وبين خلفائه، وتبودلت السفارات بين الامتين غير مرة. وفي ايام خاقان ديزابول ارسل اليه الرومانيون في جبال الذهب وفد عقدوا معه محالفة على محاربة الفرس في زمن كسرى انوشروان فلم يقووا عليه وكانوا قد انتشروا في بلاد تركستان واقام بعضهم في المدن

الاتراك بعد الاسلام

ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في أنحاء العالم، وطئت حوافر خيولهم بلاد الترك، وهم يعبرون عنها بما وراء النهر، ففتحوا بخارا وسمرقند وفرغانة

وأشروسنة وغيرها من تركستان في أيام بنى أمية . ولما تولى العباسيون كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج ، وكانوا يحملون في جملة الجزية أولادا من أهل بادية تركستان يبيعونهم بيع الرقيق ، وهم في الغالب من السبي أو الأسرى على جارى العادة في تلك العصر . فضلا عما كان يقع منهم في أيدي المسلمين في أثناء الحروب بالأسر أو السبي ويعبرون عنهم بالماليك ، ويفرقونهم في بلاط الخلفاء ومنازل الأمراء . فأخذوا يدينون بالاسلام مثل سواهم من الامم التي خضعت للعرب في ذلك العهد ، ومنهم العبيد والموالي كما تقدم

وكان الاتراك يومئذ يمتازون عن سائر الشعوب التي دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمى النشاب والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل ، والثبات في ساحة الوغى مع قلة العناية بالعلوم ولاسيما الفلسفة والعلم الطبيعي ، وقلما اشتغل أحد منهم بدرسها في ابان التمدن الاسلامي . واشتهر ذلك عنهم حتى أصبحوا اذا سمعوا بتركي يشتغل بالعلم الطبيعي ذكروه مع الاستغراب ، كما فعل ابن الاثير لما أشار الى معرفة قتلمش علم النجوم فقال : «ومن العجب أن قتلمش هذا كان يعلم علم النجوم وقد أتقنه مع أنه تركي ويعلم غيره من علوم القوم» . ويعرف الاتراك في تاريخ الاسلام بأسماء كثيرة تختلف باختلاف أصولهم وفروعهم ، وقبائلهم كثيرة مثل قبائل العرب

الجند التركي في الدولة العباسية

المعتصم والاتراك

أول من استخدم الاتراك في الجندية من الخلفاء المنصور العباسي ، ولكنهم كانوا شردمة صغيرة لاشان لها في الدولة ، وانما كان الشأن الاكبر يومئذ للخراسانيين «الفرس» والعرب . ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في أيام الرشيد ، وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الامين وتسلبت الفرس أنصار المأمون وأخواله واستبدوا في الدولة ، كانت الحضارة قد أضرت بالمسلمين وازدهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المعتصم أخو المأمون في ذلك قبل أن تفضى الخلافة اليه ، وكانت أمه تركية وفيه كثير من طبائع الاتراك التي ذكرناها مع الميل اليهم لانهم أخواله ، كما كان يميل المأمون الى الفرس . وشاهد المعتصم من جراءة الفرس وتناولهم بعد قتل أخيه الامين ، حتى أصبح يخافهم على نفسه . ولم يكن له ثقة بالعرب ، وقد ذهبت عصبيتهم وأخذوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم ، فرأى أن يتقوى بالاتراك وهم لا يزالون الى ذلك العهد أهل بدائة وبطش ، مع الجراءة على الحرب والصبر على شغل العيش . فجعل يتخير منهم الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق ، أو

يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها . فاجتمع عنده عدة آلاف ، وفيهم جمال وصحة ، فألبسهم أثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة ، وميزهم بالزى عن سائر الجنود (١) . وأكثر الاتراك الذين اجتمعوا عنده ينسبون الى فرغانة وأشروسنة

فلما أفضت الخلافة اليه كان الاتراك عوناً له ، وتكاثروا حتى ضاقت بغداد عنهم ، وصاروا يؤذون العوام في الاسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك اذى كثير ، وربما أوردوا الواحد بعد الواحد قتيلاً على قارعة الطريق . فانفق ان المعتصم خرج بموكبه يوم عيد فقام اليه شيخ فقال له : «يا ابا اسحق !» فأراد الجند ضربه فمنعهم وقال : «يا شيخ مالك ؟» قال : لاجزاك الله عن الجوار خيراً ! جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فأسكنتهم بيننا، فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا» والمعتصم يسمع ذلك، فدخل منزله ولم ير راكباً الى مثل ذلك اليوم . فخرج فصلى بالناس العيد ، ولم يدخل بغداد بل سار يلتمس معسكراً لاجناده ، حتى أتى سامرا فاتخذها معسكراً فأعجبته وسماها سر من رأى ، واختط فيها الخطط واقطع اتراكه القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم ، وأفرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار . فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه ، وتسامع الناس أن دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصدوها، وجهزوا اليها من أنواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس ، فكثر العيش واتسع الرزق . وما زالت سامرا قاعدة الدولة العباسية من سنة ٢٢١ هـ الى أيام المعتصم ، فعاد الى بغداد سنة ٢٧٩ هـ وهو أول من عاد اليها منذ بنيت سامرا (٢) . وكان المعتصم ينظم المماليك فرقا عليهم القواد منهم ، مثل نظام الجند في ذلك الزمن . ولم يكتف بجمع المماليك الاتراك بالشراء او المهادة ، ولكنه رغب أمراء الاتراك وأولاد ملوكهم في القدوم اليه والاقامة في ظله . وممن جاء منهم على هذه الصورة جف بن بلتكين من أولاد ملوك فرغانة، وكانوا قد وصفوه له بالشجاعة والتقدم في الحروب ، فوجه المعتصم اليه من احضره واحضر غيره من أبناء الأمراء فبالغ المعتصم في اكرامهم . ولما بنى سر من رأى «أو سامرا» اقطعهم فيها القطائع ، وظلت قطائع جف تعرف باسمه هناك عدة قرون (٣) .

وكان أكثر الاتراك لما جمعهم المعتصم اليه يدينون بالمجوسية او الوثنية على ما كانوا عليه في بلادهم ، وفيهم جماعة قد دخلوا الاسلام . اما غير المسلمين فلما صاروا من جند الخليفة وتربوا في ظل المسلمين اسلموا ، وفيهم من أظهر ذلك تزلفاً للخلفاء كالافشين ، وكان مجوسياً وأظهر الاسلام طمعا في الكسب من الغنائم بالحروب

(١) المسعودى ٢٤٦ ج ٢ (٢) ابن الاثير ١٨١ ج ٧ (٣) ابن خلكان ٤١ ج ٢

وكان المعتصم شديد الرغبة في استبقاء أتراكه على فطرتهم، ويخاف تحضرهم واختلاطهم بالأمم الأخرى فتذهب عصبيتهم وتضعف نجدتهم، فابتاع لهم الجوارى التركيات فأزوجهم منهن ومنعهم أن يتزوجوا أو يصاهروا أحدا من المولدين، إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم إلى بعض، وأجرى للجوارى أرزاقا قائمة، وأثبت أسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر احد منهم ان يطلق امراته او يفارقها (١)

الجند التركي ومصالح الدولة

فاشتد ساعد الأتراك بذلك وقويت شوكتهم وغلبوا على أمور الدولة، وخصوصا بعد ان أنقذوا المملكة من بابك الخرمي وفتحوا عمورية ونصروا الإسلام فتحول النفوذ اليهم. وبعد أن كانت أمور الدولة في قبضة الوزراء الفرس أصبحت في أيدي القواد الأتراك، أو صار النفوذ فوضي بين الوزراء والقواد. واشتهر من الوزراء في أثناء تلك المدة جماعة من كبار الرجال، كابن وهب وابن الفرات وعلي بن عيسى وابن مقله وغيرهم. وكانوا يسابقون الأتراك إلى النفوذ وابتزاز الأموال بالمصادرات ونحوها من المظالم كما سيجيء

وكانت الدولة قد تجاوزت طور الشباب وأخذت في التقهقر، وانغمس الخلفاء في الترف والقصف وعجزوا عن القيام بشؤون الحكومة، فأصبحوا لا يبلغون منصب الخلافة إلا بالجند (الأتراك) وهؤلاء لا يعملون عملا إلا بالمال، فمن استطاع استخدام الجند ملك، ولا عصبية هناك ولا جنسية ولا جامعة دينية ولا وطنية. فأصبح الأتراك محور تلك الحركة وهم أهل شجاعة وحرب كما تقدم، فأصبح البطش والفتك أكبر عوامل السيادة

وكانت جنود الدولة العباسية في أوائلها العرب من مضر واليمن، والفرس - ونريد بالفرس سكان ما بين العراق وأطراف خراسان شرقا إلى نهر جيحون (الاندوس) (*) ويدخل في ذلك أهل خوزستان وفارس وكرمان ومكران وسجستان وقوهستان وخراسان وغيرها - وقد قام هؤلاء بنصرة المسلمين انتقاما من بنى أمية أو رغبة في الملك، ومعظمهم من الجنود الأحرار بلا بيع ولا عتق، وانما سموا الموالى إشارة إلى أنهم ليسوا عربا على اصطلاح ذلك العصر. واختار الخلفاء جماعة منهم قدموهم في مصالح الدولة، فنبغ منهم الوزراء والأمراء والعلماء، وولاهم الخلفاء الولايات فاستقلوا بها وأنشأوا الدول المستقلة تحت رعاية الخلافة العباسية كما سيأتي

فلما تولى المعتصم واقتنى الأتراك بالترغيب أو الشراء، أصبح الجند

(١) اليعقوبى : تقويم البلدان ٣٣

(*) الاندوس لا يقابل نهر جيحون، وانما اسمه عند العرب السند، فلعل المؤلف أراد أن يقول : إلى نهرى جيحون والسند، والمعنى يستقيم بذلك

العباسي اكثره من المماليك الاتراك واخذ الخلفاء بعده الى نصرتهم واختصوا بعضهم بالخدمة في بلاطهم ، وجعلوا من بطانتهم في جملة الخدم او الحرس ، وتقدم بعضهم في مناصب الدولة حتى قادوا الجند واستبدوا بالاحكام. فانتقلت سياسة الدولة من ايدي الموالي الفرس - واكثرهم من الشيعة - الى الجند الاتراك واكثرهم من السنة . وتمكن هذا المذهب منهم منذ جاهر الخلفاء العباسيون باضطهاد الشيعة ، واولهم المتوكل على الله . ورسخ الاتراك في مذهب السنة من ذلك الحين ، ولا يزالون عليه الى اليوم

اما استبدادهم في بلاط الخلفاء فابتدا في ايام المتوكل ، لانه لما تولى الخلافة سنة ٢٣٢ هـ وكان ماكان من كرهه الشيعة واستبداده فيهم ، زاد في تقديم الاتراك ورعايتهم فزاد طمعهم في الدولة . ثم اغراهم ابنه المنتصر بعده ، ولم تطل مدة حكمه اكثر من بضعة أشهر فمات وضميره يخزه . وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ هـ وقد استفحل أمر الاتراك استفحالا عظيما - ومما يحكى عن استبدادهم بالخلفاء انه لما تولى المعتز قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم : « انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة . . » وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال : « انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . . » فقالوا له : « فكم تقول انه يعيش وكم يملك ؟ » قال : « مهما أراد الاتراك . . » فلم يبق في المجلس الا من ضحك (١)

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة ، فانهم جروه برجله الى باب الحجره وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه ، واقاموه في الشمس بالدار فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمه بيده (٢) . والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس (٣) وبلغ من فقر القاهر بالله انهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب خشب (٤) - فلا غرو اذا أصبح الخلفاء آلة في ايدي الاتراك : اذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب (٥) وبعد ان كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم (٦)

فلما تقدم الاتراك في الدولة العباسية ، وعلم اخوانهم في بلادهم بذلك ، تقاطروا مئات والوفا يطلبون الارتزاق بالجندية ، ورجبوا في الاسلام وجعلوا يدخلون فيه بالالوف وعشرات الالوف . فقد أسلم منهم سنة ٣٥٠ هـ ٢٠٠٠٠٠ خركاه دفعة واحدة ، والخركاه الخيمة ولا يقل اهل الخيمة الواحدة عن خمسة أنفس ، فعدد الذين أسلموا في هذه الدفعة نحو مليون نفس . واسلم سنة ٤٣٥ هـ ١٠٠٠٠٠ خركاه من اهل بلاساغون وكاشغر دفعة واحدة ، وضحوا عشرين ألف رأس غنم (٧)

(١) الفخرى ٢٢٠ (٢) ابن الاثير ٧٧ ج ٧ (٣) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ (٤) ابن الاثير ١٧٢ ج ٨

(٥) ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩ (٦) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ (٧) ابن الاثير ٢١٠ ج ٨ و ٢١٦ ج ٩

وكان الجند الاتراك يومئذ أشبه شيء بالفرق التي كانت عند الرومان ويسمونها Praetorian (*) أو هم كالباشبوزق في الدولة العثمانية يستخدمهم من شاء بالمال . فكل من وصلت يده الى السلطة اقتنى الغلمان الاتراك اما بالشراء أو بالاجرة . وتألقت منهم الفرق بتوالي الاعوام ، وكل منها تنسب الى صاحبها كالساجية نسبة الى أبي الساج ، والصلاحية الى صلاح الدين ، وقس على ذلك الاسدية والنظامية وأمثالهما . وكثيرا ما كانت الحروب تشب بين هذه الفرق تنازعا على النفوذ أو على الاموال . ولما استولى الديلم على بغداد في أيام بني بويه توالت الحروب بين الترك والديلم وغلمان الخلفاء أو الموالي . وما من دولة قامت في ذلك العصر الا استخدمت الاتراك في جندها، سواء كانت شيعية أو سنية . فكانوا يحملون الى بغداد أو غيرها من المسدائن الاسلامية تباعا ، وقلما يتوالدون فيها ولذلك كانوا يتفاهمون بالتركية ، وقد يتعلمون العربية ولا يتكلمونها تكبرا

وكان للامراء والقواد عناية كبيرة في تدريب جنودهم الاتراك على الحركات العسكرية ، فضلا عن تعليمهم الفرائض الدينية . على أنهم كانوا يعلمونهم هذه الفرائض وهم أحداث - فاذا جاء التاجر بمملوك للبيع عرضه على الامير أو السلطان ، فاذا أعجبه اشتراه وأنزله في الطبقة التي يماثلها من مماليكه ، وسلمه الى الطواشي برسم الكتابة . فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن . وكان في دولة المماليك المصرية لكل طائفة من الغلمان فقيه يحضر اليها كل يوم ويعلمها القرآن والحط وآداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات . فاذا شب المملوك علمه الفقيه شيئا من الفقه ، فاذا صار الى سن البلوغ أخذوا في تعليمه فنون الحرب من رمي الشباب ولعب الرمح ونحو ذلك . واذا ركب الاتراك لرمي الشباب أو اللعب بالرمح لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم . فاذا أتقن فنون الحرب تنقل في أطوار الخدمة رتبة بعد رتبة ، حتى يصير من الامراء ، ولا يصل الى هذه الرتبة الا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه ، وقد ينبغ منهم الفقهاء والادباء والشعراء والحساب (١)

على أن أهل البلاد كانوا يهابون الاتراك ويخافون بطشهم ، فاذا جاءوا بلدا خافهم أهله ، اذ كثيرا ماكانوا ينزلون في دور الناس (٢) ويتعرضون للحرم والغلمان ، فأصبح عامة بغداد يكرهونهم كرها شديدا

الخدم ونفوذهم في الدولة العباسية

أقدم من سمعنا به من الخدم النابغين في الدولة العباسية مسرور خادم الرشيد ، ولم يكن له شأن كبير . وأول من قرب الخدم واستكثر منهم الامين

(*) هم حرس الاباطرة الرومان

(١) المقرئى ٢١٣ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩

ابن الرشيد ، فانه لما تولى الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم ، فصرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه ، وعين منهم جماعة سماهم الجرادية وجماعة من الحبشان سماهم الغرابية . ولم يقرب الامين الخدم لحمايته أو سياسة دولته ولكنه فعل ذلك انهماكا في الترف والقصف . ومن أقوال الشعراء في عصره يصفون انصرافه الى اللهو بالعلمان ويسمون بعضهم قولهم :

عزيبا ما تفادى بالنفوس
يحمل منهم شوم البسوس
وفي بدر فيا لك من جليس
إذا ذكروا بذى سهم خسيس
لديه عند مخترق الكؤوس
يعاقر فيه شرب الخندريس
سوى التقطيب والوجه العبوس
فكيف صلاحنا بعد الرئيس ؟
لعز على المقيم بدار طوس (١)

ألا يا أيها المثوى بطوس
لقد أبقيت للخصيان هقلا
فاما نوفل فالشأن فيه
وما للمعصمى شيء لديه
وما حسن الصغير أخس حالا
لهم من عمره شطر وشرط
وما للفانيات لديه حظ
إذا كان الرئيس كذا سقيما
فلو علم المقيم بدار طوس

وكان لهو من أعظم أسباب سقوطه

سبب نفوذهم

ولم يكن للخدم شأن في أيام المأمون ولا المعتصم ولا الواثق ، فلما استبد الاتراك وعلت كلمتهم في أيام المتوكل فما بعده، وصاروا يولون الخلفاء ويعزلونهم أو يقتلونهم ، كان في جملة ما استعانوا به على الاستبداد بهم أن يحجروا عليهم قبل الخلافة ويحبسوه في القصور ليزيدوهم ضعفا . وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يميلون الى حبس أولادهم وأقاربهم (٢) خوفا من توأطهم مع بعض الاتراك على خلعهم أو قتلهم . ولا عسير لهم في أثناء الحجر الا الخدم والخصيان، فألفوا اخلاقهم وتحققوا بالاختبار ان حياتهم تتوقف بالاكتر على امانة أولئك الخدم لما آتسوه من غيرتهم عليهم ، وخصوصا الخصيان اذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفانى في خدمة أسيادهم ولا مطمع لهم في الملك لاولادهم وأهلهم . فأصبح ولاة العهد اذا افضت الخلافة اليهم بالفوا في تقرب الخدم بالعطايا والاكرام ، التماسا لحمايتهم اذا اراد الاتراك الفتك بهم . فعمدوا الى الاستكثار من الخدم ، وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم ويستشيرونهم في أمورهم ، فازداد الخدم نفوذا وسطوة حتى أصبح الاتراك يخافونهم ، وقد ارتقى كثيرون منهم في العصر التركي من الخدمة في المنازل الى قيادة الجند أو الامارة على الاقاليم

(١) ابن الاثير ١٢٠ ج ٦ (٢) الفخرى ٢٩٧

ولما تكاثرت الخدم في دور الخلفاء جعلوهم طبقات وفرقا تعرف بأسماء خاصة ، وفيهم الرومي والتركي والحبشي والارمني والسندي والبربري والصقلبي ، في فرق أشبه بفرق الجند ولهم الرواتب والجواري (*)

والمراد في الاصل بالخدم الفلمان أو العبيد أو المماليك الذين يقيمون في دور الخلفاء أو الامراء للخدمة فيما يحتاجون اليه من مهام المنازل . فكانوا يتعاون الفلمان وفيهم الحائك والسائس والحجام والخباز وغيرهم . ثم صاروا يستكثرون منهم للاستعانة بهم في حماية تلك المنازل أيام الشدة ، على قدر ما يستطيعون بذله من المال في ابتياعهم . وأثمانهم تتفاوت من مئة دينار الى ألف دينار أو أقل أو أكثر . وربما بلغ عدد الخدم عند بعض الامراء الى خمسمائة غلام أو ألف أو أكثر . ففلمان بغا الشرابي احد قواد الاتراك بلغ عددهم ٥٠٠ ، وزاد عدد غلمان يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر على ٤٠٠٠

أما في دور الخلفاء فكان الفلمان فرقا تعرف بأسماء خاصة ، كفرق الفلمان الاصغر ، والفلمان الحجرية (***) والرجال المصافية والركابية وغيرها . والفرق بين فرق الجند التركي وفرق الفلمان ، ان الاجناد عساكر الدولة ينتظمون في خدمة الملكة ويتقاضون رواتبهم من بيت المال وفيهم المتاع والمأجور ، وأما الفلمان فهم مختصون بالامير أو الخليفة لخدمته الشخصية أو حماية داره ، وهم ملكه وينفق عليهم من ماله الخاص . وقد تتحول فرق الفلمان الى فرق من الجند ، أو يعملون معا في خدمة الدولة على ما تقتضيه الاحوال . وقد يتتاع الخليفة العبيد ليتقوى بهم على أعدائه مما لا ضابط له . وكثيرا ما تستبد بعض فرق الخدم بالخليفة أو الامير حتى تغلبه على أمره وتفعل ما تشاؤه فيضطر الخلفاء أحيانا الى الفتك بهم غيلة بمساعدة فرق أخرى (١)

وكان في دور الخلفاء صنف من الخدم الخصيان يغلب استخدامهم في دور النساء ، وكانوا يستكثرون منهم أيضا وأكثرهم من الطواشية السود . وكان اهل بغداد يسخرون بهم ويهزأون بأشكالهم ويتعرضون لهم في الطرق وينادونهم بعبارات التهكم كقولهم : « يا عقيق صب ماء واطرح دقيق . . يا عاق ياطويل الساق » وهم يشكونهم الى الخلفاء ، وأصاب الناس في أيام المعتضد شدة بسبب ذلك ، فان بعض اهل بغداد تعرضوا لبعض الطواشية

(*) أي الجرايات من الخبز واللحم والطعام وما اليها

(**) الحجرية بضم الحاء وتسكين الجيم نسبة الى الحجر أي الذين يخدمون داخل البيوت ، وهم بخلاف المصافية أي الذين يقومون بالحرب في المصاف

(١) ابن الاثير ١٢٦ ج ٨

السود سنة ٢٨٤ هـ فاجتمعوا وكلموا المعتضد بما يلحقهم من ذلك ، فأمر المعتضد بجماعة من العامة ضربوا بالسياط (١) على أن الحُصيان كثيرا ما كانوا يرتقون في الدولة الى مصاف الامراء

القواد والوزراء من الخدم

وأول من استكثر من الخدم وقربهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله ، فقد تولى سنة ٢٩٥ هـ وعنده من الخدم والخصيان ١١٠٠٠ خادم من الروم والسودان (٢) وكثير من المال والجوهر فتمكن من الحكم ٢٥ سنة رد فيها رسوم الخلافة الى ما كانت عليه . وكان يقدم الخدم ويستعين بهم ، وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها . وفي أيامه نبغ مؤنس الخادم ، فقدمه وكان يستشير في أموره ، فتصرف مؤنس في مصالح الدولة كما يشاء ، وتولى رئاسة الجيش وامارة الامراء وبيوت الاموال ، واستبد بكل شيء ، لكنه على الاجمال خدم الخليفة المقتدر خدمات ذات بال فلقبه الخليفة بمؤنس المظفر ، ثم كانت بينهما وحشة تكررت حتى أدت الى حروب انتهت بقتل المقتدر ، وحملوا رأسه الى مؤنس فلما رأى رأس مولاه بكى ولطم وجهه

فالخلفاء انما لجأوا الى تحكيم الخدم والخصيان استبقاء لحياتهم او احياء لنفوذهم ودفع استبداد جند الاتراك . ولم يكن ذلك خاصا بالدولة العباسية ، بل شمل معظم الدول الاسلامية المعاصرة . ولا هو من مخترعات الاسلام لانه كان شائعا في معظم الدول القديمة ، فاسطفان المعتق (المولى) استبد بشئون الدولة الرومانية (٣) من قتل وتنصيب وعزل ، وكذلك سليمان الحصى وغيرهما

أما في الاسلام فاشتهر من الخدم في مناصب الدولة جماعة كبيرة ، تولوا القيادة أو الامارة أو بيت المال أو غير ذلك من المناصب الكبرى . فبدر غلام المعتضد تولى قيادة الجند ونقش اسمه على التروس والاعلام ، وأبلى في خدمة مولاه بلاء حسنا حتى قتل في سبيل نصرته سنة ٢٨٩ هـ (٢) وبجكم أصله من الفلمان وارتقى حتى صار امير الامراء وهي أعلى رتب الدولة العباسية في عصرها الثاني (٤) وجوهر قائد جند الفاطميين الذي فتح لهم مصر وبنى القاهرة في أواسط القرن الرابع للهجرة كان مملوكا روميا ، وبلغ من تعظيمهم أمره واکرامه انه لما اقلع عن المغرب قادم الى مصر لفتحها ترجل أولاد الخليفة المعز وأهله ومشوا بين يديه (٥) وكان قبله كافور الاخشيدى وهو خصى أسود ارتقى بمصر حتى استقل بأحكامها سنة ٣٥٥ هـ ، ويانس

(٢) الفخرى ٢٢٤ (*) يريد البيزنطية

(١) السعوى ٢٤٠ ج ٢

(٥) المقربرى ٢٧٧ ج ١

(٤) ابن الاثير ١٢٣ ج ٨

(٣) ابن الاثير ٢٠٥ ج ٧

الصقلي الخصى أصله خادم مؤنس الخادم تقدم مع ذلك في أعمال الدولة وعظمت منزلته حتى ولى الولايات وتداخل في السياسة . وبرجوان الاستاذ كان خصيا أبيض ارتقى في الدولة الفاطمية الى رتبة الوزارة ، ووزر للعزير بالله والحاكم وتلقب بأمين الدولة ، وهو أول من لقب بذلك في الدولة الفاطمية (١) وقراقوش الطواشي وزير صلاح الدين الأيوبي بلغ أرقى مناصب الحكومة في الدولة الأيوبية . وعميد الملك أحد كبار القواد الأتراك كان من الخصيان ، وكذلك شقير الخادم صاحب البريد في مصر والشام أيام بني طولون . ومؤتمن الخلافة في الدولة الفاطمية كان خادما خصيا ، وقس على ذلك تقدم الصقالبة في دولة بني أمية بالاندلس ، وتقدم الخصيان في دول السلاجقة وبني بويه وسائر دول الإسلام في تلك العصور

تأثير النساء في سياسة الدولة

للمرأة تأثير كبير في أعمال الرجل ، مهما يكن نوعها وفي أي عصر كان وأية أمة كانت ، وان اختلف مقدار ذلك التأثير باختلاف عادات الأمم وآدابها . فاذا كانت الدولة ملكية مطلقة كان للمرأة شأن كبير في سياستها ، حتى في الإسلام مع شيوع الطعن في آرائهن وقولهم أن مشاورتهن في الأمور مجلبة للعجز ومدعاة الى الفساد . وما من عظيم من عظماء الإسلام الا ونهى عن مشورتهم وادخالهم في الأمور . قال المنصور في وصيته لابنه المهدي : « اياك ان تدخل النساء في أمرك » ، وقال النخعي : « من اقترب الساعة طاعة النساء » ، وقال أبو بكر : « ذل من أسند أمره الى امرأة » ، ولعلنا أقوال كثيرة في النهي عن مشورة النساء ، ومع ذلك فقد أثرت المرأة في سياسة الدولة تأثيرا عظيما

أمهات الخلفاء

وتأثير النساء في الدولة من قبيل تأثير الأم في الأبناء ، وقد بينا ذلك في باب الأمومة ، ويعظم أثره على الخصوص في تأثير أمهات الخلفاء على أولادهم ، ولا سيما في أواسط الدولة عند احتجاب الخلفاء واستسلامهم الى الخدم على أن العباسيين حتى في صدر الدولة كانوا يصغون الى النساء ، فأحرزت المرأة نفوذا كبيرا وخصوصا أمهات الخلفاء ، وأول من استبد منهن الخيزران أم الهادي والرشيد ، وهي قرشية وكانت ذات نفوذ وقوة يخافها أولادها ، ومن خالفها منهم أو اعترضها قتلته . وكانت في أيام زوجها المهدي صاحبة الأمر والنهي وهو يطاوعها ، فلما تولى ابنها الهادي أرادت الاستبداد بالأمور

(١) ابن الأثير ٩٤ ج ٩

دونه ، وأن تسلك به مسلك أبيه ، فلم يمض أربعة أشهر حتى انشال الناس إليها ، وكانت المواكب تغدو وتروح إلى بابها فساء ذلك ، وكلمته يوما في أمر فلم يجد إلى اجابتها فيه سبيلا فقالت : « لا بد من اجابتي إليه فاني قد ضمننت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك » فغضب الهادي وقال : « ويلي على ابن الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها (*) » والله لا أقضيها لك » ، قالت : « اذن والله لا أسألك حاجة » ، قال : « لا أبالي » وقامت مفضبة فصاح بها : « مكانك . . والله أنا نفى من قرابتي من رسول الله ، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو خاصتى لاضربن عنقه ولاقبضن ماله . ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك ؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك ؟ اياك واياك لإتفتحي بابك لمسلم ولا ذمى ! » فانصرفت وهي لا تعقل ، ولم تنطق عنده بعدها . ثم انه قال لاصحابه : « أيما خير : أنا أم انتم ، وأمى أم أمهاتكم ؟ » قالوا : « بل انت وامك خير » قال : « فأيكم يحب ان يتحدث الرجال بخبر امه فيقال : فعلت ام فلان وصنعت ؟ » قالوا : « لا نحب ذلك » ، قال : « فما بالكم تأتون أمى فتتحدثون بحديثها ؟ » ، فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فحقدتها عليه ، حتى اذا علمت أنه يريد خلع أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر أمرت بعض جواريتها بقتله بالغم والجلوس على وجهه (١) فقتلته (**).

فلما كانت أيام الرشيد استبدت الخيزران بالاحكام ، واحتشدت الاموال فبلغت غلتها في العام ١٦٠ مليون درهم ، أى نحو نصف خراج المملكة العباسية في ذلك العهد ، ولما ماتت موسع الرشيد بأموالها . وقس على ذلك ثروة سائر أمهات الخلفاء (٢)

أما من حيث النفوذ فقد كان للسيدة أم المقتدر - وهي تركية - سطوة غريبة على رجال الدولة في خلافة ابنها ، وكانت تتصرف في الاحكام دونه بالاشتراك مع الحجاب والخدم ، وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفا من ذكرها (٣)

ويقال نحو ذلك في أم المستعين بالله المتوفى سنة ٢٥١ هـ ، وكانت صقلية الاصل ، فأطلق المستعين في أمور الدولة يدها ويد اثنين من قواد الاتراك

(*) أى صاحب الحاجة

(١) ابن الاثير ٤١ ج ٦

(**) الخبير عند ابن الاثير وغيره ، ومعنى « قتلته بالغم والجلوس على وجهه » انهن كنمن نفسه ، ويقال انهن وضعن على فمه وأنفه وسادة وجلسن عليها ، فاختنق ومات . وكان هو قد حاول قتلها بالسم قبل ذلك ، فلم يفلح

(٢) الجزء الثانى من هذا الكتاب (٣) تاريخ الوزراء ٦٧

أهما أتامش وشاهك الخادم ، فكانت الاموال التي ترد الى بيت المال من النواحي يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة (١)

على أن تسلط النساء في الدولة العباسية كان على معظمه في أيام المقتدر، لتسلط الخدم والحجاب . وقد اشتهر من النساء في ذلك العهد السيدة أم المقتدر والخالة وأم موسى الهاشمية القهرمانه ، فهؤلاء كن يرتشين بالاشتراك مع موسى الخادم ونصر الحاجب والكتاب ونحوهم ، ويمشين الامور كما يردن ويريد هؤلاء . وكان لام موسى المذكورة دهاء ونفوذ ، حتى تكفلت مرة بالخلافة لاحد العباسيين من أصهارها ، وأخذت تبذل الاموال للقواد وغيرهم ، فوشى بها بعضهم الى المقتدر فقبض عليها وأخذ منها أموالا عظيمة . وقس على ذلك نفوذ نساء القصور في الدولة العباسية ، وهو من قبيل نفوذ الموالي في هذه الدولة ، لان أكثر أولئك النساء من غير العرب

فساد الاحكام في الدولة العباسية

التنازع على النفوذ

بلغت الدولة العباسية عصرها الذهبي في أيام خلفائها الاولين ، وخصوصا الرشيد والمأمون بتدبير الوزراء الفرس ولا سيما البرامكة . فاتسع سلطانها في أيامهم وامتدت سطوتها على معظم العالم المعمور في ذلك العهد ، فبلغت الهند شرقا والمحيط الاطلسي غربا وبلاد سيبيريا وبحر قزوين شمالا وبحر فارس وبلاد النوبة جنوبا . وقد بينا أقسامها وجغرافيتها في الجزء الثاني . فلما نكب البرامكة ثم استبد الجند التركي بالحكومة أصبحت الاحكام فوضى ، وخصوصا بعد المتوكل ، لانهم أقدموا على قتله وكان ذلك فاتحة جراتهم على الخلفاء بعده من عزل وتولية وقتل وسمل . فعجز الخلفاء عن القيام بشئون الدولة ، وهم أصحابها المسئولون عنها والاحكام تصدر بأسمائهم ، وان كانوا مدفوعين الى اجراءاتهم ببعض أرباب النفوذ في بلاطهم ، من الهزء والقواد . فأقدرهم على ارضاء الخليفة أو أشدهم دهاء ومكرا يفضى النفوذ اليه ، فاذا ملك قياد الحكومة بذل جهده في حشد الاموال ، اذ لا يأمن ان يستبدل هذا الخليفة بآخر لا يرضاه ، أو لعل بعض أعدائه يغلبه بدسائسه وسعايته فيعزله ، فاذا لم يكن له مال عاش ذليلا مهانا . على ان القواد كانوا يحاولون الاستئثار بالنفوذ في بلاط الخليفة بالتهديد أو بالوشاية ، ويختلف ذلك باختلاف الاحوال والاشخاص

ويقال بالاجمال ان النفوذ أصبح ضائعا بين الوزراء والقواد ، وكلاهما لا يرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لانفسهم ، غير ما يكتسبونه من

(١) ابن الاثير ٤٧ ج ٧

المال في أثناء نفوذ كلمتهم . فأصبح الغرض الاول من تمشية الاحكام انما هو حشد المال . فالوزير الذى يتولى أمور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام او عامين من عزل أو قتل أو حبس لا يهتم غير الكسب من أى طريق كان ، ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد ، عملا بالقاعدة التى وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهى قوله : « ان تمشية أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب » (١)

وانتبه الخلفاء الى مطامعهم ، فأصبحوا اذا عزلوا وزيرا صادروه واخذوا أمواله ، وقد فصلنا ذلك فى باب المصادرة فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة ، حتى الرعية ، وأصبحت بتوالى الايام المصدر الرئيسى لتحصيل المال . فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى أنشأوا للمصادرة ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة (٢) فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالتجارة

انواع المصادرة ومقاديرها

قال الوزير ابن الفرات : « تأملت ما صار الى السلطان من مالى فوجدته ١. ملايين دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهري (ابن الجصاص) فكان مثل ذلك » فكأنه لم يخسر شيئا ، لانهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة . واذا صودر احدهم على مال لم يكن فى وسعه أداءه كله معجلا اجلوه بالباقي ، ويساعده على تحصيله او جمعه برد جاهه وتغيير زيه وانزاله فى دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنه ، ليستطيع التمثل فى جمع الاموال من الناس (٣)

وتعددت اسباب المصادرة وجهاتها ، حتى أصبح كل صاحب مال او منصب عرضة لها . وهالك قائمة بما قبضه ابن الفرات من المصادرة على أيام الرضى بالله ، نشرها بنصها حرفيا أنموذجا لأنواع المصادرات ومقاديرها (٤)

دينار

من احمد بن محمد البسطامى عن النصف مما بقى عليه من مصادراته لسنة ٣٠٠ هـ	٧٣٠٠
من على بن الحسين الباذينى الكاتب عما تولاه بالموصل	١١٠٠٠
من محمد بن عبد الله الشافعى عما تصرف فيه لعلى بن عيسى	٣٠٠٠٠
من محمد بن على بن مقله عما تصرف فيه	٨٠٠٠٠

(١) تاريخ الوزراء ١١٩ (٢) تاريخ الوزراء ٢٠٦

(٣) الفرج بعد الشدة ٥١ ج ١ (٤) تاريخ الوزراء ٢٢٤

	دينار
من محمد بن الحسين المعروف بأبي طاهر	١٠٠٠٠٠
من الحسن بن أبي عيسى الناقد عما ذكر أنه وديعة لعلي بن عيسى	١٣٠٠٠
ومنه أيضا عن نفسه	٤٠٠٠
من ابراهيم بن أحمد المادرائي	٢٠٠٠٠
من عبد الواحد بن عبد الله بقية مصادرة والده	٣٦٠٣٦٠
من أحمد بن يحيى عن مصلحة وجبت	١٠٠٠٠
من ابراهيم بن أحمد الجهبذ عن صلحه	٦٠٠٠
من محمد بن عبد السلام عما عنده من الوديعة لمحمد بن علي و ابراهيم المادرائي	٤٠٠٠
من عبد الوهاب بن احمد بن ماشاء الله عن صلحه	٤٠٠٠
من محمد بن عبد الله بن الحرث عن صلحه	١٠٠٠٠
من محمد بن أحمد عما تصرف فيه بالموصل وغيرها	٢٥٠٠٠٠
من ابراهيم المادرائي عن الباقي عليه	١٥٠٠٠
من أبي عمر بن الصباح عن الباقي على ابن العباس احمد	٣٠٠٠
من علي بن محمد بن الحواري وقتل	٧٠٠٠
من هرون بن أحمد الهمداني	٧٠٠٠
من عبد الله بن زيد بن ابراهيم	٢٠٠٠
من عبد الله بن زيد صلحا عن نفسه	١٥٠٠٠
من علي بن مأمون الاسكافي وقتل	٦٠٠٠٠
من يحيى بن عبد الله عما تصرف فيه مع حامد	٧٠٠٠٠
من حامد بن عباس وقتل	١٣٠٠٠٠
من محمد بن حمدون الواسطي	١٥٠٠٠
من علي بن عيسى	٤٢٠٠٠
من ابراهيم جهبذ حامد بن عباس	١٠٠٠٠
من الحسن المادرائي	٢٠٠٠٠
ومنه أيضا	١٠٠٠٠
من محمد المادرائي	١٠٠٠٠
ومنه أيضا بخط آخر	١٠٠٠٠

من أبي الفضل محمد بن أحمد بن بسطام	٢٠٠٠٠
من علي بن الحسن الباذينى صلحا عما تصرف فيه بالموصل وقتل	٥٠٠٠٠
من أبي عمر بن الصباح عن ضمانه الباقي من مصادرة أبي ياسر	١٠٠٠٠
من عبد الله بن أحمد اليعقوبى	١٠٠٠٠
من الحسن بن ابراهيم الخرائطى صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس	١٠٠٠٠
من الحسين بن علي بن نصير	١٠٠٠٠
من علي بن محمد بن احمد السمان عن ورثة قرقر	٢٠٠٠
من أبي بكر الجرجانى من ضياع بن عيسى	١٠٠٠٠
من الحسين بن سعد القطربلى	٢٣٠٠٠
من محمد بن احمد . . .	١٥٠٠٠
من أبي الحسن بن بسطام	٣٠٠٠٠
من أحمد بن محمد بن حامد بن عباس	٥٠٠٠٠
من سليمان بن الحسن بن مخلد	٢٣٠٠٠

ابتزاز الاموال

فالوزير يتولى الوزارة عاما أو عامين ، ثم يعزل أو يستقيل وله عدة ملايين من الدينار ، فضلا عن الضياع والمباني ، وقد اكتسب هذه الثروة بالرشوة ونحوها من أسباب المظالم . وكان الوزير لا يولى عاملا على ولاية ما لم يقبض منه مالا على سبيل الرشوة يسمونه « مرافق الوزراء » . ومن أغرب حوادث التولية بالرشوة أن الخاقانى وزير المقتدر بالله ولى فى يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة وأخذ من كل واحد رشوة . وإذا لم يكن للعامل أو الناظر ما يفي المبلغ المتفق عليه مع الوزير ، دفع بعضه معجلا وأجل البعض الآخر الى مدة معينة أو غير معينة ، والخلفاء يعلمون ذلك ولا ينكرونه أو يرون فيه غرابة أو ظلما

والعامل الذى يتولى عمله بالرشوة وهو لا يزال مدينا ببعضها يهون عليه ابتزاز أموال الرعية - أو هو يطلب الولاية لهذه الغاية - فيأخذ العمال فى حشد الاموال أما بالتلاعب فى جباية الحكومة ، فينفقون دينارا فى بعض مصالحها فيقيدونه عليها عشرة دنانير ، أو باستخراج أموال الرعية بالرشوة .

أو بضرب الضرائب الفادحة على الباعة وأهل الاسواق في المدن (١) أو بسلب
الفلاحين في القرى بعض غلاتهم ، وقد يقاسمونهم اياها فان بعض العمال كان
يبعث رجاله الى البيدر فيقسمونه كما يشاءون ، واذا تكلم الاكار (الفلاح)
شتموه وحلقوا لحيته وضربوه (٢) وقد لا يرضيهم ذلك فيفتصبون الضياع
برمتها

ومن أغرب طرق الاغتصاب ان يفتصب العامل او الوزير أو غيرهما من
رجال الدولة ضيعة لبعض الناس ، فيأخذها بغير ثمن ويستغلها لنفسه واذا
استحق عليها الخراج أداه صاحبها الاول ، مخافة أن يثبت الملك لمغتصبها
اذ يدون خراجها باسمه في الديوان فيبطل حق مالكةا في ملكيتها (٣) فيضطر
المالك الى دفع الخراج أعواما ريثما يتوفق الى من ينصفه ممن يفضى النفوذ
اليهم من أهل العدالة أو يهتدى الى وساطة أو حيلة

ناهيك بما كانوا يفتصبونه من أموال الرعية باقتضاء خراج الارض مضاعفا
أو مكررا ، على انهم قد يرون لهم نفعا من ترك خراج بعض الارضين ، فيتركونه
لاصحابها على أن يخدموهم في مصلحة لهم ، وربما بلغ مقدار الخراج المتروك
مالا كثيرا جدا . فقد كان لرجل يدعى أبا زنبور في وزارة ابن الفرات ضياع
مساحتها مئة فرسخ بمئة فرسخ لم يأخذ منه من حقوق بيت المال درهما (٤) وكثيرا
ما كانوا يتركون أمثال هذه الضياع بلا خراج لاهل الوساطة أو الدالة أو النفوذ
عند الخليفة أو غيره

الجالوسية واللصوصية

ومن وسائل ابتزاز الاموال أن يقسط الوزير أو من يقوم مقامه على أرباب
الدواوين والقضاة أو غيرهم مالا على وجه القرض ، على أن يسبب لهم عوضه
من أهل النواحي (٥) فتقع الخسارة على الرعية . فتضايق أهل الاسواق في
المدن والفلاحون في القرى والرساتيق وضائق أبواب الرزق على الناس ،
واصبحت الحقوق فوضى ، من استطاع حيلة في اختلاس المال سرا أو جهرا
استخدمها ، وكثر العيارون والشطار في المدن ، وتعدد اللصوص في القرى ،
وفيهم جماعة أصلهم من جنود الدولة ، طمع الوزراء أو القواد في أرزاقهم
فخرجوا يتعرضون للمارة ويسلبونهم أموالهم وامتعتهم ، واذا عوتبوا أو
حوكموا احتجوا بذلك . وكان قطاع الطرق يسطون على قوافل التجار يأخذون
أموالها باعتبار انها حق لهم ، لان أصحابها لم يؤدوا زكاتها لبيت المال وقد
منعوا وتجردوا فتركت عليهم فصارت أموالهم بذلك مستهلكة ، واللصوص

(١) ابن الاثير ١٢٩ و ٢٠٣ ج ١٢ (٢) تاريخ الوزراء ٩٢ (٣) الاغانى ٤٧ ج ٢٠

(٤) تاريخ الوزراء ٩٤ (٥) تاريخ الوزراء ٢٦٢

في حاجة اليها بسبب فقرهم فاذا أخذوا تلك الاموال - وان كره التجار أخذها - كان ذلك لهم مباحا لان عين المال مستهلكة بالزكاة وهم فقراء يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الاموال أو كرهوا (١) لأن الزكاة صدقة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم ، وكان لها شأن كبير في اول الاسلام ثم أهملت في اواسط الدولة العباسية فاتخذ اللصوص ذلك حجة لسلب أموال التجار

وزد على ذلك ما نجم عن فساد الاحكام من الضيق المالى وغلاء الاسعار في المدن ، وما انتشب من الفتن بين الاحزاب ولاسيما السنة والشيعة ، وراجت الدسائس وتكاثرت السعيات برجال الدولة ، وانتشرت الجاسوسية في قصور الخلفاء ودواوين الوزراء والكتاب . وأصبح لكل منهم جواسيس على الآخرين ينقلون اليه اخبارهم ، فتسابق اسافل الناس الى السعاية بافاضلهم ، يرفعون الى الخليفة أو الى صاحب النفوذ في دولته كتبا يختلقون بها المطاعن على الابرياء للانتفاع بأذاهم . واكثر ماتكون وشايتهم بأهل الدولة في حال اعتزالهم ، أو فيمن يخافونهم اذا ألقيت مقاليد الاحكام اليهم ، وقد يجتمع عند الخليفة أو الوزير صناديق مملوءة بتلك الكتب فاذا تكاثرت أو ذهبت الحاجة اليها أحرقوها (٢)

فلما فسدت الاحكام في دار الخلافة ، واستبد الوزراء والقواد بشؤون الدولة ، رأى العمال في الولايات أن يجتزئوا من ذلك الاستبداد في ولاياتهم ، فأخذوا يستقلون فتشعبت المملكة العباسية الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والأتراك والاكراد والعرب وغيرهم . ومنها ماجاءها التغلب من الخارج ففتحها ، كما اصاب مصر لما فتحها الفاطميون

تفرق المملكة العباسية

لما أصبحت الدولة العباسية فيما تقدم من فساد الامور ، والفوضى في سلطتها وأحكامها بين الفرس والأتراك ، أو بين الوزراء والاجناد ، أو بين الخدم والنساء ، وذهبت هيبة الخلفاء بما أصابهم من التضيق والاحتقار ، هان على عمالهم في اطراف المملكة أن ينفصلوا عنهم بأحكامهم الادارية والسياسية ، وان يستأثروا بجباية اعمالهم وهو الاستقلال . وكان اسبقهم اليه ابعدهم عن مركز الخلافة . واسبق عمال العباسيين الى ذلك ابراهيم بن الاغلب في شمال افريقيا استقل سنة ١٨٤ هـ ولا يعد استقلاله من نتائج فساد الدولة ، لانه حدث في عصر الرشيد والدولة العباسية في معظم سطوتها ،

(١) الفرج بعد الشدة ٥١ ج ١ (٢) تاريخ الوزراء ٢٢٤

وانما ساعده على ذلك بعده عن مركز الخلافة . واما استقلال العمال بذهاب
 هيبة الخلفاء أو اختلال شؤون الدولة فالاسبق اليه الفرس ثم الاتراك
 فالاكراذ ، مثل تواليهم في التغلب على الخلفاء . وتدرج كل من هذه الامم من
 العمالة الى الامارة الى الملك أو السلطنة . فأول من استقل من الفرس العمال ،
 فأنشأوا الامارات الصفري ثم الدول الكبرى ، وكذلك فعل الاتراك والاكراذ .
 فنقدم الكلام عن الفروع الفارسية ، ثم نذكر الفروع التركية والكردية . أما
 العربية فسيأتي ذكرها في الكلام على العصر العربي الثاني

الدول الفارسية في ظل العباسيين

الدول الصفري

لما أعاد الفرس مقاليد الخلافة الى المأمون ازدادوا دالة عليه واستخفافا بالسلطة العباسية ، ثم استبد الاثراك بالخلفاء بعد المعتصم وغلوا ايديهم وكسروا شوكتهم ، فكان للفرس على الاجمال حظ كبير من ذلك . فلما راوا ذهاب نفوذهم في دار الخلافة استعاضوا عنه بالاستقلال باماراتهم

على ان الذين استقلوا من القواد او الامراء مازالوا يعترفون للعباسيين بانسلطة الدينية فيطلبون الاستقلال تحت رعايتهم . ففرعت المملكة العباسية الى امارات مستقلة عملا بسنة الارتقاء . واليك اهم الفروع الفارسية باعتبار تاريخ استقلالها واسماء مؤسسيها :

<u>الدولة</u>	<u>مقرها</u>	<u>مدة حكمها</u>	<u>مؤسسها</u>
١ الطاهرية	خراسان	٢٠٥ - ٢٥٩ هـ	ظاهر بن الحسين
٢ الصفارية	فارس	٢٥٤ - ٢٩٠	يعقوب بن الليث الصفار
٣ السامانية	ماوراء النهر	٣٦١ - ٣٨٩	نصر بن احمد الساماني
٤ الساجية	أذربيجان	٢٦٦ - ٣١٨	يوسف بن ابي الساج (*)
٥ الزيارية	جرجان	٣١٦ - ٤٣٤	مرداويج بن زيار (**)

فانظر كيف تفرعت بلاد فارس الى امارات فارسية . فانتعشت الشيعة ، ونالوا بعض ما كانوا يؤملونه من مساعيهم في نصره العلويين من ان يعيدوا دولة

(*) لم يكن الساجيون دولة ، وانما كان يوسف بن ابي الساج احد الولاة الذين استبدوا بالامر فترة قصيرة تحت طاعة ولاة آخرين ، وقد خلفه اثنان من اهل بيته ، وقد حكموا في ناحية من الري وشمل سلطانه وقتا ما قزوین وأبهر ووزنجان وأذربيجان . وقد استقل يوسف بن ابي الساج بناحيته فترة قصيرة من ٣٠٦ الى ٣١٢

أنظر : زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة ، ترجمة الدكتور زكي محمد حسن وآخرين ، ج ١ ، ص ٧١

(**) امتدت املاك مرداويج بن زيار حتى شملت الري وقزوین وهمدان وكشكور ودينور وبروجرد وقم وقاشان واصبهان وجرابدقان وطبرستان وجرجان . وقد استعاد هذه النواحي من مرداويج نصر الساماني سنة ٣١٧ ، غير ان وشمكير بن زيار عاد فاستبد بها سنة ٣٢٣ عاما واحدا . انظر نفس المصدر ، ص ٧٢

الفرس الضخمة كما كانت قبل الاسلام . ولكن تلك الامارات لم تمكث طويلا - كما ترى في الجدول - حتى قامت دولة آل بويه ، وهى أكبر دولة فارسية شيعية ظهرت في الشرق في عهد ذلك التمدن في ظل الدولة العباسية

دولة آل بويه

رجال هذه الدولة وأنصارها الديلم من الجيلان وراء خراسان ، ولكن ملوكها آل بويه من الفرس ، ويرتفع نسبهم الى ملوك الفرس القدماء ، وانما سموا ديلم لانهم سكنوا بلاد الديلم . وكان العلويون يسعون في نشر دعوتهم هناك أيام الرشيد ، وآخر من نجح في ذلك الحسن بن على الاطروش من نسل الحسين ، فدعا الديلم الى مذهبه في أواخر القرن الثالث فأجابوه

وجد آل بويه الاقرب الذى أسس هذه الدولة اسمه بويه ولقبه أبوشجاع، كان له ثلاثة أولاد : على ويلقب عماد الدولة ، وحسن ويلقب ركن الدولة ، وأحمد ويلقب معز الدولة . وكان بويه رقيق الحال ، فانتظم أولاده في الجندية لأنها كانت يومئذ بابا من أبواب الرزق الواسعة ، وكان عماد الدولة في خدمة مرداويج مؤسس الدولة الزيارية ، فارتقى عنده حتى ولاه الكرج ، ثم اتسعت أحواله فكتب الى الخليفة العباسى وهو يومئذ الرضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ أن يقطعه على أعمال فارس بمال يحمله الى دار الخلافة ، على جارى عادتهم مع الدولة العباسية في ذلك العهد ، فأجابه الرضى وبعث اليه بالخلة . وأخوه حسن ركن الدولة تملك خوارزم ، وجاء الأخوان واتحدا مع أخيهما الثالث معز الدولة في شيراز ، وساروا غربا حتى أتوا بغداد في أيام المستكفى سنة ٣٣٤ هـ فرحب بهم وخلع عليهم ولقبهم بالألقاب المذكورة ، وجعل معز الدولة أمير الأمراء ، واستبدوا بالمملكة واستولوا على الخلافة ، وعزلوا الخلفاء وولوهم ، فرفعوا منار الشيعة وأحيوا معالمها وأضعفوا نفوذ الاتراك والخلافة العباسية لا تزال في بغداد . ولما أفضت امارة الأمراء الى عضد الدولة لقب بالملك ، وهو أول من خوطب بهذا اللقب في الإسلام .
وحكم آل بويه من سنة ٣٢٠ - ٤٤٧ هـ (*)

(*) كانت القاعدة التى جرى عليها أولئك الامراء المستقلون هى « المقاطعة » ، أى مقاطعة الخليفة (الاتفاق معه) على مبلغ من المال يؤدونه له كل سنة في نظير استبدادهم بأمور الناحية مع الخطبة له والاعتراف بسلطانه . وقد بدأ ذلك من أيام الرشيد ، فقد قاطع ابراهيم بن الاغلب على مبلغ سنوى من المال في نظير استبداده بأمور افريقية . وقد اتسع العمل بهذه الطريقة مع الزمن ، وخاصة خلال خلافة المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩) ، فقد كان طاغية قاسيا ، قليل الكفاية الادارية ، فخافه امراء النواحي وبدأوا يستقلون ، وفي أيامه خرج عمرو بن الليث الصفار في فارس ، وبدأت حركة القرامطة على يد حمدان قرمط في الكوفة وعلى يد أبى سعيد الجنابى في البحرين ، وظهر ابن حوشب في اليمن وأبو عبد الله الشيعى في المغرب ، ونصر بن أحمد السامانى مؤسس الدولة السامانية فيما وراء النهر ، وزاد الامر في أيام المكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥) والمقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) ونستطيع ان نسمى عهده بعهد الوزراء ، فقد تولى

الوزارة نفر من اقدر وزراء العصر العباسي الثاني كابن الفرات وعلى بن عيسى وابن مقلة ، ولكن احوال الدولة كانت قد بلغت من الفساد مبلغا اعجز هؤلاء الوزراء عن الاصلاح ، ثم انهم كانوا جميعا ، رغم كفايتهم أميل الى الفساد منهم الى الصلاح ، وقد روى السيوطي عبارة عظيمة الدلالة لاباس بايرادها وهي : لما علم محمد بن جرير الطبري بخلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز قال : « ما الخير ؟ » قيل : « ببيع ابن المعتز » قال : « فمن رشح للوزارة ؟ » قيل : « محمد بن داود » قال : « هذا الامر لا يتم » . قيل له : « كيف ؟ » قال : « كل واحد ممن ذكرتهم متقدم في معناه ، على الرتبة ، والزمان مدبر والدنيا مولية ، وما ارى هذا الا الى اضمحلال وما ارى لمدته طولا » (تاريخ الخلفاء ص ٢٥٢)

وقد لقي المقتدر احوالا ، وعزل عن الخلافة ثم عاد ، وفسد حال الدولة في ايامه تملما ، وخلفه اخوه القاهر (٣٢٠ - ٣٢٢) وقد وصفه الصولي بأنه كان « أهوج سفاكا للدماء قبيح السيرة كبير التلون والاستحالة ، مدمنا للخمر ، ولولا جودة حاجبه سلامة ، لاعلك الحرث والنسل » . وقد بلغ من فساد رأيه أن حفر في داره نحو خمسين مطمورة تحت الارض واحكم أبوابها ، ليدفن فيها المخالفين له من حرسه وجنده ، وقد عزل وآل أمره الى التكف . وفي حكومة امثال هؤلاء كان نظام المقاطعة خيرا ما يمكن اتباعه . وقد انتهى الامر بالخلفاء الى تفويض أحد القواد بالقيام بكل شؤون الدولة باسم الخليفة ، وبهذا نشأ نظام « امرة الامراء » وكان ذلك في ايام الراضي ، واول امراء الامراء هو ابن رائق ، وقد تنازل له الراضي عن سلطانه كاملا . قال مسكويه (تجارب الامم ١/ ١٨٨) : « فأرسل اليه الراضي ما كرد الديلمي من الساجية ، وعرفه انه قلده الامارة ورياسة الجيش ، وجعله امير الامراء ، ورد اليه تدبير أعمال الخراج والضياح وأعمال المعاوين في جميع النواحي ، وفوض اليه تدبير الملكة ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الممالك ، وبأن يكنى ، وانفذ اليه الخلع واللواء مع ما كرد الديلمي يخادم من خدم السلطان » . ولم ينفع ذلك الحل ، لان القواد تنافسوا على امرة الامراء ، كما كان الوزراء من قبل يتنافسون على الوزارة ، ثم ان المشاكل الاساسية للدولة ، وهي مشاكل سياسية وادارية ومالية ، لم تحل وظلت تزداد مع الزمن

الدول التركية

في ظل العباسيين

الدول الصفرى

لما قويت شوكة الاتراك في الدولة العباسية وهابهم الخلفاء كما تقدم ، طمع بعضهم في الولايات كما طمع الفرس ، فاستقلوا بها فنبتت للدولة العباسية فروع تركية خارج بلاد فارس ، كما نبتت الفروع الفارسية في بلاد الفرس . واليك الفروع التركية في العصر العباسي حسب سنى نشأتها وأسماء مؤسسيها وبلادها :

اسم الدولة	مقرها	مدة تأسيسها	مؤسسها
١ الطولونية	مصر	٢٥٤ - ٢٩٢ هـ	أحمد بن طولون
٢ الايلكية	تركستان	٣٢٠ - ٥٦٠	عبد الكريم ستق (*)
٣ الاخشيديّة	مصر	٣٢٢ - ٣٥٨	محمد الاخشيد
٤ الغزنوية	أفغانستان والهند	٣٥١ - ٥٨٢	البتكين

وتدرج الاتراك في الولايات الاسلامية كما تدرج الفرس قبلهم ، أى من الامارة الى السلطنة وهم اول من سموا سلاطين في الاسلام ، وأولهم سلاطين الدولة الغزنوية التى منها السلطان محمود الغزنوى فاتح الهند وناشر الاسلام فيها

(*) يريد المؤلف بالدولة الايلكية دولة ايلخانات فارس ، وهى دولة مغولية اسلامية كبرى قامت في فارس ، وشملت البلاد الواقعة بين بحر قزوين والمحيط الهندى ومن نهر السند الى الفرات ، وكانت عاصمتها تبريز . وقد أنشأ الدولة ايل خان حسن حفيد ارغون بن هولكو ، وقد ازدهر أمر الدولة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) وقامت بينها وبين دولة المماليك علاقات صداقة حيناً وحرب حيناً ، وحاول الإيلخانات انتزاع الشام من المماليك فلم يستطيعوا ، وقد دخل هذا الفرع من المغول الاسلام منذ أيام ارغون بن هولكو ، ولكن الدولة لم تأخذ طابعا اسلاميا حقيقيا الا في عهد سلطانها غازان - اوقازان خان . وكانت دولة الإيلخانات سنية المذهب
أنظر :

D'Ohssen, Histoire des Mongols, III, IV

Hammer Purgstall, Gesch. der Ilchane, 2 Vols.

Howorth, History of the Mongols, Part III

Quatremère, Mémoire sur la vie et les ouvrages de Raschid-eldin (Histoire des Mongols de la Perse, écrite en persan par Raschid el-din. Paris, 1836.

W. Barthold, Persidskava nadpis' stienie Anijskoi meceti Manuce.

St. Petersburg, 1911 بالروسية

الدولة السلجوقية وفروعها

على ان هذه الامارات نشأت فروعاً للدولة العباسية ، وكان امراؤها وسلاطينها من عمال الدولة العباسية او قوادها

وكانت السنة قد تقوت بظهور الامارات التركية ، فلما قامت دولة آل بويه في اواسط القرن الرابع للهجرة بالعراق وفارس وعاصرتها الدولة الفاطمية بمصر ، عظم أمر الشيعة في العالم الاسلامي وتضعفت السنة فتشتت شمل المملكة العباسية . ثم ظهرت الدولة التركية الكبرى في اواسط القرن الخامس ، وتعرف بالدولة السلجوقية نسبة الى جدها سلجوق ، فجاءت في حال الحاجة اليها ، لانها لمت شعث المملكة العباسية ونصرت مذهبها (السنة) بعد ان كادت تضمحل بين يدي الشيعة في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان . وكانت الدولة الفاطمية قد نشرت سلطتها على المغرب ، وأوشكت ان تستولى على المشرق كله ، فجاء السلجوقيون من اقاصي الشرق فاستولوا على المملكة العباسية وجمعوا شملها . وبعد ان كانت ولايات مستقلة يملكها امراء من الفرس والأتراك والاكراذ والعرب ، جعلوها مملكة واحدة يحكمونها تحت رعاية الخليفة العباسي

ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن تكاك ، امير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان ، فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها ، وعلم انه لا يبلغ ذلك وهو على دين غير دين الاسلام ، فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبته دفعة واحدة (*) ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غربا ، فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا في الفتح ونشر سلطانهم حتى اكتسحوا المملكة العباسية ، وامتد سلطانهم من أفغانستان الى البحر الابيض . وأصبح العالم الاسلامي

(*) يسمى جد السلاجقة دقاق أيضا ، ويلقب بتيغور يالغ أي صاحب القوس الحديدي . وكان دقاق اميرا من امراء قبيلة الغز التي كانت في ناحية قينيك . وقد اختصم دقاق مع ملك من ملوك الترك يسمى بيغو ، لان بيغو اراد ان يغزو بلاد الاسلام فعارضه دقاق ، وكانت النتيجة ان أخذ دقاق قبيلته وأهله وهاجر بهم الى حدود بلاد الاسلام ، واستقر عند نهر سيحون . وهناك اعتنق سلجوق وآله الاسلام . وقد ذهب بعض علماء الروس الى ان سلجوق تحول الى النصرانية أولا ، ثم الى الاسلام ، وليس لدينا ما يثبت ذلك ، وحجتهم ان أبناء سلجوق كانوا يحملون أسماء مسيحية : ميكائيل وموسى واسرائيل . وكانت الظروف مواتية لسلجوق في الناحية التي استقر فيها وهي ما وراء النهر (Transoxania) حيث كان السامانيون والقرخانيون يتنازعون على السلطان فانضم سلجوق ومن معه من الغز الى السامانيين ، وما زال هو وابناؤه من بعده يحاولون حتى سيطروا على بلاد ما وراء النهر ، ثم اخذوا يتحرشون بالبويهيين . وكان الغز السلاجقة من أهل السنة ، فكان هذا مثار النزاع بينهم وبين البويهيين الشيعة . وقد تمكنوا من السيطرة على فارس ، ثم استدعاهم الخلفاء لانقاذهم من البويهيين ، فانتقلوا الى العراق وبدأ نجمهم يصعد

والمراجع عن السلاجقة ودولهم كثيرة جدا ، نجد أهمها في مقال « سلاجقة » في دائرة المعارف الاسلامية

تتنازعه ثلاث دول اسلامية ، أكبرها دولة السلاجقة في المشرق ، ثم الدولة الفاطمية في مصر والمغرب ، والثالثة دولة بني أمية في الاندلس . فشان الدولة السلجوقية غير شؤون الدول التركية الصفري التي تقدمتها ، لان هذه امارات نشأت في حجر الدولة العباسية وتفرعت من مملكتها ، وأما الدولة السلجوقية فقد نشأت مستقلة وجاءت من الخارج بقوة وجند وأنقذت الخلافة العباسية من الضياع على أيدي البويهيين وغيرهم من الشيعة . والدولة الايلكية نشأت مستقلة أيضا ، لكنها قلما أثرت في المملكة الاسلامية

والسلاجقة منزلة عظمى في تاريخ الاسلام ، وفي أيامهم تكاثر نزوح الأتراك الى المملكة الاسلامية في فارس والعراق والشام ، للسكنى والارتزاق في ظل أبناء جلدتهم ، والسلاجقة أول من أنشأوا المدارس في المملكة الاسلامية ، بأرقى ما بلغت اليه في عهد ذلك التمدن على يد نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي في أواسط القرن الخامس ، وقد فصلنا ذلك وعللناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب

ونظام الملك فارسي الاصل من أولاد الدهاقين ، ولكنه أنشأ ما أنشأه من المدارس والتكايا والرباطات والمساجد والمارستانات باسم سلطانه ملك شاه والسلاجقة دول تفرعت من أصل واحد وعرفت باسم واحد ، ولكنها تمتاز بعضها عن بعض بأماكن حكمها ، وأكبر هذه الدول السلاجقة العظام وهم أصل سائر الفروع وأقوى منها جميعا . واليك الدول السلجوقية ومقدار حكمها :

حكموا من سنة ٤٢٩-٥٥٢ هـ

١ - السلاجقة العظام (*)

» » » ٤٣٣-٥٨٣ هـ

٢ - سلاجقة كرمان (**)

(*) السلاجقة العظام هم : طغرل بك (أنشأ الدولة سنة ١٠٣٨ وحكم حتى ١٠٦٣) ، ألب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢) ، ملك شاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢) ، برقياروق (١٠٩٢ - ١١٠٤) ، ملك شاه الثاني ومحمد (حكما من ١١٠٤ حتى ١١١٧) ، سنجر (١١١٧ - ١١٥٧) . وقد شملت دولة السلاجقة الكبار فارس كلها والعراق . وكان دخول السلاجقة بغداد على يد طغرل بك (في رمضان ٤٤٧ - ديسمبر ١٠٥٥) وسلم اليه الخليفة العباسي مقاليد الامور ولقبه بملك المشرق والمغرب ، وقد امتد سلطانهم الى الموصل . ومد ألب أرسلان حدود الدولة حتى شملت أرمينية وآسيا الصفري ، ثم دخلت الشام في طاعتهم سنة ١٠٩٢/٤٨٥ بل خطب لهم في اليمس وعدن . وبعد موت ملك شاه تنازع اولاده واتبكة الدولة على العرش ، ففرقت الدولة وانقسمت الى دول ، وظلت على ذلك الحال حتى مجيء الصليبيين

(**) دولة سلاجقة كرمان انشأها قاورد قره أرسلان بك بن صفري بك بن هولكو ، وقد هاجر هذا الاخير بمن تبعه من الغز وفتح كرمان واستقر فيها وأنشأ فيها هذه الدولة سنة ١٠٤١/٤٣٣ ، ثم استولى على عاصمتها بردسير واتخذها عاصمة له . وقد خضع قاورد للسلطان ألب أرسلان . وعند وفاة هذا الاخير طمع قاورد في أن يخلفه سلطانا على الدولة السلجوقية كلها ، ولكنه انهزم وقتل . وقد أقر ألب أرسلان ابنه سلطان شاه سلطانا على سلاجقة كرمان . وقد توالت على عرش سلطنة كرمان السلجوقية سلسلة من الحكام الاقوياء اهمهم - بعد سلطان شاه الذي حكم حتى ١٠٨٤/٤٧٧ - توران شاه (١٠٨٤ - ١٠٩٤) ، ايران شاه (١٠٩٤ - ١١٠٠ أو ١١٠١) وأرسلان شاه (١١٠١ - ١١٤٢) ومحمد شاه (١١٤٢ - ١١٥٦)

- ١ - سلاجقة الشام (*١) حكما من سنة ٤٨٧ - ٥١١
 ٤ - سلاجقة العراق وكرديستان (*٢) « « « ٥١١ - ٥٩٠
 ٥ - سلاجقة بلاد الروم (آسيا الصغرى) (*٣) « « « ٤٧٠ - ٧٠٠

فحكمت الدولة السلجوقية على الاجمال نحو من ثلاثة قرون ، وبلغ اتساع مملكتهم من حدود الصين الى آخر حدود الشام

انتقال المملكة السلجوقية الى الاتابكة

وكان السلاجقة في أيام سلطتهم يولون الاعمال أو الولايات قوادا من مماليتهم يسمونهم الاتابكة ، واحدهم اتابك ، وهو لفظ تركي معناه « الاب

وطغرل شاه (١١٥٦ - ١١٦٩) وبهرام شاه وأرسلان شاه (١١٦٩ - ١١٧٤) وتوران شاه الثاني (١١٧٤ - ١١٨٣) ومحمد شاه الثاني (١١٨٣ - ١١٨٣) وبه انتهت الدولة (*١) في سنة ١٠٧٠/٤٦٣ - ١٠٧١ دخل صاحب حلب في طاعة الب أرسلان ، فانتقلت جماعة من جند السلاجقة من التركمان الى فلسطين يقودها اتسز بن ابق ، فاستولى على الرملة والقدس وبقية فلسطين فيما عدا عسقلان التي ظلت في أيدي الفاطميين . ثم استولى على دمشق سنة ١٠٧٦/٤٦٨ . وقد حاول اتسز دخول مصر ، ولكن بدر الجمالي وزير الفاطميين رده عنها ، وتبعته جيوش الفاطميين في الشام ، فتخرج مركزه واستغاث بالامير تشش بن الب أرسلان ، فأقبل تشش ودخل دمشق ، ثم اتهم اتسز بالمروق وقتله واستولى على الشام . وقد حاول تشش الاستيلاء على حلب دون جدوى . ثم انهزم تشش امام سليمان سلطان دولة سلاجقة الروم أو آسيا الصغرى ، فأسرع الب أرسلان وعين على الشام الامير آق سنقر البرسقي جد آل زنكي ، ولكن تشش عاد الى دمشق بعد موت الب أرسلان ، وعندما مات تقسم دولته ابناه دقاق ورضوان ، فأخذ رضوان حلب وأخذ دقاق دمشق ، وقد ظلا يحكمان حتى مجيء الصليبيين (*٢) بعد موت السلطان محمد السلجوقي عام ١١١٨/٥١١ خلفه ابنه محمود (وكانت سنة ١٣ سنة) على سلطنة دولة السلاجقة كلها ، عدا خراسان حيث كان عمه سنجر قائما بالسلطنة . وبهذا انقسمت دولة السلاجقة الى قسمين : قسم في خراسان وما يليها غربا ، وقسم في العراق وكرمان ، وقد عرف القسم الثاني بسلطنة سلاجقة العراق وكرمان . وخلف محمودا على السلطنة ابنه داود (١١٣١ - ١١٣٢) ثم طغرل الاول (١١٢٢ - ١١٢٣ أو ١١٢٤) ثم مسعود (١١٢٤ - ١١٥٢) وملك شاه (١١٥٢ - ١١٥٣) ومحمد الثاني (١١٥٣ - ١١٥٩) وسليمان (١١٥٩ - ١١٦١) وأرسلان شاه (١١٦١ - ١١٧٥) وطغرل الثاني (١١٧٥ - ١١٩٤) . وقد تولى هؤلاء جميعا السلطنة وهم اطفال ، فقام بأمورهم مربوهم أي اتابكتهم ، ولهذا تعرف الدولة بدولة الاتابكة . وقد كان التنافس شديدا على السلطان بين السلاطين واتابكتهم من ناحية ، وخلفاء بغداد من ناحية اخرى . وقد انتهى الامر بتركهم بغداد للخليفة وانتقال عاصمتهم الى همدان

(*٣) مؤسس هذه الدولة سليمان بن قظلميش بن أرسلان (وهو اسرايل) بن سلجوق . وقد كان أبوه قظلميش من كبار رجال الدولة السلجوقية أيام طغرل بك . فلما تولى الب أرسلان أبي الخضوع له ، وحاربه فانهزم على مقربة من الرى (١٠٦٤/٤٥٦) . وبعد انتصار الب أرسلان على البيزنطيين في موقعة ملاذكرد عام ١٠٧١ انتقل سليمان بن قظلميش الى آسيا الصغرى ليحاول اقتطاع جزء من أراضي الدولة العثمانية ينشئ فيه دولة له ، فظلى سنة ١٠٧٧ نجده في نيقية ، ولكنه ارتد عنها واستولى على انطاكية من الارمن (١٠٨٥/٤٧٧) ولكنه اختلف مع تشش صاحب دمشق مما اضطر ملك شاه الى التدخل ، فأقبل الى آسيا الصغرى واستصحب سليمان ابن قظلميش معه الى العراق . وعندما تولى سلطنة السلاجقة برقياروق اقبل قلع أرسلان بن سليمان ابن قظلميش الى آسيا الصغرى وهناك أنشأ امارة سلجوقية كبيرة عاصمتها قونية ، سميت بسلطنة سلاجقة الروم ، أي ارض الروم ، او سلاجقة آسيا الصغرى ، وقد عمرت هذه الدولة طويلا ومرت بها ظروف مختلفة اثناء الحروب الصليبية ما بين صعود وهبوط ، وظلت قائمة حتى قضى عليها سلاطين آل عثمان عام ١٣٠٢/٧٠٢

المراجع : المراجع عن السلاجقة كثيرة جدا ، تجد بيانا بأعمها في ختام كل جزء من اجزاء مقال السلاجقة الذي كتبه بارتولد على الاغلب في دائرة المعارف الاسلامية

الامير « (*) » ، واستعملوه اولا بمعنى وزير ثم صار بمعنى الملك . واخذ الاتابكة يستقلون بولاياتهم شيئا فشيئا ، حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ، الا الفرع الرومى فى آسيا الصغرى فانه ظل فى حوزة السلاجقة ، حتى اتى العثمانيون فى اواخر القرن السابع - واليك تفرع المملكة السلجوقية الكبرى الى ممالكهم الاتابكة وغيرهم وسنى حكم كل دولة منها :

١ -	الدولة البورية	فى دمشق	من سنة ٤٩٧ - ٥٤٩ هـ
٢ -	الزنكية	الجزيرة والشام	٥٢١ - ٦٤٨
٣ -	البكيجينية	اربلاء وغيرها	٥٠٩ - ٦٢٠
٤ -	الارتقية	ديار بكر وماردين	٤٩٥ - ٧١٢
٥ -	دولة الشاهات	أرمينيا	٤٩٣ - ٦٠٤
٦ -	أتابكة أذربيجان	أذربيجان	٥٣١ - ٦٢٢
٧ -	الدولة السلغرية	فارس	٥٤٣ - ٦٨٦
٨ -	الهزارسية	لورستان	٥٤٣ - ٧٤٠
٩ -	الحوارزمية	خوارزم	٤٧٠ - ٦٢٨
١٠ -	القطافية	كرمان	٦١٩ - ٧٠٣ (***)

وما زالت هذه الممالك فى حوزة الاتابكة وغيرهم من ممالك الدولة السلجوقية وقوادها حتى جاء المغول فاكسحوها كلها واستولوا عليها

سلاجقة الروم :

اما الفرع السلجوقى الذى ظل سائدا دون سائر الفروع فهو سلاجقة آسيا الصغرى ، وهى بلاد الروم فى اصطلاح تلك الايام . على أن مملكتهم هناك تفرعت الى عدة فروع يحكم كلا منها عائلة سلجوقية صغيرة ، وهاك أسماءها مع أسماء العائلات السلجوقية التى كانت تتولاها :

ونضيف اليها ما يلى :

تاريخ البيهقى ، ترجمه من الفارسية الى العربية الدكتور يحيى الخشاب والاستاذ صادق نشأت ، القاهرة ١٩٥٧

السلوك لمعرفة دول الملوك لتقى الدين احمد بن على المقريزى ، المجلدان الاول والثانى ، قام على نشرهما الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والمجلد الثالث على وشك الظهور

أبو شامة : كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والصلاحية ، بتحقيق الدكتور محمد حلمى احمد ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٦

Stevenson Crusaders in the East. Oxford, 1930.

Stephen Runciman, The Crusades, 3 vol. Cambridge 1948-1955.

(*) الاسح : مربي الامير ، وهو مكون من مقطعين : أطا : بچ

(**) هذه كلها دول تركية صغيرة لا يتسع المجال للتطبيق عليها جميعا ، وكلها مذكورة فى معجم الانساب والاسرات الحاكمة لزامباور ، ترجمة زكى محمد حسن واخرين

اسم الامارة	اسم العائلة
١ - ميسيا	آل كراسى
٢ - بيسيديا	» حميد
٣ - فريجيا	» كرميان
٤ - ليسيا	» تاكة
٥ - ليديا	» سروخان وايدىن
٦ - كاريا	» منتشا
٧ - بفلاغونيا	» قزل احمدلى
٨ - ليكونيا	» قرمان (١) (*)

وما زالت هذه الامارات في سلطة الامراء السلاجقة حتى اتى العثمانيون فاستولوا عليها وأنشأوا الدولة العثمانية في أوائل القرن الثامن للهجرة

٤

(1) Lane Poole's Moh. Dynasties

(*) ورد بيان هذه الدويلات واسماء أصحابها وامرائها والمواضع التي قامت فيها في معجم الانساب الذي سبق ذكره ، فتراجع هناك

الدول الكردية في ظل العباسيين

الدول الصفري

الاکراد قوم أشداء وأكثرهم أهل بادية وخبثونة وجفاء ، يقيمون في الخيام وينقسمون الى قبائل وعشائر وبطون ، وهم أقل قبولا للحضارة من الفرس والترك وغيرهما من الامم الشرقية التي دانت للإسلام في ابان التمدن الاسلامي وقد ظلوا أهل ظعن ورحلة في معظم ذلك التمدن . وكانت الدول تستعين بهم في الحروب البدوية الشبيهة بالغزو كما كانت تستعين بالاعراب ، ومقامهم على الاكثر في كردستان وأرمينيا وجزيرة العراق كالموصل وديار بكر ، ولا يزال سوادهم هناك الى الآن

ونظرا لتمسكهم بالبداءة والخبثونة لم تستخدمهم الدولة العباسية في اعمالها الا قليلا ، فلم ينبغ فيهم احد من رجال الامارة المستقلة أو أهل السياسة والتدبير الا بعد دهر طويل من عهد ذلك التمدن . وأول من أنشأ دولة كردية مستقلة في الاسلام حسنويه بن حسين البرزكاني ، زعيم بعض قبائل الاكراد في كردستان، في أواسط القرن الرابع للهجرة، وامتدت سلطته على معظم تلك المملكة وفيها ديناور (أو الدينور) وهمذان ونهاوند وسرماج وغيرها . وقد اعترف خليفة بغداد بسلطانه ولقب ابنه بعده بناصر الدولة . ولم يطل عمرها كثيرا فحكمت من سنة ٣٤٨ - ٤٠٦ هـ ثم استقل من الاكراد أبو علي بن مروان في ديار بكر سنة ٣٨٠ هـ وامتدت سلطته على آمد وآرزان وميافرقين ، وباع خلفه للفاطميين حينما من الزمن وذهبت دولته سنة ٤٨٩ هـ

الدولة الايوبية :

على ان الاكراد لم يكن لهم شأن يذكر في الاسلام الا على عهد الدولة الايوبية من سنة ٥٦٤ - ٦٤٨ ومؤسسها السلطان صلاح الدين الايوبي . وهو من أعظم رجال الاسلام تعقلا وسياسة وبسالة وتدبيرا ، أنشأ دولته على انقاض الدولة الفاطمية بمصر وباع فيها للعباسيين ، وحارب الصليبيين وردهم عن سوريا وانقذ بيت المقدس من أيديهم ، ومآثره أشهر من أن تذكر . وارتفع شأن الاكراد في ايام دولته وتولوا الامارات والولايات في مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان ، ولما مات اقتسم مملكته اخوته وأولاده وأولاد اخوته ،

ولذلك لم يطل حكمها . فغلبهم على معظمها مماليتهم الاتراك ، كما غلب الاتابكة ملوكهم السلاجقة قبلهم ، فكان للماليت بمصر دولتان تعرفان بالسلطين المماليت كما سيجيء

ومما يحسن التنبيه اليه في هذا المقام أن الاسلام قد أثر في أمم المشرق تأثيرا خاصا وساقها الى التمدن تدريجا ، فتساقبت الى انشاء الدول وتأسيس الممالك باعتبار اسبقيتها في الاسلام وقربها من العالم الاسلامي . فأول من أسلم من تلك الامم العرب وأسسوا الدولة الاسلامية العربية ، فاحتك بهم أولا الفرس وهم أقرب أمم المشرق الى جزيرة العرب فكانوا أسبق الاعاجم الى انشاء الدول . ثم جاء الاتراك من وراء بلاد فارس ، فلما انتشر الاسلام بينهم أسسوا الدول ونظموا الحكومات . ثم ظهر الاكراد وهم أقرب من الاتراك الى العالم الاسلامي يومئذ لكنهم تمدنوا بعدهم لان الاتراك أقرب منهم الى سياسة الدول . وامتد الاسلام في تركستان وما وراءها من بلاد التتر او المغول فنهض هؤلاء وأغاروا على بلاد الاسلام للنهب والقتل ، لكنهم ما كادوا يحتكون بالعالم الاسلامي حتى اخلدوا الى النظام وأنشأوا الدول . ويقال نحو ذلك عن تأثير الاسلام في المغرب ، خصوصا قبائل البربر في شمالي أفريقيا كما تقدم (*)

(*) أشار المؤلف هنا الى ظاهرة من اعظم ظواهر التاريخ الاسلامي ، وهي اكبر دليل على الاسلام في ذاته قوة حضارية كبرى ، واهم فيه حوافز معينة تدفع الاجناس التي تدخل فيه الى التنظيم والترتيب وانشاء الدول ، وفي ظل الدول تنشأ الحضارات . وبلا حظ ان كل شعب دخل في الاسلام تمثله في كيانه واعتبر نفسه حامل لواء من الوبة الاسلام ومضى بنشره فيم يليه ، واذا نحن قارنا من دخل الاسلام على ايدي العرب بمن دخله على ايدي غيرهم لوجدنا ان العرب لم ينشروا الاسلام الا في جزء صغير من العالم الاسلامي اليوم ، والباقي ضمه الى الاسلام شعوب أسلمت على يد العرب او غيرهم ، ويكفي ان نذكر ان الاسلام المنتشر اليوم في افريقيا (عدا مصر والمغرب وشمال السودان) وفي الهند وتركستان واندونيسيا والفيليبين يرجع الفضل فيه الى أمم بعيدة كل البعد عن العروبة ، بل لاتعرف العربية . وكل شعب يدخل الاسلام يسر الى انشاء دولة على غرار دولة الاسلام الاولى ، وهذه الدولة هي الاداة التي تعمل على نشر الاسلام . وهذا صحيح فيما يتصل بشعوب آسيا وافريقية ، ويكفي ان نلاحظ ان شعوب المغرب كلها كانت قبل الاسلام مجرد قبائل ، فعرفت في ظل الاسلام كيف تنشأ الدول والحضارات واذا كان المؤلف قد وقف طويلا عند دول المشرق فنحن نشير هنا الى دول المغرب التي أقام البربر أنفسهم دون عون من العرب . كدولة بني زيري الصنهاجيين في افريقية وهي المعروفة اليوم بتونس ، ودولة المرابطين صاحبة الفضل الاكبر في انقاذ الاسلام الاندلسي من الضياع اليان ثم في ادخال الاسلام الى غربي افريقية ، ودولة الموحديين وهي من اعظم ما انشأ المسلمون الدول حضارة وقوة ونظاما وسياسة ، وما جاء بعدها من دول المرينيين والوطاسيين والحفصيين مما يطول ذكره . والاسلام من هذه الناحية اعظم قوة معنوية تنظيمية عرفها التاريخ ، وهي ناحية لم يتنبه لها واحد من مؤرخي الاسلام ، ولا ابن خلدون نفسه ، وهي جديرة بأن تدر على حدة

الخلافة والسلطة

أو الدين والسياسة

لما ظهر الاسلام كان النبي رئيس المسلمين في أمور الدنيا والدين ، وهو حاكمهم وقاضيهم وصاحب شريعتهم وامامهم وقائدهم . وكان اذا ولى أحد اصحابه بعض الاطراف خوله السلطتين السياسية والدينية ، وأوصاه أن يحكم بالعدل وان يعلم الناس القرآن . ولكنه ما لبث أن فصل بين المنصبين فيمن كان يوليهم أمور الرعية ، فبعث في السنة الثالثة للهجرة أبازيد الانصارى وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام ، وقال لهما : « ان أجاب القوم الى شهادة الحق وأطاعوا الله ورسوله فعمررو الامير وأبوزيد على الصلاة وأخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن »

على أن ذلك لم يكن قاعدة عامة ، لان الامير كثيرا ما كان يتولى الخراج والحرب والصلاة معا ، كما تولاها يزيد بن المهلب في العراق من قبل سليمان ابن عبد الملك (١) ويقال بالاجمال ان مصالح الدولة الاسلامية بعد ان كانت محصورة في النبي (صلعم) سياسيا ودينيا تفرعت في أيام الخلفاء الى عشرات من المناصب ، الا الخلافة فانها ما زالت حتى الآن (حوالى سنة ١٩١٠) تشمل الرياسة في أمور الدين والدنيا

والخلافة في الاصل منصب ديني تولاه الخلفاء الراشدون لاتمام العمل الذي بدأ به النبي (صلعم) وهو نشر الاسلام والجهاد في سبيله ، وكانوا يتولون أمور المسلمين السياسية أيضا لما يقتضيه الجهاد من الحرب وأسبابها، كادارة الجند وتنظيمه لحماية البلاد ، ويدخل في ذلك ولاية الاعمال وجباية الخراج . على انهم كانوا يفعلون ذلك بصفة دينية ، أى ان كل ما يعملونه فالى الدين ينتهى الغرض منه ، فكانوا يجندون الرجال ويفتحون البلاد في سبيل الدين . فلما انتشر الاسلام وتوطدت دعائمه وذهبت الحاجة الى الجهاد (*) جاز للرياسة الدينية أن تستقل عن السيادة السياسية ، أو

(١) ابن الاثير ١٠ ج ٥

(*) لم تذهب الحاجة الى الجهاد ولكن القوة عليه ضعفت . وطوال العصور الوسطى ، بل حتى القرن السابع عشر ، كان الاتراك العثمانيون يجاهدون في سبيل الاسلام ، بل ان الجهاد هو العنصر الاساسى في سياسة هذه الدولة . وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان أمم الشمال افريقي يجاهدون في البحر الابيض ، وكان الفرس والهنود والحضارمة يجاهدون جهادا سلميا في نواحي آسيا ، وهو جهاد جليل مد رواق الاسلام حتى المحيط الهادى . وحتى الحرب العالمية الاولى كان خلفاء آل عثمان يتحدثون عن الجهاد ويحاولونه رغم عجزهم عنه . واليوم يجاهد كثير من مسلمى الهند في نشر الاسلام في شرق افريقية وبعض نواحي امريكا اللاتينية . والغلاصة أن الجهاد عنصر داخل في تكوين الدعوة الاسلامية ، وهو من الناحية النظرية فرض لازم على كل مسلم

تنقسم الرياسة الى الخلافة والسلطة ، كما حدث في النصرانية وغيرها
ولكن الارتباط بين الدين والسياسة في الاسلام يختلف عما في النصرانية ،
لان النصرانية انتشرت اولاً في عامة الناس ثم انتقلت الى رجال الدولة . واما
الاسلام فانه ظهر اولاً في رجال الدولة وانتقل منهم الى العامة ، لان اقدم
اهل الاسلام الصحابة وهم جند المسلمين وامراءهم ، نشروا الاسلام في
الارض وجاهدوا في سبيل نصرته بأنفسهم . فلما تأيد الدين وقامت دولة
المسلمين ورجب الأمراء في السلطة الدنيوية ، كان منصب الخلافة من اكبر
أسباب تغلبهم ، لتأثير الدين على اذهان الناس في تلك الايام ، فقد كانوا
لا يجتمعون الا تحت رايته وخصوصاً في الشرق ، ولا يزالون على ذلك حتى
الآن

على أن أهل التقوى من المسلمين كانوا يجعلون حداً فاصلاً بين الخلافة
والسلطة ، فلما طلب معاوية السيادة كما يطلبها أهل المطامع بالدهاء والقوة ،
خالفوه وأبوا مبايعته ، فلما قتل على وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، لم
ير المسلمون بداً من مبايعته على الطاعة كما يبايعون الملوك ، لكنهم استنكفوا
من أن يسموه « خليفة » أو يعترفوا له بسلطة دنية فسموه « ملكاً » ،
وهو يأبى الا أن يجمع الرياستين لعلمه أن الرياسة الدنيوية وحدها لا تفيده
شيئاً - ذكروا أن سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية بعد أن استقر
الأمر له وقال : « السلام عليك أيها الملك » فضحك معاوية وقال : « ما عليك
لو قلت يا أمير المؤمنين ؟ » . فقال : « تقولها جذلان ضاحكاً ؟ والله
ما أحب انى وليتها بما وليتها به » .

فيظهر من ذلك أنهم كانوا ينزهون الخلافة عن السياسة والدهاء ،
ويعتقدون ان بنى أمية نقلوا الاسلام من الدين الى العصبية والسيف ثم
الى الملك البحت

الخلافة لازمة للسلطة المطلقة

وفي اعتقادنا ان الحكم المطلق لا يتأيد ويتسع نطاقه ويطول مكثه الا
بالدين أو ما يقوم مقامه . فما من دولة مطلقة طال حكمها واتسعت مملكتها
الا وفي سلطتها صفة دينية تحميها من طمع الطامعين ، بأن تجعل للوكها
مزية على سائر الناس . واذا أريد فصل الدين عن السياسة فلا بد من
تقييد الحكومة بالشورى ، وهي افضل الحكومات واطولها عمراً ، والا فانها
تنحل سريعاً ، ويكفى لانحلالها أن يتولى شؤونها ملك قليل التدبير ناقص
الاختبار فيفتصب ملكه بعض وزرائه أو قواده . واذا تدبرت تاريخ الدول
الاسلامية رايت للسلطة الدينية تأثيراً كبيراً في طول بقائها واتساع نطاقها -
اعتبر ذلك في الدول التي نشأت في اثناء التمدن الاسلامي من الفرس والترك

والكرد والجركس ، كالبويهيين والسلاجقة والايوبيين وغيرهم من الدول الضخمة ، فان بين ملوكها جماعة من دهاة الرجال وقهارمة السياسة ، ولم تطل أعمارها رغم استقوائها بالخلافة العباسية . وانظر الى الدول العربية التي جمعت بين الخلافة والسلطة ، كالعباسيين والفاطميين والامويين في الاندلس ، مع ما طرأ عليها من اسباب السقوط ، فقد صبرت وطال جهادها . واذا نظرت الى الدول الاعجمية رايت أطولها عمراً وأوسعها ملكاً الدولة التي جمعت بين السلطتين وهي الدولة العثمانية . وبنو أمية في الشام لو لم يتخذوا لقب الخلافة ويقبضوا على أزمة الرياسة الدينية ما استطاعوا الى الحكم سبيلاً ، فانهم انما حكموا الناس وأيدوا سلطتهم بما في الخلافة من الصبغة الدينية ، وتوقفوا الى أعوان عرفوا أن العامة لا تحكم بمثل الدين ، فجعلوا همهم تعظيم الخلافة حتى جعلوها فوق النبوة ، وسموا الخليفة « خليفة الله » وقالوا : « خليفة الرجل في أهله أفضل من رسوله في حاجته » (*) كما تقدم - والعلماء ينكرون ذلك ولا يصدقونه ، وأما العامة فكانوا يساقون الى الطاعة بالارهاب ، رغم ما كان يعتور صحة خلافة بنى أمية من الشكوك

فلما أفضت الخلافة الى بنى العباس ، وهم من بنى هاشم ومن أولى الناس بالخلافة ، كان المسلمون أطوع لهم مما لبنى أمية ، واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أبد الدهر حتى يأتي السيد المسيح (١) وغرس في أذهان الناس بتوالي الأزمان ان الخليفة العباسي اذا قتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجف النبات (٢)

وكان الخلفاء لا يأنفون من ذلك التفخيم ، حتى الرشيد مع تعقله وانتشار العلم في عصره ، فقد ذكروا انه كان يحتمل أن يمدح بما يمدح به الانبياء فلا ينكر ذلك ولا يرده ، حتى قال فيه بعض الشعراء : « فكأنه بعد الرسول رسول » (٣) فكيف يكون حال الخلفاء في عصر الاضمحلال ، اذ يقوم الوهم مقام الحقيقة ويكثر المتزلفون والمتملقون ويكتفى أولو الامر بالكلام دون الاعمال ؟ واذا شاخت الدولة تمسك أهلها بالعرض وتركوها الجوهر ، فلا غرو اذا سموا الخليفة في أيام المتوكل « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه » (٤) أو قالوا قول ابن هانئ للمعز الفاطمي :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار (٥)

(*) لم يقل بهذا الا نفر من المستبدين من رجال الدولة الاموية ، وقد انكره عامة المسلمين كما رأينا
(١) ابن الاثير ١٩٨ ج ٥ (٢) الفخرى ١٢٥ (٣) الاغانى ١٨ ج ١٢ (٤) المسعودى ٢٨٠ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٢٤٥ ج ٨

ويدل ذلك على ما كان للخلافة من المنزلة المقدسة عند عامة الناس ،
والأصل في هذا التقديس إنما هو للدين ، وتعظيم الخلافة فرع منه . ولذلك
كان بين الخلفاء الأولين وعلماء الدين الإسلامي ، كالحفاظ والمحدثين والفقهاء ،
علاقة متبادلة وكل منهم يتقوى بالآخر - ومعنى ذلك أن الخليفة هو
صاحب السيادة الدينية والسلطة الدنيوية ، فهو أمير الناس في السلم ،
وقائدهم في الحرب ، وإمامهم في الصلاة ، وهو قاضيهم وفقههم كما كان
النبي (صلى الله عليه وسلم) في أول الإسلام . فلما اتسعت الفتوح ومست الحاجة إلى
تقسيم الأعمال بمقتضى سنة العمران ، عمد الخليفة إلى انابة من يتولى
تلك الأعمال عنه . فالوالى إنما هو نائب الخليفة في العمل الذى يتولاه ،
والقاضي نائبه في القضاء ، وقائد الجند يتولى قيادته بالنيابة عن الخليفة .
وقس على ذلك سائر المناصب الإدارية والسياسية والقضائية ، وكذلك في
المهن الدينية ، فالقراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء يتولون أعمالهم بالنيابة
عن الخليفة . فكما يحتاج الخليفة إلى نصرته العمال والقواد والقضاة في تأييد
سلطته الدنيوية ، فهو يفتقر أيضا إلى نصرته الفقهاء والعلماء لتأييد سيادته
الدينية . ولذلك رأيت الخلفاء يقربون أهل العلم ولا سيما في أوائل الإسلام
(وهم يومئذ الحفاظ أو القراء) وكان اليهم المرجع في حل المشكلات الدينية
أو القضائية أو الفقهية ، وهى أساس الأحكام السياسية فى الدولة الإسلامية .
ونظرا لتمسك العامة بالدين على الأجمال كان للفقهاء تأثير شديد فى الدولة ،
فلا يقطع الناس بأمر هام إلا باستفتائهم حتى فى تنصيب الخلفاء ، فإذا انكر
الفقهاء بيعة أحدهم أنكروها الناس . ولذلك كان الخلفاء يجلون العلماء
ويقربونهم ويعولون على مشورتهم فى عصر الراشدين والدولة على سداجتها
لم يلبسها غش ولا دهاء ، فإذا نهوا الخليفة أو الأمير عن عمل انتهى وأخذ
بنصيحتهم

فلما طمع بنو أمية فى الخلافة والتمسوها من طريق الدهاء
والبطش ، كان فى جملة ما أهملوه من قواعد الراشدين الأخذ بأقوال أهل
العلم ، لأنهم لو أطاعوهم ما تيسر لهم الملك . فقاسى العلماء فى أوائل دولة
الأمويين عذابا شديدا من المقاومة والضغط ، فاضطر بعضهم للافتاء بما
يرضى أهل الدولة وأبى البعض الآخر إلا الحق ، فاضطهدوهم وضيقوا
عليهم - بدأوا بذلك من أيام عثمان والعمال يومئذ من بنى أمية ، وقد
أخذوا يمهدون السبيل لسلطانهم بجمع الأموال والاستئثار بالنفوذ . وفى
حكاية أبى ذر الغفارى مع معاوية بن أبى سفيان دليل ناطق على ما كان من
جراة أهل العلم على الخلفاء وانكار الأمويين ذلك . وقد فصلناها فى الجزء
الثانى من هذا الكتاب

فلما استتب الامر لبني أمية حبست الافكار وتقيدت اللسان ، ولم يتقدم من العلماء في مناصب الدولة الا المتملقون . وبعد أن كان الخليفة لا يعمل عملا الا بمشورة فقهاء المدينة ، أغفل بنو أمية المدينة وفقهاءها الا عمر ابن عبد العزيز فانه عاد الى مشورتهم . فظل الاحرار من الفقهاء في زوايا الاهمال معظم أيام بني أمية . فلما تسلط العباسيون وأظهروا أنهم يريدون احياء السنة وتقويم ما اعوج من سبل الدين في عهد الامويين ، ظهر اهل الافكار المستقلة من الفقهاء والعلماء والزهاد ، وقربهم الخلفاء واکرموهم فعادوا الى جراتهم في خطاب من يأنسون منه اصفاء ، كما فعل ذلك الرجل بالمنصور وهو يطوف - وقد أشرنا اليها أيضا في الجزء الثاني من هذا الكتاب - وكما فعل سفيان الثوري لما استدعاه الرشيد الى بغداد ليكرمه ويقربه ، فكتب اليه سفيان كتابا قال فيه : « اما بعد ، فاني كتبت اليك أعلمك اني صرمت حبلك وقطعت ودك ، وانك قد جعلتني شاهدا عليك باقرارك على نفسك في كتابك أنك هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وانفذته في غير حكمه . ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت الي تشهدني على نفسك . فأما أنا فاني قد شهدت عليك أنا واخواني الذين حضروا كتابك وسنؤدى الشهادة غدا بين يدي الله الحكيم العدل . يا هرون ! هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . هل رضى بفعلك المؤلف قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل . . ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم (يعنى العاملين) ؟ أم رضى بفعلك الايتام والارامل ، أم رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ » (١)

ودخل سفيان المذكور على المهدي مرة ولم يسلم بالامارة فلم يغضب عليه المهدي بل استعطفه (٢) وكان أكثر الخلفاء الاولين من بني العباس اذا لقوا فقيها او زاهدا طلبوا اليه ان يعظهم ، فاذا وعظهم بكوا حتى تخضل لحاهم . وأشهر المتعظين من الخلفاء المنصور والرشيد والعتصم والواثق ، ولهم حكايات مشهورة

فالفقهاء واسطة السيادة الدينية بين الخليفة والعامه ، مثل توسط الامراء والقواد في تأييد السيادة الدنيوية ، وقد يفنى الفقهاء عن الواسطتين جميعا ، لأن عامه المسلمين ينقادون الى فقهاءهم ويستسلمون اليهم كما ينقاد عامه النصراني الى كهنتهم . فالخلفاء العباسيون كانوا يحتاجون الى الفقهاء للاستعانة بهم على اخضاع العامة وامتلاك قلوبهم ، وكذلك كان يفعل السلاطين والامراء لنفس هذا السبب او لسبب آخر . والنفع متبادل بين الفئتين ، لأن الفقهاء كانوا يكتسبون بتقربهم من الخلفاء مالا وجاها ولكن

(١) الدميري ١٨٨ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢١٠ ج ١

ما يكتسبه الخلفاء منهم أعظم وأبقى . فرسخ احترام الفقهاء في قلوب العامة وتمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين

وكان الخلفاء يدعون للعامة باسم الدين أيضا . حتى انهم كثيرا ما كانوا يضطرون الى مسايرة بعض الناس في بعض اعتقاداتهم الدينية ، ولو كان ذلك الاعتقاد مخالفا لما في نفوسهم او مناقضا للواقع ، كما فعل المهدي اذ جاءه رجل بنعل زعم أنها نعل النبي (صلعم) فقبلها المهدي منه وأجازها عليها مع اعتقاده كذبه ، وانما خاف ان كذبه ان يحمل العامة قوله على الفتور في الدين (١)

ولم يكن للخلفاء بد من اظهار التقوى والقيام بالفروض الدينية ، لئلا يفسد عليهم العامة ويحتقروا سلطانهم ولو كان الخليفة لا يعتقد ذلك . ذكروا ان الوليد بن يزيد الاموي مع اشتهاؤه بالخلاعة والتهتك ، كان اذا حضرت الصلاة يطرح ما عليه من الثياب المصبغة والمطيبة ، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة ، فيصلى فيها احسن الصلاة بأحسن قراءة واحسن سكوت وسكون وركوع وسجود ، فاذا فرغ عاد الى تلك الثياب (٢) (*)

(١) كتاب الاذكياء ٩ (٢) الاغانى ١٤١ ج ٦

(*) لم تعرف الدولة فصل الناحية الدينية عن الناحية السياسية كما عرفه العالم المسيحي . ففي العالم المسيحي كان السلطان السياسي هو الاسسل ، وكان يمثل امبراطور الدولة الرومانية ، ثم تسربت المسيحية وانتشرت بين أهل الدولة ، وكان يمثلها رجال دين هم رؤساء الجمعيات المسيحية السرية ، ولما أصبحت المسيحية ديانة معترفا بها ايام قسطنطين ، ثم ديانة رسمية للدولة الرسمية ايام تيودوسيوس الكبير نشأت الكنائس ونظمتها ، واصبح رجال الدين هيئة - أو هيئات - رسمية تطالب بالسلطة الروحية على الناس وتقوم بالطقوس الدينية اللازمة لمناسبات الميلاد والتعميد والزواج والطلاق والوفاة وما الى ذلك ، وما زال أمر الكنيسة ينتظم حتى أصبحت سلطة كاملة لها نظامها ورجالها وأدواتها وقوانينها واموالها . وبدا النزاع بين هذه السلطة الجديدة والسلطة الزمنية ، اى بين الكنيسة والامبراطور ، وهو نزاع شغل العصور الوسطى كلها

اما في العالم الاسلامي فان الدولة نشأت من اول الامر كأداة للمحافظة على الدين والعمل على نشره ، اى انها نشأت في ظل الدين ، وكان لا بد ان تكون تابعة لصاحب السلطان الاعلى في الجماعة الاسلامية وهو الرسول صلوات الله عليه او من يحل محله . غير ان الدولة التي نشأت أداة من ادوات العقيدة لم تلبث ان اتسع مداها وعظم سلطانها وتعمقت تركيبها ، حتى أخذت الحيز الاكبر من اهتمام الخلفاء ، نظرا لبساطة العقيدة الاسلامية واستفنائها عن رجال يقومون على طقوسها ، ونظرا لانتشارها من تلقاء نفسها دون حاجة الى تبشير او دعوة او وعظ ، ومن ثم فقد غلب الطابع المدني على شؤون الدولة الاسلامية ، وتحول الخلفاء الى ملوك ، لا بارادة معاوية بل لان ذلك كان الاتجاه الطبيعي للامور ، ولا يمكن أن يقال ان خلفاء بنى العباس كانوا أكثر عناية بالدين من خلفاء بنى امية . وقد قامت بأمر الدين جماعات من أهل العلم والبحث ، فوضعوا علوم الدين والمذاهب وقواعد المعاملات ، وتألفت منهم مع الزمن جماعات الفقهاء ، ولم يكونوا رجال دين بل علماء دين . وفي خلال العصر العباسي الاول كان الخليفة يتمسك تمسكا شديدا بسلطانه الروحي على الناس ، ولهذا لم يكن للفقهاء سلطان وان كان لهم احترام عظيم ، فلما تخلى الخلفاء عن ذلك الجانب الروحي احتاجوا الى من يعطى سلطانهم جلال الدين فاحتاجوا الى الفقهاء ، وبدا هؤلاء ينشئون لانفسهم دولة داخل الدولة ، وأصبح لا بد لاعطاء اوامر رجال الدولة طابعا شرعيا من تأييدها بفتاوى ، فظهر المفتون او اسحاب الفتيا ، وكان لهم شأن عظيم في الاندلس ، ثم في دولة الانراك العثمانيين ، واصبح الافتاء وظيفة ثابتة من وظائف الدول الاسلامية

فلهذا السبب كان الامراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالادارة والسياسة لضعف الخليفة عن حربهم لا يستطيعون الاستقلال عنه بالدين ، اذ لا يستغنون عن بيعته (*) لتثبيت سلطانهم . فاذا اراد أحدهم الاستقلال بولاية أو فتح بلد أو انشاء امارة لنفسه ، بعث الى الخليفة في بغداد يبايعه ويطلب منه أن يعطيه تقليدا أو عهدا بولاية ذلك البلد ، أو أن يلقيه ويخلع عليه ، واذا أبى الخليفة أن يجيبه غضب وعد ذلك تحقيرا له ، وقد يجرد عليه الجند ليكرهه على تثبيته

فالامارات أو الممالك التي استقلت عن الدولة العباسية ، في فارس وخراسان وتركستان وما بين النهرين والشام ومصر وبلاد المغرب وغيرها ، قبل قيام الدولة الفاطمية ، كان أصحابها يخطبون لخليفة بغداد ويبعثون اليه بمال معين في العام ، مع أنهم في أمن من سطوته ، وانما يريدون أن يرضى العامة عن سلطانهم

وكذلك كان شأن الاجناد الاتراك وأمرائهم ، فقد كانوا مع استبدادهم بخلفاء بغداد قتلا وخلصا لا يجسرون على استبقاء منصب الخلافة خاليا يوما واحدا ، لاعتقادهم انه بدون الخليفة لا تستلح العامة . حتى الملوك أو السلاطين الذين تسلطوا على بغداد وقبضوا على كل شيء فيها وأصبح الخليفة آلة في أيديهم ، مثل آل بويه وآل سلجوق ، فقد كانوا يحاربون الخليفة ويجردون عليه الجيوش ، حتى اذا ظفروا به وغلبوه بايعوه وأكرموه ورفعوا مقامه وتبركوا به . فعضد الدولة البويهى ملك بغداد واستبد بها ، وهو شيعى على غير مذهب الخليفة . وكان يغالى في التشيع ويعتقد أن العباسيين غصبوا الخلافة من مستحقيها ، فلم يكن ثمة باعث دينى يدعوهم الى طاعة خليفة بغداد ، ومع ذلك فانه بايعه وعظم شأنه وأعاد من أمر الخلافة ما قد نسي ، وأمر بعمارة دار الخلافة والاكثر من الآلات ، وعمارة ما يتعلق بالخليفة وبطانته وأكرمه غاية الاكرام (١)

وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يعرفون حاجة الامراء المسلمين الى رضاهم ، فاذا ساءهم أحد منهم هددوه بالخروج من بغداد ، فيضطر الى استرضائهم لان خروجهم يفضب العامة (٢) ويجرئهم على خلع الطاعة . لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ - ولذلك لم يكن من سبيل

(*) الاصح هنا ان يقال « تأييده » لان الخليفة كان لا يبايع اولئك الامراء والملوك والسلاطين ، بل يؤيدهم باعلان رسمى يرفقه بخلع خاصة تسمع الخلع الخلافة . أما المبايعه فتصدر منهم له ، أى أنهم يبايعونه بالخلافة

(١) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٨

(٢) ابن الاثير ٢١٢ ج ٩

الى نزع سلطته أو الاعتراض عليها الا من وجه ديني ، فكان الذين يقومون على الخلفاء يجعلون سلاحهم الدين، فيلبسون الصوف ويدعون الى المعروف أو يعلقون في أعناقهم المصاحف (١) أو نحو ذلك مما يحرك عواطف العامة . وإذا أراد أحد الخلفاء أن يصلح ما بينه وبين العامة أصلحه بالتقوى . فلما ضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون أوصاه باظهار الورع والدين ليستميل القواد (٢) ولما رأى أبو مسلم الخراساني أهل اليمن في مكة قال : « أي جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة » يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء . فلم يكن للممالك الاسلامية بد من خليفة تبايعه ليثبت ملكها . وقد يستاء بعض الامراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع بيعته الا اذا رأى خليفة آخر يبايعه . فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر خلعت كثير من البلاد بيعة خليفة بغداد وبايعت للفاطميين في القاهرة . ولما تغلب السلطان صلاح الدين الايوبي على مصر وذهبت الدولة الفاطمية منها ، فأول شيء فعله انه خطب بجامع القاهرة للخليفة العباسي في بغداد ، وطلب المنشور منه والخلع عليه . وكانت الخلافة العباسية في غاية الاضمحلال والضعف ، وهو في غنى عن بيعتها ، ولكنه علم انه اذا لم يبايع الخليفة فلا يرضى عنه الناس

وكذلك فعل السلاطين المماليك الذين ملكوا مصر بعد الدولة الايوبية ، فانهم بايعوا للعباسيين وكانت الخلع تأتيهم من بغداد الى القاهرة بتثبيت سلطتهم . فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله توقف شأن الخلافة ، فاضطربت احوال مصر وبذل سلاطينها جهودهم في ايجاد خليفة يبايعونه (٣) ولو أعوزهم خليفة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحدا ليحكموا العامة به (٤) على أنهم ما زالوا يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا في بغداد ، حتى ظفروا بالهاريين منهم فاستقدموهم الى القاهرة ، وفرضوا لهم الرواتب واحتفلوا بهم احتفالا عظيما ، وبالغوا في احترامهم واکرامهم (٥) مع علمهم ان اولئك الخلفاء لا يغنون عنهم شيئا ، ولكنهم صافوا اختلال دولتهم بدونهم . وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الاسلام بالاطراف البعيدة يبايعون للخليفة العباسي بالقاهرة ، ويطلبون التقليد منه أو المنشور لاثبات سلطتهم على يد السلاطين المماليك (٦) فما الذي بعث اولئك الملوك على طلب التقليد من خليفة لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من اثر ذلك في اذهان العامة ؟ ولا ننكر أن بعضهم كان يطلب بيعة الخليفة تدينا ، ولكن الكثيرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها

(١) ابن الاثير ٢٠٨ ج ٨ (٢) كتاب الاذكياء ٢٧
 (٣) ابو الفداء ٢٢٢ ج ٣ (٤) ابن الاثير ١١٩ ج ٩
 (٥) المقرئ ٣٠١ ج ٢ (٦) ابن خلدون ٥٤٣ ج ٢

ومما يستحق النظر والاعتبار أن ملوك المسلمين غير العرب ، على اختلاف مواطنهم وأجناسهم ولغاتهم ودولهم ، من الفرس والأتراك والأكراد والبربر والجركس وغيرهم ، مع ما بلغوا إليه من سعة الملك وعز السلطان ، ومع حاجتهم إلى السيادة الدينية لتستقيم دولتهم وتجتمع الرعية على طاعتهم ، لم يخطر لأحد منهم أن يطلب الخلافة لنفسه قبل انتقال الإسلام إلى طوره الثاني ، بعد تضعفه بفتوح المغول ، ولا ادعاها أحد من العرب غير قريش . وأول سلطان غير عربي بويع بالخلافة السلطان سليم العثماني

على أن الدين قويت شوكتهم في عهد ذلك التمدن ، من الأمراء المسلمين أو القواد غير العرب ، كانوا إذا طمعوا في السيادة الدينية أو الخلافة انتحلوا لأنفسهم نسبا في قريش ، كما فعل أبو مسلم الخراساني لما رأى من نفسه القوة على إنشاء الدولة ، وربما طمع في الخلافة فانتحل لنفسه نسبا في بني العباس ، فقال انه ابن سليط بن عبد الله بن عباس (١)

وأما الملوك أو السلاطين الأعاجم فلما ضخمت دولهم في أواخر العصر العباسي ، ورأوا اضمحلال الخلافة وتقهرها تمنوا الاستغناء عنها ، ولكنهم لم يروا سبيلا إلى ذلك إلا أن يستبدلوها بخلافة أخرى . على أن بعضهم طمع في النفوذ الديني من طريق الانتساب إلى الخليفة بالمصاهرة . وأول من فعل ذلك عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ هـ فإنه حمل الطائع لله الخليفة العباسي في أيامه أن يتزوج بابنته ، وغرضه من ذلك أن تلد ابنته ولدا ذكرا فيجعله ولي عهده ، فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب (٢) ولم يوفق إلى مراده

ولما افضت السلطة إلى السلاجقة ، تقدموا في هذا الطريق خطوة أخرى ، فعمدوا إلى التقرب بالمصاهرة أيضا ، ولكن على أن يتزوج السلطان طغرل بك السلجوقي ابنة الخليفة ، وهو يومئذ القائم بأمر الله ، فخطبها إليه ووسط قاضي الري في ذلك ، فانزعج الخليفة لهذا الطلب أيما انزعاج ، إذ لم يسبق أن يتزوج بنات الخلفاء إلا أكفأؤهم بالنسب . وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده ، فأخذ في استعطافه ، ليعفيه من اجابة طلبه ، فأبى السلطان إلا أن يجاب . وحدثت أمور يطول شرحها خيف منها على الدولة ، فاضطر الخليفة إلى القبول - فعقد له عليها سنة ٤٥٤ هـ وهذا ما لم يجر مثله قبله ، لأن آل بويه لم يطمعوا في ذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة في المذهب (٣) إذ يكفي من الخليفة تنازلا أن يتزوج

(١) الفخرى ١٢٢

(٢) ابن الأثير ٢٨٣ ج ٨

(٣) ابن الأثير ٨ ج ١٠

بنات الملوك لا أن يزوجهن بناته ، ولم ينل هذا الشرف أحد قبل طغرل بك .
 ومع ذلك فانه لما دخل الى عروسه في السنة التالية ، قبل الارض بين يديها
 وهي جالسة على سرير ملبس بالذهب ، فلم تكشف الخمار عن وجهها ولا
 قامت له ، وظل اياما يحضر على هذه الصورة وينصرف . على انه لم يوفق
 لاتمام ما اراده لأنه توفي في تلك السنة . اما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم
 تنلها دولة اسلامية قبل العثمانيين ، فلما فتح السلطان سليم مصر وجد
 فيها آخر الخلفاء العباسيين الذين كان السلاطين المماليك قد استقدموهم ،
 فتنازل له عن الخلافة سنة ٩٢٣ هـ

العصر العربي الثاني

الأمارات العربية والعصر العربي

نريد بالعصر العربي الثاني (*) العصر الذي جدد فيه العرب سطوتهم ،

(*) لم يتحدث عن عصر عربي ثان الا المؤلف ، وهو رأى من آرائه الخاصة في تقسيم عصور التاريخ الاسلامي ، وهو رأى جدير بالتقدير ، ولنا عليه ملاحظات : (1) لا يمكن وضع هذه الدول كلها تحت عصر واحد ، فقد اختلفت أزمانها اختلافا كبيرا ، فالدولة الاموية في الاندلس قامت في النصف الاول من القرن الثاني الهجري ، اي في نفس الوقت الذي قامت فيه الدولة العباسية تقريبا ، وقامت دولتا الادارسة والاغالبية في النصف الثاني من القرن الهجري الثاني ، في حين قامت دول الحمدانيين والعقيليين في القرن الرابع ، وقامت دولتا المزيديين والمرادسة في القرن الخامس ، وعلى هذا فلا يمكن اعتبار ظهور هذه الدول معينا لعصر خاص ذي طابع متميز . (2) ثم ان الكثير من هذه الدول كانت عربية بالاسم ، في حين كان رجالها وجندها من غير العرب ، كالدولة الفاطمية مثلا ، وهي في هذه الناحية لا تختلف عن الدولة العباسية ، بل هذه الاخيرة أظهر عروبة واكثر اعتمادا على العرب ، ومن هنا لا يجوز ان نخرج الدولة العباسية من عداد الدول العربية لمجرد ان وزراءها وكتابها وجندها - او اكثرهم بتعبير أصح - كانوا من غير العرب . (3) ولا ينبغي أن نتصور ان آل حمدان مثلا أنشأوا دولتهم انتصافا للعرب من غير العرب ، فقد كان معظم اعتمادهم على غير العرب ، وكانت أساليب ادارتهم اشبه بأساليب العباسيين والبويهيين ومن اليهم ، بل هم من حيث الادارة أسوأ الدول التي عرفها الاسلام على الاطلاق ، فقد كان ظلهم وعسفهم ونهبهم أموال الناس مضرب المثل . ولم يكونوا هم وبنو مرداس وبنو عقيل الا غاصبين للسلطان بالقوة في ناحية من نواحي الدولة العباسية ، مثلهم في ذلك مثل البويهيين (4) ثم انه ليس هناك ما يدعو الى تقسيم الدول الى عربية وغير عربية بحسب اصحابها ، لان هؤلاء جميعا كانوا مستمسين بفكرة العروبة مهتمين بلغتها وآدابها ، وقد قام السلاجقة بأجل الخدمات للغة العربية بما أنشأوا من المدارس والمعاهد

وبعد هذه الملاحظات العامة نبدي ملاحظات فرعية هي : (1) لا يمكن وضع الدولة الاموية الاندلسية والدولة المرادسية مثلا في كفة واحدة ، فستان بين دولة كبرى كدولة بني أمية ومشيخة قبيلة استبدت بالامر زمتا في ناحية صغيرة من نواحي العالم الاسلامي . ولا معنى كذلك لوضع بني دلف العجليين الى جانب الدولة الفاطمية او حتى دولتي الادارسة والاغالبية ، فستان ما بين هذه وتلك من حيث الطبيعة والقوة والاتساع والخدمات التي أدتها للاسلام والعروبة (2) ليس صحيحا ان « العرب الذين كانوا يطعمون في احياء العنصر العربي ويكبرون ذهاب دولة العرب في ظل العباسيين كانوا ينزحون الى الغرب فينزلون الاندلس » لان احدا لم يهاجر من المشرق الى المغرب لهذه الغاية ، بل كان اهل الاندلس أنفسهم يرون ان الدولة العباسية هي قلب العروبة وأصلها . (3) ليس من المحقق ان علي بن محمد صاحب الزنج قد انتحل الدعوة العلوية للوثوب بالدولة العباسية ، لان الثابت ان الرجل كان يقود حركة اجتماعية ، حركة انصاف الزنج من الظلم الذي كانوا يقاسونه ، ولكنه هو أفسد الدعوة بسوء تصرفه وضعف تفكيره السياسي (4) لم يقل أحد ان الآمال كانت متعلقة بالدولة الفاطمية لحياء العنصر العربي ، فان رجال الدولة كانوا من البربر والأتراك والسودان ، ولم يكن عربا من رجالها الا قليل جدا ، اما البقية فرس او عجم أو بربر أو ترك ، وفيهم الكثير من النصارى واليهود والأرمن (5) واضح جدا ان قوله : « فالعصر العربي الثاني عبارة عن احياء العنصر العربي في المغرب بعد انحلاله في المشرق » لا يطابق الواقع (6) ان تفكير محمد علي في اقامة دولة عربية غير ثابت ، وربما يكون قد لجأ الى ذلك لاعطاء حركته طابعا يشد أزره امام الأتراك ، ولم يكن محمد علي نفسه عربى الميول ، بل كانت طبيعته التركية أغلب عليه ، وربما يكون صاحب هذه الفكرة ابنه ابراهيم ، فقد نشأ في مصر واستعرب وأحب المصريين والعرب . وما يلاحظ من اجتهاد محمد علي في احياء اللغة العربية انما جاء نتيجة البيئة المصرية التي قامت فيها دولته ، وكان اهتمامه اول الامر موجها نحو اللغة التركية ، وكانت هذه اللغة هي اللغة الرسمية لدولته فترة طويلة ، ولكنه لم يستطع الاستمرار في دعوته التركية ازاء ضغط العنصر المصرى العربى ، واتجاهه الى احياء ثقافته العربية

وأعادوا سلطانهم ونفوذهم في الدولة ، بعد ان غلب الفرس على أمورهم واستبدوا بهم . فقد رأيت أن شوكة العرب ضعفت بذهاب الدولة الاموية ، وتغلب الفرس في الدولة العباسية ، حتى غلب الامين فانكسرت تلك الشوكة وتضعض شأن العرب ، ثم جاء المعتصم فقطع أعينهم ومنعهم من مصالح الدولة ، فذلوا وتقموا على العباسيين ولبثوا يترقبون الفرص لاسترجاع سلطانهم ، وأصبحوا ينصرون كل من يخرج على تلك الدولة في العراق أو الشام أو مصر ، حتى الاكراد والاعراب والقرامطة ، فلم ينفعهم ذلك الا قليلا لتغلب الاتراك في مصالح الحكومة

على ان بعض القبائل العربية تمكنت بأسباب مختلفة من انشاء امارات صغيرة فيما بين النهرين والشام تحت رعاية العباسيين ، وقد ساعدتهم على ذلك ما قام من الفتن والحروب بين الخلفاء العباسيين ووزرائهم الفرس وأجنادهم الاتراك في القرن الرابع للهجرة ، ورأوا الفرس والترك يستقلون بولاياتهم فقلدوهم ، فاستقل آل حمدان من بنى تغلب بالموصل وحلب وغيرها من سنة ٣١٧ - ٣٩٤ هـ ، وكانت دولتهم عربية أحيوا بها معالم العرب وآدابهم وعرفت بالدولة الحمدانية ، أشهر أمرائها سيف الدولة وقد اشتهر بما نظمه فيه أبو الطيب المتنبي

ونشأ في حلب في ذلك القرن أيضا دولة عربية أخرى اسمها المرداسية ، نسبة الى أسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بنى كلاب من المضرية ، فحكم في حلب هو وأولاده من سنة ٤١٤ - ٤٧٢ هـ وخلف الحمدانية بالموصل دولة بنى عقيل من كعب من المضرية فتولوها من سنة ٣٨٦ - ٤٨٩ هـ ، وظهرت في أثناء ذلك دولة عربية رابعة عرفت بالمزيدية نسبة الى مزيد الشيباني من قبيلة أسد، وقد أنشأوا مدينة الحلة في العراق وحكموا من سنة ٤٠٣ - ٥٤٥ هـ

وهناك دولتان أنشأهما رجال من العرب في العصر العباسي الاول وفي بلاد غير عربية ، فالاولى أن تعدا من الدول الاعجمية ، وهما الدولة الدلفية التي أنشأها أبو دلف العجلي في كردستان ، والعلوية التي أنشأها الحسن بن زيد في طبرستان ، واذا أضفنا الى ما تقدم دولة الاغالبة التي استقلت بالمغرب قبل سائر فروع الدولة العباسية ، ودولة الادارسة الآتى ذكرها ، بلغ عدد الدول العربية الصغرى في النهضة العربية الثانية ثمانى دول ، هذا بيانها مع أسماء مؤسسيها ومدة حكم كل منها ، نشرها بحسب تاريخ تأسيسها :

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١ - الادريسية	مراكش	١٧٢ - ٣٧٥ هـ	ادريس بن عبدالله
٢ - الاغالبة	تونس وغيرها	١٨٤ - ٢٨٩ هـ	ابراهيم بن الاغلب

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
٣ - الدلفية	کردستان	٢١٠ - ٢٨٥	ابو دلف العجلي
٤ - العلوية	طبرستان	٢٥٠ - ٣١٦	الحسن بن زيد
٥ - الحمدانية	حلب والموصل	٣١٧ - ٣٩٤	بنو حمدان
٦ - المزيدية	الحلة	٤٠٣ - ٥٤٥	مزيد الشيباني
٧ - العقيلية	الموصل	٣٨٦ - ٤٨٩	بنو عقيل
٨ - المرداسية	حلب	٤١٤ - ٤٧٢	صالح بن مرداس

غير الامارات العربية الصفري التي ظهرت في بلاد اليمن ، كالزيادية في زبيد ، واليعفورية في صنعاء ، وغيرهما

على ان هذه الدول قلما اثرت في احياء سطوة العنصر العربي او ارجاع شوكة العرب ، لأنها كانت تعترف بخلافة العباسيين وتبايع لهم ، الا العلوية والادارسة . ولا حرج عليهم ، فان الفرس والترك والديلم كانوا قد استبدوا بأكثر امارات المملكة العباسية ، ورسخ في اذهان الناس ان الدولة العباسية باقية الى رجوع المسيح ، فبات الشرق كله تحت سيطرة العباسيين ، يخطب لهم ويضرب النقود باسمهم ، فاتجهت آمال العرب نحو الغرب

وكان الامويون اصحاب العصية العربية ، واكبر اعداء الفرس ومن جاورهم من الاعاجم ، قد انشأوا دولة عربية في الاندلس من سنة ١٣٨ هـ سيأتي الكلام عليها . فالعرب الذين كانوا يطمعون في احياء العنصر العربي ، ويكبرون ذهاب دولة العرب في ظل العباسيين ، كانوا ينزحون الى الغرب فينزلون في الاندلس او يقيمون في افريقيا في ظل السيادة العربية بعيدين عن سلطة الدولة العباسية

واكثر العرب نفورا من تلك الدولة واشدهم بغضا لها شيعة العلويين ، لاسيما بعد ان قضى على آمالهم في الشرق بما توخاه العباسيون من التفرد بالخلافة هناك . وكان بعض اصحاب هذه الدعوة قد فروا من وجه العباسيين نحو الغرب في اوائل دولتهم ، فأنشأوا هناك دولة علوية عرفت بالدولة الادريسية ، نسبة الى ادريس بن عبد الله حكمت من سنة ١٧٢ - ٣٧٥ هـ ولم يطمع امرؤها في لقب الخلافة

وبقى في الشرق جماعة من العلويين كانوا لا يزالون يؤملون الفوز بشيعتهم الموالى الفرس ، فلما راوا العباسيين غلبوهم على ما في ايديهم بعد فتنة الأمين والمأمون واستبداد رجال الاثراك في الدولة ومقاومتهم العنصرين الفارسي والعربي جميعا ، يئسوا من نصرة الموالى فنزح بعضهم الى المغرب تدريجا ، وظل البعض الآخر في المشرق يترصدون ضعفا يبدو لهم من الدولة

العباسية ، فيفتنمون الفرصة للوثوب بها لايبالون بمن يستنصرون أو على من يعولون . فكانوا يقومون تارة بالفرس أو الخراسانيين ، وطورا بالاكراد أو الديلم أو غيرهم من الامم الناقمة على الاتراك ، أو الفئات المظلومة من فساد الاحكام واستبداد الخدم ، ولم يفز أحد منهم بإنشاء دولة غير الحسن ابن علي في طبرستان صاحب الدولة العلوية التي ذكرناها ، ولم يطل عمرها . وكثيرا ما كانت تلك الفئات المظلومة تنتحل الدعوة العلوية للوثوب على الدولة ، كما فعل صاحب الزنج في العراق ، فانه أقلق راحة الدولة العباسية وأجنادها وعمالها بضعة عشر عاما ، بما جمعه من أباق العبيد والزنوج الذين كانوا يكسحون السباح في ضواحي البصرة والكوفة ، واستنهض سائر السودان فتركوا أسيادهم وقاموا معه فحارب الدولة في وقائع كثيرة قتل فيها نحو ٢٥٠٠٠٠ (١) وكانوا يفعلون ذلك باسم الدعوة العلوية وزعيمهم دعى اسمه علي بن محمد زعم انه من نسل الحسين ، وانتهت تلك الثورة بقتل الدعي وتشتت رجاله

على ان الشيعة العلوية لم يكن لها شأن يذكر ، الا بعد ظهور الدولة البويهية الشيعية في الشرق ، واستيلائها على بغداد واستبدالها بالخلافة . وكان الشيعة قد أنشأوا خلافة علوية في بلاد المغرب ، فاشتد أزرهم بذلك وحملوا على المشرق يلتمسون افتتاح المملكة العباسية ، فجاءوا مصر وفتحوها في اواسط القرن الرابع للهجرة وأقاموا فيها ، وكانت دولتهم ضخمة عرفت بالدولة الفاطمية وهي أكبر دول الشيعة ، وسيأتى ذكرها

وجاءت الدولة الفاطمية مزاحمة للدولة العباسية ، وقد قام بنصرتها العرب والبربر ، وهؤلاء ينتحلون لأنفسهم نسبا في العرب . وكانت الآمال متعلقة بأحياء العنصر العربي على يدها كما كان في صدر الاسلام ، فبايعها معظم العالم العربي يومئذ حتى في العراق وما بين النهرين ، فان أهل الكوفة والموصل بايعوها مدة مع قربهم من بغداد عاصمة العلويين (٢) على أنهم لم يستطيعوا أحياء ذلك العنصر ، لذهاب دولة آل بويه من المشرق ، وظهور الدولة السلجوقية التركية هناك ، وانتصارها للعباسيين وانتحالها مذهبها ودفاعها عنها ، فظلت الموازنة محفوظة بين الشرق والغرب : الاول سني والثاني شيعي

فلما تغلب الاكراد على الدولة الفاطمية وأخرجوا مصر من حوزتها على يد صلاح الدين الايوبي ، أعادوا البيعة العباسية اليها سنة ٥٦٧ هـ ، وكان

(١) الفخرى ٢٢٧ (٢) ابن الاثير ١٢ ج ١

العنصر العربي قد ضعف بمصر قبل انقضاء تلك الدولة بمن استبد بالاحكام من الاتراك والارمن وغيرهم كما سيجيء ، فعاد العنصر العربي الى الضياع ، الا امارات صغيرة ظهرت في جزيرة العرب ولا يزال بعضها باقيا الى الان (حوالى سنة ١٩١٠)

فالعصر العربي الثانى عبارة عن احياء العنصر العربي فى المغرب بعد انحلاله فى المشرق ، واكبر العوامل فى احيائه الدولتان الاموية بالاندلس والفاطمية بمصر ، وكان قيامهما نهضة عربية لم يطل مكثها ولا كان لها تأثير يذكر ، ولم يبق للعرب قائمة فى الدولة الاسلامية من ذلك الحين - الا ما ابدته بعض القبائل من النهوض فى بلاد العرب او غيرها بدعوة سياسية او دينية ، كقيام الوهابية فى نجد والدرراويش فى السودان . ولما عزم محمد على مؤسس العائلة الخديوية على انشاء دولة اسلامية كبرى فى اوائل القرن التاسع عشر، اراد ان يستعين على انشائها بعصبة اسلامية ، واقوى العصابات بمصر يومئذ الترك والعرب ، والعصبة التركية للدولة العثمانية ، فاخترت عصبة العرب ، فحامت الآمال حوله ، وخصوصا بعد حربه الوهابية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائل ، فأحيا العنصر العربي ونشط العصبة العربية بما أنشأه من المدارس والمطابع ونشره من الكتب . فكان للعرب نهضة قلما أفادته فى غرضه السياسى ، لما حال دون مطامعه من اغراض دول الافرنج فى المملكة الاسلامية ، ولكنها أفادت اهل الشرق من العرب فائدة ادبية علمية ، بتمهيد السبيل للنهضة التى نحن فيها الآن ، اما ما تناقله الجرائد من أخبار اليمن ونجد وتمرد بعض رؤساء القبائل فلا نتوقع له نتيجة تذكر ، لأسباب عمرانية سياسية لا محل لها هنا

فالنهضة العربية فى العصر العربي الثانى الذى نحن فى صددده قلما اثرت فى احياء العنصر العربي . وقد تقلبت على كل من الدولتين الاموية فى الاندلس والفاطمية بمصر احوال مختلفة فى سياستها وشؤون حكومتها لآباس من الاتيان على خلاصتها ، وان كانتا فى الحقيقة مقلدتين للدولة العباسية فى أكثر احوالهما

سياسة بنى أمية في الأندلس

من سنة ١٣٨ - ٤٢٢ هـ

اقتدت هذه الدولة في سياستها بالدولة العباسية ، مثل سائر الدول التي عاصرتها أو نشأت بعدها . فمؤسسها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان كان شديداً مثل جده عبد الملك ، نجا من مذبحه أهله في مجلس السفاح سنة ١٣٢ هـ وهرب من العراق يطلب بلاد المغرب بمساعدة مولى له اسمه بدر ، لم يدخر وسعا في انقاذه وحمايته في أثناء ذلك الفرار ، والمسافة طويلة وأهل البلاد ناغمون على الأمويين . فلما وصل به إلى المغرب سعى له في جمع الأحزاب ، فقطع مضيق جبل طارق إلى الأندلس ، وفيها من موالى بنى أمية نحو خمسمائة رجل ، فأخبرهم بقدم مولاه وحرصهم على نصرته لاستبقاء هذه الدولة هناك ، فنصروه وجمعوا كلمة المضربة واليمينية - وجمعها صعب في ذلك العهد . فبعد حروب كثيرة مهدوا له الدولة واستقدموه إليهم ، فدخل الأندلس وتولى أمورها (*) سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) ولذلك سموه الداخل

وقد حكم عبد الرحمن أولاً باسم الدولة العباسية ، وخطب بها للمنصور نحو سنة ، ولم يجسر في بادئ الرأي على إنشاء خلافة أخرى مع وجود الخلافة العباسية ، لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) واحد وخليفته واحد . وكان لعبد الرحمن ابن عم يقال له عبد الملك بن عمير بن مروان ، (***) شديد العصبية للأمويين واسع الأمل في أرجاع خلافتهم ، وكانوا يسمونه شهاب آل مروان لشجاعته وسرعة فتكه ، وقد حارب في نصرته ابن عمه حروباً ثبتت له بها الدولة ، فحرضه على قطع الخطبة العباسية ، ولما أنس منه ترددداً صاح فيه : « اقطعها والا قتلت نفسي ! » فقطعها ولكنه لم يجسر أن يسمي نفسه خليفة ، فكانوا يسمون أموي الأندلس في أوائل دولتهم الأمراء ، ثم سموهم الخلفاء

واتفق في أثناء ذلك أن المنصور العباسي أهان مالك بن أنس أمام المدينة ، لما علمه من افتائه بخلع المنصور ، لأنه كان قد بايع للعلويين ، فاغتمهم

(*) الصحيح أن بدراً وموالى بنى أمية الذين انضموا إليه لم يحاربوا إلا بعد أن عبر عبد الرحمن إليهم ، فهو الذي خاض الحروب وكسب المواقع ، ولم يتول أمور الأندلس إلا بعد أن كابد بنفسه من الشدائد أضعاف ما كابد به بدر وموالى
(**) صحته : عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم الأموي (انظر ترجمته في نفع الطيب للمقرئ ، طبعة معي الدين ، ص ٥٩)

الامويون نقمة مالك عليه وقربوه منهم واکرموه ، فانتفع كل منهما بصاحبه . فالامويون رأوا فيه اماما كبيرا ينصر دعوتهم أو يؤيدها من حيث الدين ، ويطعن في خلافة بنى العباس . ورأى مالك في الامويين ملجأ كبيرا وتعزية لما ذاقه من شدة بنى العباس . فشاع مذهب مالك في الاندلس من ذلك الحين ، وكانوا قبلا على مذهب الاوزاعي مثل أهل الشام . وقد نقلوا الفتوى الى رأى مالك في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (۱) (*)

وكان عبد الرحمن هذا يقلد سياسة المنصور العباسي في تأييد دولته (***) ، وكانا متشابهين من عدة اوجه : منها ان والده كل منهما بربرية ، وكان عبد الرحمن مثل المنصور من حيث الشدة والعزم وضبط الامور . واتفقا في أن كلا منهما قتل ابن أخيه ، فقتل المنصور ابن أخيه السفاح ، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية (۲) (***) وقد اقتدى عبد الرحمن بالمنصور في سياسة الفتك والغدر لتأييد سلطانه بقتل الذين ساعدوه على تأييده ، فسخط على بدر مولاة لفرط دلاله عليه ، ولم يرع حق خدمته وصدق مناصحته ، فأخذ ماله وسلبه نعمته ونفاه سنة ۱۵۶ هـ الى مكان بقى فيه الى أن هلك ، كما قتل المنصور ابا مسلم الخراساني بعد بلائه في انشاء دولته (۳) (***) . وقتل عبد الرحمن أيضا ابا الصباح بن يحيى رئيس العرب اليمانية ، وكان قد ساعده على القيام وله فضل عليه (۴) ففعل به مثل ما فعل بنو العباس بأبي سلمة وابن كثير وغيرهما (***) . وقام

(۱) نفع الطيب ۷۹۹ ج ۸

(*) القصة هنا تخالف الواقع بعض الشيء ، فان مالكا أولا لم يطعن في خلافة العباسيين ، ولكنه أفتى أهل المدينة بأنبيعة المنصور لاتازمهم ، وانهم في حل ان يبايعوا غيره ، ولم يكن لعمل مالك هذا صدى في الاندلس ، وقد وقع ذلك بينما كان عبد الرحمن يؤسس دولته ، ولم ير مالك في دولة عبد الرحمن ملجأ ، ولم يتصل به . وكان لدخول مذهب مالك الى الاندلس أسباب وظروف أخرى غير ما وقع بين مالك والمنصور ، واصحاب الفضل في ذلك نفر من تلاميذ مالك من أهل المغرب والاندلس ، وربما كانت مدرسة المالكيين في مصر وامامها عبد الرحمن بن القاسم هي السبب الاكبر في شيوع مذهب مالك في الاندلس والمغرب (***) هنا أيضا مبالغة ، فقد كان المنصور فانكا لا يبقى على خصم ولا يتردد في القتل ، في حين أن عبد الرحمن الداخل كان أميل الى الرفق ، ولم يلجأ الى القتل الا عند الضرورة القصوى

(۲) نفع الطيب ۷۱۵ ج ۲

(***) العبارة منقولة عن المقرئ كما أشار المؤلف (طبعة محيي الدين ، ۳۵/۴) وقد ذكر المقرئ اسم ابن أخيه المقتول هذا على الصورة التي أوردها المؤلف ، وكذلك ابن حزم في جمهرة الانساب ، ص ۸۶

(۳) ابن الاثير ۵ ج ۶

(***) الفرق واضح في المعاملتين ، ففي حين أن المنصور غدر بأبي مسلم وقتله شر قتلة اكتفى عبد الرحمن بابعاد بدر . وقد ذكر المقرئ قصته وما دار بينه وبين عبد الرحمن من مكاتبات (نفع الطيب ، طبعة محيي الدين ، ۲۹/۴ - ۴۰)

(۴) نفع الطيب ۷۰۶ ج ۲

(***) المقارنة هنا أيضا غير سليمة ، لان عبد الرحمن لم يغدر بأبي الصباح ، وانما غدر هذا به ، فحاربه عبد الرحمن وقتله ، في حين أن المنصور أوقع بأبي سلمة على صورة بغية . انظر ، نفع الطيب ۴۸/۴

اليمانية رجال ابي الصباح يطلبون بثأره ، فأوقع عبد الرحمن بهم وأكثر القتل فيهم ، واستوحش من العرب قاطبة وعلم أنهم يصحّبونه على غل وحقد ، فأنحرف عنهم الى اتخاذ الممالك ليتقوى بهم على أعدائه ، فبعث الى كبراء مملكته يبتاع مواليتهم ، فاقتنى موالى الناس من كل ناحية ، واعتضد بالبربر فوجه اليهم في بر العدو على شواطئ افريقية واستوفدهم ، فجاءه منهم كثيرون فأكرم وفادتهم وأحسن اليهم وقربهم ، فرغبوا في خدمته فاستكثر منهم ومن العبيد حتى بلغ جنده من هؤلاء نحو ٤٠٠٠٠ رجل ، غلب بهم على أهل الاندلس من العرب فاستقامت مملكته وتوطدت دعائمها كما تأيدت الدولة العباسية بالخراسانيين

الصقالبة

ثم عمد الامويون بعده الى استخدام الخصيان الصقالبة ، وهم غلمان كان النخاسون يحملونهم من شمالي أوروبا يتجرون ببيعهم في أنحاء العالم ، وكان الاتجار بهم رائجا . والسبب في رواجه أن قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا في أوائل أدوارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غربا جنوبيا نحو أواسط أوروبا ، وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم (*) . فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب التي في طريقهم ، كالسكسون والهون وغيرهم ، فتكاثر الاسرى من الجانبين . وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق ، فتألفت لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى ، عن طريق فرنسا فأسبانيا الى افريقيا ومنها الى الشام ومصر ، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة . فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الاسرى من السلاف والجرمان ، من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرهما الى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الاسود - ولا يزال أهل جورجيا والجر كس الى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع (الى ما قبل الحرب العالمية الاولى) - فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقاء أمامهم سوق الاغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث ، الى أن يحطوا رحالهم في فرنسا

(*) السلاف تحريف للفظة اللاتينية Slavus بمعنى العبد ، وقد أطلق أهل الدولة الرومانية هذه التسمية على الشعوب التي كانت تسكن شرق نهر الدنيبر ، لان تجار الرقيق كانوا يأسرون أولادهم ويأتون بهم رقيقا . واللفظة العربية « الصقالبة » انما هي اللاتينية Slavus . والسرب تحريف للفظة اللاتينية Servus بمعنى الخادم ، وقد أطلقت هذه التسمية على ذلك الجنس كما أطلق لقب الصقالبة على الروس . وأما البوهيم فهم أهل إقليم بوهيميا من أقاليم المانيا ، واسمه بالالمانية Boehmen وكان أهلها يعيشون طوائع متنقلين ، فأطلق اللفظ على كل متنقل يعيش على هواه فقيل بوهيمي . والدلمات هم أهل دماشيا ، وهي الساحل الشرقي للبحر الادرياتي ، وهي اليوم في يوغوسلافيا

ومنها ينقلونهم الى اسبانيا (الاندلس) فكان المسلمون يتساعون الذكور للخدمة أو الحرب ، والاناث للتسرى . وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم الى الجنس الصقلي ، وكانت كلمة « سلاف » تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلب » ، ومنها « صقلبي وصقالبة » ، وأصبح هذا اللفظ عندهم يستعمل للرفيق الأبيض على الاجمال (*)

على ان عبد الرحمن الداخل قلما رغب في الصقالبة ، وأول من استكثر منهم حفيده الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) فانه استكثر من اقتناء المماليك وارتبط الخيول ببابه وتشبه بالجبابرة . وهو أول من جند الجند المرتزقين بالاندلس (***) ، فجعل المماليك من المرتزقة فبلغت عدتهم ٥٠٠٠ مملوك ، وكانوا يسمونهم الخرس لعجمة سنتهم ، ثم تدرج الامويون في استخدام الصقالبة ، حتى تكاثروا في أيام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وجعلهم بطانته وجنده كما فعل المعتصم العباسي بالأتراك قبله . واستقل بنو أمية بمملكتهم هذه في أوربا عن سائر ممالك الاسلام في آسيا وافريقيا ، ولم يكونوا يطمعون في التغلب على الممالك الاخرى ، فقطعوا علاقاتهم معها ومنعوا أهل دولتهم من الحج الى الحرمين (١) مخافة ان يقع أحد منهم في أيدي العباسيين ، فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم . وما أبيع لهم الحج الا بعد فراغ شأن الاموية ورجوع مملكة الاندلس الى ملوك الطوائف غير العرب

ملوك الطوائف بالاندلس

وبلغت الاندلس ابان مجدها في أيام عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٥٠ هـ وكان عاقلا كريما توفرت الثروة في خلافته ، وكانت أيامه مثل أيام هرون الرشيد في بغداد من حيث الرغد والرخاء . وخلفه ابنه الحكم المستنصر ، وكان محبا للعلم والعلماء مثل المأمون بن الرشيد ، وبلغت مملكة الاندلس في أيام هذين الخليفتين الى اوج مجدها سطوة وابهة وثروة ، واخذ شأن الخلافة بعدهما في الاضمحلال ، فاستبد أهل الدولة وجندها بالاحكام ، وهم موالى الامويين من البربر والصقالبة ، كما استبد الفرس والأتراك في الدولة العباسية (***)

(*) كان الذين يقومون بهذه التجارة اليهود خاصة ، وكانت لهم مواضع يقومون فيها بخصاء الرفيق أهمها مدينة فردان الحالية
 (***) سبق أن ذكر المؤلف أن أول من فعل ذلك عبد الرحمن الداخل ، وهو الاصح
 (١) ابن خلدون ٢٢٨ ج ١ - * والواقع لا يؤيد ابن خلدون في ذلك
 (***) لم يكن الذين تقاسموا ملك الدولة الاموية في الاندلس ، وهم المعروفون بملوك الطوائف ، كلهم من موالى بنى أمية من البربر والصقالبة ، بل كان أكبرهم وأهمهم من عربى الاندلس ، فكانت هناك امارات عربية (مثل بنى عباد في اشبيلية وبنى هود في سرقسطة وبنى جهور في قرطبة) وامارات بربرية (مثل بنى زبرى بن مناد في غرناطة وبنى حمود في مالقة) وامارات صقلبية (زهير العامرى في المرية ومجاهد العامرى في دانية والجزائر الشرقية)

وكان العرب في مقدمة رجال الدولة وأهل العصبية ، ولهم المقام الرفيع والكلمة النافذة ، لأن الامويين أهل عصبية للعرب كما تقدم ، فلما استبد الصقالبة والبربر بالمناصب والاعمال أخذت شوكة العرب في الضعف تدريجيا (*) ، حتى غلب ابن ابي عامر وزير الحكم بن الناصر على أمور الدولة في أيام هشام بن الحكم في أواخر القرن الرابع للهجرة ، ومكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضا ببعض ومنع الوزراء من الوصول الى الخليفة ، وهو عربى الاصل من اليمانية ، فأصبح يخاف الجند على نفسه ، فعمل على تفريق جموعهم فبدأ بالصقالبة الخدم بالقصر فنكبهم بدسياسة وأخرجهم من القصر ، ثم فتك بالجند الصقالبة وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم (***) واستقدم اليه رجالا من برابرة افريقية وزناتة وقدمهم واستعان بهم . فانكسرت شوكة العرب في الاندلس من ذلك الحين

وما زالت الدولة هناك آخذة في الانحلال حتى اقتسمها الولاة البربر وغيرهم ، بأسرع مما حدث في الدولة العباسية ، لضعف اعتقاد المسلمين بصحة خلافة بنى أمية ، ولأن العباسيين أرسخ قدما في الخلافة لقرابتهم من النبي (صلعم) (***) فانقسمت مملكة الاندلس في أوائل القرن الخامس

(*) لم يستبد البربر والصقالبة بالوظائف في دولة بنى أمية بالاندلس ، وإنما شاركوا فيها فقط ، وظلت الصدارة دائما للعرب أو للمنتسبين الى أصول عربية ، بل كان أمراء بنى أمية وخلفاؤهم يفضلون الشاميين على غيرهم . وقد حاول عبد الرحمن الناصر ان يعلى مكانة مواليه وصقالبته على العرب ، فكانت لذلك نتائج سيئة ، فعدل عن ذلك ، وعاد العرب الى السطان في عهد ابنه الحكم المستنصر

(**) لم يؤخر المنصور محمد بن ابي عامر العرب عن مراتبهم ولم يسقطهم من الدواوين . وإنما استبد بالامر من دونهم وأبقاهم الى جانبه دون عمل تقريبا ، ثم انه لم يستخدم صقالبته في الوظائف الكبرى ، ولم ينتفع بالبربر الا في شؤون الجيش . ولم تنكسر شوكة العرب في الاندلس من ذلك الحين ، وإنما الذي انكسر هو جاه البيت الاموى نفسه . أما العرب فقد ظل لهم مركزهم وسط الفوضى التي عمت بعد سقوط الخلافة ، وزاد تمسك الناس بالعروبة ، بل ظلت هي العامل الوحيد السليم الذي ظل يحفظ للاندلس ، أو لما بقى منه ، قوته وتماسكه بضعة قرون

(***) كان ايمان الناس في الاندلس بالبيت الاموى وفضله أقوى بكثير من ايمان الناس في المشرق بالبيت العباسي ، لان بنى أمية الاندلسيين استنقدوا البلاد اول الامر من الفوضى التي شملت الاندلس خلال فترة الولاة ، التي سبقت مجيء عبد الرحمن الداخل (٧١٣/٩٣ - ٧٥٦/١٢٨) ، فقد وحد عبد الرحمن البلاد وسوى بين أهلها ووضع نظاما ثابتا صالحا للحكم السليم ، وعرف عن طريق توزيع السلطات بين العناصر المختلفة ، كيف يحافظ على التوازن بينها ، فهو لم يعهد بالوظائف والولايات الى أهل بيته كما فعل الامويون والعباسيون . بل أبعد آله عن مراكز الإدارة الفعلية ، ولم يعهد في الامور الى وزير واحد ، بل الى عدد من الناس . كان فيهم العربى والمولى والبربرى والمولد ، وهو نفسه لم يسم أولئك الرجال وزراء . بل جد لقب الوزارة فيما بعد ، وجعل لكل منهم اختصاصا ، ومن هنا فلم يستبد أحد بسطان مطلق كما كان الحال مع وزراء العباسيين ، وأصبح من اليسير ابعاد من يراد ابعاده عنهم عن الإدارة أو اسقاطه عنها بأمر من الامير

وقد أكمل الذين أتوا بعد عبد الرحمن بناء الإدارة على الاسس التي وضعها ، فأصبح كبار الموظفين هؤلاء وزراء ، ثم ميزوا واحدا منهم بلقب الحاجب ، فأصبح شبيها برئيس الوزراء . والى جانب ذلك لم يفصل الامويون بين الإدارة والجيش ، فلم يعد هناك قواد متخصصون في قيادة العسكر ، بل كان يقود الجند واحد من الوزراء يختاره الامير ، ولم تكن هناك قيادة عامة للجيش ، وإنما كانت هناك قيادة للحملات ، أما رئاسة الجيش فكانت للامير نفسه ، ومن هنا

للهجرة الى امارات تولاها أصحاب الاطراف والرؤساء ، وفيهم العرب والبربر

لم يتسع المجال لاحد من القواد ليستبد بالدولة كما حدث في الدولة العباسية ، ولم يصبح الجند سادة الدولة ولم يعد لقادتهم هذا السلطان الخطر الذي صار لقادة الجند في الدولة العباسية . والى جانب ذلك استعان الامويون في الاندلس بالفقهاء على صورة احسن واحكم مما حدث في المشرق ، فاخترتوا عددا منهم يشاورونهم في الاحكام ، واطلقوا على كل منهم لقب فقيه مشاور ، ولم يجعلوا منهم مع ذلك هيئة ذات كيان ، بل كانوا يشاورون من يرون مشاورته منهم دون تفريق ، ومن هنا أصبح هؤلاء الفقهاء المشاورون قوة معنوية دينية كبرى دون أن يكونوا « سلطة » يخشى خطرها ومنافستها ، واستطاع الامراء أن يستخدموا هذه « القوة » في موازنة قوى الاداريين والعسكريين دون أن يخشوا سلطانها أو حرص أفرادها على السلطان ، وإذا ظهر من بين الفقهاء رجل ممتاز له شخصية وعلم ونزوع الى السلطان اعتبروه رئيس المشاورين أو رئيس الفتيا ، وربما سمي الشيخ الرئيس دون تعيين أو تقليد رسمي بذلك ، فأصبح أولئك الفقهاء سلطة معنوية كبرى تؤيد العرش وتضمن له ولاء الجمهور وتوازن سلطة الاداريين والعسكريين ، ثم ان أولئك الفقهاء عملوا على القضاء على كل مذهب مخالف لمذهبهم ، حرصا على مصالحهم ، وكانوا مالكية ، فلم يعد في البلاد مذهب آخر مخالف لهذا المذهب ، وأيد الامراء الفقهاء في ذلك لما فيه من توحيد الرأي في البلاد ، أي أن سياسة الامراء ضمنت توازنا طيبا بين القوى وتوحيدا بين صفوف الشعب ومكنت لهم من أن يمسكوا بالزمام ، فأصبحوا سادة منفردين بالسلطان دون استبداد ، آمنين من المخاوف الكثيرة التي أفستت على العباسيين أمورهم ، ولم يعودوا يخشون الوزراء أو القواد ، ولم يجدوا أنفسهم مضطرين الى نكبة وزير أو الى مصادرتة الا في النادر ، وأصبحوا في نظر الجميع ميزان البلاد ورمز الوحدة وضمان العدالة ، فأيدهم الجميع وآمن بهم الشعب وسارت الامور سيرا طيبا

وما دام السلطان موزعا على هذه الصورة ، فان عمال الدولة الذين يلون الوزراء والقواد لم تتلاش شخصياتهم وينعدم سلطانهم كما كان الحال في المشرق ، وأصبح لكل منهم سلطان وهيبة وضمان ، فتضى قرطبة مثلا كان المفروض ان يكون من اتباع رئيس الفتيا ، ولكنه رغم ذلك كان شخصية ممتازة لها وزنها وقوتها وسلطانها ، وبينما كان رجال مثل ابي يوسف وأحمد بن ابي دؤاد مستبدين بشؤون القضاة استبدادا تاما في الدولة العباسية ، فتلاشت أهمية قضاة بغداد وغيرها من العواصم ، نجد قاضي قرطبة ممن يجالسون الامير في الاندلس ، فيشاورهم ويشاورونه ، وربما اختلفوا مع رئيس الفتيا او مع فقهاء المشيخة ، فيحتكم الى الامير فينصره ويعززه ، مما جعل للقضاء في الاندلس هيبة وجاها لا تقاس بهما هيبة قضاة بغداد وجاههم ، بل كان قضاة النواحي في الاندلس ذوي سلطان وهيبة لا يستطيع عامل الناحية ان يستبد بهم او يفرض عليهم سلطانه ، وكان باب الامل مفتوحا لهم على الدوام . بل ان رؤساء أهل الذمة - وهم المسمون في الاندلس بالقوامس (جمع قومس) - كانوا متصلين بالامراء اتصالا مباشرا ، فلا يظلمهم عامل او يستبد بهم وزير ، وكان لهم مركز لا يقل عن مراكز الوزراء ، وقد احترمهم الامراء وقدرتهم ، لانهم كانوا يضمنون ولاء من يتبعهم من أهل الذمة ، ومن هنا ، وعلى الرغم من كثرة الذميين في الاندلس ، والنصارى منهم بصفة خاصة ، لا نسمع عن مضايقات كهذه التي كانت تصيبهم في المشرق ، من الزامهم بلباس معين أو سلوك خاص ، وكانت العلاقات بينهم وبين المسلمين علاقات ود وصداقة ، بل حدث في كثير من الاحيان ان كانوا أوفى لآخوانهم المسلمين من المسلمين أنفسهم . والادلة على ذلك كثيرة . وكان الذميون جميعا يعلمون تماما أن سلامتهم وضمان مصالحهم متوقفان على قوة الامير وثبات البيت المالك لذلك كله كان للبيت الاموي في الاندلس مركز معنوي يختلف اختلافا تاما عن مركز العباسيين في المشرق ، فبينما كان الولاء الروحي الحقيقي للمسلمين في المشرق مع العلويين وولاؤهم الظاهري للعباسيين ، نجد ان الولاء كله في الاندلس كان للامويين ، فهم رمز العروبة والاسلام وضمان الوحدة والعدالة ، وميزان القوى والسلطات ، ومن هنا فاننا نجد أهل الاندلس مخلصين للبيت الاموي اخلاصا صحيحا عميقا ، وقد تمكن هذا الاخلاص في قلوبهم بفضل السياسة الرشيدة التي سار عليها الامراء والخلفاء . وعندما استبد المنصور محمد بن ابي عامر بالسلطان دون الخليفة هشام المؤيد ظل الشعب ينظر اليه على أنه غاصب لا بد أن يزول ، وكان هذا أكثر ما أخاف ابر ابي عامر ودفعه الى محاربة العمدة التي قام عليها سلطان بني أمية من فقهاء ووزراء ورجال إدارة وعسكريين ، فاضطهدهم واستبد بالامر من دونهم وارهبهم بجنده المرتزق الذي أتى به ، وجله من زناتة المغرب ، وقد انتهت سياسته الى تحطيم الوحدة وإيجاد عنصرين قويتين متخاصمين متنافسين : الاول عنصر الاندلسيين مابين عرب وبربر قداماء واندلسيين أسلموا

والموالي ، فتغلب كل انسان على ما في يده ، فصاروا دولا صغيرة متفرقة ،
ولذلك سموا ملوك الطوائف . وهاك أشهرهم مع أسماء اماراتهم :

اسم الدولة	اسم المملكة	مدة الحكم
بنو حمود	مالقة والجزيرة (*)	٤٠٧ - ٤٤٩ هـ
بنو عباد	اشبيلية	٤١٤ - ٤٨٤
بنو زيري	غرناطة	٤٠٣ - ٤٨٣
بنو جهور	قرطبة	٤٢٢ - ٤٦١
بنو ذى النون	طليطلة	٤٢٧ - ٤٧٨
العامريون	بلنسية	٤١٢ - ٤٧٨
بنو هود التجيبون	سرقسطة	٤١٠ - ٥٣٦ (**)

واستعربوا واهل ذمة احتفظوا بدينهم وان استعربوا لسانا وفكرا. وأسلوب حياة ، والثاني عنصر البربر الجدد ومن انضم اليهم من جند ابن ابي عامر من صقالبة الذين اتى بهم . ثم انه اجتهد في القضاء على كل من خاف منافسته من امراء البيت الاموى ، فلم يبق الا الضعاف والعاجزين عن الادارة والحكم

وعندما مات ابن ابي عامر سنة ١٠٠٣ ميلادية وخلفه ابنه عبد الملك لفترة قصيرة انتهت سنة ١٠٠٩ وأراد ابنه الثاني عبد الرحمن الملقب بشنجل ان يسير على سيرة ابيه وأخيه انفجرت الثورة في قرطبة ، ووقف العامريون مابين بربر وصقالبة ورجال ادارة وجهها لوجه امام الشعب الكاره لهم ، وقد حاول الشعب ان يجد اميرا أمويا يعهد اليه في الخلافة فلم يوفق ، وانتشر عمال النواحي والاطراف الفرصة فاستبدوا بتواحيهم ، وتقسمت الدولة الى امارات متنافسة متعادلة هي التي تعرف بممالك الطوائف ، وتفككت وحدة الدولة تفككا تاما بزوال العامل الرئيسي في الوحدة ، وهو البيت الاموى . وعلى الرغم من ذلك فقد ظل ولاء الناس متجها الى البيت الاموى ، فخلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ظلت القلوب كلها متجهة نحو بنى أمية ، وظل الناس يحلمون بعودتهم الى السلطان ويتحسرون على أيامهم ، بأكثر مما نجد في المشرق نحو العباسيين ، وكل كبار كتاب الاندلس خلال هذا القرن وما جاء بعده أمويون في نزعاتهم ، كما نجد عند ابن حيان وابن حزم وابن بسام وابن خاقان ، بل ان عبد الله بن العربي وهو من فقهاء القرن السابع الهجرى اموى النزعة واليول ، وفي كتابه « العواصم من القواصم » دفاع مجيد عن بنى أمية ، المشاركة منهم والمغاربة . وفي القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) نجد المقرئ يتحسر على ايام بنى أمية ، ويجعل من « المروانية » اسطورة عاطفية يفرد لها صفحات بعد صفحات

(*) كان لبني حمود فرعان ، احدهما في مالقة (١٠٣٥ - ١٠٥٧) والثاني في الجزيرة الخضراء (١٠٢٥ - ١٠٥٨)

(**) أوجز المؤلف هنا بيان ملوك الطوائف في الاندلس ايجازا شديدا ، فرأيت أن آتى بأهمهم هنا بصورة أوفى :

اشبيلية

بنو عباد ٤١٤ - ٤٦٣/١٠٢٣ - ١٠٧٠

قرطبة

بنو جهور ٤٢٣ - ٤٦٣/١٠٢٣ - ١٠٧٠

مالقة

بنو حمود ٤٢٧ - ٤٤٩/١٠٣٥ - ١٠٥٧

ولم تطل سيادة هذه الدول كما رأيت ، فغلبت عليهم دولة المرابطين ثم
الموحدين ، وظل الانقسام متتابعاً بين تلك الممالك ، والخصام متوالياً
والأفرنج يفتنمون ضعفهم وانقسامهم ، ويسترجعون اماراتهم واحدة بعد
واحدة وبلداً بعد بلد ، حتى غلبوا على المسلمين وأخرجوهم من الأندلس .
وآخر مدينة افتتحها الأفرنج من تلك المملكة غرناطة ، وكانت في حوزة
بنى نصر نسبة الى يوسف بن نصر من سنة ٦٢٩ هـ ، توالى عليها منهم
بضعة وعشرون ملكاً ، آخرهم أبو عبد الله محمد بن علي ، فاستخرجها

الجزيرة الخضراء

بنو حمود ٤٢٧ - ١٠٣٥/٤٥٠ - ١٠٥٨

غرناطة

بنو زيري بن مناد الصنهاجيين ٤٠٦ - ١٠١٥/٤٨٢ - ١٠٩٠

ولبة (Lisboa)

البكريون ٤٠٢ - ١٠١١/٤٤٢ - ١٠٥١

بطليوس (Badajoz)

بنو الألفس ٤٥٨ - ١٠٦٥/٤٨٧ - ١٠٩٤

طليطلة

بنو ذي النون ٤٢٨ - ١٠٢٦/٤٧٨ - ١٠٨٥

سرقسطة

استبد بها أول الأمر منذر بن يحيى التجيبى ، ثم انتزعها منه بنو هود ٤٢١ - ١٠٢٩/٥٠٤ -

١١١٠

السهلة

وتسمى أيضاً سهلة بنى رزين أو شنتهرية الغرب ٤٠٢ - ١٠١١/٤٩٧ - ١١٠٣

بلنسية

استبد بها أول الأمر مبارك ومظفر من سقاية العامريين ثم صارت أمورها الى :

بنو عبد العزيز العامريين ٤١٢ - ١٠٢١/٤٥٨ - ١٠٦٥

ثم انضمت الى طليطلة ٤٥٨ - ١٠٦٥/٤٦٨ - ١٠٧٥

ثم عادت الى العامريين ٤٦٨ - ١٠٧٥/٤٧٨ - ١٠٩٤

دائيسية

أبو الجيش مجاهد العامري وبنوه ٤٢٢ - ١٠٤٠/٤٦٩ - ١٠٧٦

ثم انضمت الى امارة سرقسطة ، ثم دخلت في طاعة المرابطين ، وعاد بنو هود الى السلطان

بها بعد في سرقسطة ، ٤٦٩ - ١٠٧٦/٤٨٤ - ١٠٩١

مرسية

موالى العامريين ٤٠٧ - ١٠١٦/٤٧١ - ١٠٧٨

المرية

خيران ومظفر العامريان ٤١٩/٤٢٨ - ١٠٢٨

ثم انضمت الى بلنسية ٤٣٠ - ١٠٢٨/٤٢٣ - ١٠٤١

ثم استبد بها بنو صمادح ٤٢٣ - ١٠٤١/٤٨٤ - ١٠٩١

وكان هناك أمراء طوائف صفار غير هؤلاء ، ضربنا صفحا عن ذكرهم لان أماراتهم صارت الى

غيرهم . وقد صارت امارات الطوائف - عدا سرقسطة - الى المرابطين ، وعدا طليطلة فقط

استولى عليها الفونسو السادس ملك قشتالة سنة ١٠٨٦

الافرنج من يده سنة ٨٩٧ هـ وفر أبو عبد الله ، وكان ذلك آخر عهد المسلمين بالاندلس (*)

(*) مر المؤلف مرورا سريعا بما كان بعد ملوك الطوائف في الاندلس ، ولم يتسع امامه المجال للكلام على دولتي المرابطين والموحدين وهما من اعظم دول الاسلام ، ولا يتسع مجال التعليق هنا أيضا للتحدث عن هاتين الدولتين كما ينبغي ، وكذلك لم يتحدث عن أصحاب غرناطة وهم بنو نصر أو بنو الاحمر ، ويستطيع القارئ أن يجد تفاسيل عن هذه الدول الثلاث في المواد الخاصة بها في دائرة المعارف الاسلامية ، وقد ألف في تاريخ المرابطين الاستاذ خانتو بوش فيلا J. Bosch Vilà مؤلفا طيبا مختصرا بالاسبانية بعنوان المرابطين « Almoravides » صدر سنة ١٩٥٧ . وألف المستشرق الاسباني أمبروزيو هويشي ميراندا Ambrosio Huici y Miranda مؤلفا ضخما عن الموحدين بالاسبانية صدر منه الى الآن جزآن بعنوان Los Almohades . أما بنو نصر فقد تحدث عنهم في اجاز الاستاذ محمد عبدالله عثمان في كتابه « نهاية الاندلس » وهو يطبع الآن طبعة جديدة ، وتوفر على دراسة تاريخهم الدكتور أحمد مختار العبادي ، وكتب بحثا قيما بالاسبانية عن « محمد الفتي بالله سلطان غرناطة وعصره » ولم ينشر بعد ، وكتب عن الموحدين ايضا الدكتور سعد زغلول فؤاد ويحيى الرئيسي بالفرنسية عن « ابي يعقوب المنصور الموحدي » . ويجد القارئ اجازا لتواريخ دول المغرب (أي ما يسمى عادة بمراكش) من الفتح الى اليوم في كتاب الاستاذ محمد بن عبد السلام عبود « تاريخ المغرب » جزآن ، تطوان ١٩٥٧ . وكتب كتابا مختصرا في تاريخ تونس السيد الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب . ونضيف تعليقا على ما ذكره المؤلف أن آخر ملوك غرناطة ابا عبدالله محمد بن علي لم يفر ، بل سلم البلد الى فرناندو وايزابلا ملكي قشتالة وأرغون وسار الى أندرش حيث لبث بعض الوقت ثم استأذن في الانصراف الى المغرب ، ولجأ الى بنى مرين ، وتجد تفصيل ذلك في الجزء الاول من « ازهار الرياض في أخبار عياض » للمقري

الدولة الفاطمية

من سنة ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ

الشيعة في المغرب

قد علمت حال الشيعة في أيام بني أمية بالشام وما قاسوه من القتل والصلب ، ثم ما كان من حالهم في الدولة العباسية ، وخصوصا في أيام المنصور والرشيد والمتوكل ، من الاضطهاد والقتل ، فحملهم ذلك على الفرار الى أطراف المملكة الاسلامية ، فهاموا على وجوههم شرقا وغربا كما تقدم . وكان فيمن جاء منهم نحو المغرب ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى ، أخو محمد بن عبد الله الذي بايعه المنصور ثم نكث بيعته (*) . فأتى ادريس مصر وهي يومئذ في حوزة العباسيين ، فاستخفى في مكان أتاه اليه بعض الشيعة سرا ، ومنهم صاحب البريد فحملة الى المغرب في أيام الرشيد ، فتلقيه الشيعة هناك وبايعوه ، فأنشأ دولة في مراكش عرفت بالدولة الادريسية من سنة ١٧٢ - ٣٧٥ هـ ، على ان هؤلاء لم يسموا أنفسهم خلفاء

أما ظهور الشيعة وتغلبهم وارتفاع شأنهم حقيقة فالفضل فيه للدولة الفاطمية ، نسبة الى فاطمة بنت النبي (صلعم) لأن أصحابها ينتسبون اليها ، وتسمى أيضا الدولة العبيدية نسبة الى مؤسسها عبيد الله المهدي . وكان شأن الشيعة قد بدأ بالظهور في المشرق على يد بني بويه في أواسط القرن الرابع للهجرة

ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها في المغرب وهمت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون في التشيع ، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة من مستحقيها ، فأشار بعضهم على معز الدولة لبويهى أن ينقل الخلافة الى العبيديين أو لغيرهم من العلويين ، فاعترض عليه بعض خاصته قائلا : « ليس هذا برأى . فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ، لو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه »

(*) لم يبايع المنصور لادريس بن عبد الله بن الحسن ، لان ادريس كان صغيرا وقت الدعوة السرية لأهل البيت خلال العصر الاموي ، وكان يحجبه عن الترشيح للخلافة أبوه عبدالله . وإذا كان المنصور قد بايع أحدا ، فيكون ذلك لمحمد بن الحسن المعروف بالنفس الزكية . ويقال ان محمدا هذا تنازل عن حقه في الخلافة للعباسيين قبل موته كما سبق أن روينا . أما الذي تصدى للقضاء على الادارسة فهو هارون الرشيد ، وقد حاول ذلك ولم يوفق ، ويقال انه بعث من قتل ادريس الاول بالسم ، وذلك غير ثابت ، ثم بايع أهل المغرب لادريس الثاني ابن ادريس الاول سنة ١٧٧ هـ وقد اتصل ملك الادارسة في المغرب الاقصى حتى سنة ٢٠٥ هـ وكان الذي قضى على دولتهم مصالة بن حبوس الكناسي قائد الفاطميين

ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لقتلوك » فرجع معز الدولة عن عزمه (١)

على أن الشيعة اعتزت في الشرق بهذه الدولة ، وأحيا البويهيون كثيرامن الاحتفالات الدينية الشيعية ومنها عاشوراء تذكار مقتل الحسين (٢) وحملوا الخليفة علي أن يخطب لعضد الدولة في بغداد ، أي أن يذكر اسمه في الخطبة ، فخطب له وهو أول من خطب له فيها . فوق التحاسد بين الاتراك والديلم هناك ، ونشأت الفتن بين السنة والشيعة من ذلك الحين ، والترك يمثلون السنة والديلم أو الفرس يمثلون الشيعة . فحمل الاتراك أهل بغداد على الاحتفال ببعض الاعياد عكس احتفال الشيعة (٣) نكاية بهم

الشيعة في مصر

على أن ظهور الشيعة في الشرق هون على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال اليها ، وكانت قصبته قبلا مدينة المهديدة بافريقية وخلفاؤها ينتسبون الى الحسين بن علي ، وللمؤرخين في انتسابهم اليه أقوال متناقضة ، فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلك عليهم . ويغلب في اعتقادنا صحة انتسابهم اليه ، وأن السبب في وقوع الشبهة طعن العباسيين فيه تصغيرا لشأنهم (٤)

والمصريون كانوا يحبون عليا من صدر الاسلام ، وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ، ولكن قلما كان لهم شأن في الشيعة العلوية ، لأن العلويين استنصروا أولا أهل العراق وفارس كما تقدم . فلما قامت الدولة العباسية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس ، وقتل محمد بن عبد الله الحسنى وبعض أهله وفر سائر العلويين من وجه الدولة العباسية ، كان في جملتهم علي بن محمد بن عبد الله فجاء مصر بأمر دعوته بعض رجال الشيعة ، لكنه ما لبث أن حمل الى المنصور واختفى (٥)

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء ، بتقلب أحوال الخلفاء في بغداد ، فان تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس ، فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر باخراج آل أبي طالب الى العراق فأخرجهم سنة ٢٣٦ هـ ، ولما قدموا الى العراق أرسلوهم الى المدينة واستتر من بقى في مصر على رأى العلوية . لان عمال المتوكل كانوا يبالغون في اظهار الكره للشيعة تزلقا للخليفة . يعكس أن رجلا من الجند اقترف ذنبا أوجب جلده ، فأمر يزيد بن عبد الله عامل مصر يومئذ بجلده ، فأقسم الرجل عليه بحق الحسن والحسين الا عفا

(١) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ (٢) ابن الاثير ٢١٦ ج ٨ (٣) ابن الاثير ٦٥ ج ٩
(٤) المقرئى ٢٤٩ ج ١ (٥) المقرئى ٣٢٨ ج ٢

عنه فزاده ثلاثين ضربة . ورفع صاحب البريد الى المتوكل ذلك الخبر ، فورد كتابه الى العامل أن يضرب الجندي المذكور مائة سوط فضربه . وتبع يزيد المشار اليه آثار العلويين ، فعلم برجل منهم له دعاة وأنصار فقبض عليه وأرسله الى العراق مع أهله وضرب الدين بايعوه

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ كتب الى عامله بمصر أن لا يضمن علوى ضيعة ولا يركب فرسا ولا يسافر من القسطنطين الى طرف من أطراف مصر ، وأن يمنعهم من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد . واذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قبل قول خصمه فيه بغير أن يطالب بيينة . فقاسى العلويون عذابا شديدا بسبب ذلك

ولما استقل أحمد بن طولون بامارة مصر سنة ٢٥٤ هـ اضطهد الشيعة لأنه تركى ولأنه على رأى الخليفة العباسى ، فاقتصر آثار العلويين وحاربهم مرارا . حتى اذا ضعف أمر بنى طولون بمصر واختلت أحوال الدولة العباسية فى بغداد وتغلب آل بويه عليها فى القرن الرابع للهجرة أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى . فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٥٨ هـ بقيادة جوهر الصقلى كانت الاذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ، ففتح جوهر مصر على أهون سبيل وخطب فيها للعلويين وأقام شعارهم وأزال شعار العباسيين وبنى مدينة القاهرة وانتقل اليها مولاه المعز لدين الله ، وتوالى من دول الفاطميين بمصر عشرة خلفاء ، وجملة خلفائهم منذ أنشأوا دولتهم فى افريقية الى انقضائها بمصر ١٤ خليفة حكموا من سنة ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ وانتقلت مصر منهم الى الاكراد الأيوبيين

سياسة الدولة الفاطمية

ان الفاطميين من جملة الدول الإسلامية التى قلدت الدول العباسية فى نظام حكومتها وسائر شؤونها ، الا ما يتعلق منها بالدين فانهم أيدوا كل ما يوافق مذهب الشيعة من ايشار العلويين وتقديمهم والعمل بأقوال أئمتهم . واثق يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى كتابا يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، وبوبه على أبواب الفقه قبل حججه نصف حجم صحيح البخارى ، وهو يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية . وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها فى نشر هذا الفقه بين المسلمين ، حتى كان الوزير المشار اليه يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة ، وبيده خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والادباء . وجعله مرجع القضاء فى الفتوى ، وأفتى الناس به ودرسوه فى الجامع العتيق (جامع عمره) . وعمل الخلفاء على ترغيب الناس فى حفظه بالبذل والعطاء ، فأجرى العزيز بالله على ٣٥ رجلا من الفقهاء يجلسون مجلس الرزير ويلازمونه أرزاقا تكفيهم

فضلا عما كان يصلهم من مال العزيز بالله في الصلوات السنوية ، وأمرهم ببناء دار الى جانب الجامع الازهر ، وكان يخلع عليهم في عيد الفطر ويحملهم على البغال ترغيبا لهم في نشر فقه الشيعة وتعاليمهم ، وأجلسوا أناسا في قصر الخلافة لقراءة علوم أهل البيت على الناس ، لأنه بانتشار ذلك المذهب تتأيد تلك الدولة ، لارتباط السياسة بالدين كما قدمنا . وتعقبوا من يطالع غير ذلك الكتاب وشددوا في عقابه ، فاتفق أنهم عشروا على رجل وجدوا عنده كتاب الموطأ لمالك ، فضربوه وطافوا به في المدينة . وكان يعقوب الوزير المذكور يهوديا وأسلم ، وخدم الدولة الفاطمية خدمات جزيلة في تأييد دعوتهم كما رأيت ، فلا عجب اذا عاده العزيز في مرضه وقال له : « وددت لو أنك تباع فأبتاعك بملكي » (١)

وتمشى سائر الخلفاء الفاطميين على هذه الخطة في نشر مذهب الشيعة ، فأنشأ العزيز والحاكم دور الكتب للمطالعة والنسخ لنشر كتبهم ، ولما تولى الخليفة الظاهر سنة ٤١١ هـ أخرج من كان في مصر من الفقهاء المالكية وغيرهم . وشددوا الاوامر على الناس ان يحفظوا كتاب «دعائم الاسلام» و «مختصر الوزير» وجعلوا لمن حفظ ذلك مالا (٢) ومن مقتضيات فقه الدولة الفاطمية في الموارد تورث ذوى الارحام ، فالبتت عندهم اذا انفردت استحقت المال بأجمعه (٣) تأييدا لحقهم في وراثة الخلافة ، لأنهم ينتسبون الى فاطمة بنت النبي وهي منفردة بالارث (*).

أدوار الدولة الفاطمية

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة أدوار تشبه الادوار التي مرت بها الدولة

(١) ابن الاثير ٢٢ ج ٩ (٢) المقرئى ٣٥٥ ج ١ (٣) المقرئى ١١١ ج ١

(*) بسط القول في الدعوة الفاطمية ومراتبها ومراكزها الدكتور محمد كامل حسين في كتابه « في أدب مصر الفاطمية » (القاهرة ١٩٥٠) ص ١٩ وما يليها ، وبين كيف أن الفاطميين وضعوا نظاما محكما للدعاية لمذهبهم ، فألف خلفاؤهم الكتب الرئيسية في المذهب ، وحفظوا رجالهم على وضع الكتب فيه ، ثم رتبوا الدعاة مراتب ودرجات ، وجعلوا لكل ناحية من نواحي الدولة الاسلامية داعيا رئيسيا يتبعه دعاة يسرون جميعا وفقا لخطة مقرررة ويجرون في الدعوة على منهج ثابت ، وأنشأوا للدعوة مراكز خاصة في المساجد ، وخصصوا مكانا خاصا في القصر لقراءة كتب الدعوة وتفسيرها ، وأنشأ الحاكم في سنة ٣٩٥ دارا خاصة سماها دار العلم ، وقد حمل الى هذه الدار الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ما لم ير من قبل مجتمعا قط لملك من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ، ممن يؤثر تراءد النبي والنظر فيها ، فجلس فيها المنجمون وأسحاب النحو واللغة والأطباء . . . الى الخ . فضلا عن خطط المقرئى (٢/٢٣٤) وجعل على رأسها عبد العزيز بن محمد بن النعمان قاضي القضاة . وأفاد الدكتور محمد كامل حسين في هذه الناحية من مقدمة كتاب «ديوان المازن في الدين داعي الدعاة» و «راحة العقل» لاحمد حميد الدين الكرمانى و «سيرة الاستاذ جردر» ، وكلها كتب قيمة تلقى ضوئا كاشفا على الدعوة الفاطمية وأصولها وأساليبها . وتحدث عن الموضوع أيضا الدكتور عبد المنعم ماجد في مقدمة «الرسائل المستنصرية» التي نشرها (القاهرة ١٩٥٢) ، وكذلك الدكتور جمال الدين الشيبان في مقدمة «اتعاظ الحنفا» للمقرئى

العباسية ، فقد رايت أن نفوذ الكلمة في الدولة العباسية كان في أوائلها مشتركا بين العرب والفرس ، ثم صار الى الفرس ثم الى الاتراك . والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر ، فكان النفوذ في اولها مشتركا بين هذين العنصرين ، ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك

والبربر قوم اشداء ، مساكنهم في شمال افريقية ، وقد نصروا الشيعة العلوية في المغرب كما نصرها الفرس في المشرق (*) وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل ، وقد قاسى المسلمون في اخضاعهم عذابا شديدا ، لانهم ارتدوا عن الاسلام اثنتي عشرة مرة وثبوا فيها كلها على المسلمين ، ولم يثبت اسلامهم الا في أيام موسى بن نصير في اواخر القرن الاول (**). ولما تقم الناس على بنى أمية لتعصبهم على غير العرب كان البربر في جملة الذين خرجوا عليهم وتناولوا للفتك بهم . وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ، ولكن ساءهم انتقالها الى الاندلس على مقربة منهم ، لانهم كانوا يكرهونهم للعصبية فنصروا العلويين نكاية فيهم - الا من اصطنعهم الاندلسيون بالمال (***) وللبربر فضل كبير في نشر الاسلام في اواسط افريقية ، مثل فضل الاتراك في نشره في اواسط آسيا الى الهند والصين ، لان البربر لما ثبت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في افريقية الغربية فنشروا الاسلام هناك

فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من أنصارها ، لاسيما قبائل كتامة وهوارة وهما من قبائل صنهاجة فأخذوا بيد الفاطميين منذ قيامهم على أيام عبيد الله المهدي أول خلفائهم في اواخر القرن الثالث للهجرة . فلما تأيدت دولتهم اتخذ خلفاء الفاطميين بطانتهم منهم وجعلوهم من اهل الدولة وأول من فعل ذلك أبو عبد الله الشيعي ، وظلوا كذلك في خلافة ابنه القائم بأمر الله «سنة ٣٢٢ هـ» ثم المنصور بنصر الله «سنة ٣٣٤ هـ» ثم المعز لدين الله «سنة ٣٤١ هـ» وساعدوهم في تملك المغرب كله واخراجه من البيعة العباسية . وفي أيام المعز

وانظر أيضا :

- Asaf. A.A. Fayzee, A chronological list of Imams and Da'is (J.B.B.A.S.) 1934
 — Materials for an Ismaili Bibliography (J.B.B.R.A.S.) Vol. II, 1935.
 — Quadi al-Nu'uman. P.R.A.S.1934.
 Hamadany, H.E., A History of the Ismaili Da'wat and its literature during the last phase of the Fatimid Caliphate (JRAS) 1932.
 Ivanow, W, A Guide to Ismaili literature (London 1933)
 — The Organisation of the Ismaili Propaganda (J.B.B.R.A.S.) 1940
 Lewis, B., The Origins of Ismailism. Bombay 1942.

(*) قام على نشرها في المغرب دعاة ارسلهم الفاطميون ، ثم انضم الى الدعوة فريق من برابر صنهاجة أهمهم قبيلة كتامة وعلى يديها قامت الدولة الفاطمية في المغرب

(**) انظر : فتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٤٧

(***) انظر عن ذلك

Lévi Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane. Vol. 2, Paris.

لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها

فلما أفضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ هـ ، أراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الاتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته ، كأنه خاف على حياته من البربر . فقامت المنافسة بين البربر والاتراك وعظم التحاسد حتى توفي العزيز بالله وخلفه الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ وكان يقدر فضل البربر ، فقدمهم وقربهم فاشتراطوا أن يتولى أمورهم ابن عمار الكتامي (من البربر) فولاه الوساطة وهي كالوزارة عندهم . فاستبد في أمور الدولة وقدم البربر وأعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلمان الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز . فاجتمعوا الى كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلبيا وقد تآقت نفسه الى الولاية ، فأغراهم بابن عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان ، فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم في القصر . ثم بدا للحاكم أن يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيرا من رجال دولة أبيه وجده ، فنضع البربر وقوى الاتراك

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ أكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشاركة ، فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر وكانت أمه أمة سوداء استكثرت في جنود ابنها من العبيد أبناء جلدتها ، حتى بلغوا ألف عبد أسود ، وكان هو يستكثر من الاتراك فأصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ ، وآل التنافس الى حرب شققت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار رجال دولته في الشام ، فأتاه أمير الجيوش بدر الجمالي من سوريا وهو أرمني الأصل فقتل الكثير من أهل الدولة وأقام بمصر جندا من الأرمن ، وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ، ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد أن كانوا وجوهها وأكابر أهلها (١)

وكان السلاجقة في أثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس ، وذهبت دولة آل بويه وضعف أمر الشيعة هناك ، وولى السلاجقة مماليتهم وقوادهم (الأتابكة) على الولايات ، واستقل كل منهم بولايته كما تقدم ، ومنهم نور الدين زنكي في الشام . وكان في جملة قواد نور الدين جماعة من شجعان الأكراد ، منهم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه ، وقد بلغنا عنده منزلة رفيعة ، وكانت خلافة مصر قد أفضت سنة ٥٥٥ هـ الى العاضد بن يوسف ، وكان ضعيف الرأي وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا على

(١) المقرئى ١٢ ج ٢

الاستئثار بالنفوذ ، وطال تنافسهم حتى أخرجوا البلاد والخليفة لا يستطيع
عملا

وكان في جملة المنافسين وزير اسمه شاور ، قد غلب على أمره فذهب الى
نور الدين زنكي واستنجد به على رجل آخر كان ينافسـه في الوزارة وهو
ضرغام ، فاغتنم نور الدين تلك الفرصة للاستيلاء على مصر ، وأنجده بأسد
الدين شيركوه في جند من المماليك ، فرد الوزارة الى شاور وصار هذا يدفع
ثلث خراج مصر الى نور الدين

وكانت الحروب الصليبية في تلك الاثناء قد احتدمت ، فزاد تداخل نور
الدين في شؤون مصر ونائبه فيها شيركوه ، ومعه بن أخيه يوسف بن نجم
الدين ، وهو صلاح الدين الايوبى الشهير . ومات شيركوه بمصر سنة ٥٦٤هـ
فخلفه صلاح الدين في منصب النيابة وهي الوزارة

وكان صلاح الدين من أهل المطامع الكبرى ، فلما قبض على أزمة النيابة،
وهي كالوزارة، ورأى ضعف الخليفة أراد مصر لنفسه وليس لأمره نورالدين .
فلما مات العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، خطب صلاح الدين بالقاهرة للخليفة
العباسى ونقل حكومة مصر من الشيعة الى السنة وقبض على أزمة الاحكام .
واستفحل أمر الصليبيين في تلك الايام فتولى صلاح الدين أمر حربهم وقام
بأعمال لا يزال التاريخ يردد صداها الى اليوم ، أهمها استرجاع بيت المقدس
ومد سلطته على الشام وغيرها . وأنشأ الدولة الايوبية ، وهي كردية الجنس
سنية المذهب ، فعادت مصر الى ظل الدولة العباسية من حيث البيعة فقط
وعمد صلاح الدين ومن خلفه من أهله الى الاستكثار من المماليك الاتراك
والجراكسة للجندية ، على جارى العمادة في تلك الاعصر ، حتى اذا كثروا
استبدوا بشئون الحكومة وطمعوا في السلطة . فلما ضعف أمر الدولة الايوبية
قبضوا هم على أزمة الحكومة وأنشأوا بمصر دولتين ، عرفتا بدولتى السلاطين
المماليك وهما المماليك البحرية والمماليك البرجية ، حكمت الاولى من سنة
٦٤٨ - ٧٩٢ هـ والثانية من سنة ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ وكانتا تبايعان للخليفة
العباسى وهو مقيم في بغداد . فلما جاء التتر وفتحوا بغداد سنة ٦٥٦ هـ
وقتلوا الخليفة (المستعصم) فر من بقى من بنى العباس ، والتجأوا الى
سلاطين مصر على عهد الملك الظاهر بيبرس فاختر واحد منهم قلده الخلافة
وبايعه ، وبهذا انتقلت الخلافة العباسية الى القاهرة ، وظل خلفاء العباسيين
والبيعة لهم حتى جاء السلطان سليم الفاتح العثمانى وفتح مصر سنة ٩٢٣
وكان الخليفة العباسى عامثد المتوكل على الله آخر خلفائهم ، فبايع للسلطان
سليم وسلم اليه الآثار النبوية ، فانتقلت الخلافة من العباسيين الى العثمانيين
من ذلك الحين (*)

(*) اختصر المؤلف الكلام في هذا الفصل اختصارا شديدا ، ويبدو انه اكتفى بذلك في هذا
المقام ، لانه فصل الكلام في تاريخ مصر الاسلامية في كتابه « تاريخ مصر الحديث » في مجلدين،
وهو من كتبه الجيدة ، ويعتبر من أقيم كتبه وحيدا لو نشر نشرة جديدة

العصر المغولي أوليتري

انحلال الدولة الاسلامية

من قيام جنكيزخان سنة ٦٠٢ هـ حتى وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ

قد رأيت فيما تقدم ان الدولة العباسية ، لما فسدت أحكامها وضعف شأن خلفائها واستبد بها جندها وخدمها ، ضعفت علاقة أطراف مملكتها بدار الخلافة ، فتفرعت الى فروع بعضها فارسي وبعضها تركي أو كردي والبعض الآخر عربي ، وكلها تباع للخليفة العباسي في بغداد ، حتى نشأت الدولة الفاطمية في المغرب وخلافتها علوية ، ففتحت مصر ونازعت الدولة العباسية على الشام وغيرها ، ثم أصابها ما أصاب تلك فمالت الى الشيخوخة مثلها ، ولكنها انقضت قبلها على يد صلاح الدين الايوبي ، وعادت مصر الى مبايعة العباسيين

على أن الخلافة العباسية كانت يومئذ قد بلغت منتهى الضعف ، واستبد السلاجقة بمملكتها في الشام والعراق وفارس وما وراء النهر حيناً ، ثم اقتسمها مماليتهم الأتابكة كما تقدم

فانقضى القرن السادس للهجرة والمملكة الاسلامية قد تولاهما الضعف والانقسام ، ولا سيما في المشرق بمن تنازع على سلطتها من الاتراك قواد السلاجقة ومماليتهم ، وأهمهم الخوارزمية في خراسان وتركستان ، والخلافة العباسية قد تناهت في الضعف وبلغت الهرم ، حتى أشرفت على الانحلال ، وإنما استبقاها أصحاب الاطراف ليستعينوا بها على تأييد سلطانهم بالبيعة ، وأصبحت مملكتهم الواسعة تتنازعها ثلاث أمم ، كأنهم اقتسموها فيما بينهم ، وهم : (١) الاتراك السلاجقة وقوادهم في المشرق (ب) والاكراد الايوبية في مصر والشام (ح) والبربر في المغرب والاندلس (الموحدون) . وقد ذهبت دولة العرب ذهاباً تاماً الا امارات صغيرة بقيت في اليمن ونحوها . وهذا الدول على اختلاف أجناسها وأطوارها مجمعة على مبايعة الخليفة العباسي في بغداد على ضعفه وانحلال دولته ، ولكنها تختصم على الاستئثار بالسلط في العالم الاسلامي (*)

(*) الكلام هنا عام ، فان الوضع العام في العالم الاسلامي لم يكن هكذا تماماً خلال القرن الثاني عشر الميلادي الذي ضعف فيه أمر السلاجقة وتفككت دولتهم ، فقد تقاسم المشرق دول الاتراك والتمر وبقايا السلاجقة ، ثم ان الدولة الايوبية لم تكن كردية الا من حيث أصل مؤسسها ، وقد استعان الايوبيون من أيام صلاح الدين نفسه بالعرب والاتراك والمعالبة وهم من أجناس شتى . أما دولة الموحدون فلم تباع للخليفة العباسي ، اذ كان الموحدون أنفسهم خلفاء ، والذين بايعوا للعباسيين هم المرابطون الذين سبقوهم

فلما رأى أعداء الدولة الاسلامية المحيطون بها ضعفها وانقسامها عمدوا الى الانتقام منها فأغاروا عليها من الشمال والغرب والشرق وكل منهم يريد اغتيالها . فهاجمها الكرج والأرمن واللان من الشمال هجوم الغزاة للسلب والنهب ، حتى انهم كثيرا ما كانوا يدخلونها بعشرات الالوف فيكتسحون اذربيجان وما جاورها ، يقتلون وينهبون ويعودون بالأسرى والسببايا والغنائم ، وكانت سبايا المسلمين تزيد أحيانا على عدة آلاف غير القتلى (١) . كما كان العرب يفعلون في أوائل دولتهم . على انهم لم يستطيعوا فتحا ولا رسخت لهم قدم في مملكة الاسلام

وهجم عليها من الغرب أمم الافرنج الصليبيين هجوم الفتح ، وقد تكاتفوا لاكتساح المملكة الاسلامية بحجة الدين لان القبر المقدس فيها ، ففتحوا فلسطين وبعض سوريا وملكوا بيت المقدس حيناً ، ولو اجتمعت كلمتهم لافتتحوا ما وراء ذلك ، ولكنهم انقسموا على أنفسهم وجاءهم صلاح الدين الايوبى ببسالته ودهائه وتدبيره ، فغلبهم على ما فى أيديهم وأخرجهم من بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ فضعف أمرهم وأخذ المسلمون يستعيدون البلاد منهم شيئاً فشيئاً ، حتى أزالوهم من الشام تماماً على أيام الناصر قلاوون

أما من الشرق فجاءها التتر أو المغول بقبائلهم وبطونهم ، وهم فى خشونة البداوة وقوة الابدان ، وقد توفقوا الى رجل شديد البطش وهو جنكيزخان القائد الشهير ، فحمل بهم من أواسط آسيا على العالم المتمدن فى أوائل القرن السابع للهجرة ، وليس للمسلمين يومئذ رجل مثل صلاح الدين ، فدوخ جنكيزخان مملكة الاسلام من أقصى أطرافها الشرقية الى حدود العراق ، غير ما افتتحه من بلاد الهند والصين حتى بلغت مساحة مملكته ٤٠٠.٠٠٠ ميل مربع

المغول

المغول أو المغل قبيلة من التتر كانت تقيم حوالى بحيرة بيقال (أو بيكال) فى جنوبى سيبيريا ، وتاريخهم القديم سقيم ، لأنهم لم يظهروا الا بظهور جنكيز خان فى أوائل القرن السابع للهجرة ، وكانوا قبله مثل سائر القبائل الرحل ، يعيشون بالغزو والنهب والصيد والقنص فى تلك البلاد البعيدة عن التمدن ، وقد كفوا الناس خيرهم وشرهم ولا شأن لهم بين الامم ، لانهم كانوا لا يزيدون على ٤٠.٠٠٠ خيمة ، فاذا حسبنا فى الخيمة عشر أنفس لم يزد عددهم على ٤٠٠.٠٠٠ نفس ، فلما كانت أيام جنكيزخان حمل بهذا العدد القليل من بدو المغول على ما يحيط ببلادهم من الممالك العامرة واكتسحوها فى بضعة عشر عاماً ، كما خرج بدو العرب فى أول الاسلام وافتتحوا مملكتى الروم وفارس فى نحو تلك المدة . وفى الحالين كان النصر للبداوة على الحضارة ، لان المسلمين

(١) ابن الاثير ١٢٨ ج ١١

كانوا في أيام جنكيزخان قد تحضروا وانغمسوا في الترف وانقسموا على أنفسهم ، كما كان الروم والفرس عند ظهور الاسلام - والتاريخ يعيد نفسه

جنكيزخان

كان والد جنكيزخان أميرا على ١٣ قبيلة من المغول ، تحت رعاية الخان الأكبر ملك التتر بعهود متبادلة بينهما . ولد جنكيز خان سنة ٥٤٨ فسموه تموجين وهو اسمه الذي كان يعرف به في نشأته الأولى . وبعد أربع عشرة سنة توفي أبوه فاستخف رؤساء القبائل بتموجين وتمردوا عليه ، وأصبح كل منهم يطالب بالسيادة لنفسه . وكان تموجين شديد البطش من حدائته ، فجمع رجاله وحارب الثائرين وتغلب عليهم ، وهذه أول وقائعه فهابه الناس ، على انه لم يستغن عن استنجد الخان الاعظم ، فأنجده وأكرمه وثبته في اماره أبيه وزوجه ابنته

وكان تموجين قد شب على ظهور الخيل وتعلم رمي النشاب وضرب السيف وأتقن الفروسية بسائر فروعها ، وكان قوى البدن شجاعا صبورا على التعب والجوع والعطش والبرد والأثم ، وعود رجاله على ذلك فاجتمعت كلمتهم على صرته وانقادوا لأمره

ولما علت منزلة تموجين عند الخان هاجت عوامل الحسد في أعضاء أسرته وغيرهم من رجال الدولة ، وكان تموجين قد أغرى الخان بأولئك الامراء فضيق الخان عليهم ، فأوغرت صدورهم فتاروا عليه وشقوا عصا الطاعة وحاربوه وغلبوه ، فاستنجد تموجين فأنجده وأعادته الى كرسيه ومثل بأعدائه ، حتى ألقى سبعين رجلا منهم في الماء الغالي وهم أحياء

فلما ظفر تموجين وأظهر القسوة والشدة خافه حموه وحسده ، وأدرك تموجين ذلك فسعى في اصلاح ما بينهما بالحسنى فلم ينجح ، فعزم على محاربته فتحاربوا فانتصر تموجين فخافه الامراء وحسدوه وحاربوه وكان الفوز له ، فتولى عرش المغول

وحارب تموجين بعد ذلك حروبا فازفيها ، فازداد أمراؤه تعلقا به واحتفلوا بتهنئته احتفالا عظيما في سهل على ضفاف سلنكا ، فاجتمع الامراء والخانات فوقف فيهم خطيبا وكان قوى العارضة فأبدع . ثم جلس على لبادة سوداء ورشوها له هناك ، وأصبحت تلك اللبادة أثرا مقدسا عندهم من ذلك الحين . ثم وقف بعض الحضور وكان من أهل التقوى والنفوذ فقال : « مهما بلغ من قوتك فانها من الله ، وهو سيبأخذ بيدك ويشد أزرك . فاذا فرطت في سلطانك صرت أسود مثل هذه اللبادة ، ونبذك رجالك نبذ النواة » . وفي هذا القول من حرية البداوة والجرأة مثل ما يروونه عن جرأة العرب على

خلفائهم وأمرائهم في صدر الاسلام . ثم تقدم سبعة أمراء أنهضوه باحترام ، وساروا بين يديه حتى أقعدوه على عرشه ، ونادوا باسمه ملكا على المغول . وكان في جملة الحضور شيخ يعتقدون فيه الكرامة والقداسة ، فتقدم وليس عليه كساء وقال : « يا اخوتي ، قد رأيت في منامي كأن رب السماء على عرشه النارى تحدق به الارواح ، وقد أخذ في محاكمة أهل الارض ، فحكم بأن يكون العالم كله لمولانا تموجين ، وأن يسمى جنكيز خان أى الملك العام » . ثم التفت الى تموجين وقال : « لبيك أيها الملك ، فانك تدعى منذ الآن جنكيزخان بأمر الاله » . ولم يعد يعرف بعد ذلك الا بهذا الاسم

فلما تهيأ له تأسيس دولته وتدريب جنده ، عمد الى فتح العالم فسار أولا نحو الشرق الى مملكة الصين ، وكان لامبراطور الصين جزية على المغول يؤدونها كل سنة ، فلما استفحل أمر جنكيز خان أبى الدفع ، ومعنى ذلك الالباء اشهار الحرب . فحمل جنكيز خان بجيشه على الصين واخترق سورها العظيم ، وأمعن فيها قتلا ونهبا ، والصينيون يومئذ أسبق الامم في الاختراعات الحربية ، فاستخدموا النار اليونانية التي استعان بها اليونان على دفع العرب (*) وقذفوا على المغول كرات فيها البارود قبل أن يعرفه أهل الغرب بأزمان . على ان ذلك لم يكن ليرد غارات تلك القبائل ، فما زال جنكيزخان زاحفا حتى احتل بكين عاصمة الصين وسائر بلادها الشمالية . فازداد ذلك الفاتح رغبة وقوة ، فتحول بجنده الجرار نحو الغرب أى غربى بلاده وهى مملكة الاسلام

وكانت المملكة الاسلامية بما وصفناه من الضعف والاختلال ، وقد انقسمت الى عدة ممالك كردية وتركية وفارسية ، وأقربها من بلاد المغول المملكة الخوارزمية من السلاجقة والأتراك ، وسلطانها يومئذ علاء الدين خوارزمشاه ، وكانت سلطة علاء الدين قد امتدت فى أواخر أيامها على معظم العراق العجمى وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وفارس وما وراء النهر وقسم من أفغانستان وبعض الهند . وكانت قسبة تك الدولة مدينة خوارزم ، ومنها سمي سلطانها « خوارزم شاه » ، فحمل جنكيز خان نحو الغرب وجنده يزيد على ٧٠٠٠٠٠ مقاتل ، واكتسح تركستان وما وراءها وأوغل فيها قتلا ونهبا مما تقشعر له الابدان (**)

(*) استخدم الصينيون البارود من أقدم الأزمنة ، وعن الصين أخذه ماركو بولو الى أوروبا ، أما النار اليونانية التي كان البيزنطيون يستخدمونها فكانت خليطا من السوائل السريعة الاشتعال ، يظن أن من بينها البترول ، اخترعه رجل سورى ممن كانوا يخدمون فى الاسطول البيزنطى ، وعن البيزنطيين أخذه العرب فيما بعد وسموه النفط ، وهو غير البترول - على عكس ما يظن - وكان الذين يقومون بتركيبه وقذفه على الاعداء يسمون « النفاطين » (***) انظر عن ذلك كتاب « الدولة الخوارزمية والمغول » للاستاذ حافظ حمدى ، القاهرة

ومما حمله على ارتكاب الفظائع ، انه لما وصل بجنده الى تركستان سير جماعة من التجار الاتراك ومعهم الذهب الى سمرقند وبخارى من بلاد ماوراء النهر (تركستان) ليشتروا له ثيابا للكسوة ، فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك اسمها اترار وهي آخر مملكة خوارزمشاه مما يلي بلاد جنكيز خان . وكان لخوارزمشاه هناك نائب ، فلما جاءت هذه الطائفة من التتر أرسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر ما معهم من الاموال ، فبعث خوارزمشاه يأمر بقتلهم وأخذ مامعهم وانفاذه اليه . فقتلهم وسير مامعهم وكان شيئاً كثيراً ففرقه خوارزمشاه في تجار بخارى وسمرقند وأخذ ثمنه منهم . وعذره في هذه المعاملة أن المغول كانوا قد غزوا كاشغار وبلاساغون وغيرهما من تركستان ، وصاروا يحاربون عساكره ، فلذلك منع الميرة عنهم (*) .

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكيز خان ، حمى غضبه وجمع من الرجال فوق ما كان عنده وحمل على مملكة الاسلام ، وكتب الى علاء الدين خوارزمشاه يقول : « تقتلون أصحابي وتأخذون أموالهم ؟ » تهيأوا للحرب . فاني قادم اليكم بجمع لا قبل لكم به » . فلما قرأ خوارزمشاه الرسالة قتل الرسول وأمر بحلق لحى الجماعة ، وأعادهم الى جنكيز خان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له : « ان خوارزمشاه يقول لك : أنا سائر اليك ولو أنك في آخر الدنيا ، حتى أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك » - فاستخف خوارزمشاه بالمغول كما استخف هرقل بالعرب اذ جاءت كتيبهم في أوائل الاسلام

وقد فعل جنكيزخان كما قال تماما ، فزحف بعساكره على المملكة الاسلامية فدوخوها من بلاد تركستان فما وراءها غربا ، وهم ينتقلون من مدينة الى أخرى يفتكون وينهبون ويحرقون ويهدمون ، لا يخلفون وراءهم الا الاطلال البالية مما لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسان . وهنا يفترق بدو المغول عن بدو العرب ، فان هؤلاء أبقوا على البلاد التي فتحوها وأمنوا أهلها وجعلوهم في ذمتهم ، واقتبسوا تمدنهم وبنوا عليه تمدنا من عند أنفسهم . وأما المغول فلم يكن همهم غير القتل والنهب كالوحوش الكاسرة ، وليس هنا محل الأفاضة في سيرة هذا الرجل (١) وإنما يقال بالاجمال انه تمكن في حياته من انشاء مملكة لم يتوفق لمثلها أحد من الفاتحين قبله ولا بعده ، لا الاسكندر المقدوني ولا يوليوس قيصر الروماني ولا نادرشاه الفارسي ولا نابليون بونابرت الفرنسي - أنشأ مملكة تمتد من البحر المحيط الى البحر الاسود ،

(*) انظر تفصيل ذلك في المرجع المشار اليه ، ص ٧٠ وما يليها

(١) راجع الهلال السادس من السنة الثالثة عشرة

ودخل في سلطانه ملايين من الصينيين والتنكوت والافغان والهنود والفرس والأتراك غيرهم

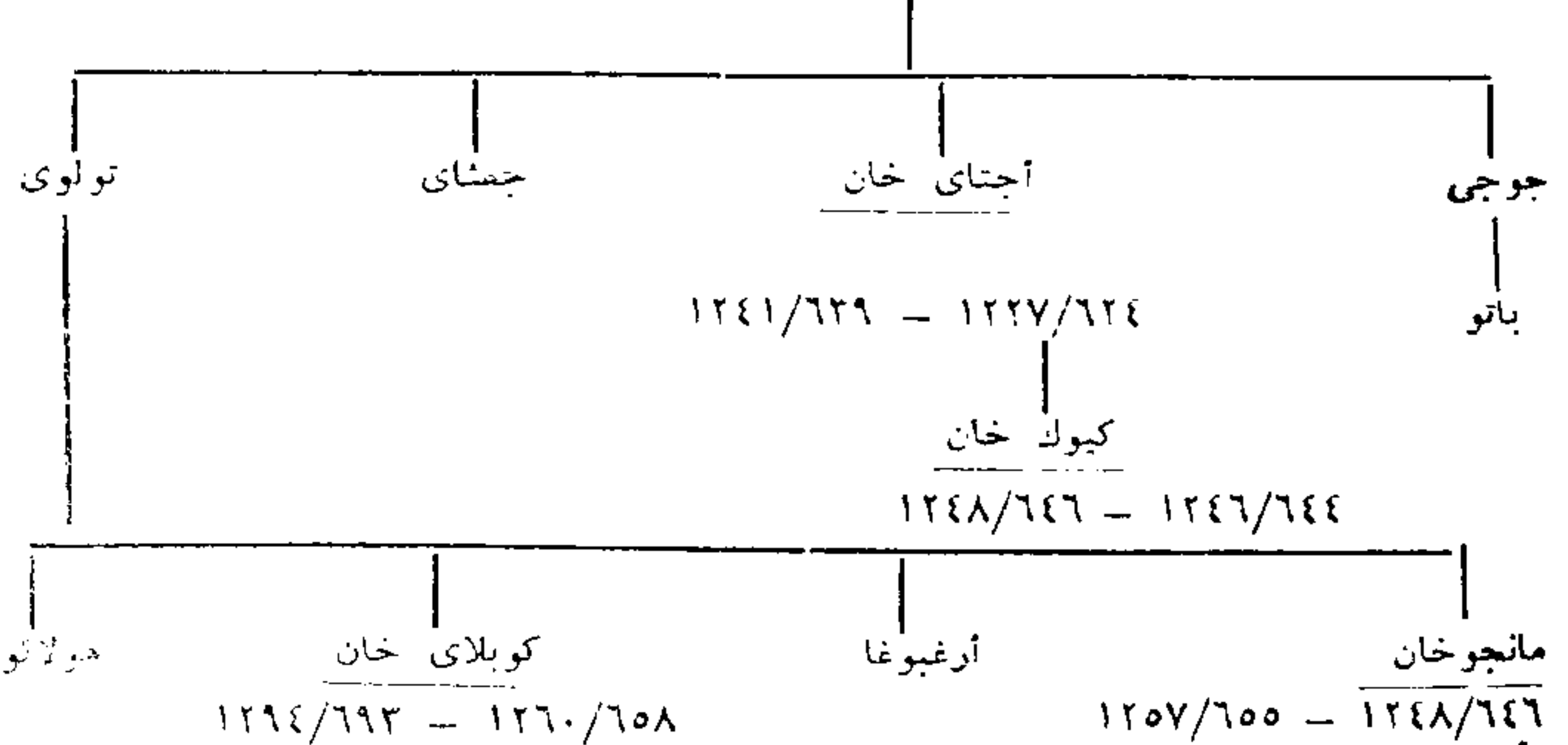
أنشأ جنكيز خان هذه المملكة الواسعة وهو لا يعرف الكتابة ولا القراءة ، وكذلك معظم رجاله ، فاستعان في وضع الشرائع والنظام بمن دخل في سلطانه من المسلمين ورعاياهم ، كما استعان العرب في انشاء دولتهم أول الاسلام بالفرس والروم وغيرهم ، وقد توفي جنكيز خان سنة ٦٢٤ هـ وهو في السادسة والسبعين من عمره بعد أن حكم ٢٢ سنة

وبعد وفاته اقتسم أولاده مملكته على عادة المغول في هذه الحالة ، باعتبار أن البلاد ملكه فيورثها لأعقابه فيقتسمونها كما يقتسمون سائر أمواله ، فانقسمت مملكة المغول بعده الى أربعة فروع تفرقت في أولاده الأربعة ، ثم تفرع كل منها الى غير فرع مما يطول شرحه ، فنكتفي بذكر ما يهمنا منها : ان أولاد جنكيز خان الذي أفضت الحكومة اليهم أربعة : أقطاي وطلوى وجوجي وجقظاي ، فانقسمت المملكة فيما بينهم على ما يأتي ، ويعرف ماوكها بالحقائق وهم :

١	دولة أقطاي في زنجاريا وغيرها (*)	من سنة ٦٠٣ - ١٠٤٣ هـ
٢	طلوى في بلاد المغول	٧٥٤ - ٧٥٠
٣	جوجي في بلاد القفجاق وغيرها	٦٢١ - ٩٠٧
٤	جقظاي في ما وراء النهر	٦٢٤ - ٧٦٠ (**)

(*) زنجاريا ، وتسمى أيضا زنجاريا ، سهول واسعة تقع جنوبي بحيرة بيكال ، وهي تقع الآن في جمهورية منغوليا الداخلية إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، وأهلها مسلمون . وأقطاي يسمى أيضا أجتاي (***) هؤلاء الأربعة هم أولاد جنكيزخان ، واليك تسلسل أولاده ، وقد وضعنا خطا تحت الذين تمكنوا من إعادة وحدة المملكة المغولية وحكمها كما كانت في عهد جنكيزخان

جنكيزخان (١٢٠٦/٦٠٣ - ١٢٢٧/٦٢٤)



ويتبين أن هولانكو الذى دخل بغداد وخرّبها حفيد جنكيزخان وهو أسفر أبناء تولوى وابن أخى كيوك خان
نقلا عن حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول (القاهرة ١٩٤٩) ص ٢٧٦
وابلخانات فارس الذين سيأتي ذكرهم هم هولانكو ومن ولى الملك من أبنائه واحفاده ، وقد دخلوا في الاسلام من عهد ابنه اباقا

فالدولة الاولى (أقطاي) كانت لها السيادة العظمى ، وأول ملوكها جنكيز خان نفسه ولا يهمننا تاريخها في هذا المقام . أما الدولة الثانية فيهمنا من فروعها فرع له شأن في تاريخ الاسلام ، نعى به فرع « هولاکو » وهو ابن طولوى بن جنكيز خان ، تولى بعض المقاطعات في مملكة أبيه واستقل بها ، وملك فارس سنة ٦٥٤ هـ ، وعرفت دولته فيها بدولة ايلخان أو مغول الفرس ، وكان في بلاد فارس بقايا مملكة خوارزمشاه فضمها اليه ، وأقدم على ما لم يقدم عليه أحد من أسلافه - وذلك انه لما استقر له الملك في فارس حمل على بغداد

هولاکو وسقوط بغداد

والسبب في ذلك أن المنافسات بين السنة والشيعة ببغداد تكررت في أواخر الدولة ، فلا تمضى سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة في اصلاحه ، وبما أن الحكومة سنية فالضغط كان يقع غالباً على الشيعة ، وكانوا يقيمون معاً في الكرخ ببغداد وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد ، والحكومة مع ذلك توليهم مصالحها وتعهد اليهم بتدبير شؤونها . وكان الخليفة في أيام هولاکو المستعصم بالله ، تولى الخلافة سنة ٦٤٠ هـ ، وكان ضعيف الرأي ووزيره رجل من الشيعة اسمه مؤيد الدين بن العلقمى ذو دهاء ومكر . فاتفق وقوع فتنة بين السنة والشيعة على جارى العادة ، وكان للخليفة ولد اسمه أبو بكر شديد العصبية على الشيعة ، فاستعان بقائد الجند (الدوادار) وأمر العسكر أن يفتكوا بالشيعة ، فهجموا على الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش ، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمى ولم يعد يستطيع صبراً ، فكتب الى هولاکو سرا وأطمعه في ملك بغداد ، وأرسل اليه أخاه ليحرضه على القدوم ، فزحف هولاکو على بغداد بجيش عظيم . فلما علم الخليفة المستعصم بقدومهم ، بعث الدوادار فيمن بقى ببغداد من الجند بهم لا يزيدون على ٢٠٠٠٠ مقاتل ، فالتقى الجيشان على مرحلتين من بغداد فانهزم عسكر الخليفة وتشتت

أما هولاکو فأقبل حتى نزل الجانب الشرقى من بغداد ، وأرسل قائداً من قواده نزل الجانب الغربى قبالة دار الخلافة ، والمستعصم لا يعلم بما دبره ابن العلقمى ، فأنفذه لمخابرة هولاکو بشأن الصلح ، فكمل مكيدته وعاد وقال للخليفة : « ان هولاکو يبيحك في الخلافة كما فعل بسطان الروم ، ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبى بكر » . وحسن له الخروج الى هولاکو ، فخرج اليه في جمع من أكابر أصحابه ، فأنزلهم في خيمة ، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل ، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد . فلما اجتمعوا أمر

هولاكو بقتلهم فقتلوا ، ثم بذلوا السيف في بغداد ، وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ، الا الاطفال فأخذوهم في جملة الاسرى والسبي . ودام القتل والنهب في دار السلام أربعين يوما ، ثم نودي بالامان ودخلت بغداد في سلطة هولاكو سنة ٦٥٦ هـ وذهبت الخلافة العباسية من العراق على يد الشيعة العلوية ، كما كان يخاف ذهابها المنصور والمهدى والرشيد ، وقد نكبوا وزراءهم وقوادهم خوفا من ذلك . على ان الخلافة العباسية لم تنقرض تماما ، بل انتقل من بقى من العباسيين بعد مذبحه هولاكو الى مصر ، وأقاموا في ظل السلاطين المماليك كما تقدم

أما هولاكو فلما ملك عاصمة الاسلام في ذلك العهد طمع في فتح ما وراءها ، فحمل على الشام وكانت في حوزة السلاطين المماليك بعد الدولة الايوبية فردود عنها ، ففجع بما دخل في حوزته ، وقد امتدت مملكته من الهند الى الشام وأورثها لاولاده ، فانقضت دولته ولم يتم عليها القرن «٦٥٤ - ٧٥٠ هـ» وانقسمت الى ولايات صغيرة مازالت في اضطراب وتضعض حتى أخضعها تيمور لنك

تيمور لنك

ينسب هذا القائد العظيم الى دولة جنكيز خان . وليس هو من نسله ولكنه من عائلته ، وكان جده وزيراً عند جقطاي بن جنكيز خان . ولد تيمور سنة ٧٣٦ هـ ، ولما ترعرع تولى بعض الاعمال في دولة اقطاي في ما وراء النهر ، ثم فرقى الى رتبة الوزارة فطمع في الملك ، فغلب على ملكه محمود وحمل على العالم كما حمل جنكيز خان قبله ، ففتح بلاد فارس بعد حروب كثيرة سفكت فيها دماء غزيرة ، ولم تمض سبع سنوات حتى دوخ خراسان وجرجان ومازندران وسجستان وأفغانستان وفارس وأذربيجان وكرديستان ، ثم جاء العراق فاستخرج بغداد من الجيلارية وكانوا قد تملكوها بعد هولاكو ، ثم حول أعنة خيوله شرقاً نحو الهند، فغزا كشمير ودلهي، وتحول غرباً لفتح آسيا الصغرى وكانت في حوزة العثمانيين وسلطانهم يومئذ بايزيد ، فبلغ تيمور لنك في فتوحه الى أنقرة وحارب بايزيد وأسره سنة ٨٠٤ هـ واكتسح سائر بلاد المشرق الى آخر حدود الشام ، وبايعه سلاطين مصر على الطاعة ، فتحول لمحاربة الصين فمات في الطريق سنة ٨٠٧ هـ قبل أن ينظم حكومته ، فذهبت فتوحه هدراً فعادت البلاد التي فتحها الى ملوكها الاولين ، وعادت الاحوال الى ما كانت عليه قبله . على ان الدولة التيمورية طال حكمها في ما وراء النهر الى سنة ٩٠٦ هـ ، وبوفاة تيمور لنك ينقضي العصر المغولي ، وبانقضائه ينقضي الدور الاول من تاريخ الاسلام

الدور الثاني

من ظهور الدولة العثمانية ولا يزال

قد رأيت أن المغول لم ينشئوا دولة ثابتة في بلاد الإسلام ، ولم يكن لهم شأن في التمدن الإسلامي ، وانما علاقتهم بهذا التمدن انهم جاءوه والدولة الإسلامية في آخر دورها الاول ، وفي منتهى التضعف والضعف بمن حمل عليها من الافرنج والكرج والارمن واللان ، فزادوها ضعفا وذهبوا ببقية الخلافة العباسية في بغداد ، وعادوا عنها وهي تكاد تكون في حال الاحتضار ، وقد تبدد شملها وليس فيها دولة حية تجمع شتاتها ، على أن ذلك كان مقدورا للدولة العثمانية في العصر التركي الثاني ، ولدولة شاهات الفرس في العصر الفارسي الثاني ، ويتألف منهما الدور الثاني من تاريخ الإسلام . فعاد التتر عن المملكة الإسلامية في أوائل القرن التاسع للهجرة ، ومصر في حوزة السلاطين المماليك يتنازعون على السلطة ويتخاصمون على الكسب . والشام بعضها في أيدي أولئك المماليك . وبعضها في أيدي بعض أعقاب الأيوبيين ، حتى يكاد يكون كل بلد مستقلا بنفسه . والعراق وبلاد الفرس وما بين النهرين يتنازع عليها الأيلخانية والجيلارية والمظفرية والقراقيونلية والتمورية وغيرهم . وما وراء النهر وأفغانستان في سلطة المغول التيمورية . وآسيا الصغرى يتنازعها العثمانيون وبقايا السلاجقة . وسائر بلاد المشرق يختصم عليها بقايا التتر أو بقايا الاتابكة . وشمال أفريقيا كان منقسما بين المرينية والحفصية . والاندلس لم يبق منها في سلطة المسلمين إلا الدولة النصرية في غرناطة . وجزيرة العرب تحكمها امارات صغيرة تتحارب وتتعادى . وهذه الدول مع ضعفها واختلال أحوالها تجمعها خلافة أضعف منها ، هي بقية الخلافة العباسية في الديار المصرية

تلك كانت حال العالم الإسلامي من الاضطراب والتضعف عند تغلب الدولة العثمانية ، فجاءت في ابان الحاجة اليها فافتتحت القسطنطينية ، وقد يس المسلمون من فتحها بعد أن حاولوه مرارا . وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوروبا وطاردهم الى بلاد المجر ، وحاصروا فينا عاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الارشيدوق فردينان ، واكتسحوا البحر الابيض الى شواطئ أسبانيا ، فارتعدت أوروبا خوفا منهم ، وفتحوا المشرق الى العراق ، ثم ساروا جنوبا غربيا حتى فتحوا الشام ومصر ، وفيها بقية الدولة العباسية ، فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة كما تقدم . فامتدت مملكتهم في أيام السلطان سليمان «سنة ٩٢٦ - ٩٧٤ هـ» من بودابست على ضفاف الطونة الى أسوان على ضفاف النيل ، ومن

الفرات بالعراق الى مضيق جبل طارق ، فاجتمع العالم الاسلامى الغربى تحت جناح الدولة العثمانية . وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيها سببا لطول بقائها أكثر مما تقدمها من الدول الاسلامية ، حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم ، لان سلطتهم أصبحت بعد القرن الثالث من انشاء دولتهم اسما بلا رسم ونهض الصفويون من الجهة الاخرى فى بلاد فارس وبين النهرين فأنشأوا دولة شيعية كبرى ، ثم انتقلت الى الدولة القاجارية وجمعت البلاد الشيعية كما جمعت الدولة العثمانية البلاد السنية (*)

(*) الى هنا ينتهى المؤلف من ذلك الجزء الذى خصصه لنشوء الدولة الاسلامية وتاريخها السياسى ونظمها الادارية ، وقد شاء أن يجعله تاريخا عاما فأتسع المجال أمامه وافاض فى عصور الراشدين والامويين والعباسيين ، واستنفذ فى ذلك معظم الجزء ، ثم اراد ان يضبط الحوادث والنظم ابتداء من العصر العباسى الثانى الى عصره (قبل الحرب العالمية الاولى) فأعـبـوزه المجال ، ومر بنحو تسعة قرون من تاريخ الاسلام مرا سريعا ولكنه مفيد . وربما كان عذره فى ذلك أن هذه الاعصر لم تدرس بعد ، وخاصة فيما يتصل بدول الاسلام فى آسيا ، فان مراجع تاريخها لم ينشر معظمها ، وما نشر منها لم يدرس بعد ، والكثير منها الى ذلك فارسى او تركى او مغولى ، مما نرجو ان يوفق الى دراسته والتمكن منه نفر من الباحثين المحدثين . أشفت الى ذلك ان طموحه شاء ان يتناول غرب مملكة الاسلام أيضا ، فتحدث عن دول المغرب والاندلس ، وهذه بدورها ميدان فسيح لانزال نحاول الامام بأطرافه وسبر أغواره ، فجاء حديثه عن هذا الجناح الغربى من عالم الاسلام حديثا مختصرا ، ولكنه ينفع القارئ الراغب فى الامام وتكوين فكرة عامة عن تطور دولة الاسلام . أما دول المماليك فقد تحدث عنها بأسهاب فى كتاب آخر قيم له اختصه بتاريخ مصر العام ، جعل عنوانه « تاريخ مصر العام » وهو فى جزأين حافلين بالمادة الطيبة ، فعلى الذين يريدون دراسة تواريخ الدول المصرية كما يرونها العلامة جرجى زيدان ان يقرأوا ذلك الكتاب

فهرس

صفحة	الموضوع
٥	هذا الجزء
٧	مقدمة الطبعة الاولى
٨	موضوع هذا الجزء
العصر العربي الاول	
١٤	تمهيد في العرب قبل الاسلام
١٤	البدو والحضر
١٦	العصبية العربية قبل الاسلام
١٧	أنساب العرب
١٩	عصبية النسب
٢٠	العرب والعجم قبل الاسلام
٢١	الأمومة واخوة
٢٣	توابع العصبية العربية : الحلف
٢٤	الاستلحاق
٢٥	الخلع
٢٦	العبيد في الجاهلية
٢٧	العبيد عند العرب
٢٨	الموالي في الجاهلية
٣٢	النزلة الاجانب في الجاهلية
٣٢	الاناء
٣٣	سياسة الدولة في الجاهلية
٣٤	مناقب العرب في الجاهلية
٣٤	الوفاء
٣٥	الجوار
٣٦	الاربية
سياسة العرب في عصر الراشدين	
٣٨	الجامعة الاسلامية
٣٩	الجامعة العربية

صفحة	الموضوع
٤٠	الانسياس في الارض
٤٢	طبقات عربية اسلامية
٤٤	سياسة الخلفاء الراشدين
٤٤	أبو بكر
٤٥	عمر بن الخطاب
٤٦	عثمان بن عفان
٤٦	علي بن أبي طالب
٤٨	انتشار العرب في الارض
٥٠	الاستكثار بالتناسل
٥٠	انتشار العرب بالفتح
٥٢	انتشار العرب بالمهاجرة
٥٤	العبيد والموالي في الاسلام
٥٤	الرق في الاسلام
٥٨	الموالي في الاسلام
سياسة الدولة في عهد الامويين	
٦١	انتقال الخلافة الى الامويين
٦٣	معاوية وعلي
٦٥	رغبة بني أمية في السيادة
٦٥	العصبية العربية في عصر الامويين
٦٥	العرب وقريش
٦٧	القبائل اليمنية والمضرية
٦٩	عصبية العرب على العجم
٦٩	العرب والموالي
٧٢	آثار بني أمية في الاسلام
٧٣	العصبية الوطنية في عصر الامويين
٧٣	تحضر العرب بعد الفتح
٧٥	تعصب المدن الاسلامية بعضها على بعض
٧٧	اصطناع الاحزاب في عصر الامويين
٧٧	سياسة معاوية
٨٠	عمرو بن العاص
٨١	بذل المال في عصر الامويين
٨١	العطاء من بيت المال

صفحة	الموضوع
٨٥	تدقيق علي وبخل ابن الزبير
٨٦	الاستكثار من الأموال في عصر الأمويين
٨٧	عمال بنى أمية
٨٧	الاسلام والجزية
٨٩	الصدقة والرشوة
٩٠	الاستخفاف بالدين وأهله
٩٠	استهانة بعض الامويين بالمقدسات
٩١	الخلافة والنبوة في رأى بعض العمال
٩٣	الفتك والبطش في عصر الامويين
٩٤	بسر بن ارطاة وقتل الاطفال
٩٦	خزانة الرؤوس

الموالي وأحكامهم في عصر الامويين

٩٩	نقمة الموالى على العرب
١٠١	زواج الموالى بالعربيات
١٠٣	أهل الذمة وأحكامهم في عصر الامويين
١٠٦	العهد النبوية
١٠٧	عهد عمر
١٠٩	نسبة هذا العهد الى عمر
١١١	عهد عمر ومناقبه
١١٣	نصارى الشام وقيصر الروم
١١٦	الامويون وأهل الذمة
١١٨	الخلاصة

العصر الفارسى الاول

١٢٣	انتقال الخلافة الى العباسيين
١٢٣	الشيعة العلوية
١٢٥	الشيعة العباسية
١٢٦	بيعة المنصور للعلويين ونكته

سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم

١٣٠	المنصور والدولة العباسية
١٣٣	سياسة الدولة العباسية في معاملة الرعية
١٣٣	الموالى الفرس
١٣٤	الفرس والعرب قبل الاسلام

صفحة	الموضوع
١٨٥	أمهات الخلفاء
١٨٧	فساد الاحكام في الدولة العباسية
١٨٧	التنازع على النفوذ
١٨٨	أنواع المصادرة ومقاديرها
١٩٠	ابتزاز الاموال
١٩١	الجاسوسية والصوصية
١٩٢	تفرق المملكة العباسية
الدول الفارسية في ظل العباسيين	
١٩٤	الدول الصغرى
١٩٥	دولة آل بويه
الدول التركية في ظل العباسيين	
١٩٧	الدول الصغرى
الدولة السلجوقية وفروعها	
٢٠٠	انتقال المملكة السلجوقية الى الاتابكة
٢٠١	سلاجقة الروم
٢٠٢	الدول الكردية في ظل العباسيين
٢٠٢	الدول الصغرى
٢٠٢	الدول الايوبية
الخلافة والسلطة	
٢٠٦	الخلافة لازمة للسلطة المطلقة
٢٠٨	الخلفاء والفقهاء
٢١١	الدولة الاسلامية والخلافة
٢١٢	الخلافة في غير قریش
العصر العربي الثاني	
٢١٦	الامارات العربية والعنصر العربي
سياسة بنى أمية في الاندلس	
٢٢٣	الصقالبة
٢٢٤	ملوك الطوائف بالاندلس
الدولة الفاطمية	
٢٣٠	الشيعة في المغرب
٢٣١	الشيعة في مصر
٢٣٢	سياسة الدولة الفاطمية
٢٣٣	أدوار الدولة الفاطمية

صفحة	الموضوع
١٣٥	استخدام الموالي الفرس
١٣٧	أهل الذمة في الدولة العباسية
١٣٩	اضطهاد أهل الذمة في العصر العباسي
١٤٢	تعصب العامة على النصاري
١٤٤	تحاسد النصاري
١٤٨	العصبية العربية في العصر العباسي
١٤٨	سياسة التقسيم
١٥١	ذهاب عصبية العرب بذهاب دولة الامين
١٥٣	الشعوبية والعرب
١٥٥	نكبة الوزراء الفرس
١٥٥	الوزراء الفرس قبل البرامكة
١٥٦	الوزراء البرامكة ، مرتبتهم في الدولة
١٦٠	نكبة البرامكة
١٦٢	الشيعة العلوية بخراسان
١٦٣	الرشيد وجعفر
١٦٦	الامين والمأمون (أو العرب والفرس)
١٦٨	الفضل بن سهل وعلى الرضا
١٧١	الاسرار في الدولة العباسية
١٧٢	اختلاط الانساب بعد الاسلام
١٧٢	أبناء الاماء
١٧٣	الخلفاء الهجناء

العصر التركي الاول

١٧٦	الاتراك القدماء
١٧٦	الاتراك بعد الاسلام
١٧٧	الجند التركي في الدولة العباسية
١٧٧	المعتصم والاتراك
١٧٩	الجند التركي ومصالح الدولة
١٨١	الخدم ونفوذهم في الدولة العباسية
١٨٢	سبب نفوذهم
١٨٣	فرق الخدم وطبقاتهم
١٨٤	القواد والوزراء من الخدم
١٨٥	تأثير النساء في سياسة الدولة

الموضوع

صفحة

العصر المغولي أو التتري

٢٣٨	انحلال المملكة الاسلامية
٢٣٩	المغول
٢٤٠	جنكيز خان
٢٤٤	هولاكو وسقوط بغداد
٢٤٥	تيمور لنك
	الدور الثاني
٢٤٦	من ظهور الدولة العثمانية ولا يزال

